

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة ابن خلدون تيارت
كلية الآداب واللغات والفنون
قسم اللغة العربية وآدابها



حضور البلاغة الجديدة في البلاغة العربية (قراءة مقارنة بين الآليات والإجراء)

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه

إشراف الأستاذ الدكتور:
- زروقي عبد القادر

إعداد الطالبة:
- بلعربي شهرزاد

أعضاء لجنة المناقشة:

أ.د. بوزيان أحمد	أستاذ التعليم العالي	جامعة ابن خلدون - تيارت -	رئيسا
أ.د. زروقي عبد القادر	أستاذ التعليم العالي	جامعة ابن خلدون - تيارت -	مشرفا و مقورا
أ.د. عقاق قادة	أستاذ التعليم العالي	جامعة سيدي بلعباس	مناقشا
أ.د. إبراهيم عبد النور	أستاذ التعليم العالي	جامعة بشار	مناقشا
د. قوتال فضيلة	أستاذ محاضر "أ"	جامعة ابن خلدون - تيارت -	مناقشا
د. عطار خالد	أستاذ محاضر "أ"	المركز الجامعي تيسمسيلت	مناقشا

السنة الجامعية

2018م / 2019م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

مقدمة:

شكلت البلاغة قديما وحديثا لاسيما بلاغة الحجاج بؤرة التقاء المهتمين بالخطاب ووظائفه، حيث احتلت في الدراسات المعاصرة حيزا هاما، ذلك لأن الحجاج من الموضوعات التي تركز على الخطاب والذي أضحي يشكل وسيلة في إيصال الأفكار، وتحقيق التوافق بين المخاطب والمستمع، فهو أداة فعالة في مناقشة الأفكار وتمريها وتبديد المالبسات قصد الإقناع؛ أي حمل عقول المتلقين على الإذعان والتسليم المبني على أسس منطقية، باعتماد آليات خطابية حجاجية توجه إلى المستمع فتقنعه بالحجة العقلية أو باستمالة عواطفه وجذب اهتمامه.

بناء على ذلك أصبحت بلاغة الحجاج مطلبا أساسيا تستدعيه التحولات التي يشهدها العالم المعاصر بفضل تكنولوجيا الاتصال والانفتاح الثقافي على العالم الرقمي المشحون بطاقات مختلفة أفرزتها التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والحضارية بصفة عامة. لا مناط لذلك إلا للخطاب الحجاجي بما يمتلكه من قدرات على ضبط الخطاب عامة من حيث إنتاجه وطاقته الفعالة في تسخير الآليات المتنوعة لإحداث التأثير، والإقناع. بهدف إعادة الاعتبار للبلاغة و تحقيق المطمح السامي في إنشاء البلاغة العامة التي تشمل جميع أنواع الخطاب في مختلف الثقافات الإنسانية.

إن بلاغة الحجاج تهدف إلى الإقناع، وإن آلياتها وطريقة توظيفها تمكنها من أن تحتوي كل الخطابات، مهما كان موضوعها ومهما كانت وجهتها، فهي تستمد خصائصها وقيمتها الحجاجية من كل حقل تعمل في إطاره، في المقابل يمنحها القدرة للتأثير فيه، من هنا فإن النظرية الحجاجية عرفت تطورات كثيرة وتفريعات عدة، لكن تبقى بلاغة "بيرلمان" هي الحقل الأول الذي وضعت بلاغة الحجاج بذرتها الأولى وترعرعت ونمت فيه ، ومهما تطورت واتسعت النظريات الحجاجية إلا أنها تبقى تدين لبلاغة "بيرلمان" في أسس ومكونات بنائها، لذا قيدنا دراستنا لموضوع البلاغة الجديدة في حدود بلاغة "بيرلمان"، حتى نتمكن من أن نستوفي عناصر بلاغة الحجاج في المنجز البلاغي العربي "القديم، و المعاصر".

إن هذا الطموح في تعميم البلاغة الحجاجية وجعلها تأخذ الصدارة في مقاربات الخطاب امتد أفقه للبلاغة العربية المعاصرة منذ أن التقت بالبلاغة الجديدة في أصلها الأول الغربي ، إذ تكون لديها الوعي التام بأهمية بلاغة الحجاج في الرفع من مستويات الخطاب وانتقال البلاغة من قيود التقعيد

مقدمة

الذي مورس عليها زمنًا طويلًا بعد "السكاكي" إلى بلاغة جديدة تشغل إمبراطورية كبيرة تضم جميع عناصر الخطاب وأنواعه المختلفة وكذا أنماطه، هدفها الإقناع والتأثير وكشف المغالطات وتدبير الاختلاف وتصحيح الأخطاء وتمرير الأفكار في جو يعمه الاستدلال العقلي الصحيح الهادئ الرزين.

إن بلاغة الحجاج رغم أنها استهوت البلاغة العربية المعاصرة إلا أنها تصادمت مع عدد من الإشكاليات أثناء الالتقاء بها، أهمها قابلية خصائص البلاغة العربية في استيعاب الآليات الحجاجية وكيفية التفاعل معها، في ظل التراث البلاغي العربي الزاخر الذي لا يمكن لأي باحث عربي إغفاله أو مجانبته لما يمدده هذا الأخير من مقومات بلاغية تدخل جلها في صميم الحجاج، إن هذا البعد التصادمي، شكل نقطة اختيار هذا البحث، فحاولنا الإحاطة بالجوانب المتعددة التي تمحضت عن اتصال البلاغة العربية المعاصرة بالبلاغة الجديدة الغربية التي تعود أصولها لخطابة "أرسطو"، وباعتبار أنها بلاغة وافدة عن الغرب فهي تحمل الكثير من المعطيات التي قد تختلف وقد تتفق مع نظيرتها العربية، مما فرض علينا قراءة التراث البلاغي اليوناني لفهم البلاغة الغربية الجديدة هذا من جهة، ومن جهة أخرى قراءة التراث البلاغي العربي والوقوف على الآليات الحجاجية التي سبق للبلاغة العربية القديمة دراستها واستثمارها وربطها بآثارها الإقناعية، ومن كل هذا أمكننا استقراء البلاغة العربية المعاصرة وكيفية تشغيلها للآليات الحجاجية. مركزين في كل ذلك على تماسكها ببلاغة الحجاج عند "بيرلمان".

بالإضافة لهذا السبب الرئيسي هناك أسباب أخرى شكلت حافزا قويا في خوض هذه الدراسة، إذ له علاقة مباشرة بموضوع الماجستير -تحيديا- الذي عاجلت فيه آلية "الاستدلال" وهي من آليات التخاطب الحجاجي؛ بل من بين أهم الآليات التي تركز عليها البلاغة الجديدة، و التي ترفعها إلى مصاف العلوم الإنسانية العالمية، إضافة إلى أن البلاغة الجديدة أضحت من الموضوعات البلاغية الأكثر اهتماما من قبل المختصين "بلاغيين ونقاد" العرب معاصرين، إذ احتلت صدارة موضوعاتهم سواء على المستوى الأكاديمي مثل البحوث، الرسائل الجامعية، المخابر والمؤتمرات، أو على مستوى الإنتاج البلاغي مثل: عناوين الكتب ومقالات المجلات العلمية.

بهذا تأتي قراءتنا المتواضعة مصاحبة ومدعمة بقراءات نقدية بلاغية عربية جلية تطلع إلى الإحاطة بالإنتاج البلاغي العربي، سعيا منها إلى خدمة الدرس البلاغي العربي والرفع من مستواه بربطه

مقدمة

بالبلاغة الجديدة، فهناك بعض المتخصصين الذين ركزوا دراساتهم على موضوع الحجاج وأولوه عناية خاصة، نذكر أبرزهم "د: محمد العمري" إذ يعتبر من أهم رواد الفكر البلاغي في العالم العربي الذي سعى على مدار عقدين من الزمن أن يؤسس مدرسة عربية بلاغية معاصرة تجمع بين الموروث البلاغي العربي وبين البلاغة الغربية الوافدة، تكشف عن ذلك أهم مؤلفاته "البلاغة العربية أصولها وامتداداتها"، "في بلاغة الخطاب الإقناعي"، "البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول"، "أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة"، "دائرة الحوار ومزالق العنف"، وغيرها من المؤلفات، والعديد من المقالات التي رسمت منذ البداية منحى جديدا، فتح أفق الأبحاث في بلاغة الحجاج، وقد حاولا كل من "محمد سالم محمد الأمين الطلبة"، في "الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر" وكذا "د: حسين بنو هاشم، في مؤلفيه "نظرية الحجاج عند شايم بيرلمان"، "بلاغة الحجاج الأصول اليونانية" رصد جوانب من محطات مختلفة للبلاغة الجديدة، فمن خلال هذه القراءات تراءى لنا موضوع بحثنا، وهو أن نعيد تتبع مسار بلاغة الحجاج عبر مسارها الطويل وإعادة طرح السؤال من جديد، الذي يبحث في البدايات ويقف على المنجزات ويستكشف نقاط الاتفاق والاختلاف.

مما لا شك فيه لقيت هذه الدراسة صعوبات، والتي من أبرزها صعوبة حصر بلاغة الحجاج عند "بيرلمان" بعد التطور الذي شهدته هذه البلاغة منذ نشأتها، لكون بلاغة الحجاج عند "بيرلمان" حقلا تتداخل في تكوينه عدة حقول معرفية منها: الفلسفة، المنطق، علم النفس. ومن ثم صعوبة العمل على تكيفها مع البلاغة العربية عامة، خاصة أن البلاغة العربية، هي الأخرى تمتد عبر زمن طويل تعاقبت على مدارها عدة مستجدات، ساهمت في تكوين إنتاج علمي، لغوي حافل بعدة منجزات بلاغية كان لها الأثر الواضح في التحولات التي عرفتها البلاغة العربية، وكذلك الاضطراب المنهجي الذي تعاني منه البلاغة العربية القديمة الذي زاد من صعوبة المهمة.

أضف إلى ذلك أن بلاغة "بيرلمان" في أغلب المنجز البلاغي العربي المعاصرة لا تقتصر عليها دراسة واحدة، إذ نجد حقولا بلاغية أخرى تشاركها البحث والدراسة، وفي الحقيقة أن هذا الأمر فرض على البلاغة العربية المعاصرة فرضا، لأن هذا التداخل موجود في أصل بلاغة الحجاج عند الغرب وكذا لأن الحقول البلاغية الجديدة هي تفرعات وإفرازات عن بلاغة الحجاج عند "بيرلمان"، لكن ما ألزمتنا به بحثنا من ضرورة التقييد ببلاغة "بيرلمان" هو الذي خلق لنا هذه الصعوبة في الضبط والتقيق.

مقدمة

من هذا المنطلق تبلورت إشكالية بحثنا كآآتي:

ما مدى علاقة البلاغة العربية المعاصرة " البلاغة الجديدة" بالبلاغة العربية "القديمة والمعاصرة؟

طرحت هذه الإشكالية عددا من الأسئلة، استوقفنا أثناء البحث فرضت نفسها بإلحاح تنتظر أن تجد إجابات لها من خلال هذه القراءة المقارنة أهمها:

- 1- كيف تضرب جذور نظرية الحجاج في التاريخ اليوناني وما تداعيات ارتقائها وانحطاطها؟
 - 2- ما هي المفاهيم والأسس التي قامت عليها البلاغة الجديدة بعد بعثها من جديد على يد مؤسسها "بيرلمان"؟
 - 3- ما هي ملامح آليات نظرية الحجاج في الدرس البلاغي التراثي العربي، وما هي الدوافع اهتمام البلاغيين العرب بالآليات الحجاجية؟
 - 4- هل ثقافة الخطاب الحجاجي متأصلة في الثقافة العربية، أم أنها ثقافة جديدة اكتسبتها البلاغة العربية من خلال تطورها وامتزاجها بالثقافات الوافدة إلى الفكر العربي الإسلامي خاصة الخطابة اليونانية؟.
 - 5- كيف استطاع البلاغيون العرب توظيف آليات الحجاج وتفعيلها في الخطاب البلاغي العربي؟
 - 6- ما هي مميزات الخطاب الحجاجي العربي القديم وما هي القواسم المشتركة بينه وبين خصائص البلاغة الجديدة؟
 - 7- ما موقع البلاغة العربية المعاصرة من البلاغة الجديدة أهو موقع تصادم، أم تفاعل و تجديد؟
 - 8- ما هي آفاق البحث البلاغي العربي المعاصر في ظل بلاغة الحجاج؟
- للإجابة على هذه التساؤلات قسمنا البحث إلى مدخل وثلاثة فصول:

تناولنا في المدخل الموسوم ب " الجذور اليونانية للبلاغة الجديدة" طبيعة الفكر اليوناني الذي صنعته ظروف التحرر والديمقراطية وحب السلطة وأثر ذلك في نشأة وتطور وسائل إنتاج الخطاب

مقدمة

ومحاولة تقنينها على يد أرسطو إلى غاية مرحلة تدهور البلاغة في الفكر الغربي، بعد انغلاق الفكر التحرري واختزال البلاغة في الزخرف اللفظي.

أما الفصل الأول المعنون ب " البلاغة الجديدة عند "بيرلمان" المفهوم والبناء" فطرحنا فيه أهم المفاهيم التي قامت عليها البلاغة الجديدة، على مائدة البحث من خلال استقراء مكوناتها الرئيسية وآليات اشتغالها وبنائها وطريقة توظيفها وأهم خصائصها ومقوماتها وكيفية تفاعلها مع الحقل المعرفي الأخرى، ففي المبحث الأول منه: تم الوقوف على العوامل المساهمة في عودة بلاغة الحجاج إلى المشهد البلاغي الخطابي وكيفية تربعها على أنظمة الخطاب الأكثر تداولاً وتأثيراً في العالم المعاصر، أما في المبحث الثاني ركزنا بحثنا على بلاغة الحجاج عند "بيرلمان" وما هي الدوافع التي قادته إلى الاهتمام ببلاغة الحجاج فشكلت لديه المنطلقات والأسس، لنصل في المبحث الثالث: الذي خصص لاستقراء الآليات الحجاجية عند "بيرلمان".

في الفصل الثاني المعنون " حضور آليات الحجاج في التراث البلاغي العربي" استدعت الدراسة فيه أن نقسمه إلى ثلاثة مباحث رئيسية، ففي المبحث الأول: ألقينا نظرة على المشهد البلاغي العربي القديم عامة من ناحية دوافع نشأة وتطور دراسة البلاغة العربية ومحاولة الربط بين هذه الدوافع وبين الملامح الحجاجية في التراث البلاغي العربي، وانتقلنا في المبحث الثاني: إلى دراسة أهم مميزات الفكر الحجاجي في التراث البلاغي العربي من خلال محاولة إلقاء الضوء على المقومات الحجاجية التي مثلت سبقاً عربياً في هذه المجال، فقد كانت محورا رئيسيا وشرطا من شروط إنتاج الخطاب البلاغي كالحضور المعرفي والأخلاقي للخطيب ومن جانب آخر إعطاء موقع خاص لحال المستمع في توجيه الكلام، ولا يمكن تجاهل أهمية المقام في إنتاج الخطاب وأثره في الإقناع أما في المبحث الثالث: فحاولنا البحث عن أهم مظهرات الآليات الحجاجية في البلاغة العربية القديمة، كأنواع الحجج خاصة الاستعارة بفضل الدور الإقناعي المهم الذي أولته البلاغة العربية لها، مع تفسير حضور هذه الآليات دون غيرها في البلاغة العربية القديمة.

في الفصل الثالث المعنون ب "موقع البلاغة العربية المعاصرة من البلاغة الجديدة" يمكن القول أنه أتى محاولة لاستقراء البلاغة العربية المعاصرة من خلال الوقوف على عوامل التأثير ببلاغة الحجاج من جهة، ومن جهة أخرى ما الذي استطاعت البلاغة العربية المعاصرة أن تحتفظ به لنفسها من التراث

مقدمة

البلاغي العربي وتدعم به مسارها الحدائي التطويري، وتصنع بذلك بلاغة جديدة عربية لها مميزاتها العربية العريقة مع إمكانية التوافق ومقتضيات العصرنة والعمولة، لذا استدعى هذا الفصل تقسيمه إلى ثلاثة مباحث أولها: تلقي البلاغة العربية المعاصرة بلاغة الحجاج فتطرقنا إلى أهم إشكالية تعاني منها كل النظريات الغربية الوافدة إلينا وهي المشكل الاصطلاحي والوقوف على أهم المنجزات المترجمة أو القرائية التي كان لها دور كبير في تقريب بلاغة الحجاج من القارئ العربي عامة والباحث في المجال البلاغي المعاصر خاصة، أما في المبحث الثاني تطرقنا إلى نماذج من المنجزات البلاغية التي تناولت بعضا من الخطاب العربي تناولنا تطبيقيا للآليات الحجاجية، وقد وقفنا على نماذج تطبيق بعض الآليات، محاولة منا لمعرفة كيفية استثمار هذه الآليات مع محاولة إثبات حجاجية هذه الخطابات المختارة للدراسة، أما في المبحث الثالث: تطرقنا إلى الاتجاه البلاغي المعاصر الذي حاول تجديد الدرس البلاغي العربي من خلال بلاغة الحجاج، وعملية استيعاب مكوناته إلى جانب الاستفادة من التراث البلاغي العربي، تطبيقا أو تنظيرا.

تفرض طبيعة الموضوع على الباحث أن يشتغل على المنهج المقارن، لكن قد يلجأ الباحث في بعض محطات البحث إلى الاستعانة ببعض المناهج البحثية الأخرى مثل الوصف أو المنهج التاريخي خاصة في إطار تتبع أهم مراحل نشأة الخطابة وتطورها وإلى مرحلة انبعاثها من جديد، كما أن القراءة التحليلية كانت المقاربة الأمثل في استجلاء آليات الحجاج ومدى اكتساحها الساحة البلاغية العربية القديمة والمعاصرة على حد السواء.

انتهت بنا خاتمة هذا البحث إلى استنتاج نتائج هامة قد تضيء جوانب مظلمة من المشهد البلاغي العربي، بحيث تجيب عن الأسئلة التي تمحور حولها هذا البحث، ومنها: أن بلاغة الحجاج كانت تشكل جزءا هاما من البلاغة العربية القديمة، وأن الآليات الحجاجية كان لها حضور واضح من الناحية الإجرائية التطبيقية بجميع أشكالها وصورها، لكن من الناحية النظرية فإنه لم تنفرد له دراسة خاصة، وأن البلاغة العربية المعاصرة أفادت كثيرا من البلاغة الجديدة "بلاغة بيرلمان" وهذا بالتحديد في المفاهيم وتجديد المنهج وطريقة توظيف الأدوات، وبفضلها تمكنت من فهم الفكر البلاغي التراثي فهما عميقا، من خلال قراءة جديدة للبلاغة العربية، تُلقي الضوء على المناحي الحجاجية في البلاغة التراثية. التي كانت محور نشأة البلاغة العربية وأداة محرّكة انبثقت منها التحولات الفكرية التي عرفتها البلاغة العربية القديمة خلال مسارها التاريخي.

مقدمة

ومما ساعدني في هذا البحث الاستعانة بمجموعة من المصادر أهمها: البيان والتبيين" و "الحيوان" للجاحظ، الصناعتين "للعسكري"، البرهان في وجوه البيان "لابن وهب"، الشعر والشعراء "لابن قتيبة"، "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" للجرجاني، أما المراجع فأذكر منها: التكوثر العقلي لطفه عبد الرحمن، "بلاغة الخطاب الإقناعي" والبلاغة العربية أصول وامتدادات" لمحمد العمري، الحجاج في البلاغة المعاصرة" محمد سالم الأمين طلبة. ولا ننسى ذكر كتاب "بيرلمان" و"تيتيكا" "مصنف في الحجاج" الذي كان محل تركيز دراسة بحثنا التي كانت حول "بلاغة" بيرلمان".

ختاماً نقدم الشكر الجزيل إلى كل من ساهم في إنجاز هذا البحث المتواضع من قريب أو من بعيد نخص بالذكر الأستاذ المشرف د. "عبد القادر زروقي" الذي لم ييخل بتقديم النصائح والإرشادات القيمة التي ساعدت على توجيه هذا البحث الوجهة الصحيحة، ونشكر السادة أعضاء اللجنة مسبقاً على تصويب هذا البحث المتواضع.

المدخل

الجذور اليونانية للبلاغة الجديدة

لكي نتبين الأصول المعرفية للبلاغة الجديدة لابد لنا أن نقوم بقراءة لتاريخ الفكر الإنساني انطلاقاً من الفكر اليوناني مروراً بمرحلة تدهور البلاغة في الفكر الغربي وصولاً إلى انبعاثها من جديد. العودة إلى تلك الأصول يمكننا من ملامسة مختلف ظروف تطورها والوقوف على أهم الإشكاليات التي أعطت عناية خاصة للبلاغة، فمعرفة تلك العناية تكشف لنا تطور مفهوم البلاغة من جهة وتعيد تقويم وظيفتها عبر مسارها التاريخي من جهة أخرى ومما لاشك فيه "أن البلاغة تقلبت خلال لحظاتها التاريخية بين تحديات مختلفة ومتعارضة في كثير من الأحيان، فقد صادفت بدايات التعقيد لها عند اليونان نهاية مرحلة فقدان الآلهة الإغريقية مشروعيتها التأويلية في تفسير الظواهر الطبيعية"⁽¹⁾ فالبحث في البلاغة يحيلنا دائماً إلى الكلام عن البلاغة اليونانية فهي الجذوة التي وقدت منها البلاغة الغربية أو ما يعرف بالبلاغة الجديدة حالياً.

تتفق المصادر التاريخية أن الحاجة هي التي دفعت باليونانيين إلى اختراع فن الخطابة وهي " فن الدفاع عن النفس بالحاجة في وضعيات حيث البرهان غير ممكن، الأمر الذي يفرض عليها أن تعمل بـ(مفاهيم مشتركة)، وليست آراء عامة مبتذلة، بل التي يمكن واحداً واحداً من الناس أن يجدها بحسه السليم، في مجال حيث لا شيء سيكون أقل علمية"²، فالحاجة هي التي حددت العوامل التي ساهمت في نشأتها، حيث أن الخطابة نشأت كوسيلة لدفاع في بداية عهدها ثم تطورت وظيفتها لتصبح مهارة تكتسب بالتعلم والدربة لتصبح أداة فاعلة لمن يتقنها.

1- البلاغة في الفكر اليوناني القديم:

1-1- ظروف النشأة والمبررات:

بعد استقراء الفكر اليوناني يتبين لنا أول ما دفع اليونانيين إلى السعي وراء تعلم البلاغة هي الظروف السياسية وإن اختلفت المبررات "عندما انتقل المجتمع الأثيني من طابع زراعي إقطاعي مرتبط بالقبيلة إلى مجتمع تجاري يهتم بتطوير الصناعات، وتنمية الحرف، والاعتماد على الكفاءة الفردية والمبادرة الحرة. وأصبح المجتمع في ظل صعود هذه الطبقة الاجتماعية الجديدة (رجال التجارة وأرباب

1- أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، المدارس شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، 2011م، ص: 04.

2- رولان بارث، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ت: عمر أركون، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة ط1، س2011م، ص: 55.

الصناعات) مجتمعاً ديمقراطياً، يستند إلى حرية التعبير، والاحتكام إلى المجالس الانتخابية، والتصويت بالأغلبية. ولم يعد هناك ما يسمى بالحكم الوراثي أو التفويض الإلهي، بل أصبح المواطن الحر له الحق الكامل في الوصول إلى أعلى مراتب السلطة لذلك، سارع أبناء الأغنياء إلى تعلم فن الخطابة والجدل السياسي لإفحام خصومهم السياسيين¹ فالديمقراطية تعتبر من أهم العوامل التي ساعدت على انتشار الجدل خاصة الجدل القضائي ثم السياسي ونشأ عن ذلك ضرورة الاهتمام بدراسة البلاغة لتحقيق الجدل بغية تطوير الخطابة.

هذا ما يفسر ارتباط مفهوم الخطابة بالبلاغة؛ لأن الخطابة لا تقوم إلاّ عليها من جهة ومن جهة أخرى ارتبط مفهوم الخطابة بالحجاج، فهو "جنس خاص من الخطاب، يبنى على قضية أو فرضية خلافية يعرض فيه المتكلم دعواه مدعومة بالتبريرات عبر سلسلة من الأقوال المترابطة ترابطاً منطقياً، قاصداً إلى إقناع الآخر بصدق دعواه، والتأثير في موقفه أو سلوكه تجاه تلك القضية"² معتمداً الخُطيب على تقنيات استدلالية تفضي على الخطاب ثوب المصدقية التي هي أداة من أدوات الإقناع.

غاية الخطابة اليونانية تمثلت في إيصال قناعات إلى المتلقي، لكن ذلك لا يتأتى إلاّ عن طريق حجج دامغة وبراهين قوية لذا "نظرت البلاغة التقليدية إلى الحجاج كمكون من مكونات الخطاب، يتشكل حسب تشكله وتتغير وظائفه وطرقه الاستدلالية بتغيره"³ من هنا يتضح لنا أن كل من البلاغة والخطابة والحجاج وكذا الجدل مفاهيم تفاعلت مع بعضها البعض لشكيل جهاز مفهومي متكامل للخطابة اليونانية. التي هي أصل البلاغة الجديدة.

1-2- نشأة الخطابة في أحضان القضاء:

الخطابة لم تنشأ في أثينا إنما في صقلية اليونانية، حوالي 465 ق م بعد طرد الطغاة les tyrains، ثم إن أصلها ليس أدبياً إنما قضائياً، فالمواطنون الذين نهبهم الطغاة، طالبوا بثرواتهم، ثم أعقبت الحرب المدنية العديد من النزاعات القضائية، وقد وجب في عصر حيث لا يوجد محامون أن

¹ - جميل حمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، إفريقيا الشرق، (د، ط)، س 2014، ص: 13

² - محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب، القاهرة، ط: 01، س 2005، ص: 189.

³ - د: محمد طروس النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، دار الثقافة الدار البيضاء، ط 1، س 2005، ص: 14.

يمنح المترافعون وسيلة الدفاع عن قضيتهم"⁽¹⁾ وهذا الدفاع يستند على حجج مقنعة ولا يتأتى ذلك إلا بالكلمة حيث تكون الكلمة هي السلاح الوحيد الذي يدافع به الخطيب على آرائه قاصدا التأثير باستمالة العواطف أو عن طريق الحجة المقنعة، فأدى هذا إلى ضرورة الإبداع مع وجود قواعد تحكم هذا الإبداع.

الهدف الأساسي من الخطبة عند اليونان في بداية عهدها هو نشر وسائل الإقناع وهي تعتمد على الفيض الوجداني أي "القدرة على النظر في كل ما يصل إلى الإقناع في أية مسألة من المسائل"⁽²⁾ لذا لا بد للخطيب أن يكون متضلعا في معرفة وسائل الإقناع وامتلاكه فنيات يستعملها حسب مقتضى الحال "إنها لم تعد مكونة فقط كموضوع تعليمي، ولكنها تصير فنا (بمعنى الحديث)، فهي تتحول من الآن فصاعدا إلى نظرية للكتابة وكثر لأشكال الأدبية في الآن نفسه"⁽³⁾، هذا الفن لم يكن متاحا للجميع بينما هو في يد البليغ فهو الوحيد الذي يمكنه أن يطرح فكرته بوضوح ويعمل على إيصالها بالوجه الذي يريده ويتبنى الدفاع عنها مهما كانت حقيقة أو زيفا.

هذه الأحداث المتصاعدة ساهمت في ظهور الحاجة الماسة إلى تعلم الخطابة بعد الثورات الشعبية التي عرفتها مختلف مدن اليونان في تلك الفترة خاصة لما كانت هذه المجالس القضائية تقام لأول مرة، بلا شك أمام محافل قضائية شعبية فقد شكلت بذلك الخطابة فن الديمقراطية بامتياز⁴ هذه الديمقراطية أتاحت للمواطن اليوناني فرصة المطالبة بحقوقه المسلوبة إبان الحكم الاستبدادي، خاصة تلك المتعلقة بملكية الأرض، وهذه الحقوق لا يمكن استرجاعها إلا إذا تم إثباتها من قبل المدعي فلقد "كان على المدعي أن يثبت حقه بواسطة مرافعة يلقبها بنفسه، قادرة على إقناع هيئة المحلفين، ليس فقط بصحة دعواه، بل كذلك بفساد دعوى الخصم؛ لأن هناك خصماً متشبهًا، هو الآخر، بدعواه، ويدافع عنها

¹ - أوليفيبي رويول مدخل إلى الخطابة، ت: رضوان العصبية، إفريقيا الشرق، (د،ط)، س: 2017، ص: 30.

² - عباس أرحيلة، الأثر الأرسطي في البلاغة والنقد العربيين، المملكة المغربية، جامعة محمد الخامس منشورات كلية الآداب والعلوم

الإنسانية، الرباط، (د،ط)، 1999م، ص: 235.

³ - رولان بارث، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ت: عمر أركون، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة ط1، س: 2011م، ص: 43.

⁴ - Voire : Jean-Jacques robirieux, Rhétoriques et argumentation, Armand colin 3édition, p17

بكل ما أوتي من قدرات على الإقناع¹ أهم هذه القدرات تمثلت في قوة الكلمة التي تمنح للخطاب السلطة ووسيلة لصناعة الإقناع بل لها الأولوية في تمكين الخطيب من تنسيق الأقوال وإخراجها . بهذا تعد اللغة هي مادة الخطبة وأهم وسائلها، لأنها الفضاء الذي يتم به التواصل بين الخطيب والمستمع وعلى أساسها يحصل الإقناع.

يعد الخطيب اليوناني "ديموسيتين" أبرز خطباء هذه الفترة الذين تعلموا الخطابة وبرعوا فيها من أجل استرجاع حقوقه، "ولد عام 348 ق م... توفي عام 391 ق م تاركاً وراءه ثروة تقاسمها أولياء والده، وحين شب، اضطر للمرافعة ضدّهم ليحصلّ قسماً من أرزاقه، مما استوجب إتقان الفصاحة، وراح يكمل خطيباً عن سواه، في أمور خاصة وشؤون سياسية، حتى وصل إلى منصة الجمعية العامة، ويروي قصص مشبوهة حول الطرق التي تعلم فيها الخطابة، لكن الثابت أن خطاباته كانت عكس استسهال الكلام، نجمت عن مجهود قوي قام به"²، هذه البراعة في الكلام لم يبق أثرها مقتصرًا على الأفراد أو بعض طبقات المجتمع دون غيرها إنما كان لها أثر بالغ على جميع أفراد المجتمع الأثيني على امتداد فترة زمنية طويلة.

في خضم هذه المسارح القضائية أين كانت تمثل الخطابة الأداة الفاعلة في استرجاع الحقوق، كان هناك صراع من نوع آخر سياسي حول السلطة بعد القضاء على الأنظمة المستبدة وإرساء دعائم الديمقراطية وانتشار التحرر الفكري الذي ساعد على تطوير الخطابة، "فالليونان لما نالت حرية الفكر والقول، تعددت فيها الآراء السياسية وتعددت المناظرات والمحافل الخطابية، فظهر كبار الخطباء، وعرفت الخطابة رقياً إبداعياً وتنظيراً"³ فانتشر بفعل ذلك الجدل وتنوعت فنون الخطاب.

بما أن الجدل وفنون الخطاب اكتسبت هذه الأهمية في عهد الانفتاح الديمقراطي اليوناني جعل الناس يتهافتون على طلب الخطابة خاصة الطبقة الارستقراطية، "إن هؤلاء كانوا على وعي مسبق بأنّ (امتلاك التأثير في طرف آخر) لم يكن مما يستأثر به العقل لأنّ الكائن الإنساني متشكل كذلك من الأحاسيس. لهذا الغرض ومنذ ذلك العصر وقع التفريق بين ما كان يرتبط بخالص البرهنة (ratio)

¹ - الحسين بنو هاشم، بلاغة الحجاج الأصول اليونانية، الكتاب الجديد، ط1، مارس 2014، ص:38.

² - فرنير روبير، الأدب اليوناني، ت:هنري زغيب، منشورات العويدات، بيروت باريس، ط:1، س 1983م، ص:124.

³ - عباس أرحيلة، الأثر الأرسطي في البلاغة والنقد العربيين، ص:220.

التي كان يجب أن تطابقها آلية استدلال قابلة لـ(قول الحق) وبين ما كان يرتبط بـ(تفاعل النفوس) والذي كان يجب أن تطابقه آلية تعبيرية قابلة لـ(أن تؤثر وتجلب) اهتمام طائفة من السامعين . ومنذ ذلك الحين حصل تفريق سيظل قائماً على امتداد هذا التاريخ للحجاج بين ما ينتمي إلى البرهنة التي تُستخرج من إفرزات النفسية الإنسانية من ناحية، وبين ما ينتمي إلى الإقناع والذي يقاس بطاقة التأثير في طرف آخر من خلال حركات المؤثر¹ لما كان الطموح السياسي مسيطراً على الأذهان عندها ظهر ما سمي بالسفسطائيين.

1-3- بلاغة الخطاب عند السوفطائيين :

احترافية تعليم الخطابة:

توحدت المدن اليونانية كإمبراطورية بعد انتهاء حروبها مع الفرس وسادتها موجة من الثورات الشعبية قامت على إثر تلك النهضة في جميع الميادين لكن هذه النهضة دفعت الجيل الناشئ لتخلي عن كل مبادئ وعقائد السائدة حينئذ، بحجة أنها تقيد العقل في هذه الظروف نشأت جماعة السفسطائيين حوالي عام 490 - ق. م حين كانت الفلسفة اليونانية في عز ازدهارها.⁽²⁾

إن كانت الخطابة اليونانية نشأت في كنف المجالس القضائية فإن للسياسة دور بارز في تطوير الخطابة وإرساء قواعدها حينما بلغت الديمقراطية اليونانية أزهى عصورها، "وكان للسياسي الديمقراطي من أن يتصف بالقدرة على الجدل والمناقشة، ومنازلة الخصوم والدفاع عن الآراء صحيحها من كاذبها، وأحس السفسطائيون أنهم أجدر بتعليم هذه الصناعة، فتولوا مهمة تدريب الشباب على الجدل لإعدادهم للعمل السياسي"³ فالسفسطائية حركة فكرية نمت وقويت خلال القرن الخامس ق.م.

¹ - باتريك شارودو، الحجاج بين النظرية والأسلوب، ت: أحمد الودري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت لبنان، س 2009م، ط1، ص:7.

² - ينظر: هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف د: حمادي صمود، كلية الآداب منوبة، تونس، (د، ط)، (د، تا)، ص: 54، 50.

³ - د: خالد حربي، الفكر الفلسفي اليوناني وأثره في الفكر الإسلامي، المكتب الجامعي الحديث الإسكندرية، (د، ط)، س 2010، نقلا عن د: محمد علي أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي، الفلسفة اليونانية من طاليس إلى أفلاطون، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، (د، ط)، س 1994م، ص: 63.

كلمة سوفيستاس" في الأصل لقب تقديري، هي تعني في معناها الاشتقاقي الحكيم والرجل ذو الكفاءة المتميزة في كل شيء"¹، أي كل شخص يحسن استخدام الكلام وهذا ما كان معناها في البداية قبل أن تأخذ المعنى المنتقص الذي أصبح متداولاً، وهو الشخص الذي يجادل ويضلل كل شيء، أي يسعى إلى تحوير الحقيقة.

باعتبار أن علم البلاغة هو مادة فن الخطابة فإن السوفسطائيين هم من أسسوا صناعة البيان ويرجع إليهم الفضل الأول في تحديد معالمة؛ لأن القول هو الذي يعتمد هؤلاء في محاوراتهم إذا كان قويا بليغا صحيحا أفحم الخصم، بالتالي وجهوا جهودهم وعنايتهم باللغة وأولو عناية خاصة بمبادئ النقد العقلي حيث اعتمدوا على المناهج العلمية في دراسة اللغة وفروعها "وبذلو قصارى جهدهم في تعليم الجدل وتخريج تلاميذ يحدقونه وبرعوا في إيراد الحجج الخلابة في مختلف الموضوعات وأتقنوا طرق التأثير الخطابي واعتمدوا في ذلك على الاهتمام بالألفاظ ومدلولاتها والمغالطة وأساليبها والحجج وشروطها ولما ذاع صيتهم هرع إليهم الشباب يستمعون إلى خطبهم وينهلون من علمهم"² حيث أنهم خاضوا في جميع المسائل الفلسفية حتى القضايا الخطيرة والمهمة منها، كما استعملوا أغاليط القياس paralogisme لإثارة العواطف وحمل المستمع على الاقتناع.

فكانت للفلسفة اليونانية على أيدي السوفسطائيين انبعاث جديد، "إذ ظهر تيار جديد في الفكر عند اليونان وهو تحول كان يؤذن بظهور التزعة النقدية التي تزعمها السوفسطائيون sophists عن جدارة، فقد وجهوا النظرة إلى الإنسان وإلى معرفته، بعد أن كان نظر الفلاسفة موجهاً إلى الموضوع الخارجي."³ نتج عن تلك الفترة صراع بين الفيلسوف والسفسطائي وهو صراع حول التصورات والقيم وبين القول والوجود وعلاقة الإنسان بالإنسان.

من هنا يتجلى دور السفسطائيين الكبير في ازدهار فن الخطابة وانتشارها بين مختلف فئات المجتمع، فقد تميزوا ببراعة القول وبالخبرة الجدلية والحجاجية مما ساهم في تطوير البلاغة وإرساء قواعدها وتنشيط الحياة الفكرية في المجتمع الأثيني عامة بحيث "اعتمد السوفسطائيون الخطابة في التأثير

¹ - د: محمد صقر خفاجة، الأدب اليوناني، مكتبة النهضة، المصرية، (د،ط)، س 1956م، ص:33.

² - د: محمد صقر خفاجة، تاريخ الأدب اليوناني، ص: 156.

³ - د: خالد حربي، الفكر الفلسفي اليوناني وأثره في الفكر الإسلامي ص: 63.

على الجماهير ، وهم يعدون من مؤسسيها ونظرا لأهمية الخطابة لمن يرغب في الوصول إلى قيادة المدينة، كان لابد من دراسة الخطابة، فقامت الخطابة على تلقين مبادئ اللغة والأسلوب والموضوع وكيفية استخراج البراهين والحقائق الأشياء من الألفاظ نفسها.¹ وهي في الحقيقة ليست جماعة فلسفية بالمعنى المعروف بل جماعة من المعلمين يلقنون الناس أسلوب الانتصار لقضية ما مهما كانت بساطتها أو بيان صحتها من خطتها بأجر متفق عليه مسبقا. فقد ناصروا الجدل من أجل الجدل.

على هذا الأساس نصبوا أنفسهم على أنهم خبراء في معرفة وتعليم كل الفنون التي تهم الإنسان وأنهم يملكون البيان الذي يمكنهم من جذب السامعين غير أن "اسم السوفسطائي الذي يعني عالما قد تحوّل من معناه الأصلي وأصبح مرادفا لمعلم بعلم زائف لا يبحث إلا عن المخادعة ويستخدم لذلك الاستدلال الزائف."² فالمنفعة المادية هي التي كانت تبرر الوسائل وطرق استخدامها، ولم تبق هذه مجرد رغبة يسعون لتحقيقها متى سمحت الفرصة بذلك، بل عملوا على تلقينها إلى الناس فأضحت أساس فنون البيان، والخطابة، والجدل، وتزويق الكلام. فوق ذلك "يتقاضون مقابل دروسهم مبالغ كانت باهظة الثمن"³ وكانوا يفخرون بأنهم يستطيعون أن يبدوا الرأي ونقيضه بل يعملون على الإقناع به، فتفننوا في ابتكار وسائله، حتى كادت طريقتهم تؤدي إلى هدم أسس العقل والمعرفة، وتمزيق الأخلاق.

من هنا يبدو أنه كان للسوفسطائيين دورا مهما في قيادة النفوس، بممارسة الخطاب الحجاجي وساعدهم في ذلك براعتهم الخارقة في استعمال أساليب الكلام وألوان البيان، حتى أمكن للخطيب البليغ أن يحق الحق أو يطله بالحجة المقنعة أو بالدليل القاطع، مستعملا ببراعته الخطابية كل الاستدلالات الممكنة من أقيسة صحيحة أو مغالطة *paralogisme*، أو حتى إثارة العواطف، همه الوحيد هو الإقناع والتأثير في الآخرين.

¹ - عباس أرحيلة، الأثر الأرسطي في البلاغة والنقد العربيين، ص: 19.

² - محمود جديدي ، الفلسفة الإغريقية، منشورات الاختلاف ، الدار العربية للعلوم ناشرون، العاصمة الجزائر، بيروت لبنان، ط2009، ص: 216.

³ - الحسين بنو هاشم، بلاغة الحجاج الأصول اليونانية، ص: 88.

أخذ السوفسطائيون يطوفون ربوع أثينا يعتقدون المجالس للدرس بل هناك من أنشأ أكاديميات خاصة يعلمون بها فن القول وفن الحوار والجدل وحرروا الخطابة من كل القيود العلمية والأخلاقية⁽¹⁾ خاصة وأنهم وجدوا آنذاك في المجتمع الأثيني كل الظروف مهياً لهم يسرت لهم نجاح أفكارهم إلى أبعد الغايات.

أشهرهم "بروتاغوراس" " لما بلغ الثلاثين أخذ يطوف في أرجاء اليونان الكبرى magna graecia يحاضر ويعلم. وكان بوتاغوراس أول من دُعي سوفسطائياً، واستغل أول حصاد فكري واجتماعي. وكان نجاحه المادي عظيماً جداً⁽²⁾ حيث أقر مبدأ الشك وأن الحقيقة نسبية و"أن الإنسان معيار كل شيء". بمعنى أن الإنسان هو الذي يقر بأن الأشياء موجودة أو يقر عدم وجودها فهو من يمتلك قرار الحكم وبهذا تصبح المعارف غير قارة بينما تختلف من إنسان إلى آخر فلا توجد حقيقة واحد مطلقة يتفق عليها الجميع" فالحقيقة ليست ما نتفق حوله ونجمع عليه، بل هي الاتفاق نفسه والإجماع نفسه حسب السوفسطائيين⁽³⁾ فالحقيقة لا تقوم على الصدق بينما هي ما نتفق حول صدقه وإن كان غير الواقع، عليه يمكن القول أن بروتاغوراس يلغي تماماً دور العقل في إدراك حقيقة الأشياء وبتالي الحقيقة هي مجرد رأي اجتمع على صدقه أو كذبه مجموعة من الناس على أساس "أنه لا يوجد منطق لقيم الجمال والخير، فتحديد الصدق فيهما والصحة هو مجرد رأي".⁽⁴⁾ فالقيم الثابتة ومعايير الأخلاق والسلوك والعقائد المترسخة لا أساس لها في الحقيقة إنما هي من صنع الإنسان يمكنه أن يغيرها متى شاء.

فقد رأى المفكرون من علماء وفلاسفة قبل ظهور التيار السوفسطائي أن العقل هو مصدر المعرفة، ولما جاء بروتاغوراس أنكر ذلك باعتبار أن "الإحساس هو المصدر الوحيد للمعرفة فيخرج منها "أن الأشياء هي بالنسبة إليّ على ما تبدو لي، وهي بالنسبة إليك على ما تبدو لك، وأنت إنسان وأنا إنسان، فالمقصود بالإنسان هنا الفرد من حيث هو كذلك لا الماهية النوعية، ولما كان الأفراد

¹ - ينظر: هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص: 55.

² - خالد حربي، الفكر الفلسفي اليوناني وأثره في الفكر الإسلامي، ص: 64.

³ - د: عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة" مقارنة حجاجية للخطاب الفلسفي"، الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت لبنان منشورات الاختلاف الجزائر، ط1، س2009م، ص: 41.

⁴ - نفس المرجع، ص: 41.

يختلفون سناً وتكويناً وشعوراً، وكانت الأشياء تختلف وتتغير، فإن الإحساسات تتعدد بالضرورة وتتناقض⁽¹⁾ والمعرفة بتالي خاضعة لهذه التغيرات لا ضابط لها فلا شيء يمكن الحكم عليه بالخطأ؛ لأن كل رأي هو صحيح بالنسبة للشخص المدرك. "فإنه يترتب على هذا أن الحقيقة تصبح مسألة ذوق الفرد، وهذا يقوض كل لإيمان بالحقيقة كحقيقة موضوعية."² ورغم هذا التناقض البين في مسألة الحقيقة عند السوفسطائيين إلا أن هذا الرأي كان له أثر بالغ في مسار البلاغة بحيث أنها تعطي قابلية التغيير والتحوير في الآراء والمفاهيم متى شاء الخطيب ذلك متلاعباً بالكلمات متفنناً في استعمال الأساليب.

كما يعد "جورجياس" Gorgias من أهم أعلام السفسطائيين الذين بينوا الدور البالغ للخطابة في التأثير وحمل الجمهور على الإقناع، وذلك بصياغة العبارات وحسن اختيار الألفاظ المناسبة فاللفظ من أهم الوسائل التي توصل إلى الإقناع رغم بساطته فهو يعمل في المتلقي ما لا يتوقع فقد عرف جورجياس³ اللفظ بقوله: "بأنه قوة خارقة، يصنع المعجزات فهو رغم ضآلته، يمنع الخوف، ويزيل الأسى، ويبعث البهجة، ويملأ النفس ثقة وطمأنينة... إنه يسحر الأبواب ويؤثر عليها بسحره"⁴ لاسيما اللغة الشعرية التي تثير المشاعر وتبث الحماسة في النفوس دون التفكير في معانيها حتى تتحقق سلطة القول، يقول جورجياس: "إن الخطاب جبار ذو سلطة كبرى"⁽⁵⁾ السلطة التي تتحكم في الأفكار قبل أن تتحكم في الأفعال.

قول "جان بير فرنان" Jean pierre vernet "لم يكن مفهوم العقل بالنسبة إلى أئينا القرن الخامس قبل الميلاد يعني بالأحرى التحكم في الناس وغلبتهم والسيطرة عليهم ففي إطار الحاضرة كانت الأداة الضرورية للفعل، الأداة التي تمكن من السيطرة على الآخر، الكلمة، إن فحص السوفسطائيون للثقة الإنسانية، ولوسائل بسط قوتها، ولتطوير أدواتها، لم يخلص إلى حر فكر أو إلى

¹ - يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة مصر، (د، ط)، س 2012م، ص: 63.

² - وولتر ستيسن، تاريخ الفلسفة اليونانية، ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، (د، ط)، س 1984م، ص: 150.

³ - جورجياس سفسطائي، 483-375 ق.م من أبناء تراقيا، قضى عدة سنوات في أئينا.

⁴ - محمد صقر خفاجة، تاريخ الأدب اليوناني، ص: 33

⁵ - نفس المرجع، ص: 142.

فلسفة، لقد خلص إلى البلاغة وأنشأ الجدل والمنطق.¹، فقد ارتبط مفهوم العقل في اليونان القديمة بالطريقة المثلى التي تسيطر على الناس والوسيلة إلى ذلك الكلمة "من أجل هذا لم ينظر السوفسطائيون إلى الخطابة بوجه عام على أنها جدل أو وسيلة للتأثير فحسب، بل وأيضاً على أنها العلم الحقيقي، فجورجياس يقول إن الخطابة هي الفن، والفن الحقيقي ليست أداة للتأثير فحسب، وعلى يد جورجياس ترتفع الخطابة إلى مرتبة الفن الحقيقي، وإلى مرتبة الأسلوب الصحيح في التفكير. وتبعاً لهذا يقول أن المعرفة الحقيقية هي تك الممثلة في الخطابة.² هذا ما جعل السوفسطائيون يبسطون قوتهم؛ لأنهم عرفوا قيمتها وأتقنوا استعمالها وهذا ما يعرف بالبلاغة التي أرست دعائم الخطابة اليونانية وتنج عنها الجدل فالمنطق.

فقد برع جورجياس في تصريف فنون الجدل إذ كان "يزعم أن ما هو محتمل خير مما هو حقيقي، وأن في وسعه أن يجعل الأشياء التافهة جلييلة، والعكس بالعكس، وهو المنطقي أو الخطيب الذي يهتم بالشكل أكثر من اهتمامه بالموضوع"³ لا يعنيه طلب الحقيقة بقدر ما يهمله الإغراء واستمالت النفوس، يعتبر "جورجياس أحد المؤسسي الخطاب المشاهيري، أو بعبارة أخرى المدح العمومي، نثراً بليغاً، لما هو ضاعف التصويرات، التي تجعل منه (نضماً عالماً، ذا إيقاع، وبمحمل القول، نثراً جميلاً جمال الشعر) إن هذه التصويرات، من جهة، إنما هي تصويرات لفظية: السجع، والقافية، والجناس غير التام، وإيقاع الجملة؛ ومن جهة أخرى التصويرات المعنوية والفكرية: الإرداف، والاستعارة والطباق،"⁴ حتى هنا تقريبا الخطابة تتسم باللغة الشعرية أكثر من اللغة العلمية وربما يرجع هذا إلى عدة فرضيات يمكن أن تفسر لنا هذه الهيمنة التي تفرضها اللغة الشعرية على الخطابة، فأهمها أن الخطابة موجهة إلى عموم الناس وهؤلاء ليس لديهم القدرة الكافية على تحليل الأفكار والمعاني العميقة ومن ثمَّ غربلتها بقدر ما للغة الشعرية من سرعة في النفاذ إلى المخيلات وقوة في الاستحواذ على القلوب، أو لأن تراجيديا المسرح والشعر الغنائي لا يزال لها أثر على قلوب الجماهير فأراد صناع الخطابة أن يستغلوا هذا الأثر لتحقيق الإقناع.

¹ - محمد الوالي، مدخل إلى الحجاج من أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان، ضمن مجلة عالم الفكر "الحجاج"، لمجلد 40، 2011، الكويت، ص: 20

² - ينظر: عبد الرحمن بدوي، ربيع الفكر اليوناني، مكتبة النهضة المصرية، ط1، (د،ت)، ص: 172.

³ - خالد حربي، الفكر الفلسفي اليوناني وأثره في الفكر الإسلامي، ص: 67.

⁴ - أوليفي رويول، مدخل إلى الخطابة، ص: 32، 33.

هذا الاهتمام الكبير الذي أولاه جورجياس للأسلوب لم يثنه عن اهتمامه بالموضوع، هذا ما ذهب إليه "حسين بنو هشام" من خلال تتبع مواضيع خطبه، التي تمثل "نموذجاً للخطب التي يختار فيها معلم الخطابة قضيةً يصعب الدفاع عنها لبيان مهارته في الحجاج وقدرته الفائقة على الإقناع. وهو الأمر الذي سيصبح تقليداً درج على ممارسته معلمو الخطابة بعده"¹ ومن خلال استقراء هذه الخطب "يلاحظ هنا إتقان جورجياس لاستعمال مواضيع مشتركة خاصة الاستهلال والاختتام شاع استعمالها في الخطابة القديمة بعده"² مما يؤكد أن جورجياس ومن حذا حذوه كان على وعي تام بمختلف أنواع الحجج وكيفية توظيفها مستخدماً أجمل الأساليب لذلك.

من هنا يبدو أن السفسطائي كان يدرك مقتضيات الخطاب الإقناعي الذي يقوم على بلاغة القول باعتبارها "تمنح من يحدقها الحرية في نفسه والسيطرة على غيره من الناس في وطنه فهي تحتضن في ذاتها السلطة وتخضعها لهيمنتها"⁽³⁾ حتى ذهب جورجياس إلى منح الخطيب الحرية الكاملة في التماس كل الوسائل المتاحة له مع استخدامها بما يحقق له الإقناع واستمالة قلوب الجماهير.

هذه المنح ليست مجرد واقع تفرضه الظروف المحيطة بالخطيب إنما هو نتاج فكري إيديولوجي يؤمن به جورجياس "جعله يتشكك في مقولات العلم، ومقولات الوجود على الإطلاق"⁽⁴⁾ فهو بهذا عطل العقل وأنكر الوجود المطلق فالوجود نسبي يختلف إدراكه من إنسان لآخر واللغة هي الوسيلة التي يعبر بها الإنسان عن هذا الوجود النسبي ومنه لا يمكن إذا أن نتفق في التعبير عن ما هو مختلف فيه أصلاً، هذه الأفكار ضمنها كتابه "الطبيعة أو اللاوجود" فمن ثم يمكن للخطيب أن يصنع ويتفنن في التلاعب بأساليب القول. هذه الأفكار انعكست على خطبه⁵ وعلى أساسها أقاموا جدهم.

هذه التعاليم التي توارثها السفسطائيون وعملوا على تلقينها لتلاميذهم كان لها أثر على قيمة العلم والعلماء فقد "تنازلوا بالعلم إلى مستوى الحرف والصنائع، فلحقتهم الزراية، لم يأخذوا بالعلم على أنه معرفة الحقيقة، ولم يكثرثوا لقيمته ولا لفطرة العقل التي تدفعه لطلب الحق، استعملوا العلم

¹ - د: حسين بنو هشام، بلاغة الحجاج الأصول اليونانية، ص: 152.

² - نفس المرجع، ص: 155.

³ - محمد صقر حفاجة، تاريخ الأدب اليوناني، ص: 55.

⁴ - خالد حربي، الفكر الفلسفي اليوناني وأثره في الفكر الإسلامي، ص: 67.

⁵ - ينظر: عبد الرحمن بدوي، ربيع الفكر اليوناني، ص: 176.

وسيلة لجر منفعة غريبة عن العلم، وهزؤوا بالعقل، فكانوا معلمين وخطباء ولم يكونوا حكماء، هذا هو الموقف الشاذ الأثيم الذي جعل اسمهم سبة على مر الأجيال.⁽¹⁾ فالأخلاق التي طالما اتسم بها العلماء لا معنى لها في قاموس هؤلاء المعلمين بل بالعكس لحقت بهم كل صفات الدناءة من كذب وتضليل وخداع، فتحوّلوا إلى مرتزقة يسعون وراء أثرياء المجتمع من تيسرت لهم أسباب العيش الرغيد من مال وجاه، ولا ينقصهم إلاّ اعتلاء منصة الحكم المرتبطة أصلاً بحذق أساليب الكلام البليغ.

رغم السمعة السيئة التي ألصقت بالسفسطائيين إلاّ أنهم تقلدوا وسام سادة فنّ الكلام باعتراف أعدائهم "أفلاطون، أرسطو" فهم يعدون المرجع الوحيد لآثارهم؛ لأنهم كانوا في الحقيقة أول من اخترع علم اشتقاق الكلمات، ووضع القواعد اللغوية، واعتنوا كثيرا بالجانب الزخرفي فقد كانوا يؤمنون بأنّ ذلك من أهم وسائل الإقناع لما له من أثر بيّن على النفوس وإن كان فيه تزييف للحقائق، بل يدخل ضمن خصائص الخطاب البليغ .

2- تطور الفكر البلاغي عند اليونان:

ارتبط تطور الفكر البلاغي خلال تلك الفترة (نهاية القرن الخامس ميلادي) بفن الخطابة الطامحة إلى السلطة والقائمة على الحجاج التي أرسى دعائمها السفسطائيون وقد كان "من فضائل ذلك الحجاج على الفلسفة الإغريقية أنّه كان لها بمثابة الحميرة كما ذكر مؤرخو الفلسفة، ففلسفة أفلاطون تشكلت في جوانب أساسية منها من جهد الإجابة عن معضلات *Aporie* أثارها السوفسطائيون في حججهم،"⁽²⁾ التي تعتمد أصلاً على المغالطة وإن كان الكثير من الباحثين يرون أن المغالاة في المغالطات³ لم يمارسها كبار السوفسطائيين إنما عرف بها تلاميذهم .

2-1- التصور الأخلاقي لبلاغة الخطاب الحجاجي:

هذا المنهج الذي اعتمده السوفسطائيون في خطبهم كان سبباً رئيسياً وراء الصراع الذي دار بينهم وبين الفلاسفة اليونان آنذاك بل أحدث ثورة عليهم وتعرضوا إثر ذلك لانتقادات لاذعة

¹ - يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص: 62.

² - حمادي صمود، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، جامعة الآداب والفنون والعلوم الانسانية كلية الآداب، منوبة تونس، ص: 51.

³ - ينظر: د: الحسين بنو هاشم، بلاغة الحجاج "الأصول اليونانية"، ص: 131.

سجلها أفلاطون في محاورات دارت بين السوفسطائيين وبين سقراط الذي يعتبر أهم هؤلاء الفلاسفة الذين انتفضوا على الأفكار التي قامت عليها خطابة السوفسطائيين وعلى منهجهم التعليمي.

وقف سقراط أمام السيل العارم الذي أحدثه السوفسطائيون فقد أدرك أن أخلاق عصره تنهار أمام دجل السفسطائيين الذين عطلوا العقل وحطوا من قيمة العلم، وأنكروا الوجود والحق، واليقين، وكل ماله صلة بالأخلاق، لما زعموا أن أصول المعرفة ترجع إلى الأحاسيس؛ فعمل سقراط إلى إثبات أن في العقل تتشكل المعرفة الحقيقية التي يتفق حولها الجميع¹

هذه المحاورات ما هي إلاّ تعبير عن آراء أفلاطون حول الحجاج الخطابي السوفسطائي على لسان أستاذه سقراط إذ يرى أن "القول الخطابي السوفسطائي لا ينحصر -حسب أفلاطون - في جنس الخطابة وإنما هو قول زئبقي يمكن له أن يتسلل لتحرر الخطابة من شروط تحديد الموضوع إلى فضاءات أجناس من القول أخرى وله مع ذلك سمات تيسر تعرفه -حسب أفلاطون - فهو قول إثباتي غير جدلي لا يقوم على المساءلة يعقده صاحبه على الظن لا على العلم ويقصد به إلى الإقناع معتمدا في ذلك ما يوافق اللذة"² فالحجاج السوفسطائي لا يرقى في رأي أفلاطون إلى الحقيقية؛ لأنه يُهتم فيه بظاهر القول على حساب حقيقة الوجود وجوهر الأشياء، فالخطابة في تصوره هي "صناعة قيادة النفوس بالقول"³ يعني أنه قول خطابي موجه إلى النفس، المقصود بالنفس في هذا السياق الجوهر، فغاية الخطابة عند أفلاطون هي الوصول إلى الفضيلة لا إلى تحقيق أغراض شخصية.

يمكن القول أن أفلاطون في المحاورات وضع تصورا عاما للخصائص الخطاب البليغ، وتعد الحقيقة القاعدة الأساسية التي تقوم عليها بلاغة الخطابة الصحيحة، بل ذهب به القول على لسان سقراط إلى إنكار الخطابة البعيدة عن الحقيقة "فإن من لا يعرف الحقيقة بل يقتصر على إتباع الظنون لا يصل إلاّ إلى فن مضحك، بل إلى فن لا ينطوي على أي قيمة على الإطلاق."⁴، فالحقيقة التي

¹ - ينظر: خالد حربي، الفكر الفلسفي اليوناني وأثره في الفكر الإسلامي، ص: 76.

² - الحسين بنو هاشم، بلاغة الحجاج "الأصول اليونانية"، ص: 56.

³ - أفلاطون، محاورات ثياتيتوس وفيديروس أو عن العلم و الجمال، ت: أميرة حلمي، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة مصر، ط 1، س 2014، ص: 204.

⁴ - نفس المرجع، ص: 206.

يسعى أفلاطون إلى تحقيقها ليست غاية في حد ذاتها إنما هي وسيلة يصل بها إلى أسمى وأنبل غاية على الإطلاق وهي الفضيلة.

هذه الفضيلة التي دعا إليها سقراط هي التي على أساسها بنى عليها أفلاطون فلسفته المثالية باعتبار أن " الإنسان لا يستطيع أن يسلك على نحو فاضل إلا إذا عرف أولاً ماهية الفضيلة، وهكذا يتأسس على معرفة ويجب أن ينبع منها ولكن لم يقتصر الأمر عند سقراط على الاعتقاد بأن الإنسان إذا لم تكن لديه معرفة فلن يسلك سلوكاً حقا.¹ إنما عندها يكون الموجه لطريقة سلوكنا هو مدى اكتسابنا للفضائل، إلى درجة أنه يصبح سلوك الإنسان لا إرادي تتحكم فيه معرفتنا لحقيقية الفضيلة "وأحسب أننا أراد أفلاطون أن يقوله هو أن الحكمة قوامها معرفة الخير، وأن ما يؤيد هذا التعريف عنده هو المذهب السقراطي الذي يقول إن الإنسان لا يرتكب الإثم وهو عالم به.² وإن كان هذا الرأي يثير الكثير من الشك في عمومته يبقى له أثر عميق على عناصر صناعة بلاغة الخطابة الحجاجي من جهة وأثر هذا الخطاب على متلقيه من جهة أخرى.

يمكن أن نقول أن ضرورة معرفة حقيقة الفضيلة -حسب سقراط- هي التي دعت أفلاطون إلى رفض البلاغة الموجهة لجمهور عامة الناس في محاوراته "جورجياس"؛ لأن لا أهمية لها وسط الحشود "إن الشكل الخارجي للبلاغة، أو الخطابة لا يسمح نهائياً بإنتاج المعرفة، إنه لا ينتج إلا الاعتقاد، ونحن نرسل الخطاب أمام حشد من الناس لا مجال في هذه المقام الحشدي، حيث المستمع يتكون من الجهال، وحيث الحيز الزمني محصور، وحيث الموضوعات المفروضة للمناقشة معروفة، لإنتاج المعرفة"³؛ لأن العامة من الناس تفتقر إلى معرفة الفضيلة فيصعب عليها التمييز بين الخطأ والصواب فيسهل التفرير بها.

لذا لا بد أن تقوم البلاغة على ركائز تقيها من الانحراف عن مسار هدفها النبيل، يمكن أن

نختصرها فيما يلي:

¹ - وولتر ستينسن، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص: 128.

² - برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية القديمة، ت: زكي محمود نجيب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (د، ط)، 2010، ص: 186.

³ - محمد الوالي، مدخل إلى الحجاج ص: 21.

- بما أن الخطابة موجهة إلى النفوس إذن لابد على الخطيب أن يكون على اطلاع واسع بهذه النفوس من حيث:

- معرفة أنواع النفوس فحتى " يكون خطيباً موهوباً فعليه أن يعرف بالضرورة ما هي الصور المختلفة التي تكون النفس عليها، وهناك عدد معين لكل صورة من هذه الصور أو تلك، وتبعاً لذلك تكون لبعض الناس طبيعة معينة وتكون للبعض طبيعة أخرى مغايرة.¹ وهذه المعرفة لا تتم إلا في ظل الإلهام الإلهي.

- مراعاة أحوال النفوس وكيف تتأثر وكيف تؤثر في غيرها " فلها أنواع أيضاً خاصة تجعلهم يتأثرون بحديث معين دون غيره، وينتهون بسببه إلى معتقدات معينة، حين أن من كانت لهم طبيعة أخرى لا يقتنعون بسهولة. بمثل هذه الأسباب²؛ لأن النفوس تختلف حسب درجات تهيتها لقبول التأثير.

- "أن يكون الخطيب ملماً بجوانب الموضوع الذي يريد الحديث فيه يؤكد قوله: "يجب يا فايدروس ألا تتجاهل الكلام خاصة إن كان هذا الكلام كلام علماء. ولكن على الرغم من ذلك يجب أيضاً أن نبحت عن مدى صدق ما نقوله الآن ولا نستهيئ به."³ فيجمع الخصائص الممكنة للموضوع متحريراً الحقيقة.

مع اعتماد الخطيب في كل ذلك على المنهج الجدلي، بحيث يناقش ويحلل معطيات الموضوع؛ فأفلاطون يرى أن "كل الفنون ذات الشأن تستلزم المناقشة وإمعان الفكر في الطبيعة وفي السماء، وبهذا تحصل على السمو الفكري والكمال الصحيح " ويتم بذلك الإقناع الأخلاقي بينما الإقناع الذي يعتمد على الظن هو من بلاغة السوفسطائيين البعيدة عن الأخلاق إذ هي نتاج أقل النفوس شأناً حيث جعلها أفلاطون "في المرتبة الثامنة قبل نفس الجبار (le tyran) مباشرة وفي هذه إشارة إلى الصلة بين نوع من الحجاج و الطغيان -لأن السفسطة- حسب أفلاطون حجاج استهواء، هي تملق و التملق نوع من العنف"⁴، من هنا نتبين " أن البلاغة التي يدينها والبلاغة التي يدافع عنها

¹- أفلاطون، محاورات ثياتيتوس وفيدروس أو عن العلم و الجمال، ص: 222، 221.

²- نفس المرجع، ص: 222.

³- أفلاطون، محاورات ثياتيتوس وفيدروس أو عن العلم و الجمال، ص: 202.

⁴- حمادي صمود، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، ص: 75.

مختلفتان اختلافا تاما. ففي جورجياس يتعلق الأمر ببلاغة السوفسطائية. أي المداهنة التي تتسلل تحت قناع التشريع وتحت قناع العدل، يتعلق الأمر بالسفسطة نفسها وفي فيدر يتعلق الأمر ببلاغة فلسفية، بلاغة الجدلي الذي يحلل الأفكار ويؤلف بينها¹ والنوع الأخير من البلاغة هو موضوع الخطابة التي تستند على المعرفة القائمة على العقل والمنطق.

الخطيب المثالي في نظر أفلاطون هو من كان محبا للحكمة راعيا لها وإلا خرج من إطار عالم المثل الذي رسمه أفلاطون في "الجمهورية المثالية"، أي لا بد أن يكون فيلسوفاً، لأنّ "الفلسفة بالنسبة لأفلاطون هي السلم لهذا العالم السامي من المثل، ولكن ليس كل شخص بقادر على صعوده، فدرجاته العلى محفوظة لمن يتمتعون بمهارة الحجاج الجدلي، وهم صفوة مثل واضعي الأديان"²، وعليه يتضح أن أفلاطون وضع مقاييس محددة لصانعي القول البلاغي أهمها الاستعداد الفطري لذلك ثم التعلم والدربة³ هذه الشروط تجعل فن الخطابة متاح لقلّة من الناس، ومن يشكلون النخبة من المجتمع لما يتميزون به من قدرات على طلب الحكمة والاجتهاد المتواصل في تهذيب النفس وتغليبها على الشهوات للارتقاء بها إلى مصاف عالم الآلهة وعلى عاتق هؤلاء الخطباء تقع مسؤولية إصلاح المجتمع وكذا تسيير أموره موظفاً حكمته لخدمة مجتمعه إذ لا بد على "الفيلسوف الحقيقي أن يستعمل البحث العقلي لفهم هذه الحقائق السامية والتركيز على المهم منها"⁴، المؤهل الوحيد لأن يكون خطيباً هو الفيلسوف الحقيقي وهذا ما أكدّه في محاورات "فايدروس" بقوله: "إن لم يتفلسف -بجدارة- فلن يكون قادراً على الكلام في أي شيء"⁵، مما سبق يتبين لنا أن نظرة أفلاطون تتلخص في القيم التي تنشدها الخطابة.

الخطابة هي أفضل أداة يمكن لها أن تؤدي هذه المهمة بـ "أن تنشر العدالة في المحاكم كما تنشر الفضيلة في الحياة اليومية - وهي أداة لعقاب المذنب ولتحقيق النظام. ولا بد لها من الاستناد على فن الجدل حتى يخدم الفكر التعبير. ومن جهة أخرى فإن الفكر الفلسفي هو حديث باطني، وهو-

¹ - محمد الوالي، مدخل إلى الحجاج أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان، ص: 24.

² - أنتوني جوليت، تاريخ الفلسفة من العصر اليوناني إلى عصر النهضة، ت: محمد طلبة نصار، هندواي، مصر، ط1، 2015م، ص: 174.

³ - ينظر: أفلاطون، فايدروس أو عن العلم و الجمال ، ص: 219.

⁴ - أنتوني جوليت، تاريخ الفلسفة من العصر اليوناني إلى عصر النهضة، ص: 198.

⁵ - أفلاطون، فايدروس أو عن العلم و الجمال ، ص: 204.

أيضاً-خطابة؛ لأنه مناقشة مع الذات غايتها إقناعها بالخير"¹ الجدال هو الكفيل بتوالد الحقائق على الطريقة السقراطية غير أن أفلاطون لا يكتفي بمعرفة الحقائق إنما يجب توظيفها من أجل محاكاة عالم المثل.

على العموم ساهم هذا الصراع الخطابي اليوناني في انتقال البلاغة من بلاغة التزييف وسلطة الكلام إلى بلاغة تقرير الحقائق، ترعاها الفضيلة.

2-2- مرحلة تأسيس بلاغة الخطاب عند اليونان:

تعد البلاغة الأرسطية مرجعا أساسيا لأغلب النظريات البلاغية التي أتت بعدها، فقد استطاع أرسطو بعبقريته المشهود لها من خلال أعماله أن يشيد للخطاب البلاغي طريقا جديدا مغايرا تماما لما خلفه السوفسطائيين وأفلاطون قبله، برغم من أنه يبدو تأثيره الكبير بأفكار شيخه أفلاطون من خلال تتبع مساره الفكري، وحتى بأفكار السوفسطائيين الذين عارضهم في الكثير من المسائل. لكن يبقى كتاب "فن الخطابة" المصدر الرئيسي في تأسيس هذا الفن بمقاييسه الدقيقة.

لا يهتم فيه المؤلف "أرسطو" بالكلام عن تاريخ هذا الفن كما فعل غيره من النقاد، ولكنه يحلل الأفكار الرئيسية التي تعد أساساً للخطابة بأنواعها الثلاثة: خطابة المحافل، الخطابة القضائية، الخطابة السياسية، ثم يستعرض الموضوعات المهمة التي يمكن أن يتناولها الخطيب ويذكر الوسائل التي تساعد على تقوية حجته وبرهانه"² فهو في هذا الكتاب أعطى الفكر الخطابي صبغة جديدة لم يسبقه إليه أحد من حيث الترتيب والتحليل والاستدلال.

أراد أرسطو "بكتاب الخطابة" أن يقنن فن الخطابة بجمع المادة الخطابية التي كانت متناثرة بين الفلاسفة والسوفسطائيين حتى "يخضع فنههم الطليق إلى قواعد عامة"³ إذ يعتبر كتابه نتاج ثقافة متراكمة، فقد قام أرسطو بتحليل ونقد الموروث البلاغي وبني على أنقاضه معايير ثابتة لصناعة الخطاب البلاغي، فهناك من يعتبر أرسطو "من الفلاسفة اليونان الأوائل الذين نظروا للبلاغة من خلال

¹ - أفلاطون، فايدروس أو عن العلم و الجمال ، ص:204.

² - د: محمد صقر خفاجة، تاريخ الأدب اليوناني، ص:187.

³ -عباس أرحيلة، الأثر الأرسطي في البلاغة والنقد العربيين، ص:224.

رؤية حجاجية، فقد خصها بكتابين هامين هما (الريطوريقا، البلاغة) و(الحجج المشتركة)¹، وفي هذين الكتابين استطاع أرسطو دراسة قواعد الاستدلال المنتجة للخطاب البلاغي مؤسساً بذلك نظرية حجاجية استخلصها من دراسة الإرث الخطابي اليوناني.

2-2-1 مفهوم الخطابة عند أرسطو:

الخطابة عند أرسطو هي "الريطورية" وهي "قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة"²، بمعنى أنها قدرة تعمل على إنتاج قول له القدرة الكاملة على الإقناع في المسائل الاحتمالية أو ما وقع الاختلاف حولها.

ويمكن أن نتبين من هذا التعريف الوجيز لأرسطو أن الخطابة تختص بـ:

- القوة ويقصد بها "كفاءة أو ملكة، وليست سلطة كما كانت تعرف قبل أرسطو(وهو ما كان أحد مبررات الحملة ضدها كما سبق). إنها قدرة عقلية أو نظرية مهمتها البحث والكشف عن وسائل الإقناع الكامنة في كل موضوع"³ فهو بهذا يجعل من الخطابة موهبة يمتلكها صاحبها وأرسطو في هذا التعريف لم يحدد إن كانت هذه الموهبة مكتسبة أو أنها فطرة طبع عليها صاحبها.
- التكلف فالخطابة عمل مجهد ومضني يعمل على إنتاج القول وهذا الأمر ليس بالسهل يقصد به أن الخطابة ليست صناعة يسيرة إنما تحتاج إلى الكثير من الاجتهاد في البحث ثم الانتقاء بعناية معتمدة على إعمال العقل ويتم كل ذلك بثبات وتأن.
- الجمهور العام لأن الخطابة تلقى مشافهة على مسمع من الجمهور لم يحدد أرسطو أنواع المستمعين لكنه قرب مقاصدهم بتقسيم الخطابة إلى أنواع، بحيث يكون جمهور المستمعين في كل نوع منها إلى يسعى إلى تحقيق غاية.

¹ - د: جميل حمداوي، من الحجج إلى البلاغة الجديدة، ص: 24.

² - أرسطو طاليس، الخطابة الترجمة العربية القديمة، ت: عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات الكويت، دار القلم بيروت لبنان، (د، ط)، 1979، ص: 09.

³ - حسين بنو هشام، بلاغة الحجج الأصول اليونانية، ص: 203.

- إمكانية الإقناع فالخطابة قد تقنع كما يمكن أن لا يتم لها ذلك وإن كان يفضل السعي من أجل بلوغ الإقناع والتأثير في المستمع، وهذا الإقناع يكون في الأمور التي وقع حولها الاختلاف بين الناس أو أن لها أكثر من احتمال واحد، فيكون لسلطة الإقناع قوة في حسم الخلاف أو تغليب رأي على الآخر.

ذهب "الحسين بنو هشام" إلى اعتبار تعريف أرسطو للخطابة يكتنفه الغموض؛ لأنه يحمل معنى "متأرجحاً بين الخطابة باعتبارها صناعة والخطابة باعتبارها ممارسة. بل التعريف أميل إلى الثانية إلى الأولى"¹ وحثه في ذلك أن "الكفاءة مرتبطة بالشخص الممارس"² لكن لو أخذنا بهذا الرأي لابتعدنا عن ما أراد قوله أرسطو حين وصف الخطابة في بقية التعريف على "أنها نوع من الصناعة وإن كانت هذه الصناعة تختلف عن بقيت الصناعات الأخرى في قوله "وهذا ليس عمل شيء من الصناعات الأخرى"³، الصناعة لا تتأني إلا إذا إمتلك الخطيب القدرة أو المهارة، فهي صناعة وقبلها ممارسة فكلما مارس الخطيب صناعة الخطابة اكتشف كيف يوظف القواعد التي تبني عليها الخطابة وكذا ساعده ذلك على اكتشاف وسائل الإقناع، فبعد الاعتكاف على ممارسة هذه القواعد يصل الخطيب إلى مرحلة الكفاءة أي القدرة التي خص بها أرسطو الخطابة، وقبل هذا يكون صانعا للخطابة وليس خطيباً إنما هو في مرحلة التدريب قد يصيب وقد يخفق وما أنجزه خلال تلك المرحلة لا يرقى إلى فن الخطابة.

كما يمكن من خلال تعريف أرسطو للخطابة رصد أهم ما اختلف فيه أرسطو مع سابقه:

1- مهمة الخطابة: وظيفة الخطابة عند أرسطو "الكشف عن وسائل الإقناع" وقد كانت فيما سبق مهمتها الإقناع فهو بهذا جعل الخطابة صناعة تقوم على قواعد نظرية لا تكشف صحتها إلا بعد التطبيق فهي تعمل على إيجاد الوسائل الكفيلة للإقناع ليتم توظيفها، وقد كانت فيما سبق تقتصر على الجانب التطبيقي الإقناعي دون الاكتراث كيف يكون ذلك، وهو بهذا التفريق نزه الخطابة من التهم التي ألحقت بها (الخطابة ضرب من التزييف والمغالطة) فأرسطو بهذا الكلام يؤيد كلام

¹ - حسن بنو هشام، بلاغة الحجاج الأصول اليونانية، ص:203.

² - نفس المرجع، ص:203.

³ - أرسطو، الخطابة الترجمة العربية القديمة، ت:عبد الرحمن بدوي، ص:09.

"جورجياس" وفي نفس الوقت يفند رأي أفلاطون حول الاستخدام السيئ للخطابة عند السفسطائيين.

2- حرر أرسطو الخطابة من إلزامية الجانب الأخلاقي الذي فرضه عليها "سقراط" وغالى فيه أفلاطون بحيث طرد كل خطيب لا يلتزم بالقيم والفضائل من جمهوريته المثالية وبتالي أضفى أرسطو على الخطابة الصفة الحيادية؛ حيث تمثل "البلاغة عند أرسطو خطابا حجاجيا يقوم على وظيفتين التأثير والإقناع، يتوجه إلى الجمهور السامع قصد توجيهه أو إقناعه إيجابا أو سلبا"¹ فهو يرى أن الخطابة غايتها الكشف عن وسائل الإقناع لكن هذا الإقناع وأثره يبقى مرتبط بالظروف العامة المحيطة بالخطابة². فقد تكون الخطابة في خدمة الأخلاق كما قد توظف عكس ذلك فهي أداة في يد الخطيب يستعملها حسب مبتغاه وكيفما سمحت له الظروف لذلك.

3- لم يقص أرسطو من دائرة اهتمامه الأقاويل التي تعتمد على الظن فهو يرى أن "وظيفة الخطابة هي تعالج موضوعات مما ينبغي أن نتشاور ونتحاور حولها، وهي موضوعات قد لا تكون لنا تقنيات عنها أمام مستمعين ليست لهم القدرة على أن يستنتجوا من ضروب الترتيب العديدة وأن يتابعوا استدلالا في المسائل التي تقبل على نحو جلي أن تأخذ حلين متقابلين"³ وهذه المسائل تتعدد وتتنوع فهي تشمل كل مواضيع القيم الإنسانية.

أي كل المواضيع القابلة للنقاش والغامضة والتي تتميز بالهيوالة والتمدد،" إن موضوع الخطابة هو إذن، هذا المجال الرحب مجال القيم حيث الاختبارات لا يمكن حسمها حسما نهائيا أبدا. إنه مجال كل ما هو غامض ومائع، المجال الذي يكون معه أي اتفاق مجرد حدث محتمل أو مقبول، وغير مستند إلى أي أساس ضروري، كما هو الأمر بالنسبة إلى العلوم"⁴ لذلك قد يصعب على الجمهور العام أن يحلل بسبب زخم الأفكار وتدافعها لذا لابد من أن يحسن الخطيب استعمال الاستدلال من أجل إزاحة اللبس وتبديد الشك عن السامع وهيئته للإقناع، وهو بهذا خالف حجاج السفسطائيين "الذين

¹- د: جميل حمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، ص: 25.

²- ينظر: حسين بنو هشام، بلاغة الحجاج الأصول اليونانية، ص: 206.

³- أرسطو، الخطابة، ت: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، المغرب، (د: ط، ت)، ص: 18.

⁴- محمد الوالي، مدخل إلى الحجاج، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص: 27.

كانوا يعمدون فيه إلى إقناع السامعين بما يخالف المشهور "paradoxe" "1" بمعنى لا بد أن توجه حسب القدرات الفكرية واعتقادات المتلقي قصد التفاعل معها فيمكنه تغيير هذه الأفكار أو تصحيحها أو تثبيتها.

4- جعل أرسطو الخطابة قريبة من المجتمع لما لها من مكانة عالية في الأوساط الاجتماعية وفي إرساء دعائم الدولة؛ لأنها هي الموجهة للسياسة وعليه "إن بلاغته تهتم بالخطابات في ساحة عمومية، أو تعلق باجتماع المختصين، أو بشخص واحد أو بكل الإنسانية، بل إنها تهتم بالحجج التي قد يوجهها الشخص إلى نفسه في مقام حوار ذاتي"2 فهو بهذا لم يحدد للخطابة فئة معينة توجه إليها عكس سقراط الذي كان "ينفر نفورا قويا من أي احتشاد، إذ أن ذلك هو مرتع الخطابة، وكل الممارسات القولية والجمالية المتوجهة إلى الحشد يخصها سقراط بكل ارتياب، وموضع الشبهة، ففي نظره يرى هذا السياق كل العوامل المؤدية للحقيقة والعدل والمعرفة والفضيلة والإنسانية"3 باعتبار أن مثل هذه التجمعات يسهل فيها خداع الجماهير وتضليلهم حيث لا يكون لهم فرصة كافية للمناقشة والتحليل فقد "كان أفلاطون على علم بأن الفكر الحق لا يلتقي مع الحشد، الفكر الحق يزدهر بين شخصين اثنين يصح أحدهما الآخر ويسيران معا نحو الاستنتاج الذي يكون موضع اتفاقهما. فهما لا يضعان لبنة في البناء إلا تلك التي تحظى بموافقتهما"4، رغم أن رأي كل من سقراط وأفلاطون له ما يبرره إلا أن الخطابة تبقى عند أرسطو ذات طابع جماهيري لأن الخطيب هو من يمتلك الوسائل التي تشكل رأي الجمهور.

2-2-2- عناصر بناء الخطابة الأرسطية:

الإيجاد: (الإعداد)

1- محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط:1، س 2008م، ص:28.

2- محمد الوالي، مدخل إلى الحجاج، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص:34،35.

3- محمد مشبال، البلاغة والخطاب، منشورات الاختلاف، منشورات الضفاف، دار الأمان الرباط، ط1، 2014، ص:68.

4- محمد مشبال، البلاغة والخطاب، ص:68.

هو المرحلة التي تسبق بداية صناعة الخطبة، وفيها يجمع الخطيب مواد الخطبة من حجج ودلائل ومحاولة فهم مختلف عقليات ونفسيات السامعين حتى يتسنى له مراعاة أحوالهم، وقد اصطاح أرسطو على هذا العنصر من بناء الخطبة "بالمواضع" وأولى لها عناية خاصة " وهو بذلك يشكل جوهر الصناعة الخطابية التي لن تصبح صناعة بالفعل إلا إذا مكن الخطيب من القدرة على الحجاج في أي موضوع"¹، و تنقسم حسب أرسطو إلى قسمين، "مواضع عامة مشتركة تدور حول موضوعات القانون، والفيزياء والسياسة وأنواع أخرى كثيرة من فروع المعرفة، مثلا موضع الأكثر والأقل، لأنه لا يمكن أن نعمل منه قياسا منطقياً أو قياسا مضمرًا على نحو واحد..... وكذلك توجد في الأخلاق مقدمات لا يمكن أن يأخذ منها قياسا مضمر"² فالمواضع من النوع الأول (مواضع عامة) هي التي يمكن أن نوظفها مع جميع أنواع المواضيع وإن كان هذا التوظيف يتم بطريقة نسبية من جنس خطابي إلى آخر، أما النوع الآخر من المواضيع الخاصة (مواضع الأخلاق) فهي تختص بجنس خطابي معين لا يمكن توظيفه في غيره مثل المواضيع التي تتناول القيم والمبادئ الإنسانية.

من ثمّ أسهب أرسطو في تحديد وتفصيل هذه المواضع، وبعدها عمد إلى شرح المواضع التي يختص بها كل جنس من الخطاب؛ لأن "الحجج غير محدودة، بل هي لا نهائية، ولا يمكن لأية خطابة أن تحيط بها وتجمعها. إنها مهمة شبه مستحيلة. لذلك فإيجاد الحجة يبقى مهمة يضطلع بها الخطيب نفسه، ولا تستطيع الخطابة سوى أن تسهل هذه المهمة عليه، وذلك بتوفيرها مواد ومصادر يستقي منها حججه، ويمنح منها وسائل الإقناع المناسبة للمسألة والموضوع الذي يهمله."³ ومنه يمكن أن نفهم أن القصد بالمواضع تلك العلاقة المتناسبة بين موضوع الخطاب وبين الحجج والأدلة التي تمنح القوة الإقناعية للخطاب، وتبقى هذه العملية تتسم بتكلف الجهد في الإلمام بجميع جوانب الموضوع والبحث في معطياته؛ لأن الظروف المحيطة بالخطاب تساهم بشكل فعال في خلق مواضع جديدة تفرض نفسها على الخطاب، بالرغم من ما قدمه أرسطو من بحث معمق في دراسة أنواع من المواضع.

ترتيب أجزاء القول:

¹ - د حسن بنو هشام، بلاغة الحجاج الأصول اليونانية، ص: 227.

² - الخطابة، أرسطو، ت: عبد القادر قنيني، ص: 21.

³ - د حسن بنو هشام، بلاغة الحجاج الأصول اليونانية، ص: 228.

يتكون الخطاب في نظر أرسطو من جزأين أساسيين "إذ لا بد من ذكر الموضوع الذي نبحت فيه، ثم بعد ذلك نقوم بالبرهنة. ولهذا فمن المستحيل، بعد ذكر الموضوع، أن نتجنب البرهنة، أو أن نقوم بالبرهنة قبل ذكر الموضوع أولاً"¹ وهذا التقسيم يلائم تقريباً جميع أنواع الخطاب، وإن كان بعض الأنواع الأخرى يمكن أن تستدعي أقسام أخرى، "وعلى الأكثر قد يشمل خطاب ما على مقدمة وطرح قضية، والإثبات بالدليل، وخاتمة"² وهذا حسب نوع الجنس الخطابي، فبعد تحديد الحجج يقرر الخطيب مكونات الخطاب وتقسيماته الكبرى، ثم يعمل على ترتيب كل ذلك، بحيث يضع كل جزء في موضعه المناسب، ويتم ذلك بعناية كبرى مراعيًا خصائص كل جنس خطابي.

- وسائل الإقناع:

الإيتوس، الباتوس، اللوغوس:

أراد أرسطو أن يحو تلك النظرة الضيقة التي أحيطت بها البلاغة بوصفها أداة للتلاعب بالأفكار وهذا بتأسيس منظومة من القيم الحجاجية تشترك في صياغتها أدوات منطقية وأخرى أخلاقية، انفعالية. "ويتحقق عبر اللوغوس، الذي يعني الكلام والحجج والأدلة، ويظهر ذلك جلياً في نسق الرسالة التواصلية. وإما يتحقق عبر الإيتوس الذي يتمثل في مجموعة من القيم الأخلاقية والفضائل العليا التي ينبغي أن يتحلى بها الخطيب أو البلاغي المرسل، وإما بتجسيد في الباتوس الذي يتعلق بالمخاطب، ويكون في شكل أهواء وانفعالات"³ ما هي إلا مجموعة من الوسائل الصناعية التطبيقية التي يحرص الخطيب على ضرورة استخدامها مجتمعة حتى تؤدي وظيفتها الإقناعية.

الاستدلال المنطقي:

تنطلق الخطابة الأرسطوية في مجملها من منطلقات منطقية استدلالية، أعطت لنظرية أرسطو المؤسسة للخطاب دفعا جديداً وصدى واسع إلى يومنا هذا؛ لأنه يكسب الخطاب مصداقية فيكون أكثر إقناعاً، لذا حرص أرسطو على دراسة قواعد الاستدلال الحجاجي المنتج في الخطاب وهو عند أرسطو "تفكير عقلي بواسطته يتم إنتاج العلم. ولكن هذا الاستدلال لا ينطلق من الفراغ، بل من

¹ - أرسطو، الخطابة، ت: عبد الرحمن بدوي، ص: 228، 229.

² - الخطابة، أرسطو، ت: عبد القادر قنيني، ص: 21.

³ - د: جميل الحمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، ص: 26.

معارف سابقة أهمها المبادئ والتعريفات أو حتى مسلمات شائعة.¹ وبتتبع أنواع التصديقات عند أرسطو يتبين لنا أن الريطوريقا لا تقوم إلا عليها "والأدلة فيها تنقسم، منها ما هو خارج عن التقنية، ومنها ما هو تقني صناعي. ونقصد بالأدلة التقنية تلك التي لا توفرها لنا وسائلنا الشخصية، ولكنها تعطى مسبقاً؛ مثل الشهود والاعتراف تحت التعذيب و الوثائق والعقود وغيرها من الوسائل الشبيهة بها. أما الأدلة التقنية فهي التي يمكن أن يوفرها لنا المنهاج، ووسائلنا الشخصية ونتيجة لذلك فإنه ينبغي أن نستعمل الأولى ونبكر الثانية بأن نستخرجها"². الأولى تمثل الكلام المقنع الذي لا يحتاج إلى إثبات ولا يكون فيه صناعة أي التي اعتدنا تصديقها والقبول بها دون اللجوء إلى براهين أو أدلة، مثل البديهيات أو المسلمات وعادة الأمر يكون مع أناس تفكيرهم بسيط لا يلجؤون إلى التحليل أو التفسير أو القياس، أما الثانية فهي ما كان مقنعاً يحتاج إلى تثبيت أي ما حصل فيها شك أو إن كان الكلام موجه إلى جمهور يفتش عن الحقيقة معتمداً على الدليل حتى يقتنع بالمنطق هو الأداة التي يتم بها ترتيب أجزاء القول وتنظيم الأدلة محاولاً استخلاص الطريقة التي تمكن الخطاب من إيصال الفكرة والعمل على الإقناع بها.

من هنا ندرك أن التصديقات عند أرسطو في الغالب تتطلب التثبيت ويكون ذلك بالبرهان أو الاستقراء وكلاهما يقودان إلى القياس "ومهما يكن من أمر فالفرق بين القياس والاستقراء عنده هو بالأساس فرق في الاتجاه فيما يبدو. فالقياس هو إخراج جزئي من كلي والاستقراء هو إخراج كلي من جزئيات، أما المثال فيختلف عنهما ويتمثل في إخراج الجزئي الخفي من الجزئي الأعراف وقد أحقه بالاستقراء وبذلك اعتبر أن للاستدلال شكلين هما القياس والاستقراء، وليس "التبكيث" (Refutation) والضمير (Enthyméme) سوى نوعين من أنواع القياس³ وهو من أهم وسائل الإقناع عند أرسطو لما يتسم به من خصائص عقلية مجانية للحقيقة التي تتوسلها الخطابة.

الاستدلالات القياسية هي التي تبني الخطاب شيئاً فشيئاً، أهم غاياتها هو الإفهام ولا يكون إلاّ بالإثبات، وعليه نستنتج أن آليات الاستدلال عمدة الخطاب الحجاجي "وفي تحليل أرسطو لدور

¹ - أحبيب أعراب: الحجاج والاستدلال الحجاجي "ضمن مجلة عالم الفكر، العدد 1 المجلد 3 يونيو، سبتمبر 2001م، ص: 126.

² - أرسطو، الخطابة، ت: عبد القادر قنبي، ص: 15.

³ - هشام الريفي، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، ص: 101.

الاستدلال في الحجاج، نجده يتوسل بالآلية المنطقية في الربط بين المقدمات و الاستنتاجات الخاصة بكل من الأقيسة والاستقراءات inductions والأمثلة لأنها الأشكال الثلاثة الكبرى للاستدلال؛ ونراه في غير موقع من كتاب "الخطابة" يشير إلى دور هذا الثلاثي¹، ويمكن الذكر على سبيل المثال قوله: "يمكن أن نتج ونستنتج تارة من القضايا سبق أن برهن عليها القياس، وتارة من قضايا لم ينتجها القياس ولكن قد تقتضي قياسا ما، لأنها ليست قضايا الرأي الشائع."² وكذلك قوله: "وقد ذكرنا أن المثال هو استقراء ما، وإلى أي نوع من أنواع الموضوعات ينتمي هذا الاستقراء."³، وعموما وسائل الإقناع هي كل ما يمكن إثباته إما عن طريق الدليل المادي أو الدليل العقلي (الاستدلال المنطقي). "فمنفعة الكلام المقنع إنما تكون عند الفحص، والمقنعات هن اللاتي قد فحص عنهن، حتى لا يحتاج فيهن بعد ذلك إلى كلمة واحدة."⁴ وبهذا تشكل وسائل الإقناع الأداة التي يمكن الرجوع إليها متى اقتضى ذلك لإثبات صحة الاستدلال، والكلام المقنع هو الكلام الذي إذا ما حللت معطياته أو أعدت تركيبه من جديد ترسخ الإقناع لديك أكثر.

من الملاحظ أن أرسطو أولى القياس المضمرة أهمية خاصة من بين جميع الاستدلالات المنطقية التي تبنى عليها العملية الحجاجية إذ يقول: "في الحقيقة فإن جميع الخطباء، لكي ينتجوا القناعة، يبرهنون بالأمثلة، وبالقياسات المضمرة."⁵ ويرجع هذا الاهتمام الخاص إلى طبيعة الاستدلال نفسه إذ أن هذا النوع من الدليل يحذف منه بعض مقدماته "إذا عرفت إحدى المقدمات فلا حاجة إلى ذكرها ولا التصريح بها، لأن المستمع يفطن إليها، ويضيفها إلى المعنى المقصود"⁶ وحتى إن كان لا يعرف أن الكلام ينطوي على معنى مضمرة لا بد له من أن يصل إلى ما أضمر سواء من خلال سياق الكلام أي في بنية الخطاب الذي ورد فيه الخطاب.

¹ - د: محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر، ص: 39.

² - أرسطو، الخطابة، ت: عبد القادر قنبي، ص: 18.

³ - نفس المرجع، ص: 20.

⁴ - أرسطو، الخطابة، ت: عبد الرحمن بدوي، ص: 131.

⁵ - أرسطو، الخطابة، ت: عبد القادر قنبي، ص: 17.

⁶ - أرسطو، الخطابة، ت: عبد القادر قنبي، ص: 19.

كما قد تكمن في علامات الإعراب والصيغ الصرفية أو في معاني الحروف ويسمى هذا النوع من الاستدلال بالشواهد القولية، أو من خلال ما يعرف بالشواهد الحالية وهي الخارجة عن سياق الخطاب أي المتعلقة بالمستدل والمستدل له (المعرفة المشتركة بينهما) أو بمقتضى الحال.¹ وهو المعنى الذي يتضمنه معنى اللفظي أي هو معنى جزئي من المعنى الكلي، هذا المعنى تساهم في بلورته عدة أطراف من العناصر المحيطة بالاستدلال لكن يبقى الاتجاه العقلي هو وحده الكفيل الذي يؤلف بين هذه الأطراف للاستدلال على المحذوف.

الأسلوب (البناء اللغوي):

رغم الأهمية التي يحظى بها الاستدلال المنطقي عند أرسطو إلا أنه لا يقتصر عليه بل يزواج بينه وبين "التصديقات التي نختال لها بالكلام فإنها أنواع ثلاثة: فمنها ما يكون بكيفية المتكلم وسمته، ومنها ما يكون بتهيئة للسامع واستدراجه نحو الأمر، ومنها ما يكون بالكلام نفسه"² عن طريق إعطاء الكلام مقدمات وتفسيرات تمهد للموضوع أو بحسن اختيار الألفاظ وكيفية ترتيبها ضمن سياق الكلام وإضفاء عليه رونقا وجمالا بإثارة الانفعالات والعواطف؛ إذ "يعتبر أرسطو أن "اللغة" هي المحرك للأمور النفسية والانفعالات الاجتماعية و بها يستطيع المحاجج أن يعيَّب حياد المعنيين، ويجعلهم بحكم تلك الانفعالات مشاركين فعليين في الموضوع المطروح."³ لكن هذه اللغة لا بد من أن تكون مضبوطة بقوانين المنطق الحملي.

عند تتبع هذه الأنواع من الاستدلالات نلاحظ أنه "يندرج عمل أرسطو المنطقي في محاولة وضع المعايير الثابتة التي تنضبط بها هذه المسافة على مستوى اللغة من خلال صورنة formaliser سياقاتها (المنطق الصوري)، أما على المستوى العلمي (الاجتماعي) فمن خلال تحديد مواضع (les topiques) ثابتة للمخاطبين حتى تحافظ المسافة المعرفية الحقيقية على طولها المشروع، فتتنضبط بذلك الاتفاقات العلمية (الأخلاق، السياسة...)"⁴ وتبقى البراهين الكلامية واحدة من بين البراهين التي

¹ - ينظر، طه عبد الرحمن، في أصول الحوار تحديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الرباط، المغرب، ط2، سنة 2002م، ص: 151.

² - أرسطو، الخطابة، ت: عبد الرحمن بدوي، ص: 10.

³ - محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 39.

⁴ - د: عمارة ناصر، الفلسفة و البلاغة، ص: 21.

نستعين بها للإقناع، "ثم مع هذا أيضا أن يعرفوا هم أنفسهم كيف هم، وبأية حال هم، وأما المعرفة بالتكلم أي امرئ هو فألها تعين بالزيادة عند التشاور"¹، لأن إذا ما عُرف السامع مكن المتكلم من معرفة نفسيته وميوله وثقافته وأفكاره ومن هذا كله يستطيع أن يبني المؤثرات التي تفتح له الطريقة الأسهل والأسرع إلى الإقناع.

يتضح من هنا أنّ الحديث عن الحجاج الخطابي يستدعي دراسة قوانين الاستدلال وضرورة مراعاة استخدامها وفق المعايير المنطقية. لكن هذا لا يعني أن الأسلوب في الخطابة أرسطو أقل شأنًا من المنطق، على العكس من ذلك "قد فضل أرسطو البلاغة على المنطق، لأنّ البلاغة أكثر فاعلية في المجتمع وأداة ناجعة في تفعيل الجدل والخوض في المناقشات السياسية والفكرية. في حين يبقى المنطق حبيس المعرفة العلمية بعيدا عن الحياة السياسية، وقد جعل أرسطو من البلاغة أداة تطبيقية تتخلل المنطق والسياسة والأخلاق."² وترجع أهمية الأسلوب في نظر أرسطو إلى أن مهما كانت قوة وسائل الإقناع تبقى محدودة التأثير أن لم تقدم بأسلوب فيه استمالة للعواطف؛ لأنّ "عامّة الناس يتأثرون بمشاعرهم أكثر مما يتأثرون بعقولهم، فهم في حاجة إلى وسائل الأسلوب أكثر من حاجتهم إلى الحجة، فلا تكفي إذن أن يعرف المرء ما ينبغي أن يقال، بل يجب أن يقوله كما ينبغي"³ لذا نجد أنّ أرسطو في نهاية كتابه "فن الخطابة" أفرد دراسة مفصلة عن أسلوب الخطبة وكيفية تركيبها؛ لأنه كان على يقين أنّ "القول الخطابي إذا لم يبين عن موضوعه لم يؤدّ وظيفته"⁴ والإبانة لا تظهر إلاّ عن طريق الأسلوب الواضح ثم الملاءمة بين مكونات الخطاب.

من بين أهم مكونات الأسلوب الكلمة القوية المعبرة التي تعمل عمل السحر في نفوس متلقيها، وكذا بحسن اختيار موضعها داخل الخطاب تجنّب الإيحاءات التي لا يريد أن يتحملها الخطاب، في المقابل قد ينطوي تحتها استدلالات يفرضها مكان تموقع الكلمة في الخطاب، كذلك "الذي يجعل الأسلوب واضحا هي الخاصية التي تتميز بها الأسماء والكلام (الأفعال)، وما يرفع عن الأسلوب السطحية ويجعله مزخرفا ومزينا هو استعمال سائر الألفاظ التي أحصيناها في كتاب فن الشعر

¹ - أرسطو، الخطابة، ت: عبد الرحمن بدوي، ص: 82، 81.

² - د: جميل حمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، ص: 25.

³ - محمد العمري، بلاغة الخطاب الإقناعي، ص: 97.

⁴ - أرسطو، الخطابة، ت: عبد القادر قنبي، ص: 183.

(الفصلان 20، 22)، لأن الابتعاد والعدول عن الاستعمال العادي يجعل الأسلوب يظهر أكثر رونقا ورشاقة.... وهكذا ينبغي أن نعطي للغتنا مظهرا غريبا ولونا عجيبا، وذلك لأنه يحصل لنا الاستغراب عما هو بعيد وكل ما يثير الإعجاب والاستغراب يكون لذيذا"¹؛ وهذه العملية (حسن اختيار الكلمة) تنم عن عبقرية الخطيب في تناوله للموضوع بطريقة بسيطة بعيدة عن التكلف فمن "علل برودة الأسلوب هي أن تفاهته تنتج عن الإسهاب والحشو، وتلك البرودة متى استخدمت الأسماء الموضوعية مطولة وفي غير مكائنها وأوانها وبدون مناسبة أو وقع تكرارها بلفظها عن قرب.... ويتبين أن هذا النوع إنما يصلح في الشعر، وأنه مستعمل فيه لأن هذه النعوت والصفات تخرج من المتعارف والمعتاد، تكتسي الأسلوب غرابة غير متداولة"²، فأرسطو يحرص على أن يكون أسلوب الخطاب متداول يعتمد اللغة الطبيعية لأن كل طبيعي مقنع ترتاح له الأنفس وكل خارج عن الطبيعة مستكره تحوم حوله الشكوك.

يتضح لنا من خلال هذا الاستقراء المقتضب لوسائل الإقناع التي أقرها أرسطو وأسهب في شرحها أنه حاول وضع منهج متكامل يسير من خلالها صانع الخطابة حتى يتجنب الوقوع في الخطابة في مزالق السفسطة وتعم فائدتها؛ لأنها ممارسة تواصلية آلية تتبع عن كل تفاعل معقول.

2-2-3- الحجاج الخطابي والحجاج الجدلي:

أقام أرسطو علاقة بين صناعة الخطابة والجدل في بداية كتابه "الخطابة" في قوله "إن الريطورية ترجع على الديالكتيكية، وكتاهما توجد من أجل شيء واحد، ويشتركان في نحو من الأنحاء."³ وتكمن هذه العلاقة في نظره إلى الهدف الذي من أجله وجدت الخطابة وهو الهدف نفسه الذي يسعى الجدل إلى تحقيقه وهو الإقناع، فمهمتهما واحدة وإن كانت تختلف في وجهة الإقناع، حيث أن الخطابة موجهة حسب أرسطو إلى جمهور عامة الناس في المحافل القضائية أو المحافل العامة بينما

¹ - أرسطو، الخطابة، ت: عبد القادر قنبي، ص: 183.

² - نفس المصدر، ص: 188.

³ - أرسطو، الخطابة، ت: عبد الرحمن بدوي، ص: 03.

الجدل موجه إلى متلقي معين في ظرف خاص، كما " أن الجدل ضرب ثان من الخطاب المتقاطع مع الخطابة. إذ هما معا يعتمدان على المحتمل أي ما يسلم به الناس"¹، لأن البلاغة الإقناعية تأخذ من الجدل القدرة على التحكم في أنواع الاستدلال المنطقي ومن جهة أخرى تعمل على توظيف هذه القدرات ضمن إطار أخلاقي.

أما المحتمل هو ما يدور حوله موضوع الخطابة فهي تعتمد على المسائل الظنية التي قد يختلف حولها الناس فتكون بمثابة أداة تعمل على إزاحة ذلك الشك الذي يخلفه الإقناع، هذا المحتمل هو من صميم "الجدل أو دياالكتيك (Dialectique) الجدل أو المحاوراة أو استعراض الأفكار المتناقضة حول موضوع ما أي: إن الجدل هو تبادل الحجج والأفكار وتبادل وجهات النظر المختلفة من أجل الوصول إلى الحقيقة، أو هو ذلك الجدل بين طرفين دفاعا عن وجهة نظر معينة ويكون غالبا تحت لواء المنطق أو الوغوس أو مقاييس الاستدلال"²، من هنا ندرك أن العلاقة التي أقامها أرسطو بين الخطابة والجدل لا تقتصر على الغاية فقط (الإقناع) إنما تعداها إلى الوسيلة التي نصل بها إلى هذه الغاية.

فمهمة الخطابة في نظر أرسطو كما سبق وأن أوضحنا ذلك، تتمثل في أنها تهتم بكشف وسائل الإقناع "وفضلا عن ذلك فإنه من الواضح أن الخطابة تستخدم كذلك لاكتشاف الإقناع الحقيقي من الإقناع الظاهري، كما يُظهر الجدل القياس الحقيقي ويميز عن القياس الظاهري"³ إلى درجة أن أرسطو لا يكاد يفرق بينهما (الخطابة، الجدل)، في قوله: "إذ كل واحد منهما ليس هو علما له موضوعه المتمايز حتى تعرف خواص كل واحد منهما وإذن كلاهما ليسا لإقدرات أو ملكات يقتدر بها على تقديم الحجج."⁴ بحيث يشتمل الجدل تقريبا على كل الأمور التي تختص بها الخطابة والتي يتوصل بها إلى الإقناع وإن كان ذلك بنسب متفاوتة بينهما.

¹ - محمد الوالي، مدخل إلى الحجاج من أفلاطون، ص: 24.

² - د: جميل حمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، ص: 11.

³ - أرسطو، الخطابة، ت: عبد القادر قنيني، ص: 14.

⁴ - أرسطو، الخطابة، ت: عبد القادر قنيني، ص: 16.

من هذه الجوانب يتبين لنا أن الخطابة والجدل عند أرسطو منبعهما واحد وهو المحتمل، وكذلك مقصدهما واحد وهو الإقناع، وعلى هذا الأساس يرتبط الحجاج الخطابي بالحجاج الجدلي، حيث تستغل الخطابة الآليات الجدلية، الحوارية عند مناقشتها للقضايا الإنسانية؛ لأن البلاغة أكثر فاعلية في المجتمع، وأداة ناجعة في تفعيل الجدل والخوض في المناقشات السياسية والفكرية.¹ إذ يضع الخطيب نفسه مع متحاور وهمي خلال مرحلة اختيار المواضيع فيساعده ذلك على اكتشاف المواضيع الحسنة.

3-مرحلة تدهور وانحطاط البلاغة:

لم تعرف البلاغة بعد أرسطو الكثير من التطور غير بعض الشروح أو إعادة ما كان من قبل، لكن ظلت البلاغة تحافظ على أهميتها وهذا ما يلاحظ على " أن نظرية الحجاج، التي ارتبطت كثيراً باتساع الجمهورية الرومانية كانت تعطي أهمية كبيرة للكلام والنقاشات العامة. وسيطرت بالكامل تقريباً على فضاء التفكير البلاغي، أي فن اللغة بشكل عام. إنها نظرية حية ومتعددة اقترنت بالثقافة العامة، وبالثقافة السياسية لعصر من الخطيب البطل الحقيقي، الحديث الذي سيبقى نموذج شيشرون، المحامي والمدافع عن حقوق الشعب ورجل السياسة، ومثال الفضيلة"² من هنا يبدو أن البلاغة الرومانية سارت وفق البلاغة الأرسطية مع إعطاء عناية خاصة بالخطيب باعتباره المؤثر الأول في العملية الإقناعية.

هذه العناية الخاصة بالخطيب كان لها أثر مأساوي على البلاغة، فرغم أن الخطابة الرومانية ورثت عن نظيرتها اليونانية كل مقومات الخطابة التي أرسى دعائمها أرسطو لكنها أعطت للخطيب أولوية على حساب الإقناع، ويمكن القول أن البذور الأولى لانحطاط البلاغة ظهرت من هذا التوجه المتمركز حول الخطيب والذي أضفي عليه هالة من القداسة، التي حدّت من حرية المتلقي في قبول

¹ - جميل الحمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، ص: 25.

² - فيليب بروتون، جيل جوتيه، تاريخ نظريات الحجاج، ت: محمد ناجي صالح الغامدي، مركز النشر العلمي، جدة، السعودية، ط1، 2011م، ص: 36.

الخطاب¹ وبالتالي أصبحت وسائل الإقناع والمعايير التي تسعى البلاغة لاكتشافها لا معنى لها في ظل أن الإقناع مسألة مفروغ منها من الأول.

وبدأت أهمية الإقناع تتلاشى شيئاً فشيئاً لتأخذ مكانها وبقوة الزخرف اللفظي والمحسنات البديعية، و"يعتبر كتاب مؤسسة للبلاغة لكينتيان الذي عاش في القرن الأول للميلاد من المؤلفات الأولى التي مهدت للبلاغة المحسناتية. ولقد كان كينتيان يترسم خطوات أستاذه شيشرون الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد. ومن مؤلفاته في الموضوع الإيجاد والخطيب والأجزاء الخطابية. وهو بدوره خص المحسنات بعناية كبيرة. غير أن هذا التزوع الجمالي - المحسناتي - قد بلغ الذروة في كتاب محسنات الخطاب للبلاغي الفرنسي فونتاني الذي عاش في القرن التاسع عشر"²، هذا التوجه المحسناتي أخذ يحتل مساحة كبيرة من الاهتمام في المحيط البلاغي بل أنه أصبح يشكل الغاية الأساسية للبلاغة والذي كان من قبل مجرد وسيلة ثانوية في بلاغة أرسطو، ليجرد بذلك البلاغة من غاية الإقناع التي تصبو البلاغة إلى تحقيقها.

من أهم الأسباب التي عملت كذلك على تراجع القيمة الحجاجية للبلاغة هو تنامي تيار العلم التحريبي "ففيما يخص الفنون الثلاثة"³، التي كانت تسيطر عليها البلاغة، فإنها وقعت سريعاً تحت سلطة المنطق. ومن الأجزاء الخمسة⁴ المؤسسة للبلاغة نجد الاستظهار والفعل تراجعاً مع تراجع الخطيب، من جانب وتقدمت الكتابة من جانب آخر. وتراجع الإبداع تحت ضربات المنطق الذي أصبح شيئاً فشيئاً منطقياً صورياً⁵، فبعد أن كانت البلاغة مهارة في يد صانعها يفتن بها القلوب ويدعن لها العقول، أصبحت ليست أكثر من قوالب وقواعد جاهزة جامدة عقيمة لا حركة فيها ولا إبداع "لهذا هاجم نيتشيه البلاغة وأعاد خلخلتها ثم بناها على أساس الاختلاف، محاطاً بأوهام الحقيقة المعبر عنها بواسطة

¹ - ينظر: أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، ص: 5.

² - محمد الوالي، مدخل إلى الحجاج من أفلاطون، ص: 33.

³ - النحو، البلاغة، المنطق.

⁴ - الأجزاء الخمسة هي: الاستهلال، المواضع، العرض، الأسلوب، الاستدلال.

⁵ - فيليب بروتون، جيل جوتيه، تاريخ نظريات الحجاج، ص: 39.

اللغة"¹؛ لأن الحقيقة لا تبني بمعزل عن اللغة، هذه اللغة التي تتضمن جميع المتناقضات (الواقع، الوهم)، (الممكن، اللاممكن) وأهم ما يمثل هذه المتناقضات داخل اللغة هي البلاغة.

هذه الأسباب المترابطة من العهد الروماني إلى القرن السادس عشر تفسر بوضوح " غياب البلاغة في الفكر الغربي، من المصادر المنطقية الصورية الأرسطية إلى القلق الديالكتيكي الهيجي ظلّ يعني غياب الحوار في بنية التفكير "العقلاني" وهو ما يعني أيضاً تقلص أبعاد الإنسان "كائن الأبعاد"، وضمور الحوار الذي نكوّنه، بتعبير غادمير الشهير، والحوار في المعرفة يعني عرضاً للآراء وإقامة الحجّة عليها والتفاوض حول قيمة الصدق فيها ودرجة اليقين"² إذ على أساسهما يبنى الخطاب البلاغي الذي هو أصل كل عملية تواصلية.

من خلال تصفح تاريخ البلاغة ووقوف على ما منيت به من تهقير لا نجد إلاّ قول "بور ريكو" الذي يلخص لنا "تاريخ الخطابة، هو تاريخ انكماش مستمرّ. يكمن أحد أسباب موت الخطابة في هذا الأمر: إنها باختزال في واحد من أجزائها، فقدت في الآن نفسه الرابط الذي يربطها بالفلسفة عبر الجدل؛ وبضياع هذا الرابط، أصبحت الخطابة حقلاً معرفياً تائهاً ومبتذلاً. ماتت الخطابة حينما عوّض ذوق تصنيف المحسنات بالكامل المعنى الفلسفي الذي كان يبعث الحياة في إمبراطورية الخطابة المترامية"³، من هنا يمكن اعتبار أن حياة البلاغة لا تقوم إلاّ في الوسط العام، الفسيح، لا يحدها حدود مهما كانت صفتها، ويتم ذلك باتصالها المباشر بالجدل الذي تغذيه الفلسفة.

¹ - د: عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة، ص: 59.

² - نفس المرجع، ص: 66.

³ - بول ريكور، الاستعارة الحية، ت: د: محمد الوالي، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1، س2016م، ص: 48.

الفصل الأول

البلاغة الجديدة عند "بيرلمان" المفهوم،

والبناء"

البلاغة الجديدة:

1- ظروف انبعث البلاغة من جديد:

استدعت بداية النهضة الأوربية الحاجة الماسة إلى إعادة الاعتبار للخطاب والنهوض به من جديد لما لهذا الأخير من دور فعال في تنمية الأمة على جميع الأصعدة السياسية والاجتماعية، والاقتصادية، فتضافرت جهود المفكرين المعاصرين الغربيين في إحياء التراث البلاغي اليوناني بإعادة قراءته من جديد، مستعينين بالأبحاث اللسانية في تلك الفترة، فقد ساهم "تطور الدراسات اللغوية والانتقال من لغويات اللسان إلى لغويات الكلام"¹، في إبراز البعد الحجاجي للملفوظ في بعض وجوه توظيفه، وقد ساهم في ذلك عدة عوامل أهمها:

- تغير مفاهيم العلم:

خاصة وأن العلم بدأ يأخذ مفاهيم جديدة مغايرة لمفهوم العلم قديماً "بحيث أصبح يعتمد على التجريب والنظرية وحركية القوانين النسبية، واختفى منه الأساس المعياري التقويمي اختفاء كلياً ليحل محله الشرح والتفسير، ومتابعة الظواهر في تشكيلها وحراكها والبحث عن وظائفها المتعددة - كل ذلك آذن بانتهاء عصر التعريفات المنطقية القبلية الدائمة بشكل لا رجعة فيه، وخضوع المنطق والفلسفة ذاتهما لنتائج البحث العلمي المتجدد في أدواته ومناهجه"² فاستدعى ذلك بعث البلاغة من جديد وتحليصها مما وسمت به من قصور لحق بها بسبب ابتعادها عن غايتها الأساسية وهي الإقناع مع جنوحها إلى التزويق والتنميق لفترة زمنية طويلة؛ وبما أن "البلاغة القديمة كانت متسقة مع جملة المعارف التي نشأت في إطارها وبصحبتها، أبرزها المنطق، والفلسفة؛ لأن المنطق الصوري "آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن من الخطأ في الفكر"⁽³⁾، هذا المنطق لطالما هُجم واعتبر أنه يتعارض مع ماهية البلاغة، هذا عندما " فقد الحجاج مكانته ليحل فيه البرهان العقلي، خاصة من ديكرت، وبالتالي حرمان البلاغة من الجزء الجوهرية الذي تمثله نظرية الإبداع (Theorie de l'invention). لأن المنطق يقوم على حقائق ليصل إلى حقائق أخرى، بينما البلاغة تقوم على المحتمل لتصل إلى حقائق

¹ - محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 103.

² - صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، دار الكتاب المصري القاهرة، دار الكتاب اللبناني بيروت، ط1، س 2004م، ص: 138.

³ - الشهيد مرتضى المطهري، المنطق، ت: الشيخ حسين، دار الولاء للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط02، س 1432هـ، ص: 12.

محتملة وليست يقينية، وكذلك لأن الاستدلالات الخطابية لا يمكن للمنطق الصوري دائماً صورتها وصوغها "إذ تبدو هذه الأدوات الصورية إما بالغة الضيق أو التعقيد أو بالغة التنظير والتجريد أو بالغة التقنية والتحسيب فنحتاج إما إلى تطويرها وتوسيعها وإما إلى تركها وطلب غيرها"¹، كما أن هذا الأمر يتعارض مع وجهة نظر أولئك الذين يريدون إبقاء الاتصال بين علم المنطق والنشاط المنطقي الطبيعي² وتعتبر هذه النظرة التي ترفض اقتران البلاغة بالمنطق نظرة دخيلة على علم المنطق الأرسطي حيث أخذ اتجاه مغايراً تماماً للغاية للحجاجية التي وضع من أجلها فقد قرنه أرسطو بالخطابة ليكون بمثابة وسيلة تحكم العقل وتقيمه من الخطأ لأن لغتنا الطبيعية تقوم أصلاً على المنطق.

إنّ هذه النظرة السيئة التي ألصقت بالمنطق كادت أن تكون سبباً في اندثار البلاغة. هذا يفسر سبب رفض "بيرلمان من البداية الخيار الصائب الذي يحيل ما يمكن إحصاؤه إلى العقل البرهاني *La raison démonstrative*، وما لا يمكن إحصاؤه؛ أي كل ما ينبع من القيم وما يحتمل الصواب"³ فهو بهذا يقدم تصور آخر للمنطق الموازي للمنطق الديكارتي الذي لازم العلوم فترة زمنية طويلة، وسمت الصرامة العلمية التي قيدت الإبداع والخيال، "وهكذا يظهر اتجاهان لدى المهتمين بالمنطق: إبقاء هذا المنطق في دقته ولو اقتصر على أن لا يعبر بالمطابقة التامة إلا عن الخطاب الرياضي، وتوسيعه وتليينه، ولو أدى ذلك إلى قبول بعض التخلخل في قانون الاستنتاج وفي دقة الحسابات"⁴، هذا الاتجاه يتوافق مع بلاغة الحجاج التي لا تستثني أي محتمل خاصة وأن الفكر الإنساني يقوم جله على ما هو محتمل وحتى أن الحقائق الثابتة علمياً كثيراً ما تصبح في دائرة الاحتمال بعد ظهور مستجدات مع مرور الزمن.

- اكتساح الخطاب الحجاجي جميع الميادين :

فرض الخطاب الحجاجي نفسه على جميع المجالات في يومنا الراهن مما ساهم في انتقال البلاغة من معرفة مبتدلة وفارغة ينادي الكثير بموتها (قيرلين - هوجو) إلى معرفة رائدة تطمح لأن تصير علماً عاماً للخطاب (الخطابات)، بل وعلماً مستقبلياً لكافة فروع المجتمع، وهو ما يجعلها تحضر، بقوة في

¹ - طه عبد الرحمن، التكوثر العقلي، اللسان والميزان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، ص 1998م، ص: 270.

² - روبير بلانشي، العقل والخطاب دفاع عن المنطق الفكري، ت: أ، د: محمود يعقوبي، دار الكتاب الحديث، القاهرة، (د، ط)، ص: 2009، ص: 24.

³ - فيليب بروتون، جيل جوتيه، تاريخ نظريات الحجاج، ص: 44.

⁴ - روبير بلانشي، العقل والخطاب دفاع عن المنطق الفكري، ص: 91.

معظم الحقول المعرفية انطلاقاً من الفلسفة والمنطق والأدب إلى اللسانيات والسميائيات والتداوليات وغيرها¹ أخذ الخطاب الحجاجي يحتاج جميع الميادين وبقوة فلم يعد محصوراً في الخطاب الأدبي فقط، بل تعدى ذلك إلى كل الخطابات التي تبنى على الأدلة والحجج، "الانفتاح على حقول معرفية أخرى والحاجة إلى تضافر التخصصات في استكشاف قوانين الظواهر المدروسة أثرت تأثيراً كبيراً في طرائق النظر إلى العلامات والتفكير الحجاجي، وتجلت أهميتها في جوانب عديدة من تيارات تحليل الخطاب كما هو شأن الاهتمام بالتلفظ وإنتاج المعنى"²، فأصبح لازماً على الباحثين والنقاد الالتفات إلى هذا النوع من الخطاب.

تعتبر المدرسة البلجيكية التي يمثلها "شايم بيرلمان" (chaime Perlman) و"تيتكا" (Titika) والمدرسة الفرنسية والتي يمثلها "ميشال ماير" (Mickel Meyer)، الرائدتان في عملية إحياء البلاغة، فكتاب "مصنف في الحجاج" ل"شايم برلمان" يعتبر الانطلاقة الفعلية والجادة للبلاغة بمحاولة تحريرها من قيود القواعد الجافة والارتقاء بها لتتربع على عرش العلوم الإنسانية من جديد فتستعيد مكانتها، و العنوان الفرعي "البلاغة الجديدة"، لكتاب "بيرلمان" قد عبر عن هذا التوجه العام الذي يروم جعل البلاغة علماً مستقبلياً هدفه - أو على الأصح، أهدافه - تطوير المجتمع وتحليل مختلف الخطابات عن طريق الوقوف على خططها الحجاجية المتأسسة عليها، وهي أهداف تحقق أيضاً التوجه إلى آفاق القراء وحججهم من جهة، والتخلي عن التزعة المعيارية من جهة ثانية، وهو تخط كان من أسبابه التغيير العام الذي حصل في مناهج العلوم الإنسانية عامة³، وهذا بإعادة صياغة قوانين جديدة تحكم العقل

- الوقوف على الحقائق:

بروز تيار العلم التجريبي الذي يقف على الحقائق الملموسة، هذا التيار كان له أثر كبير على جميع منافذ الحياة المعاصرة، وحتى يتسم الخطاب بنفس الخاصية كان عليه أن يجد لنفسه طريقاً يمكنه من ذلك ويكون أكثر موضوعية، فكان الحجاج أفضل الطرق التي توصل إلى الحقائق دون الإخلال

¹ - محمد أركون، اللغة والخطاب، إفريقيا الشرق، المغرب، (د، ط)، 2001، ص: 99.

² - أحمد يوسف، الحجاج مفهومه ومجالاته، إشراف د: حافظ إسماعيلي علوي، ابن ندیم للنشر والتوزيع، الجزائر، دار الروافد الثقافية ناشرون، لبنان، ط1، ص2013م، ج2، ص 47.

³ - محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 102.

منطق اللغة أو التصادم العقلاي باللامعقول، فهو يستوجب تقريب المسافات بين الأفكار واستيعاب المتناقضات التي تفرضها اللغة الطبيعية دون أي قيود مرجعية كانت، فالحجاج يعتبر "معقولية وحرية. وهو حوار من أجل حصول الوفاق بين الأطراف المتحاورة، ومن أجل حصول التسليم برأي آخر بعيد عن الاعتباطية واللامعقول اللذين يطبعان الخطابة عادة وبعيد عن الإلزام والاضطرار اللذين يطبعان الجدل. ومعنى ذلك كله أن الحجاج عكس العنف بكل مظاهره"¹ وبهذا التحديد تبنى الحقيقة المتفق حولها، وكلما كان توافقاً إلاً ونشأ اقتناع متين وهو غاية الحجاج إذ تجد "بعض الكلام وتجد بعض الدلائل والأفعال تأثيرها وفعلها في الواقع دون أن يكون لها بناء منطقي معلوم وشكل صوري واضح، ففي الواقع الاجتماعي، النفسي نلمس أثر الثالث المرفوع ونعائين فعل المتناقض والمضاد ولا نفهم كيف نتج هذا السلوك أو هذه الواقعة عن مفارقة واضحة، وبهذا فإن الحجاجية تكون قد ولدت من اصطدام التاريخ بالمنطق إلى حل المشكلات العملية أو توجيهها."²، فالحجاج يجمع بين العمليات العقلية المعقدة وبين اللغة الطبيعية التي تحتزل كل الاحتمالات محولاً إنتاج منهما حقيقة مقبولة إلى درجة اليقين.

الحقيقة التي أريد الوقوف عليها كذلك من خلال النظرية الحجاجية هي حقيقة المعنى التي يحملها النص والتي سعى إلى بلوغها أصحاب الفكر التأويلي (المهرمنتيقا) وهذا باستقراء النصوص تكشف لهم في صورة الحوار الجدلي بين النص والقارئ؛ لأن "النص باعتباره سؤالاً مفتوحاً، فلا بد لمن يروم إجابته أو مساءلته أن يفهم أولاً حيثيات البناء الإشكالي للنص، وهو فهم ذو طبيعة تخيلية Imaginaire، تصويرية، توقيعية لأسئلة وروافد وقضايا المبدع- الغائب بالفعل لا بالقوة-"³ ويعتبر "غادمير" من أبرز المهرمنطقيين الذين توصلوا إلى أن العلاقة بين الحقيقة المعنى وبين الحوار حجاجي الذي يتطلبه الفهم.

تجدر الإشارة إلى أن "الفهم والحوار هما نتاج التعامل مع "الشيء نفسه" وليس الإقرار بحقيقة "الشيء في نفسه". هذا التمييز يفتح السبيل نحو الحوار كمشراكة بمعزل عن إطلاقية المعنى وإرادة الهيمنة. الحوار هو إنتاج مشترك لحقيقة تشغل الأفراد وتؤسس تاريخهم ومصيرهم المشترك ومشاركة

¹ - د: عبد الله صولة، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، ص: 298.

² - د: عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة، ص: 96.

³ - د: محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 77.

لا تنضب في إنتاج المعاني وتشكيل التصورات وصياغة الأحكام. باختصار، تغدو الحقيقة عند غادامير كفهم وتفاهم وحوار، مشاركة وليست امتلاكاً وإنتاج المعنى وليست إرادة السيطرة والهيمنة وإنارة الحاضر وليست تعميم الفهم"¹، ويقصد بالحقيقة هنا هي المعاني الخفية التي تقف وراء المعنى الظاهر، وهذا الأخير يستدل به على المعنى الخفي عن طريق المساءلة التي يقوم بها المتلقي للنص، "ومن أبرز الهرمنطقيين الذين مثلت آراؤهم همزة وصل بينهم وبين أصحاب التلقي نذكر "دلثاي" الذي أشار بوضوح إلى الطابع الجدلي للحوار بين تجربة المتلقي وتجربة النص وما يتم بينهما من عملية اغناء متبادلة"² فالمساءلة هنا ليست مجرد مساءلة للمعاني التي يحملها النص إنما هي مساءلة تبحث الأسباب والعلل للوصول إلى مقصدية النص، أي بمعنى آخر الحكمة وراء المعنى، وكلما كانت حكمة ازداد المتلقي إيماناً بالقول واقتناعاً به، وهنا تكمن الخلفية الحجاجية التي ترتبط بالقارئ.

- انتشار الإعلام والسينما الصامتة:

بعد انتشار وسائل الإعلام المرئية ولا مرئية ظهرت حاجة الإعلام إلى لغة اتصالية تحقق أهداف الإعلام وتيسر مهامه " وترتبط هذه اللغة في بلاغتها الجديدة ارتباطاً مباشراً بمفهوم الوسائل الجماهيرية مقروءة ومسموعة ومرئية وبوظائف هذه الوسائل من إعلام وتثقيف وإقناع وترويج ومشاركة ذهنية وقلبية، كما ترتبط بنظرية التحرير الجماهيري"³، خاصة مع "ازدهار الرأسمالية وتطور الإنتاج بحيث أصبح يفرض عن الحاجات والطلب.... لقد أصبح الشغل الشاغل للرأسمالية هو كيفية ترويض الناس على الاستهلاك"⁴ ويعتبر الخطاب الحجاجية هو الأداة الفاعلة في ذلك.

عندئذ ظهرت إلى السطح لغة جديدة لها ميزات خاصة "ومن الطبيعي تختلف اللغة في سياقها الجماهيري الجديد عن لغة الاتصال المباشر، اختلاف البلاغة الجديدة عن البلاغة القديمة التي تتطلب بنية وخصائص تختلف عن ذي قبل؛ فالخطيب الذي كان في مقدوره تلقي ردود أفعال جمهوره المحدود، ومواجهة هذه الأراجاع بمنهج بلاغي مقنع، لم يعد في إمكانه - في الوسائل الجماهيرية أن

¹ - محمد شوقي الزين، تأويلات وتفكيكات فصول في الفكر العربي المعاصر، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط: 1، س 2002م، ص: 61.

² - محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 81.

³ - د: محمد عبد منعم خفاجي، د: عبد العزيز شرف، البلاغة العربية بين التقليد والتجديد، دار الجيل بيروت، ط1، 1992م، ص: 81.

⁴ - محمد الوالي، الحجاج والإشهار أفيون الشعوب المعاصرة، إشراف د: حافظ اسماعيلي علوي، ابن ندم للنشر والتوزيع، الجزائر، دار الروافد الثقافية ناشرون، لبنان، ط1، 2013، ج2، ص: 976.

يتعرف مباشرة على جمهوره، الأمر الذي يحتم على لغته أن تبني صلة جديدة افتقدت بينه وبين جمهوره، بمحاولة التعرف على مستويات جمهور المستقبلين، ومواجهة هذه المستويات المختلفة بلغة مفهومة مقنعة يتوفر فيها عنصر المشاركة والتشابه في الخبرات بينه كمرسل وبين جمهوره كمستقبل¹ فظهور هذا النوع من الجمهور المتلقي أحدث انقلاباً هاماً على مفاهيم وميادين البلاغة واستدعى إعادة تنظيم الساحة البلاغية لتتماشى ومستجدات الحياة المعاصرة ، لذا يعد "نجاح البلاغة الحالي يرجع إلى الاهتمام بوسائل الإقناع التي فرضتها طبيعة المجتمع الإعلامي المعاصر"² ، ويمكننا القول أن نوعية الجمهور تعتبر هي جوهر الاختلاف بين البلاغة الجديدة والبلاغة التقليدية. بالتالي أصبح الحجاج في ظل مختلف التغيرات التي عرفها العالم المعاصر مطلباً أساسياً في كل عملية اتصالية تستدعي الإفهام والإبلاغ والإقناع.

- تكريس مبدأ الديمقراطية:

شهد المجتمع الغربي في فترة الخمسينات الفترة التي تزامنت وتأليف "بيرلمان" مصنفه في الحجاج عدة أحداث سياسية منها خروج أوروبا من الحرب العالمية الثانية التي أوجتها "الخطب النارية لخطيب مرعب هو أدولف هتلر... هذه الحساسية لما كان يعتمل في أوروبا، حدثت ببيرلمان منذ سنة 1934 إلى الكتابة عن "العشوائية في المعرفة"، عشوائية القول وعشوائية الفكر والإيديولوجيا"³ وهذه الفترة تتشابه إلى حد الكبير مع الفترة التي ظهرت فيها الخطابة الأرسطية كردة فعل على الخطابة السفسطائية المغالطية، فقد "عادت البلاغة اليوم وتباينت وجهات نظر المنشغلين بقضاياها كما حفل تاريخها الطويل بالصراع المحتدم باعتبارها فنا للتعبير أو فنا للإقناع تجاذباها بشكل مستمر وحاد، فحين يتسع مجال النقاش الديمقراطي تهيمن كفن للإقناع (أرسطو، محاكم أثينا ومجالس الشعب) وحين يتقلص مجال الحريات ترتكن في الأديرة والمعابد كفن للتعبير والتزين"⁴ فإن النشاط الإنساني التواصلية المتحرر في أي مرحلة من المراحل هو الدافع الأساسي إلى الاهتمام بفاعليات التخاطب، وطرق تحصيل هذا الفاعليات.

¹ - د: محمد عبد منعم خفاجي، د: عبد العزيز شرف، البلاغة العربية بين التقليد والتجديد، ص: 81.

² - محمد سالم محمد الأمين ولد طلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 52.

³ - د: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، منشورات ضفاف ، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، س 2013م، ص: 83، 84.

⁴ - د: عبد السلام عشير، عندما تتواصل نغيم، مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، أفريقيا الشرق، المغرب، ط2، س 2012م، ص: 19.

إن هذه الديمقراطية المعاصرة شهدت انزلاقات على مستوى نوع الخطاب وكيفية توظيفه مثلما شهدتها أئينا قديما، "فإن ظهور مصنف الحجاج خلال سنوات الخمسينات والستينات، لا ينفصل عن سياق فترة الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي الاشتراكي والرأسمالي الغربي. وقد كان خطاب الأحزاب الشيوعية الأوربية المهاجمة للديمقراطيات البرجوازية قويا ومشحونا، لحد رأى فيه "بيرلمان" صدى للخطابات التوتاليتارية السابقة"¹ هذا من جهة ومن جهة أخرى "كانت هذه المؤسسات تعتمد في أغلب الأوقات على وسائل دعائية غير مشروعة، سعى مجموعة من المنظرين إلى العمل على تقنين هذه الوسائل والآليات الدعائية: ضمن اتجاه سعى لعقلنة الدعاية عبر إعادة تشكيل الخطاب السياسي وتأسيسه على فكرة العقلانية الحجاجية"²، حتى ينضبط الخطاب ضمن حدود المعقول والمقبول.

أفرزت هذه المجموعة من الإجراءات تحول عام على مستويات شتى، "وكان من النتائج المباشرة لهذا التحول، سيادة ثقافة ديمقراطية تركز التنوع والاختلاف، ونبذ العنف والإقناع، وتستهجنهما، فكيف الحاجة ماسة إلى نمط جديد من الخطابة (البلاغة)، تماما كما حدث في السياق الأثيني"³ فالديمقراطية تشهد مرة أخرى ميلاد جديد للبلاغة في العالم المعاصر.

- انقلاب مفهوم النص:

خرج مفهوم النص من كونه مجرد شكل لغوي ذو نظام معين (حرف، كلمة، جملة) إلى مجموعة من البنيات متتالية لها وظيفة تواصلية ومن هذا المنطلق أخذ النص يعرف "بوصفه فعلا لغويا معقدا يحاول المتكلم به أو كاتبه أن ينشئ علاقة تواصلية معينة مع السامع أو القارئ"⁴ هذا المفهوم الجديد للنص كان له أثر على مستوى تطلعات المستقبل للنص الذي يريد أن يستكشف العلائق التي تختزنها أنساقه؛ "إن الأمر في البلاغة يتعلق بصورة موجزة للغاية باستعمال واعٍ وهادف ومعلل لمعارف جمهور المستمعين وآرائهم ورغباتهم من خلال سمات نصية خاصة، أو الطريقة التي يتحقق من خلالها

¹ - د: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 84.

² - د: عليوي أباسيدي، الحجاج والتفكير النقدي، دار النشر المعرفة، الرباط المغرب، (د، ط)، س2014م، ص: 32.

³ - د: حافظ إسماعيلي علوي، الحجاج مفهومه، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، (د، ط)، س2010م، ج1، ص: 9.

⁴ - جمعان بن عبد الكريم، إشكالات النص دراسة لسانية نصية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، س2001م، ص: 31.

هذا النص في الموقف الاتصالي¹ إنَّ هذه العناصر تشكل أنظمة تحكمها شروط خطابية يصعب تجزئتها أو تحريكها، إنما اشتغالها مع بعضها البعض يعزز الفاعلية الحجاجية ووظيفتها التأثيرية.

على هذا الأساس تم الإعلان عن نوع جديد من البلاغة التي تنطق من علم النص؛ لأنه "علم جديد يجمع شتات الجزئيات المبعثرة في نظام عالمي شامل متداخل الاختصاصات، لا يرتبط بالخصائص المحلية للغات والآداب المختلفة، بقدر ما يهدف إلى استثمار نتائج البحوث في العلوم الإنسانية الجديدة لإضاءة النصوص المحددة، الأمر الذي دفع بالكثير من العلماء في الثقافات المختلفة في آن واحد إلى إعادة قراءة تراثهم البلاغي، بهدف تأسيس إنسانية جديدة تقوم بهذا الدور في تجاوز مأزق الثقافة المنشطية."²، هذه الفكرة التي جعلت من النص أولى تطلعاتها ترجع في الأساس إلى قدرة هذا الأخير الانتقال بين مختلف الثقافات وكذا القدرة الفائقة التي يتميز بها في التحول بين الأجناس الأدبية وما يحمله من تراكمات إيديولوجية ودلالية تحمل بذلك بلاغة جديدة.

فانبعاث البلاغة الجديدة لم يكن من محض الصدفة إنما طبيعة التحول الحضاري المعاصر ألح على ضرورة إعادة التفكير في وسائل إنتاج الخطاب، وإعطاء فسحة أكبر للفكر لتحرر من بوتقة الأفكار المفروضة عليه خلال فترة طويلة من الزمن خنقت الإبداع وحدث أفق الخيال "فلم يعد بوسع أحد أن يفرض علينا قانوناً يعتمد على إيديولوجية أو تاريخية تنتهي إلى أي سلطة خارجية، بل أصبح المبدعون هم المشرعون لمبادئهم، المحربون لقوانينهم، وكان حتماً على البلاغة المعيارية أن تحتضر حينئذ."³ لأن عملية الخلق والإبداع لا بد لها من التغلب على المعوقات وكسر حواجز القوالب النمطية المنطقية التي حوصرت بها البلاغة.

2- مفهوم البلاغة الجديدة:

أصبحت البلاغة الجديدة عند الغرب علماً قائماً بذاته ويتفاعل مع مجالات مختلفة كاللغويات والفلسفة وعلوم الاتصال وغيرهم، ومن أبرز المنظرين لهذه البلاغة هم "شايم بيرلمان" (chaime

¹ - فان دايك، علم النص، ت: د: سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، ط1، س 2001 م، ص: 182، 183.

² - صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص: 297.

³ - نفس المرجع، ص: 149.

(Perlman)¹ من خلال أهم مؤلفاته "مصنف في الحجاج"، وكذلك أعماله برفقة "تيتيكا" (Tytika) التي تضمنها مصنفهما "مصنف في الحجاج"، ثم "ميشال ماير" (M.Meyer) الذي حاول طرح نظرية الحجاج من ناحية فكرة التساؤل والمساءلة، كما اهتم "تولمين" (Toulmin) بالأدوات الحجاجية وعلاقتها بالتوظيف اللغوي، ونذكر في جانب المدرسة الفرنسية "رولان بارت" (Roland Barthes) و"بول ريك" (Paul Ricoeur) و"ديكرو" (Dicrou) و"جيرار جنيت" (G.Genette)، "تودوروف" (Todorov)، و"مجموعة لياج" (Group Lieje)² وانطلاقاً من الدور الذي حظيت به البلاغة في العالم المعاصر، ارتبطت هذه البلاغة بنظرية الحجاج.

2-1- علاقة الحجاج بالبلاغة الجديدة:

مفهوم الحجاج:

تكاد تتفق جميع مفاهيم الحجاج في البلاغة الجديدة على أنه فن الإقناع إلا أن الاختلاف يلاحظ في الجزئيات التي تحدد الزاوية التي تنظر بها كل نظرية مفهوم الحجاج وكذا في الشروط والمعايير التي تعتمد عليها مختلف النظريات لبلوغ الإقناع "فمنها ما يتعلق ببنية الخطاب ومنها ما يعود إلى العلاقات بين أقسامه ومفاصله الكبرى. ومنها ما يتعلق بصروب الحجج والأدلة والبراهين"³ وعلى هذا الأساس تنوعت واختلقت مفاهيم الحجاج.

سنبدأ بالتعريف المعجمي للحجاج بحيث "أخذت كلمة Argument من الفعل اللاتيني Arguere، وتعني جعل الشيء واضحاً ولامعاً وظاهراً، وهي بدورها من الجذر إغريقي (argues) ويعني أبيض لامعاً"⁴، هذا التعريف المعجمي لا يكاد يعطي تعريفاً وافياً شاملاً لكن يحتضن معنى عام لنظرية الحجاج، كما أن المفهوم الذي نجد في موسوعة لالاند الفلسفية يجمع بين طياته المفهوم العام

¹ بيرلمان: "Chaim Perelman" ولد سنة 1912، بفارسوفيا، ثم هاجر إلى بلجيكا من أهم أعماله "إمبراطورية الخطابة" (L'opire Rhetorique)، وهو مؤسس البلاغة الجديدة.

² ينظر: د: محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، أفريقيا الشرق، المغرب، ط2، س 2012م، ص: 65.

³ سامية دريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيت وأساليبه، عالم الكتب الحديث، إربد، ط1، س 2008م، ص: 117.

⁴ حافظ إسماعيلي علوي، مفهوم الحجاج، ص: 02.

الذي تنطلق منه جميع نظريات الحجاج، فهو " طريقة عرض الحجج وترتيبها"¹ ويبقى هذا التعريف جد محدود إذا ما راجعنا إلى نظريات الحجاج فنجد أن كل نظرية إلا وأعطت تعريفا للحجاج يتناسب مع المنظور المعرفي الذي طرحت من خلاله نظرية الحجاج.

1- الطرح المنطقي:

يرى أصحاب هذا الاتجاه أن الحجاج هو عبارة عن مجموعة من الحجج والبراهين²، ويعتبر هذا الطرح قديم يعود إلى الخطابة الأرسطية غير أن "بيرلمان" أعاد الاعتبار إلى البرهان و الاستدلال الحجاجي باعتباره مفهوماً منطقياً لتشكيل الخطاب البلاغي، إذ "يلعب الخطاب البرهاني الدور الأكبر في تطعيم الحجاج بالأساليب الأدبية البلاغية."³ التي تتسم بالعقلانية فتسم الخطاب بالمصدقية.

فقد يحدث التباس في الأدلة الحجاجية وهنا يتدخل البرهان ليزيح هذا الالتباس عن طريقة ترتيب واختيار الاستدلالات وكيفية الربط بينها، "فكيف نعرف الحجاج؟ فبالأكد ليس كمفهوم علم، أو كمتتالية من الحجج، يمكن أن نعرف الحجاج بمثابة فكرة مطروحة لإثبات أخرى. نظرية سبق طرحها تساهم في الاحتجاج إثبات أخرى.... من هنا نرى أن هناك بعض الحجج هي برهانية و أخرى حجاجية، إذن لا يمكن أن نفهم معنى الحجاج انطلاقاً من الحجج، فهي كلية لا يمكن فهمها إلا في مقابلتها بكلية تتضاد معها: أي البرهان"⁴، وإن كان البرهان يتقاطع مع الحجاج في الكثير من المسائل لكن فهمه ومقابلته بالحجاج يعطي مفهوم أدق للحجاج عامة.

عموماً يمكن القول أن "الحجاج من حيث المفهوم والاستعمال يرتبط عادة بما هو عقلي جاد وينأى عن كل هزل وعبث. فحجاج عند أغلب الدارسين يعتبر حواراً عقلياً أو جملة من الأساليب التي تعتمد قوانين المنطق والتي تؤدي اعتمادها في الخطاب إلى المتلقي بما طُرح عليه من أفكار وما عرض عليه من آراء. ولذلك صُنفت الحجج وفق العلاقات الشبه المنطقية أو العلاقات الرياضية كما

¹ - أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ت: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، لبنان، باريس، ط 2، س 2001 م، ج 1، ص: 94.

² - voir : Chaïm Perelman et Lucie Olbrechts-Tyteca , Traite de L'argumentation La nouvelle Rhétorique P :5

³ - محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة ، ص: 110.

⁴ - Olivier Rebol, Introduction à la rhétorique, théorie et pratique, quadriga, p :16.

هو الحال عند "بيرلمان"¹ فما هو إلا عبارة عن مجموعة من الحجج والبراهين المتسلسلة تسلسلا يسمح لسامع أن يقتنع بوجهة نظر معينة.

كما يمكن أن يكون الطريقة التي يتمثلها الفرد أو مجموعة من الأفراد لطرح حجج يسعى بها إلى تحقيق التأثير في الآخر وجعله يتبنى فكرة أو سلوكا معيناً، لذلك "يلاحظ في نظرية الحجاج تركيزها الكبير على المكتوب وآليات البرهنة فيه لأن مجال أعمال العقل فيه تحليل وتأويل أوسع مما هو متاح في الخطابة التي يتميز نوع الخطابة فيها بأنه شفوي فقط"² يقصد بالخطابة هنا النوع الموجه للجماهير.

2- الطرح اللغوي:

في المقابل هناك بعض التعريف تفرق بين الحجاج والبرهان " فالحجاج ليس خطابا برهانيا منطقيا وعقليا بالأساس - كما يتصور البعض - يقتضي البرهنة على صدق قضية ما مثلما هو الأمر في الاستدلال المنطقي (syllogisme) وإنما هو خطاب لغوي طبيعي عادي احتمالي في نتيجته التي يتوصل إلى معناها بالتأمل في البنية اللغوية"³ وهذا الاتجاه اللغوي عندما وضعه "ديكرو" Dicro بداية السبعينات كان يسعى من خلاله إلى تفعيل الوظيفة التأثيرية للغة الطبيعية، وهذا لأن "اللغة هي المجال الذي تنكشف فيه القصدية المقرونة بالتواصل بأجلى مظاهرها، وما دامت الحجة لا تفارق اللغة، فإنها تنطوي على أقوى مظهر للقصدية"⁴، فاللغة هي الأصل في معرفة أفكار واعتقادات المتكلم والكلام عامة لا يخلو من القصد وإلا وصف بالغموض وبمذيان صاحبه وبما أن اللغة ترتبط ارتباطا وثيقا بالقصدية التي غالبا ما تنحصر في الإقناع.

3- الطرح التأويلي:

كما سبق لنا القول بأن الخطاب الحجاجي قد يحدث عليه التباس لأنه يعتمد على الاحتمال "كما يساهم قصد المرسل في تعدد معنى الخطاب الواحد أو في تعدد أفعاله الإنجازية، إنه قد ينتج

¹ - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيت وأساليبه، ص: 163.

² - محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 110.

³ - د: نعمان عبد الحميد بوقرة، القيمة الحجاجية في النص الأشعاري، مفهوم الحجاج، ص: 222.

⁴ - طه عبد الرحمن، التكوثر العقلي، ص: 255.

خطاب أكثر من تأويل في السياق الواحد"¹ حيث يفهم المخاطب معنى غير الذي قصده المتكلم أو أن السياق يوحي بأكثر من معنى ومع هذا الاضطراب بين المعاني تكون القراءة الحجاجية هي الوسيلة الفاصلة التي تحدد المعنى من خلال نظرية المساءلة "وهذا يقودنا إلى القول بأن بداية الخطاب وبداية الفهم هما بدايتان بلاغيتان تستخرجان وضعهما الحجاجي من المقدمات اللغوية، وتبيان الحقيقة حسب الشروط والظروف التي تفرضها القاعدة الانطولوجية للغة"² فتأويل النصوص ليس إلا شكلا من الحوار الذي تديره الذات مع نفسها مستجمعة الاتفاق العام من خلال لغة النص التي تصبح مشتركة مع لغة التأويل.

3- بلاغة "شايم بيرلمان": (chaim Perlman):

ظهر مصطلح "البلاغة الجديدة" عام 1958م كعنوان فرعي لكتاب "شايم بيرلمان" المسمى ب"مقال البرهان: البلاغة الجديدة"³ و يعلق د: عبد الله صولة على هذا العنوان بقوله: "وقولهما جديدة يقتضي وجود بلاغة قديمة وهذه البلاغة القديمة هي بلاغة أرسطو (أو خطابة أرسطو) من ناحية والبلاغة الأوربية السائدة في القرن التاسع عشر وما قبله من ناحية أخرى"⁴ بالإضافة إلى كتاب "إمبراطورية الخطابة (L'empire rhétorique) ومصنف في الحجاج - الخطابة الجديدة -

(Traité de L'argumentation La nouvelle rhétorique) وهو مؤلف مشترك بين "بيرلمان" و"تيتكا".

يرى "محمد العمري" أن هذا العنوان يحتمل معنيين في قوله: "فهو إذ يسعى إلى ضبط العلاقة بين الحجاج والبلاغة؛ يعطي إمكانية قراءتين: أ- الحجاج هو البلاغة الجديدة، ب: الحجاج من البلاغة الجديدة. وإذا وضعنا الكتاب في السياق المعرفي العام حيث مدت البلاغة نحو الجدل في سياق قراءة خاصة تساهم فيها أعمال أخرى للمؤلفين (منها كتاب إمبراطورية البلاغة لبيرلمان)، جاز

¹ - عبد الهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، الكتاب الجديد، ط1، 01، س2004م، ص: 206.

² - عمارة الناصر، الهرمينوطيقا والحجاج، دار الأمان، الرباط، ط1، س2014م، ص: 23.

2 _ Olivier Rebol, Introduction à la rhétorique, théorie et pratique, quadrigé, p: 96.

⁴ - عبد الله صولة، البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة (أو الحجاج)، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1 عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، 2010م، 28.

أن نرجح الاعتبار الأول: الحجاج هو البلاغة. إذ ما ليس حجاجا بالمعنى الذي يرتضيه المؤلفين سينتمي إلى أحد القطبين: السفسطة أو البرهان.¹، وهذا الطرح يرى "د: العمري" أنه يقود إلى ما ذهب إليه "أوليفي روبول" عندما تساءل "هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي"² هذه العلاقة التي تبدو لا انفصال لها هي التي مكنت البلاغة من أن تتربع على عرشها المفقود، واستحقت بذلك لقب "إمبراطورية البلاغة".

يقر "بيرلمان" في مصنفه أنه هناك علاقة وطيدة بين الحجاج والبلاغة، فهو "لا يعطي المنطق الرياضي أي امتياز؛ لأنه لا وجود لخطاب دون سامعة أي لا وجود لحجاج لا يكون له أثر بلاغي. فالحجاج والبلاغة يشد بعضهما بعضا. والعلاقة بالسامعة هي طلب تصديقها، والوسيلة إلى ذلك التقنيات البلاغية"³ هذه التقنيات قد فصلّ فيها "بيرلمان" سنعود إليها لاحقا.

عند فحص "مصنف في الحجاج" بصفة عامة سنجد أنه محاولة "إعادة تأسيس البرهان، أو الحاجة الاستدلالية، باعتبارها تحديدا منطقيا بالمفهوم الواسع، كتقنية خاصة ومميزة لدراسة المنطق التشريعي والقضائي على وجه التحديد، وامتداده إلى بقية مجالات الخطاب المعاصر"⁴ فهو بذلك فتح عصرا جديدا للبلاغة الحجاجية برؤية مغايرة للبلاغة التقليدية تعمل على دراسة التقنيات الخطابية وشروط إنتاجها ضمن الحدود المتاحة لها مع مراعاة الظروف المحيطة بها من جميع الجوانب ومراعاة أهم التغيرات التي قد تطرأ خلال العملية الاقناعية نفسها.

هذا التقديم للبلاغة الجديدة يحيلنا إلى القول بأن هناك بلاغة قديمة تختلف عن البلاغة التي رسم حدودها "بيرلمان" ولعل أول اختلاف يلاحظ هو الاختلاف الاصطلاحي، الذي يُوحى أن هناك على الأقل اختلاف واحد بينهما، لكنه في الحقيقة أن البلاغة الجديدة ليست منسلخة من البلاغة القديمة بتاتا بل بالعكس هي تحتفظ كثيراً بخصائصها غير أنها اختلفت مع نظيرتها الكلاسيكية فيما فرضته عليها التطورات ومقتضيات الحياة المعاصرة "وقد ارتبطت أفكار بيرلمان بالقانون والفلسفة والحجاج والبلاغة، وانتشرت أفكار الحجاجية في السبعينات من القرن الماضي، وانتشرت في فرنسا في سنوات

¹ - محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص: 67، 68.

² - محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص: 22.

³ - ميشيل ماير، اللغة والمنطق والحجاج، ت: محمد أسيداه، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، عالم الكتب الحديث، 2010م، ج2، ص: 354.

⁴ - صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 95.

التسعين. وقد وضع بيرلمان لبنات الخطاب الحجاج نظرية وتطبيقاً، والهدف من نظريته هو محاولة فهم الكيفية التي يتم بها إصدار الأحكام القيمة. ومن ثم فالحجاج ودوره البلاغي هو أساس نظريته الجديدة.¹؛ لأنه الأداة الفاعلة لإيصال الأفكار وتحقيق المقاصد بين المتكلم والمخاطب، لما يحمله من وسائل للإقناع واستهواء واستمالة لمتلقيه، باعتباره النموذج الأفضل الذي فرضته التطورات المعاصرة. وبما أن بلاغة "بيرلمان" ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالحجاج والخطاب لا بد أن نقف ملياً عند كليهما لتوضيح هذا الارتباط وكيفية اشتغاله.

3-1- مفهوم الحجاج عند "بيرلمان":

ومن أهم المفاهيم التي قدمها "بيرلمان" و"تيتكا" لنظرية الحجاج هي "دراسة تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تسمح للعقول التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو زيادة الإذعان قصد الوصول إلى الاتفاق"². وهذا التعريف يتقارب إلى حد كبير مع التعريف اللغوي لكلمة argumentation فهو "مجموعة من التقنيات الاستطرادية الموجهة للتأثير أو الإقناع لانضمام المتلقي في الأطروحات التي يتم تقديمها"³، كما أنه يتناسب مع الاصطلاح الفلسفي فقد ورد بمفهومين، الأول بمعنى: "مَسْرُدٌ حجج تترع كلها إلى الخلاصة ذاتها"، والثاني بمعنى "⁴ وبالجمع بين المفهومين للاصطلاح الحجاجي في الفلسفة سنكون قد قاربنا مفهوم الحجاج عند "بيرلمان" لاسيما أن الفكر الحجاجي عنده مستوحى أصلاً من الفلسفة، باعتبار أن النظرية الحجاجية نشأت في أحضان الفلسفة، "بيرلمان كان هدفه إيجاد في التقنيات الأكثر تعدد في الحجاج (بالتأكيد، لكن وبشكل كبير وخاصة الفلسفية والأدبية) المبادئ التي يقوم عليها منطق القيم"⁵، فالحجاج بهذه الصفة له علاقة بالعقل وفي

¹ - د: جميل الحمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، ص: 29.

² - Chaïm Perelman et Lucie Olberchts-Tyteca , Traite de L'argumentation La nouvelle Rhétorique ,2000,P :5 "L'étude des techniques de la parole discursives permettent de provoquer ou d'accroître l'adhésion des esprits aux thèses qu'on présente à leur assentiment"

³ -L'arousse 2016,France. "Un ensemble de techniques discursives axées sur l'influence ou la persuasion de l'adhésion du destinataire aux thèses présentées"

⁴ - أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ت: خليل أحمد خليل، ج1، ص: 94.

⁵ - jean jacque robirieux, rhétorique et argumentation, armand colin, 3em édition,2010, p :34.
« Perelman a eu pour objectif de trouver dans les pratiques les plus diverses de l'argumentation (au barreau bien sur, mais aussi surtout en philosophie et littéraire) principes qui fondent une logique des valeurs »

المقابل له علاقة بالحكمة ، أي بمعنى آخر أن الحجاج يقوم على العقل الذي يتجلى فيه المنطق الذي يصبو إلى الحكمة.

الحججاج يجمع بين صور الاستدلال أي القضايا والمقدمات وهذا جانب المنطقي من الحججاج وبين المضمون أي الدلالات سواء اللغوية أو غير اللغوية وهو يضم في طياته الحقائق أو كل ما قد يساهم في إقناع المتلقي، ولهذا وضع "بيرلمان" البلاغة "في إطار الحججاج. فعندما تكون قضية ما مستوحاة من قضية أخرى أو من المقام يكون الحججاج، وفي المقابل يكون هناك برهان عندما يتم تخصيص كل ما يجعل النتيجة تفرض نفسها، ونحن ضروري. وفي هذا السياق يجب مقابلة المنطق بالحججاج، فالمنطق لا يبيح أي إلتباس"¹، لذا يعتمد الفكر البشري الطبيعي لاكتشاف الحقائق، ويمكنه أن يخلق صور جديدة لم تعرف من قبل وهنا يتجسد الحججاج.

في مقابل هذه الرؤية المنطقية التي سعت البلاغة الجديدة إلى تحقيقها عن طريق "العودة إلى بلاغة الإقناع ، وتطوير نظرية الحججاج في مشروع بيرلمان حمل وعيا حادا بمحدودية المجال الذي يغطيه المنطق الصوري، وبالتصلب البرهاني للعقلانية الديكارتية... ولقد اعتبر بيرلمان بأن هذا التصور الديكارتى قاد إلى حصر غير مبرر للمجالات الواسعة والممتدة للفكر الإنساني. هذه المجالات التي لا تقوم على الضرورة والبداهة، هي ما يشكل موضوع الحججاج"² وتعتبر هذه النقطة التي تميزت بها البلاغة في نظر "بيرلمان" فهي حجج وبراهين مرتبة ترتيبا منطقيا ومع هذه الحدود المنطقية تعطي للمستمع إمكانية احتمال قبول أو رفض هذه الحجج. من هذه المنطلق أبعاد صارمة المنطق الصوري الذي يفرض على المستمع تقبل نتائج الاستدلال دون أي مناقشة.

وقد وجد بيرلمان ضالته وهو يبحث عن موضوع العدل، في عهد قديم، وقد سرد بيرلمان قصة لقاءه بالخطابة في مقدمة كتابه "مصنف في الحججاج" وهذه القصة تفسر لنا بوضوح هذا التصور المنطقي الاحتمالي وقد علق "د: الحسين بنو هاشم" من خلال الدراسة التي قدمها حول "نظرية الحججاج عند شايم بيرلمان" على هذه القصة في قوله "هكذا كان لقاء شايم بيرلمان مع الخطابة، لقاء

¹ - مشيل ماير، اللغة والمنطق والحجاج، ت: محمد أسيداه، ضمن الحججاج مفهومه ومجالاته، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ج2، (د، ط)، ص: 352، 2010م، ص: 352.

² - د: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 85.

تم في مفترق طرق بين مجال عقلاي صارم يفرض فيه الاستدلال نفسه على الجميع، ومجال منفلت زبقي، تكون الاستدلالات فيه "هشة" ولا تفرض فيه نفسها بشكل نهائي وحاسم على الجميع، بل غاية ما تتوصل إليه، ترجيح حكم على ذلك، في ارتباط وثيق بظروف وملابسات خاصة، تتغير حسب المقام ونوعية المخاطبين وشخص المستدل¹ النظرية الحجاجية عند "بيرلمان" ارتبطت منذ البداية بمبدأ القيم، هذا يفسر بوضوح النفعية والقصدية التي يتردد صداها في البلاغة الجديدة.

ومفهوم البلاغة عند "بيرلمان" يتطابق مع تعريف الخطابة عند أرسطو " فالريطوريقا قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة"² والاتفاق بينهما يتمثل في الإقناع من هذا المنطلق ارتبطت البلاغة الجديدة بالحجاج، إنه بذلك يطمح أن يشيد خطابة (بلاغة) جديدة غايتها "تخليص الحجاج من التهمة اللاغطة بأصل نسبه وهو الخطابة، وهذه التهمة هي تممة المغالطة والمناورة والتلاعب بعواطف الجمهور..... وفي الوقت نفسه تخليص الحجاج من صرامة الاستدلال الذي يجعل المخاطب به في وضع ضرورة وخضوع واستلاب"³، وإن هذا الأمر يبدو للوهلة الأولى أمر صعب، لكن في الحقيقة يتم بكل سهولة وليونة في إطار المنطق الطبيعي للغة.

3-2- منطلقات البلاغة الجديدة عند "بيرلمان":

1- معايير أحكام القيمة :

إن أول ما لفت انتباه "بيرلمان" إلى نظرية الحجاج هو محاولة "بيرلمان" مع فلاسفة القانون تجديد الخطاب القضائي في ضوء رؤية بلاغية حجاجية جديدة. وإذا كانت البلاغة القديمة قد انصبت على دراسة مرافعات المحامين حجاجياً، فإن "بيرلمان" قد ركز على القضاة الذين يكونون أمام مجموعة من الآراء المتناقضة والمتعارضة من ناحية، وأمام مجموعة من الاقتراحات والحلول الممكنة من ناحية أخرى. ومن ثم فالقضاء أو القانون هو في الحقيقة حل للصراعات الجدلية المتناقضة. "وعلى أساس هذا المنطلق القضائي القانوني أخذ بيرلمان على عاتقه تجديد البلاغة.

¹ - د: الحسين بنو هاشم، نظريات الحجاج عند شاييم بيرلمان، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2014، ص: 29،30.

² - أرسطو، الخطابة الترجمة العربية القديمة، ت: عبد الرحمن بدوي، ص: 09.

³ - عبد الله صولة، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، ص: 298.

عندما كان "بيرلمان" يبحث عن إيجاد منحى جديد لإرساء مبدأ القيم في "دراسة قام بها حول العدل من منظور وضعاني، تحت عنوان العدل (De la justice)، من استخراج قاعدة صورية للعدل (مفادها أن الكائنات المنتمية إلى نفس الفئة ينبغي أن تُعامل بالطريقة نفسها)، لاحظ من الصعب تطبيقها دون الرجوع إلى أحكام القيمة التي كانت تبدو له آنذاك اعتبارية وغير خاضعة لأي منطق.¹ وبعد بحث مشترك قام به بيرلمان وتيتكا وصل إلى حقيقة مفادها "أنه لا يوجد منطق لأحكام القيمة، وهذا معناه أنه لا يمكن أن تخضع لاستدلالات منطقية صارمة ملزمة"² في المقابل وجدا ما يبحثان عنه في علم قديم وهو البلاغة الأرسطية التي تقوم على الحجاج "ومجال الحجاج هو ذلك الشبيه بالحقيقة وذلك المتوقع وذلك المحتمل، في المعيار حين ينفلت من اليقين الرياضي"³ من هنا وجد بيرلمان ضالته التي كان ينشدها في تحقق العدل من خلال وضع معيار لأحكام القيم.

وهو بذلك "يقف بوضوح ضد الفكر الوضعاني الذي يرفض أحكام القيمة ويعتبرها غير ذات معنى، وساهم من هذا المنطلق بشكل فعال، إلى جانب الفكر العقلاني الرياضي، المتمثل في ديكارت، في إقصاء الخطابة. ولعل هذا البحث عن منطق لأحكام القيمة كان إعلاناً لبيرلمان عن طلاقه النهائي مع الفكر الوضعاني"⁴ ولا يتأتى ذلك إلا عن طريق تفعيل الخطاب الحجاجي الذي يختصر العلاقة بين المنطق وبين القيم التي كثيرا ما تنفلت من حلقة المعقول والحجاج يحاول إيجاد الطرق الكفيلة التي يزاوج بينهما بل حتى أنه يجعل من المنطق والقيم خطأ متوازيا يسيران في اتجاه واحد وهو معيار أحكام القيمة.

2- إحياء البلاغة اليونانية:

¹ - د: الحسن بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شايم بيرلمان، ص: 29.

² - نفس المرجع، ص: 29.

³ - Chaïm Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca, Traite de l'argumentation La nouvelle Rhétorique, p1 « Le domaine de l'argumentation est celui du vraisemblable, du plausible, probable, dans la mesure où se dernier échappe aux certitudes du calcul »

⁴ - د: الحسن بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شايم بيرلمان، ص: 31.

وبما أن "بيرلمان" وجد ما بحث عنه من معيار أحكام القيم في البلاغة الأرسطية، حيث "يذهب أرسطو إلى أن العالم الحقيقي هو العالم الواقعي المادي. أما العالم المثالي، فهو غير موجود. وأن الحقيقة لا توجد سوى في العالم الذي نعيش فيه خاصة في الجواهر التي تدرك عقلاً. ولا توجد الحقيقة في الأغراض التي تتغير بتغير الأشكال. أي أن الحقيقي هو الثابت المادي. أما غير الحقيقي فهو المتغير والمتبدل"¹ الذي لا تضبطه المعايير الصورية إنما لا بد له من معايير تتبدل وتتغير كلما اقتضت الحاجة والمنطق الاحتمالي الأرسطي استطاع أن يستوعب كل هذه المتناقضات.

في الحقيقة الأمر أن هذا الفكر الحجاجي البلاغي الأرسطي، يرجع الفضل للسفسطائيين في رسم معالمة قبل أرسطو، فـ "قد أبرز السفسطائيون مفهوم المحتمل: فعندما يتعلق المحتمل بأمور بشرية فإنه يطابق عادات مجموعة ما، ويمكن هذا المفهوم من استخراج قوالب جاهزة ولكن أيضاً من استخراج أنماط، ويعلن عن ظهور تفكير علمي غير مختص حول سلوك الناس في المجتمع"²، وإن أرسطو يعود إليه الفضل في إعادة تمحيصه وغربلته من المغالطات والجدل السفسطائي وإخراجه في صورته النقية البعيدة عن كل زيف أو مغالطات.

من هذا المنطلق بالتحديد كان لزاماً على "بيرلمان" أن يعيد بعث البلاغة الأرسطية التي قامت أساساً على النظرية الحجاجية، وبتالي إعادة الاعتبار للمفهوم الحقيقي للبلاغة، فهو "مشروع فلسفي يستعيد المعنى الواقع خارج المنهج وهو مشروع فلسفة التأويل أو الهرمينوطيقا ومشروع لغوي يستعيد القيم العلمية وهو مشروع البلاغة الجديدة. ومبحث الحجاجية الذي دشنه شايم بيرلمان (Perelman) ضمن فكر شمولي للغة فيما يسميه إمبراطورية البلاغة"³. وقد اعترف "بيرلمان في مقدمة كتابه "مصنف في الحجاج" بأن تأليف مصنف مخصص للحجاج وارتباطه بتقليد قديم، وهو الخطابة والجدل الإغريقي"⁴ ويؤكد ذلك قوله: "المنطقيون والفلاسفة المعاصرون هم أنفسهم لم يعد يهمهم بتاتا بموضوعنا، لهذا السبب مصنفنا يرتبط أساساً حول الانشغال بإعادة بعث البلاغة مجدداً، وعبر

¹ - جميل الحمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، ص: 24.

² - كريستيان بلانتان، الحجاج، ت:عبد القادر المهري، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، (د،ط)، س 2008م، ص: 14.

³ - عمارة ناصر، البلاغة والفلسفة، ص: 16، 17.

⁴ - Chaïm Perelman et Lucie Olbrechts-Tyteca, Traite de L'argumentation La nouvelle Rhétorique, P :1. « la publication d'un traité consacré à l'argumentation et son rattachement à une vieille tradition celle de la rhétorique et de la dialectique grecques »

المؤلفات اليونانية والإغريقية، التي تناولت بالدراسة فن التأثير والإقناع، تقنية التحرير والكلام، لهذا السبب كذلك نقدمه كبلاغة جديدة¹، في الوقت الذي أعطى الغرب فيه الاهتمام الأكبر للغة وأهملوا البلاغة، لكن بعد استقراء المراجعات النقدية والفكرية والتي شكلت مادة قوية في تشكيل الخطاب البلاغي وأثر ذلك على المستوى الخطابي عامة لما تحمله من أفكار ومكونات أساسية في تأسيس قواعد ثابتة وقوية، تعين على الباحثين أمثال "بيرلمان" بعث البعد الحجاجي التأثيري للغة كما كانت عليه من قبل عند اليونان.

3-3-التصورات الجديدة لبلاغة "بيرلمان":

إنّ بلاغة "بيرلمان" قائمة في الأساس على بعث بلاغة أرسطو من جديد كما أنها عملت على تحديثها وتوسيع مجالاتها وهذا لتناسب ومتطلبات الحياة المعاصرة. "أي إن بيرلمان قد انطلق من أفكار أرسطو حول البلاغة شرحا وتوسيعا ومناقشة وتمطيها.²" ليمتد بعدها التأثيري في جميع الخطابات العامة والخاصة وتشكل قوة خطابية سلاحها الكلمة المتعلقة البعيدة عن كل عنف أو زيف.

فكما هو معلوم أنّ "بلاغة أرسطو على وجه الخصوص بلاغة الدليل، الاستدلال، القياس التقريبي (القياس الاضماري)، إنها منطوق منطوق إراديا، مكيف مع مستوى "الجمهور"، يعني من ناحية الحس المشترك، الرأي المتداول. إنها رحبة للانتاجات الأدبية (لم يكن هذا موضوعها الأصلي)، وهي تتضمن جمالية الجمهور، أكثر من تضمنها جمالية الأثر. لهذا السبب، فالتحويلات الضرورية وكل النسب (التاريخية) المتحفظة، تتناسب بالتأكيد مع ثقافتنا المسماة ثقافة شعبية، حيث يسود "المحتمل" الأرسطي"³ يكاد هذا النص "لبارث" أن يحتزل بين طياته أهم ما يوجد في بلاغة أرسطو وحاولت البلاغة الجديدة أن تحتفظ به لأن هذه البلاغة ببساطة هي خير وسيلة تتماشى وتطلعات المجتمعات المعاصرة، التي أضحت في وقتنا الراهن هي القائدة و الموجهة لأي خطاب وفي الوقت نفسه هي

¹-Chaim Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca , Traite de L'argumentation La nouvelle Rhétorique P :6 « Logiciens et philosophes modernes se sont, eux complètement désintéressés à tout notre sujet, c'est la raison pour la quelle notre traitées rattache surtout aux préoccupation de nouveau la renaissance et, par delà, envoyé de nouveau, à celles des auteurs grecs et latins, qui ont étudié l'art de la persuader et de convaincre, la technique de la délibération et de la discussion , c'est la raison aussi pour la quelle nous le présentons comme une nouvelle rhétorique »

²- جميل الحمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، ص:81.

³- رولان بارث، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ت: عمر أركون، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة ط1، س2011م، ص:35.

المحتضنة له سواء فهما أو قراءة أو حتى اعتراضا. وما يتقبله الجمهور فهو الأصح، وما اتفق الجمهور على رفضه كان غير مستساغ ولو كان مقبولا من الناحية العلمية.

عملت البلاغة الجديدة على استثمار البلاغة الكلاسيكية محاولة في الوقت نفسه أن تجعل منها أداة توسع مجالات اشتغالها؛ لأنها تمتاز بالرحابة والقدرة على التكيف، هذه الميزة أتاحت لبيرلمان "توسيع الموضوع بالخروج من دوائر الأجناس الخطابية الأرسطية الثلاثة: التشاورية والاحتفالية والقضائية. إن بلاغته تهتم بالخطابات الموجهة إلى كل المستمعين، سواء تعلق الأمر بجمهور مجتمع في ساحة عمومية، أو تعلق باجتماع المختصين، أو شخص واحد أو بكل الإنسانية. بل إنها تهتم بالحجج التي وجهها الشخص إلى نفسه في مقام حوار ذاتي"¹ يفهم من خلال هذا القول الأخير أن البلاغة الجديدة تميزت عن نظيرتها البلاغة الأرسطية بميزتين رئيسيتين هما:

1- التصور النسقي:

يرى هذا الاتجاه أن البلاغة يمكنها أن تحتضن جميع أنواع الأجناس الخطابية؛ لأن الهدف من البلاغة الجديدة هو الإقناع والتأثير، وهذا الهدف يمكن تحقيقه بواسطة جميع الخطابات متى توفرت الآليات الحجاجية. "البلاغة بهذا المعنى هي فن الخطاب الفعّال والمؤثر الذي بإمكانه اختراق الخطابات..... من خلال التحول الأساسي للرأي إلى قناعة راسخة، المتمثلة في إسقاطات مختلفة كتحويل الكلمة إلى مفهوم، الفكرة إلى نظرية، ترتيب الأفكار إلى منهج، الخطاب إلى مذهب..... ولا تتحقق هذه التحولات نجاحها التام إلا عندما يحصل الاقتناع بها لدى الجمهور مخصوص"² فكل عنصر من عناصر تشكيل النسق الخطابي كلمة أو جملة أو ترتيب معين داخله إلا وله دور في العملية الحجاجية.

لا يهم في هذا الإطار نوع الخطاب بقدر ما يهم ما يحمله هذا الخطاب من حجج وما مدى قدرة هذه الحجج واتساقها على تحقيق الاقتناع. فمن الضروري "مناسبة الخطاب الحجاجي للسياق العام، لأنه كفيل بتسوية الحجج الواردة في الخطاب من عدمها، فقد يكون الحجاج صحيحاً من

¹-د: محمد الوالي، مدخل إلى الحجاج أفلاطون وأرسطو وشام بيرلمان، ضمن مجلة عالم الفكر، ص: 33.

²-د: عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة، ص: 17.

الناحية النظرية، ولكنه غير مناسب للسياق.¹ تعد إذن الممارسة الحجاجية ممارسة تشترك فيها عدة أطراف وتتعلق مع بعضها البعض، انفعالية، اجتماعية وليست عملية منطقية مفروضة على المخاطب. من هنا أخذت البلاغة الجديدة مفهوم البلاغة العامة هذا المفهوم الجديد هو الذي عبر عنه "بارث" بالبلاغة المعممة ويصفها بأنها "مفهوم متعال، نسميه اليوم "الأدب"، إنها لم تعد مكونة فقط كموضوع تعليمي، ولكنها تصير فناً (بالمعنى الحديث)، فهي تتحول من الآن فصاعداً إلى نظرية للكتابة و كثر للأشكال الأدبية في نفس الآن²، فمواضيع الخطابة تتعدد إذ تشمل جميع مواضيع القيم الإنسانية، أي كل المواضيع القابلة للنقاش والغامضة والتي تتميز بالهيوالة والقابلة للتمدد أو المراجعة من جديد في ظل المتغيرات والمستجدات.

هذا المفهوم يقصي من دائرته مفهوم السابق الذي كان يجعل حدوداً بين الأجناس الأدبية لاسيما التي كانت بين الخطابة وبين الشعر، هذا ما عبر عنه "د: العمري" في قوله: "المفهوم النسقي الذي يسعى لجعل البلاغة علماً أعلى يشمل التخيل والحجاج معاً. أي يستوعب المفهومين الأولين من خلال المنطقة التي يتقاطعان فيها موسعاً هذه المنطقة أقصى ما يمكنه التوسيع."³ باعتبار أن التخيل كان مقروناً بالشعر بينما الحجاج ارتبط بالخطابة، فرغم الاختلاف في النسق غير أن الالتقاء بينهما يتم في ظل البلاغة الجديدة، بهذا يصبح التخيل وسيلة من وسائل الإقناع.

من جهة أخرى ربط بيرلمان بين شكل الخطاب وبين قدرته على الإقناع، إذ أن هناك أشكالاً من القول مثل الصور الفنية أو الجرس الموسيقي أو حتى جنس أدبي معين كالقص أو المقال⁴... لها أثر بالغ على الجمهور لاسيما بعض الخطابات المعين على فئة معينة من الجمهور بما تثيره من مختلف العواطف.

2- التصور التواصلي:

¹ - عبد الهادي، بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، الكتاب الجديد، ط01، ص2004م، ص: 467.

² - رولان بارث، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ص: 43.

³ - د: محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، ص: 12.

⁴ - Voir : Chaïm Perelman et Lucie Olberegts-Tyteca , Traite deL'argumentation La nouvelle Rhétorique , p :228.

الخطاب الحجاجي هو قبل كل شيء تواصل، لكن هذا التواصل يصل إلى أقصى حدود التواصل التفاعلي مهمته الرئيسية هي محاولة اكتشاف، "إلا أن قدرة طرفي الخطاب التواصلية تكمن في معرفة القواعد العامة التي تمكّنها من تحقيق أهداف التواصل وتأويل الخطاب"¹ بالدرجة الأولى؛ لأنّ ليس كل تواصل يرقى إلى مستوى التواصل المطلوب والصحيح فالكثير من تواصلنا مع غيرنا لا يحقق النتائج المرغوبة وقد يخرج عن الهدف الذي جعل من أجله، بسبب سوء استخدام وسائل التواصل.

فبلاغة "بيرلمان" لم تعد فقط تلك البلاغة الموجهة إلى الحشود من الجماهير كما كانت عليه أيام أرسطو، إنما "بيرلمان" في خطابه الجديدة يتحرر من هذا القيد؛ إذ لم يعد يعنيه كما كان يعني هؤلاء القدماء - تكوين خطيب مفعّوه، وإنما يعنيه فهم ميكانيزم التفكير. مما يعني قصد التحول من مرحلة إنتاج خطابة طنانة رثانة تطرب لها القلوب، إلى مرحلة تحليل خطابة، مفكّرة معلّلة مبرهنة تميل إليها العقول؛ فيستجيب لها السلوك. ومثل هذه الخطابة لا تنحصر في مستوى الجمع أو الحشد، وإنما تكون أيضا في المناقشة بين الأفراد وبين الفرد ونفسه"²، لأنّ الحشد لا يكون في المكان أو الزمان الذي يتيح له التفكير العميق وكذا التحليل ومن ثم الاقتناع المبني على أساس عقلائي حتى أنه لا يوفر للمتلقي في مثل هذه الظروف أن يتحاور مع المخاطب ويتناقش معه حول الفكرة فهو في هذه الحالة مجرد ملتقط. حتى أن الجو العام الذي يسود مكان الحشد له أثر بالغ على المتلقين عامة حيث أن الأفكار العامة والمتداولة من الصعب التخلص منها بسهولة على العكس من ذلك يمكن الاقتناع بها وإن ثبت عدم صحتها ويكون وقعها أكثر على المتلقي إذا ما حصرت أفكاره داخل مجموعة من الأفكار.

هذا الميزة التواصلية التي تتميز بها البلاغة الجديدة تفرض وجود طرفين أساسيين كما في أي عملية تواصلية هما (المخاطب ، المخاطب) لكن "تفرض تعدد الخطابات وتصارعهما في الآراء والخطابات وهو أساس في قيامها وشروط اشتغالها"³ وتعدد الخطاب يكون من إنتاج المخاطب والمتلقي بالتداول بينهما حيث يتم بعد كل تأويل يقوم به المتلقي عند عملية قراءة الخطاب وكلما كان التأويل لصالح رأي الخطيب حصل الاقتناع، وإن لم تتم هذه العملية التواصلية الاستقرائية للخطاب انخرط الخطاب

¹ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، ص: 11.

² - د: جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال ، دار غريب، القاهرة، 2000م، ص: 115، 116.

³ - د: عمارة ناصر، البلاغة والفلسفة، ص: 32.

عن مساره القيمي الأخلاقي وقد يتزلق في متاهات المغالطات والتزييفات وهذا ما تروم البلاغة الجديدة تخلص الخطاب منه وتقصيه من دائرة البلاغة المعاصرة.

3-4- مقاصد البلاغة الجديدة :

رأينا فيما سبق أن من أهم أهداف بيرلمان في إعادة إعطاء دفعا جديدا للبلاغة هو إنتاج قواعد تمكن الخطيب أو المتكلم من التأثير في المتلقي. تأسس " الحجاج على مفاهيم أساسية أهمها الحقيقة والمعقول والعدل والمبرر وما يتبع هذه المفاهيم من روافد"¹ لكن هذا الهدف كان نابع من عدة مقاصد كان "بيرلمان" يسعى إلى بلوغها من خلال هذا الهدف. ويمكن إجمالها فيما يلي:

1_ تقنين معيار لأحكام القيمة:

قامت البلاغة الجديدة على أساس الخطاب "الذي يمكن أن ينظم أحكام القيمة، وهذا معناه أنها مرتبطة بما يحكم سلوكيات الناس وتصرفاتهم وتوجهاتهم في الحياة، وما يسير حياتهم ويوجه اختيارهم نحو الأسمى والأفضل"²؛ تم ذلك على أنقاض خطاب العداة الذي استغلت فيه أهواء الناس لنشر أفكار الدمار والفساد، فيمكن القول أن البلاغة الجديدة هي بمثابة ثورة على هذه الأنواع من الخطابات التي لا تخضع لأي مبدأ للقيمة، وهي السبب الرئيسي في النظرة السيئة التي ألحقت بالخطابة لفترة زمنية طويلة.

رغم أن خطابة بيرلمان تقوم على مبدأ الالتزام العقلاي إلا أن هذا المبدأ يأتي بعد الالتزام بمبدأ أحكام القيمة "فهو العنصر أساسي من عناصر الحجاج ويرجع لبيرلمان الفضل في البحث عنها إلى اهتمامه بنظرية الحجاج أصلا وللقيم دور بارز في مجالات العلوم الإنسانية، إذ يعتمد عليها في تغيير مواقع السامعين وفي دفعهما إلى الفعل المطلوب وتخضع هذه القيم لتراتبية هرمية يمثل احترامها ووعي المحاجج بها عاملين فاعلين في تحقيق الخطاب"³، الذي يسمو عن الأنانية، البغيضة إلى تحقيق القيم الإنسانية عالية الهمة الذي يقود فعلا إلى عولمة الخطاب البلاغي، "وبهذا، يعزو التخلق الأهمية في التخاطب لعملية تتزل مرتبة فوق مرتبة التبادل، وهي "التفاعل"، والمعالم أن كل تفاعل بين طرفين

¹ - محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص:106.

² - د: الحسين بنو هاشم، نظرية نظرية الحجاج عند شايم بيرلمان، ص:30.

³ - محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص:112.

مبناه أساساً على سعي كل منهما في جلب منافع عامة أو دفع مضار عامة¹، ومعايير القيمة تتوزع بين ما يستوجهه الخطاب من مبادئ التآدب التي لا بد أن يلتزم بها كل من المخاطب والمخاطب حتى لا يخرج الخطاب إلى ساحة العنف والاستفزاز وبتالي ينحرف عن مساره الإقناعي، فهي تساهم بشكل كبير في بناء الخطاب. كما أن معايير القيم تنبني أصلاً من الخطاب نفسه وهي المقصدية التي يبنى على أساسها أي خطاب.

وتعتبر الحقيقة هي أهم قيمة معيارية تصبو إليها البلاغة الجديدة، وكل حجة يدلى بها في الخطاب الحجاجي "إنما الغرض منها أساساً هو الوصول إلى الحقيقة المعيارية، والمراد بالحقيقة الوصفية "الأسباب الظاهرة للأشياء" أو قل الحكم (بكسر الحاء) التي تنطوي عليها، فكل خبر يكون مزود بقيمة معينة هي الحكمة، ولا عبرة بالخبر ما لم نحصل منه على هذه الحكمة"²، فالمعيارية هي حقيقة الغايات من وراء الأسباب أو المقاصد الحقيقية للخطاب، بمعنى آخر العبرة المأخوذة من الخطاب.

من هذا المنطلق يمكن اعتبار "أن الحقيقة في ماهيتها عبارة عن "تقييم". وقيم تعني تقدير شيء ما من حيث إنه قيمة ووضع من حيث هو كذلك"³، فهي بذلك شرط لا بد منه لتحديد قيمة الأمر، بالمقابل يقودنا هذا القول إلى أن "الحقيقة هي الصدق (la rectitude) التمثل"⁴، وكذلك في المعنى الاصطلاحي للحقيقة تتبلور هذه القيمة المعيارية التي يسعى الخطاب الحجاجي إلى مجانبتها فهي تعني "شيء ما ينبغي لكل شخص أن يتقبله"⁵، فمتى تبينا حقيقة الأمر يعني هذا أننا توصلنا إلى الحكمة منه، وكلما كانت حكمة وراء قول ما ازددت اقتناعاً وإيماناً به.

2_قراءة النصوص قراءة حوارية:

¹ - طه عبد الرحمن، التكوثر العقلي، ص: 223، 224.

² - نفس المرجع، ص: 268.

³ - محمد سبيلا، وعبد السلام بن عبد العالي، الحقيقة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط2، س2005 م، ص: 78.

⁴ - نفس المرجع، ص: 78.

⁵ - إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحدنين، تونس، (د،ط،ت)، ص: 155.

إن من أهم مقاصد البلاغة الجديدة خلق التفاعل بين أطراف الخطاب "الباث" و"المتلقي" فهما عنصران أساسيان في أي خطاب حجاجي مهما كان نوعه ولا يهم هنا تحديد نوع هذا الباث أو ذلك المتلقي، فقد يكون كلاهما يمثل شخصا واحدا؛ إذ "تتخذ دراسة الحجاج موضوعا لها أساساً الخطاب الحوارى الأحادي لاستخراج الأبنية التي يقوم عليها، والصفتان المشتقتان تحاورى ثنائى وحوارى أحادى تطابق الاسمين تحاورى ثنائى وحوارى أحادى. ومقام الحجاج هو المقام التحاورى والتداول والتحدث.¹ ومن هنا تقوم العملية الحجاجية عند استقراء النصوص قراءة حوارية أو ما تسمى عملية مساءلة النص للوصول إلى مقصديته.

تعتبر مسألة الحوار عامة ومسألة التحاور الأحادى الذي يقيمه القارئ مع النص من أهم القضايا التي طرحتها البلاغة الجديدة على اعتبار أن ما يتم بين الخطاب والمتلقي ما هو إلا عملية حجاجية بحتة و"إن هذا الطابع الحوارى للحجاج خاصة والبلاغة المعاصرة عامة تتقاطع في الإيمان بضرورته مدارس ما بعد البنيوية وذلك لأنها - أي الحوارية مصدر العمليات التناسية من توظيف ومعارضة التحويل ويتأكد لنا ذلك عندما نجد بعض البلاغيين المعاصرين يعرف البلاغة بأنها ذلك الحوار حول المسافة بين الذوات هي ذلك الحوار حول المسافة بين أناس بصدد مسألة أو مشكل ما"²، نفهم من هذا أنه لا يكون حجاج إلا إذا كانت هناك قضية تستدعى النقاش والتحاور بشأنها.

الحوار الحجاجى يقام على جانبين أولهما يكون من قبل المتكلم أي منتج الخطاب قبل إنتاجه الخطاب وهذه المسألة قد سبق أن أشار إليها أرسطو عند تحديده مراحل إعداد الخطاب "الإيجاد"، وهي أول مرحلة يقوم بها الخطيب وتكون عبارة عن حوارا أحادى "ويقتضى من الفاعل الذي يبنى النص الحجاجى في كليته أن يضع بنفسه منزلة للخبر والحكم الذي يضيف الإشكالية على الخبر وينشئ الحدث الإقناعى"³، وفيه يقيم المعد عملية افتراض اعتراضات المتلقي وفي المقابل يعمل على إيجاد الحجج التي تتناسب مع الاعتراضات المتوقعة "الفهم السليم لا ينضج إلا داخل الجواب الحاذق

¹ - كريستيان بلانتان، الحجاج، ت:عبد القادر المهري، ص: 34.

² - محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 112.

³ - باتريك شارودو، الحجاج بين النظرية والاسلوب، ص: 66.

يأخذ بأكبر قدر من احتمالات الإصابة، ويلم بكل جوانب الموضوع¹، أما العملية التحوارية الأخرى فتكون من قبل المتلقي حيث يطرح إشكالات حول الخطاب يحاول منها الوصول إلى ما يريد الخطاب أن يضيفه إلى المتلقي من حقائق جديدة، وهذه ما هي إلا قراءة ثانية واعية يستحضر فيها المتلقي مكتسباته السابقة حول الموضوع.

إذن البلاغة تتمظهر من خلال محاولة إيجاد أفضل طريقة يمكنها أن تجعل الخطاب يحسم النقاش لصالح الباث.

غير أن الحوار أو التحوار لا بد أن يلتزم بالمنطق حتى لا يخرج عن دائرة الحوار السليم، لأن "الحوار المنطقي يمكن الإنسان من التنقل من المعلوم إلى المجهول، ومن المتوقع إلى غير المتوقع، فتزداد المعارف وتتسع دائرتها بما يمكن استيعاب البعض الذي يعجز عن تحقيقه اللغة الخالية من المنطق.² فهو وسيلة من وسائل الوصول إلى الحقيقة بطريق مرنة تتفاعل في تشكيلها جميع الأطراف المتحاور، وهذا التشارك يجعل من هذه الحقيقة مقبولة إلى أقصى الحدود فيحصل عندها الإقناع.

4- بلاغة تتعارض مع بلاغة الصور والزخرف الفني:

من بين أهم الأسباب التي لفتت انتباه "بيرلمان" إلى إعادة بعث البلاغة وإعطائها نفساً جديداً يتناسب مع مستجدات العالم المعاصر هو "إهمال جانبها الحجاجي واختزالها في بلاغة محسنات"³ هذه الرؤية الضيقة التي منيت بها البلاغة حصرتها، فأراد "بيرلمان" أن يحررها من هذا الحصار الزخرفي ويعيد لها مجدها حين كانت القوة والغلبة للحجة البلاغية لا لشيء آخر.

إن البلاغة هي قوة نفاذ الحجة، والأساليب البلاغية من صور بلاغية أو محسنات لفظية ما هي إلا دعائم تدعم الحجة وتزيد من قوتها، على حد تعبير "بيرلمان". "إن هذه الصور البلاغية -على الرغم من أهميتها- لا تستطيع أن تصمد أمام العقل النفاذ والشك الوقاد، ما لم تكن مدعومة عضوياً بالحجج العقلية التي تخضع هي بدورها لمعيار الضعف والقوة. ويمكن القول إن الحجاج يبني ويسوغ

¹ محمد سالم ولد محمد الأمين، مفهوم الحجاج عند "بيرلمان" وتطوره في البلاغة المعاصرة، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد 28، العدد 3، مارس 2000م ص: 71.

² د: عقيل حسين عقيل، منطق الحوار بين الأنا والآخر، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت لبنان، ط1، 2003م، ص: 12.

³ د: حسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شايم بيرلمان، ص: 33.

الرأي الصائب والصادق، أما الأسلوب البلاغي فهو يعرض هذا الحجاج وموضوعه في صور وتقنيات جمالية الاتصال والتلقي"¹، في المقابل حذر من الاستعمال المفرط لهذه الأشكال البلاغية "ونظر إليها بوصفها آلية إقناعية عابرة Ephemeral، وذلك مما جعل تلك الأشكال البلاغية هدفا في حد ذاتها، وهو ما أفقد اللغة قدرتها على نقل الواقع ورسم المستقبل وإحداث الإثارة الفنية الكفيلة بخلق ثنائية: الإقناع والفعل،"² فالتلاحم بين الحجج والأساليب هو الذي يقيم البلاغة.

الواقع في غالب الأحيان كثرة الزخرف والتكلف يجعل الكلام مبتذلا، يخرج عن الوظيفة الإقناع وهذا الطرح يتوافق مع بلاغة أرسطو، في قوله: "فضلا عن ذلك يجب ألا يكون الأسلوب تافها، لا مضحما مبالغاً فيه، وإنما يجب أن يكون ملائماً"³. لكن هذا الكلام يبقى عاماً؛ لأنه قد تستدعي ضرورة الإقناع في بعض الكلام إلى المبالغة وتزينه، "إلا أنه حتى في مثل هذه الأعمال إنما تقوم الملاءمة على الإيجاز والتكثيف، وأيضا فإن تكلف الأسلوب واعتماله ينبغي أن تظهر طبيعية. وفي هذا يكون الإقناع، أما الأسلوب الأخير فينتج الأثر المضاد، لأن المستمعين عندما يلحظون الخديعة والمكر، يكونون قد اتخذوا حذرهم كما لو وجدوا أنفسهم أمام الخمر الممزوجة"⁴ لذا لا بد إعطاء كل موضوع قدرا ملائما من هذه الصور البلاغية والزخارف اللفظية حتى يحافظ على الجمالية الطبيعية فكل ما هو طبيعي وقريب من الفطرة يكون مستساغ وكل ما كان هناك تكلف خارج عن الطبيعة يكون مستهجن، مستكره لا تقبله النفسية البشرية بسهولة.

بهذا الصدد نتبين أن الجمالية الشكلية التي تُوقعها الألفاظ والتراكيب وحتى الإيقاعات ليست غاية البلاغة الجديدة إنما هي تقنية يُتوسل بها إلى الحقيقة هذه سواء كانت هذه الحقيقة واقعية أو كانت حقيقة فنية "وهي حقيقة تحدد بمدى جودة التعبير وتوفيقه في نقل التجارب التي انبرى لنقلها ومعادلة المشاعر التي اضطلع بمعادلتها"⁵، أي أن هذه الزخارف اللفظية تبقى عتاد بنائي لا غير، فالعملية الحجاجية بذلك تجمع بين الحجج التي مصدرها العقل وبين المتعة التي تضيفها جمالية الألفاظ

¹ - أ: حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي "عناصر الاستقصاء النظري"، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد 30، العدد 1، سبتمبر 2003، ص: 71.

² - أ: حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي "عناصر الاستقصاء النظري"، ص: 75.

³ - أرسطو، الخطابة، ت: عبد القادر قيني، ص: 183.

⁴ - نفس المرجع، ص: 184.

⁵ - د: عادل مصطفى، المغالطات المنطقية، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، س 2013م، ص: 388.

والإيقاعات على الخطاب قصد إثارة المتلقي"وبذلك تصبح البلاغة فن الإقناع والإمتاع في ذات الوقت"¹ ولا تتأتى جمالية الخطاب بالمعنى الكامل إلا إذا تحقق الإقناع.

5- التوفيق بين المختلفات والمتناقضات :

الكلام الطبيعي كثيرا ما يقوم على الاختلاف وعلى التردد بين الشك واليقين، وبين الصحة والزيف، وبين الثبات والنفي، وهذا يعود إلى الطبيعة البشرية التي يحكمها الاختلاف ويسودها الاضطراب والتغير من حال إلى حال فقلما تستقر على رأي، "إن غاية النشاط الحجاجي هو إقامة إجماع وفسخ اختلافات الآراء. فالتنافر علامة النقص أو الخطأ. والحجاج وسيلة لإدماج الانشقاق بإزالة أي رأي من الآراء المتنازعة عن طريق العقل."² من هذا المنطلق شدت البلاغة الجديدة أمتعتها لكي تحم من شدة هذه المفارقات وتقارب بين هذه المسافات.

البلاغة عامة كانت ولا زالت تصبو إلى غاية لم شتت الآراء واحتوائها ضمن لحاء فكري واحد غير أن هذه الغاية لم يكن يكتنفها النبل والصفاء في كثير من الأحيان، بل استغلت من أجل تحقيق غايات دنية، باستخدام ما يسمى بالمغالطات المنطقية، ولهذا السبب بالتحديد رأينا فيما سبق رفض أفلاطون للخطابة وإقصائها من جمهوريته واعتبرها بلاغة المراوغة والتحايل تحت غطاء القانون والعدل من ثم "تم الاقتناع بجدوى بناء نظرية للمغالطات³ قادرة على تطوير أدوات فعالة وكافية لتحديد وضبط شروط تقويم الحجج، وبالجملة كان هدف العديد منهم هو البحث عن الآليات المنطقية الكفيلة بتدبير مختلف التفاعلات الحوارية،"⁴ والتركيز على الحوار خاصة دون سائر الخطابات الأخرى ويرجع ذلك أساساً إلى أن أصل تمثل الاختلاف وتظهره في الحوار.

هذا الاتجاه في إيجاد الطرق المشروعة التي تحمي الخطاب من الزيف والوقوع في الخطأ وكذا تقويم الخطاب كان أحد المقاصد الرئيسية التي أقام "بيرلمان" على أساسه بلاغته، بهذا "لا يعتمد الحجاج عند

¹ - حسان الباهي، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، إفريقيا الشرق، المغرب، ط2، س 2013م، ص: 75.

² - كريستيان بلانتان، الحجاج، ت:عبد القادر المهري، ص: 35.

³ - "المغالطات هي في بنيتها المشتركة إيهام بوجود منطوق ومعنى إحصاء الانحراف عنهما." عن محمد العمري "دائرة الحوار و مزلق العنف"، إفريقيا الشرق، د ط، 2002م، ص: 26. وتعني "المغالطة": في المنطق تعني "هي خطأ مقصود للتمويه على الخصم وفحواه الانتقال مما هو صادق بشرط إلى ما هو صادق إطلاقاً". عن د:ابراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحدنين تونس، ص: 338.

⁴ - د: حسان الباهي، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، ص: 146.

بيرلمان على العنف أو التضليل أو التوهيم، بل غرضه هو بناء الحقيقة عن طريق الحوار البناء والاستدلال الذي قد يكون ذهنياً وهووياً انفعالياً¹، فالاستدلال السليم هنا هو السلطة التي تنظم الأفكار وفي إطاره يتم التقويم والتصحيح اللذان يؤديان إلى الانسجام والرضا بين المختلفين من أفراد أو جماعات و به تقطع الظنون ويحصل بتالي الإقناع.

من أهم وسائل التضليل الكلامي هو السلطة التي تفرضها قوة الكلمة "فالكلام الفتان الجذاب مولد الخيال الجذاب ويفتن النفس فتأخذ به وهذا ما يولد نسيان الواقع الحقيقي والدخول في عالم الخيالات، ويتحقق الاحتباس الممارس من قبل اللوغوس الكلامي على الواقع الحقيقي، وتتولد وقائع خيالية لذيدة تماما كما هو مفعول المخدرات التي يستخدمها المدمنون"² وإن كان هذا الرأي يتعارض مع الهدف الأسمى للبلاغة الجديدة التي ترفض التلاعب بالأهواء، لكن في المقابل ترى أنه "لا يكفي الخطاب الحجاجي في إقناعنا بدعواه بتقديم الحجج العقلية؛ فلنقلنا إلى الفعل ويجعل استجابتنا عملية ينبغي أن يتحكم في إرادتنا، وسبيل إلى ذلك يمر عبر إثارة العواطف وخلق الثقة في الخطيب"³، تبقى هذه الفكرة تتردد بين القبول والرفض وهذا حسب طبيعة المقام وموضوع الخطاب.

إن سلمنا بقبول فكرة ضرورة استخدام استمالة الأهواء من أجل بلوغ أقصى غايات الإقناع وهي التأثير العملي، بالموازاة "يهدف الحجاج، في الآن نفسه، إلى أن يكون إجراء عقليا وقوة تأثيرية، مع ما يوجد بينهما من تنافر. فالتأثير يقود إلى الانخراط"⁴ من هنا يمكننا القول أن "بيرلمان" استطاع أن يجمع بين الخطابة وبين الجدل. في النصوص الحوارية والتحوارية.

لذا نجد "بيرلمان" يركز في نظريته على الجدل القانوني وعلى الجدل الفلسفي عموماً، وهذا الطرح الفلسفي يظهر حين "حاول بيرلمان بناء توجه يروم إلى تحديد الفعل الخطابى في إطار وضع يهتم فلسفة للقانون. كما سعى إلى إدماج النظرية الحجاجية في فلسفة المعرفة ونظرية اتخاذ القرار وأيضاً فلسفة الفعل. فالوضعية الحجاجية في الأصل حسب بيرلمان هي وضعية قائمة على مفهوم الاختلاف بين

¹ - د: جميل الحمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، ص: 28.

² - د: كلود يونان، التضليل الكلامي وآليات السيطرة على الرأي، دار النهضة العربية، ط1، س2011م، ص: 68.

³ - د: محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، نحو مقارنة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، كنوز المعرفة، ط1، س2017م، ص: 266.

⁴ - محمد طروس، النظرية الحجاجية، ص: 09.

طرفين¹، فهي تنطلق من قول خطابي، تتشكل فيه الخصائص الفلسفية ذات البعد الجدلي منذ نشأت الخطابة.

4- مقومات الحجاج:

يقوم الخطاب الحجاج على مقومات أساسية حتى يبلغ غايته المنشودة وتبلور في اللغة الطبيعية، والمعرفة المسبقة، وكذا المقام الحجاجي. فالحجاج يعتمد "على مقومات تداولية على الخصوص، تميزه الواضح عن البرهان، فهو يعتمد إلى تحليل التعابير من جوانب مختلفة، كتميزه مثلا بين الدلالة الحرفية والمفهوم. ولأن هدفه كذلك هو الإقناع فهو جدلي، وكذلك فهو اجتماعي لكونه يعتمد على المساهمة الجماعية لتحقيق أغراض معينة"²، فالحجاج له ارتباط اجتماعي قوي.

إذ يكون موجه من فرد إلى جماعة أو من جماعة إلى فرد، فهو جدلي يعتمد على ترتيب الأدلة لكون أن لكل دليل قوة قد تزيد أو تنقص حسب المتلقي الموجه له الخطاب ولذا نجد أن أرسطو أعطى عناية قصوى للأسلوب في العملية الحجاجية³ "وتعود أهمية الأسلوب في نظر أرسطو إلى أن عامة الناس يتأثرون بمشاعرهم أكثر مما حاجتهم إلى الحجة، فلا يكفي إذن أن يعرض المرء ما ينبغي أن يقال بل ما يجب أن يقوله كما ينبغي"⁴. وهنا تتداخل البلاغة ويكون لها الدور الفعال في هذه المسألة حيث تمد المتكلم بالتقنيات والأساليب التي بها خطابه يتلاءم ومقاصد المخاطب ومتطلبات المخاطب "قل أن الحجاج أصل في كل تفاعل كائن ما كان"⁵، فالعملية الحوارية التي تكون بين المخاطب والمخاطب تحقق الحجاج مهما كان نوع هذا الحجاج.

_ اللغة الطبيعية:

¹ - د: عليوي أبا سيدي، الحجاج والتفكير النقدي، ص: 23.

² - : عليوي أبا سيدي، الحجاج والتفكير النقدي، ص: 139.

³ - ينظر، أرسطو، الخطابة الترجمة العربية القديمة، ص: 190.

⁴ - محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، إفريقيا الشرق، ط2، (د.ط، تا)، ص: 97.

⁵ - طه عبد الرحمن، التكوثر العقلي، ص: 229.

تعد اللغة الطبيعية أهم مرتكزات الخطاب الحجاجي ويقصد باللغة الطبيعية اللغة المتداولة بين الناس؛ لأنها أوسع وأشمل من اللغة الصناعية "يتضح أن اللغة تتوفر على إمكانات لا حصر لها، يمكن أن يستعملها المخاطب في حجاجه، طبقاً لمقتضيات السياقات التي يتلفظ بها فيها"⁽¹⁾. فيكون للمحاجج خيارات كثيرة ومتنوعة يبنى على أساسها عملية الحجاج "كما أن ارتكازه على اللغة الطبيعية تجعل أدلته لا تكون دائماً ظاهرة بل أحياناً مضمرة، وهو ما يجعل العلاقات الحجاجية تخضع لشروط دلالية وتداولية (على الخصوص)"⁽²⁾، فلغة الحجاج ليست نفسها لغة العلم التي تواضع الناس عليها، "هذا يعني أن اللغة تتوسل بها في الحجاج هي من جنس اللغة الطبيعية التي لم يثقفها الإنسان ويهدبها من ضروب الإيحاءات والمعاني الجانبية المواكبة والترادف والاشتراك اللفظي... إلخ"⁽³⁾، هذه الميزة التي تتميز بها لغة الحجاج تجعلها لغة تواصل اجتماعي تتعد عن المجال العلمي الذي لا يشمل النقاش.

تعددية المعنى الذي تمنحه اللغة الطبيعية كان سبباً في تحامل الكثير من الفلاسفة عليها⁴، ومن ثم التحامل على الحجاج فيما بعد؛ "لأنه إذا كانت حدود الرسالة ما متعددة المعاني، فإنه لا شيء يمنع اللعب على تعددية المعاني هذه، أو التلاعب بتصديق السامعة باستعمال المبهم أو الغامض. ومع ذلك تمثل تعددية المعاني هذه ثراء اللغات الطبيعية؛ لأنه عندما تترك اللغة الطبيعية للسياق مهمة إرفاد السامعة بالوسائل التي تمكنه من الحسم لصالح معنى وحيد، فإنها تحوز بذلك مرونة كبيرة شبه لانهائية، بالنظر لأي مقام ممكن للاستعمال. وفي مقابل ذلك تعد اللغات الصورية فقيرة"⁵ هذا يؤهل اللغة الطبيعية أن تكتسح جميع أنواع الخطاب لما تمنحه من خيارات لا نهائية للمخاطب، وللمخاطب.

وبما أن الحجاج عند "بيرلمان" هو خطاب بلاغي يخترق جميع أنواع الخطاب لا سيما الإنسانية منها، التي تعالج مواضيع القيم كالخير والشر، والحقيقة والكذب، وهي مواضيع تقوم في الأساس على

¹ - عبد الهادي ظافر الشهري، آليات الحجاج وأدواته ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، (د.ط)، س 2010م، ص: 141.

² - حسان الباهي، اللغة والمنطق، ص: 177.

³ - محمد الوالي، مدخل إلى الحجاج أفلاطون وأرسطو و بيرلمان، ص: 21.

⁴ - ينظر: رشيد الراضي، المظاهر اللغوية للحجاج، مدخل إلى الحجاجية اللسانية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، س2014م، ص:

34.

⁵ - ميشيل مايير، اللغة والمنطق والحجاج، ت: محمد أسيداه، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ص: 353.

الاحتمالية والتعددية في الطرح وكذا النتائج، فلا يمكن إخضاعها لقواعد المنطق الصوري، إنما كل محاجج وله الخيارات المتنوعة في اللغة الطبيعية المتداولة بين الأفراد لكن لا يكون ذلك اعتبارياً؛ إنما "يصوغ مستعمل اللغة الطبيعي خطابه المحجاجي وفق المقتضيات المنطقية التي توجهه في اختيار أدواته المنطقية، وآلياته الاستدلالية، وهو لا ينبت في هذا الحال عن انغماسه في سياقه المحجاجي من جهة، والاستجابة لمقتضيات اللغة الطبيعية من جهة أخرى"⁽¹⁾، إذن الكفاءة هنا ليست في حصر المحجاج في قواعد المنطق حتى يتم السيطرة على انفلات المعاني بينما العبرة هنا في توظيف اللغة الطبيعية توظيفا إجرائيا مع استغلال جميع خصائصها حتى نصل إلى خطاب بلاغي يستند على قواعد المنطق الطبيعي ويحقق الفاعلية المحجاجية.

إن لغة المحجاج لغة طبيعية بامتياز يسعى المحجاج من خلالها تحقيق الوظائف اللغوية التي ينشأ عنها تعبير عن الرأي أو إثباته لدى المتلقي، التي تنجح إلى التأثير في المتلقي، "فالمحجاج في اللغة الطبيعية يتسم بسمات عديدة منها أنه نسبي ومرن وتدرجي وذو طبيعة سياقية"⁽²⁾. وهذه الصفات تعطي للخطاب المحجاجي القدرة الكافية على بلوغ الإقناع. "فالمحجاج هو الآلية الأبرز التي يستعمل المرسل اللغة، وتتجسد عبرها إستراتيجية الإقناع"⁽³⁾، بالتالي فهي تؤدي حتما إلى حمل المتلقي على الإذعان.

هذه الاستدلالات المتداولة بين مختلف الخطابات تستند في الكثير من الأحيان على المنطق الاحتمالي أي أن "الأدلة في اللغة الطبيعية عبارة عن شواهد اشتباهية، لا تسمح إلا باستدلالات احتمالية ترجيحية، ولا يصلح اعتمادها في استدلال منطقي صوري. هذا الأمر لا يمثل بأي حال مظهر نقص في هذه اللغة، بل بالعكس من ذلك يمنحها مرونة وقدرة على التغلغل في الواقع الإنساني بكل خواصه الاشتباهية وسماته العصية على التطويع الصوري"⁽⁴⁾، مما يمنح الخطابات الحرية في التجديد والابتكار وخلق أوضاع لا حصر لها رغم أنها تعتمد على تقنيات مخصوصة لا تختص بمجال من المجالات دون غيره، فهي مطاوعة حسب استعمال المخاطب لها، إذ يختار حججه وطريقة بنائها، بما

1 - عبد الهادي ظافر الشهري، آليات المحجاج وأدواته، ص: 76.

2 - أبو بكر العزاوي، اللغة والمحجاج، العمدة في الطبع، ط1، ص 2006م، ص: 129.

3 - عبد الهادي، استراتيجيات الخطاب، ص: 456.

4 - رشيد الراضي، المظاهر اللغوية للحجاج، مدخل إلى المحاجبة اللسانية، ص: 34.

يتناسب مع السياق الذي يحفّ بخطابه"⁽¹⁾؛ لأنّ الكلام العادي ما هو إلا شكل من أشكال منطقية التي تعتمد على العمليات الاستدلالية الصورية في الأصل ، غير أنّ هذا المنطق أخذ منحى أقل صرامة وجمود، فاتسم بالمرونة والكثير من الاجتراء.

من هنا يمكن القول أن اللغة الطبيعية لها القدرة الكافية في توظيف أدوات المنطق الصوري والحلمي جنباً إلى جنب؛ لأنّ الكلام نابع من الفكر الإنساني الذي يقوم على المنطق بكل أشكاله فهو أحياناً يقوم على المنطق الصوري الدقيق عندما يكون بحاجة إلى ذلك في حالات البرهان، كما أنّه أحياناً قد يوظف المنطق الحلمي وهذا ما دعا إليه "بيرلمان" في قوله: لا بد على المنطقيين أن يتموا نظرية البرهان... بنظرية الحاجة، التي نسعى إلى تأسيسها بتحليل أدوات الاستدلال لتستعين بها العلوم الإنسانية،"⁽²⁾ غير أنّ أكثر أدوات الاستدلال الطبيعي لا يمكن أن تصاغ دائماً في صورة منطقية بسبب تنوع أشكالها البنائية ونتائجها بين اليقين والاحتمال "إذ تبدو هذه الأدوات الصورية إما بالغة الضيق والتقييد أو بالغة التنظير والتحرير أو بالغة التقنية والتحسيس فحتاج إما إلى تطويرها وتوسيعها وإما إلى تركها وطلب غيرها"⁽³⁾، باللجوء إلى اللغة الطبيعية، حيث يجد المخاطب ضالته ويحقق بها غايته.

– الحقيقة والمنطق الطبيعي :

الحقيقة قد ينفرد بها شخص وتخصه دون الآخر ولكن كثيراً ما نشترك في امتلاكها ويعبر هذا الاشتراك عن قيمة هذه الحقيقة، وقد تكون هذه الحقائق مجرد احتمالات واردة مثل الفرضيات أو معارف تعارف عليها الناس ولا ترقى إلى مستوى اليقين مثل المسلمات "وقد تغدو المدركات النظرية بعد الوصول إليها وتمكنها من النفس مدركات ضرورية"⁽⁴⁾، بمرور الزمن تعود الناس عليها وأضحت من الحقائق الثابتة "ويقال أنه قد يستنبط علم باطن الأشياء بالظن الذي يحتاط فيه حتى يقع

¹ – عبد الهادي ظافر الشهري، آليات الحجاج وأدواته، ص: 79.

²- Chaïm Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca , Traite deL'argumentation La nouvelle Rhetorique ,p :13. « Les logiciens se doivent de compléter la théorie de l'argumentation, nous cherchons à la construire en analysant les moyens de preuve dont se servent les sciences humaines »

³ – طه عبد الرحمن، التكوثر العقلي، ص: 270.

⁴ – نصر حامد أبو زيد،الاتجاه العقلي في التفسير، دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة،المركز الثقافي العربي ،الدار البيضاء،المغرب ،ط6، س 2007م، ص: 26.

موقع اليقين"⁽¹⁾، وإن أكثر معارفنا تدخل ضمن المعارف العامة، والتي غالباً ما، "تشكل الممارسة أساس العملية المعرفية"⁽²⁾، التي يتكوّن الحدس منها.

هذه الممارسة الفعلية أصلها في الحقيقة عبارة عن بديهيات و"لفكرة البدهاة"، التي يختص بها العقل، لا بد من المواجهة إذا أردنا أن نقيم مكانة للحجاج، الذي يعترف باستخدام العقل في توجيه عملنا والتأثير في ما يخص الآخرين، إن الأدلة تعتبر في نفس الوقت، قوة لا يمكن لأي عاقل إلاّ الإذعان لها، وكعلامة على حقيقة ما هو مطلوب، البدهاة تربط بين ما هو نفسي وبين ما هو منطقي، ويُمكن الانتقال من خطوة إلى أخرى"⁽³⁾ عن طريق أعمال العقل و به تحصل "المعرفة التي تقود الإنسان إلى تحقيق أهدافه العلمية هي وحدها الصحيحة ومن هنا يتعيّن هدف المنطق: التحري عن المعرفة الصحيحة عن طريق دحض الآراء الغالطة"⁽⁴⁾، فقبل أي ممارسة لا بد على المتحري أن يكون لديه إطلاع كامل حول الموضوع.

المعرفة بالموضوع في الحقيقة تتشكل شيئاً فشيئاً في الفكر بتراكم بعضها البعض، فكلما بحثنا في موضوع ما تتوارد أفكار جديدة، وتساؤلات جديدة "بحيث لا تسبق المعرفة الموضوع ولا الموضوع المعرفة، بل يقوم كل منهما بتعيين الآخر وإنتاجه، وهذه الممارسة للذات ما هي إلاّ تجربة فكرية، هي علاقة متغيّرة تخضع للنسخ والتبديل"⁽⁵⁾، فكل معرفة لا بد أن تسبقها معرفة، فلكي تصل إلى حقيقة معرفة بموضوع ما، لا بد أن تكون لديك نظرة ولو وجيزة عن الموضوع المراد دراسته حيث "لا

¹ - شوقي ضيف، البلاغة العربية تاريخ وتطور، ص: 97.

² - ألكسندرا غيتاتوفا، علم المنطق، ت: ع التعديلات، دار التقدم، الاتحاد السوفياتي، س 1999م، ص: 12.

³ - Chaïm Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca, Traite de L'argumentation La nouvelle Rhétorique, p : 4. « c'est à L'idée de l'évidence, commecaractérisant la raison, qu'il faut sattaquer si l'on veut faire une place à une théorie de l'argumentation, qui admette l' usage de la raison pour diriger notre action et pour influencer sur celle des autres, l'évidence est concue, à la fois, comme la force à la quelle temps, tout esprit normal ne peut que céder et comme signe de vérité de ce qui s'impose parce qu'évident, l'évidence relierait le psychologique au logique et permettrait de passer de l'un de ces plans à l'autre »

⁴ - جورج طرابيشي، نظرية العقل نقد العقل العربي، دار الساقي، ط03، س2008م، ص: 110.

⁵ - علي حرب، نقد النص (النص، والحقيقة)، المركز الثقافي العربي، ط2، س1995م. ص: 236.

موضوع يعطى للمعرفة ولا ذات قائمة بذاتها قبل المعرفة بالموضوع، ولا عقل محض يستقل بذاته عن الواقع⁽¹⁾، فلا تتشكل المعرفة من دون مقدمات راسخة في الذهن،

إذن اكتساب العلم يعتمد على الفكر البديهي، أي المقدمات التي هي عبارة عن مسلمات، فرضيات، وعن معارف سابقة، ولا يشترط في هذه المعارف السابقة الضرورية اليقينية "فغاية المستدل على شيء ما أن يصل إلى مرحلة أن يجعله كالمدرّك بالحواس"⁽²⁾، هذه المقدمات يقوم العقل باستعمال المنطق بتنظيمها وتحليلها أو تركيبها للوصول إلى معارف جديدة، هذه العملية تسمى العملية "الاستدلالية" وبمساعدة مختلف ضروب الاستدلالات، يمكن تحصيل معارف جديدة، ويمكن بناء الاستدلالات عند وجود حكمين أو أكثر (وهذه الأحكام تدعى المقدمات) تجمع بينهما رابطة معينة⁽³⁾، لإنتاج استدالات صادقة ترتكز على الملاحظة والتأمل ومطابقة الواقع مع النتائج المستخلصة أي "مطابقتها مع الواقع وقوانين علم الحقائق"⁽⁴⁾، وهذا ما يسمى بالمنطق، فالمعرفة السليمة، الحقيقة العلمية الطبيعية تقوم على مبادئ المنطق الصحيح الذي ينسجم مع الواقع.

بمذا فإن الحقيقة تمثل نوع من الاتصال من خلال بلورت مفاهيم الخطاب وتحقيق الاتفاق بين المخاطب والمتلقي؛ لأن "الحقيقة لا توجد قبل الإدعاء بالصدق أي قبل بدء الخطاب، ذلك لأنها ليست قبلية نعمل على استخراجها وتحصيلها منطقياً أو البرهنة عليها في دائرة تعود إليها، كما أنها - الحقيقة - لا توجد بعد هذا الإدعاء لأنه قد يبطل بعد المحادثة أو يضعف تبريره"⁽⁵⁾، كما أنه ولو كانت كانت هذه الحقيقة منفصلة عن الواقع البشري الذي يستمد مقوماته ومميزاته من العقل يترتب عن ذلك معارف فاسدة لأن ما بني على باطل فهو باطل.

الهدف الأساسي من الاستدلال هو إظهار الحقيقة والوصول إلى الشيء الخفي، وبما أن مختلف أنواع الاستدلال سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة فإنها تبني على معارف سابقة وهي أصل كل محاجة؛ لأنّ الحجاج ما هو إلا "عبارة عن مختلف الوسائل الاستدلالية الطبيعية التي تستهدف أساساً

¹ - علي حرب، نقد النص (النص، والحقيقة)، ص: 233.

² - نصر حامد أبو زيد، الاتجاه العقلي في التفسير، ص: 61.

³ - الكسندرا غيتاتوفا، علم المنطق، ص: 174.

⁴ - نفس المرجع، ص: 19.

⁵ - عمارة ناصر، البلاغة والفلسفة، ص: 92.

إقناع المخاطب بقول ما بالبناء على ما يُعَلَّم (بضم الياء وفتح اللام) أو يُفترض أن المخاطب يسلم به من أقوال غيره"¹)، وبذلك نخرج المنطق الصوري إلى مستوى حجاجي طبيعي وهو عبارة عن مجموعة الاستدلالات الطبيعية الغرض الأساسي منها هو بلوغ إلى حد ممكن من الإقناع، ويعتبر "أوليفي روبول" أن أنواع الاستدلالات هي التي يمكن من خلالها الحكم على جودة الحجاج من عدمه حيث " يتمثل معيار آخر، داخلي هو في احترام العناصر البرهانية، أي المنطقية، التي يتضمنها الحجاج. وتعبير آخر: العمل على نحو ألا يكون سفسطائياً"²، إذن كيف يمكن التمييز بين الحجاج والبرهان إذا كان الحجاج يقوم على الاستدلال المنطقي؟ هذا ليس صعباً فهناك عدة مميزات تميز كل واحد عن الآخر، وأهم ميزة يميّز بها الاستدلال البرهاني على الاستدلال الحجاجي هو اللغة التي يبني على أسسها استدلال كل واحد منها. وعلى المقدمات والنتائج غير اليقينية.

- علاقة المقام بالإقناع:

يشكل المقام دور كبير في عملية اختيار الحجج وطريقة إدارتها، فالخطاب أو المناسبة التي دعت إلى إلقاء الخطاب تعتبر من مقومات نجاح العملية الإقناعية وكل ما يطرأ من مستجدات أثناء الخطاب له أثر مباشر في ضرورة تغيير مجريات الخطاب، حيث يجب على المخاطب أن يراعي شروط ومقتضيات حال المتكلم حتى تكون حججه أكثر فاعلية ويعمل على حسن اختيار الحجج المناسبة، لذلك المقام الذي يعتبر "أهم استلزامات التي تتعلق بالقول الطبيعي تلك التي تنشأ عن المقام الذي قيل فيه أو عن السياق الذي جيء به من أجله والتي تتوسل بجملة من قواعد التخاطب التي يتبعها قائله، وقد يكون مقام الكلام مقاماً يستدعي اعتبارات خارجة لا يشاركه فيها غيره، أو يكون مقاماً لا ينفرد بأسباب خارجية معينة"³)، وعليه فإنّ الحجج التي يوظفها المخاطب لا بد أن يراعي فيها كل ما يتوافق مع مقام الخطاب.

إنّ هذه الأهمية التي يلعبها المقام في العملية الإقناعية أشار إليها "بيرلمان" من جوانب عدة أهمها: جوانب الاتفاق بين المخاطب والمتلقي من حيث فهم لغة الخطاب أو من حيث الإقرار بصحة الأدلة

¹ - طه عبد الرحمن، التكوثر العقلي، ص: 393.

² - أوليفي روبول، مدخل إلى الخطابة، ص: 127.

³ - طه عبد الرحمن، التكوثر العقلي، ص: 97.

المستعملة، وكذلك من جانب موقع اهتمام موضوع الخطاب من طرف المتلقين له، وكذا من جانب الفكري، والنفسي للمتلقى أثناء تلقيه الخطاب.

على هذا الأساس قسم "بيرلمان" المخاطب إلى ثلاثة أنواع¹ حسب نوع الحجج التي توجه لإقناعه، فهناك المخاطب الخاص، الذي يحتاج إلى الاستمالة عن طريق العواطف والمعتقدات لأنه ببساطة نعرف ميوله وقناعاته، والنوع الثاني من المخاطبين وهو الذي يحتاج إلى الأدلة والبراهين العقلية لحملة على الاقتناع، أما النوع الثالث وهو المخاطب الذاتي وهو الذي يحتاج ذاته عن طريق الحوار والمساءلة الذاتية.

من جانب آخر أشار "بيرلمان" إلى أن استعمال الأدلة يختلف حسب الموضوع ونوع المتلقي وحسب الزمن والمكان وظروف المحيطة الثقافية، الاجتماعية، الذي يصلح الاستدلال به ويؤدي غرضه اليوم قد لا يصلح أن يكون دليلاً بعد زمن معين، فقيمة الأدلة قد تقوى وتضعف وقد تسقط تماماً حسب درجة توافرها مع المقام، وعليه فالدليل يأخذ قوته حسب المقام الذي وضع له، بحيث أن أساليب "الحجاج تتأثر بالتغيرات المصاحبة لحياة الناس، ومنها تغيير الوسائل التقنية والظروف المادية وتطلعات الناس وآمالهم فالحجة التي كانت ناجحة بالأمس، قد لا تكون صالحة اليوم"⁽²⁾، لذا يجب التعرف على جميع الظروف المحيطة بمقام الخطاب وعلى ما قد يطرأ من مستجدات قد تكون محل مصادرة للخطاب.

لذا "لكي تنمو الحجة، لا بد من أن الذين نتوجه إليهم بالخطاب يكون لهم بعض الاهتمام. الكثير من أشكال الاشهار والدعاية يهتمها قبل كل شيء أن تركز على مصلحة جمهور غير مهتم، شرط لا غنى عنه لتنفيذ أي محاجة"³ فأسلوب الكلام عامة "مرهونا بفهم مقاصد المرسل، وذلك في الحجاج

¹ -Chaïm Perelman et Lucie Olbrechts-Tyteca , Traite deL'argumentation La nouvelle Rhétorique, p :39 « trouvons trois espèce d'auditoires »

² - ابن ظافر الشهري، إستراتيجية الخطاب بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، ص:260.

³ -Chaïm Perelman et Lucie Olbrechts-Tyteca , Traite deL'argumentation La nouvelle Rhétorique, p :23. « pour qu'une argumentation se développe, il faut, en effet, que ceux auxquels elle est destinée y prêtent quelle attention. La plupart des formes de publicité et de propagande se préoccupent, avant tout, d'accrocher l'intérêt d'un public indifférent, condition indispensable, pour la mise en œuvre de n'importe quelle argumentation. »

مثلاً، وفي الاستراتيجيات التي تبلور العلاقة بين طرفي الخطاب، ويتم ذلك بإدراك مقاصد العلاقة بين طرفي الخطاب، ويتم ذلك بإدراك مقاصد بوصفها المعنى، ويبنى على عدم فهم القصد إنتاج خطابات غير مناسبة للسياق⁽¹⁾، فالتصديقات تختلف من شخص إلى آخر وبالتالي كل محفل إلا وله أصحابه، "كما أن الزمان والمكان اللذين يتلفظ فيهما المرسل بخطابه من عناصره الهامة؛ فما يصلح لزمان قد لا يصلح لآخر، وما يناسب مكاناً قد لا يناسب مكاناً آخر؛ فمعرفة عناصر السياق تسهم في عملية التعبير عن المقاصد والاستدلال لإدراكها"⁽²⁾ لأنّ الحجّة التي تقدم في الساحات العمومية غير الحجّة التي يدلي بها شخص معين في محفل معين ضمن موضوع معين.

وبما أن الغرض الأساسي في العملية الحجاجية هو الإقناع والتأثير فيلزم المخاطب أن يبحث في الظروف المحيطة بالمخاطب التي تسهل وتفضل هذه العملية باستغلال هذه الظروف لصالحه "يبني فعل الإقناع وتوجيهه دوماً على افتراضات سابقة بشأن عناصر السياق خصوصاً المرسل إليه والخطابات السابقة والخطابات المتوقعة"⁽³⁾، وتختلف عندها درجة الإقناع التي يسعى إلى تحقيقها المخاطب ويستلزم عن ذلك اختلاف الأدلة التي توظف مع كل مخاطب "فالتكلم مثلاً عندما يستخدم مقدماته العقلية في بداية طرحه فهو يسعى إلى بناء أول جسور التواصل المقنع بينه وبين مخاطبيه الذين يرغب في انخراطهم معه في التسليم بتلك المقدمات لكن عدم الحدق في طرحها بما ينسجم مع موضوع المقام في رفض المخاطبين لذلك الميثاق"⁽⁴⁾، فكلما كان اتفاق مسبق بين المخاطب والمخاطب على الأدلة المستعملة كانت نسبة الإقناع أعلى.

كما أنّ الجانب النفسي⁽⁵⁾ للمتلقّي يدخل ضمن نطاق المقام الذي يلعب دوراً في تهيئة المتلقّي لاستيعاب الحجج وتلقيها "ومع مراعاة التفاعل بين دور الفرد في الأداء وغاية الأداء في إطار دور الفرد في المجتمع يمكننا أن نصل إلى فهم "المقام" الذي يقال فيه "المقال"⁽⁶⁾. كل هذه الأساليب الإقناعية التي

1 - محمد طروس، النظرية الحجاجية، ص: 211.

2 - ابن ظافر الشهري، إستراتيجية الخطاب بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ضمن المقدمة.

3 - محمد طروس، النظرية الحجاجية، ص: 444.

4 - محمد سالم ولد محمد الأمين، مفهوم الحجاج عند "بيرلمان" وتطوره في البلاغة المعاصرة، مجلة عالم الفكر، ص: 83.

5 - Voir : Chaïm Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca , Traite de L'argumentation La nouvelle, p:23 Rhetorique .

6 - حسان تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة، ط03، س 1998م، ص: 364.

حرص "بيرلمان" على ضرورة مراعاتها، تتعلق أساسا بمقام المخاطبين لها دور فعال في إعطاء مصداقية قصوى للدليل وتحقيق نجاعة الإقناع.

4-1- بنية ومكونات الحجاج عند بيرلمان:

يبني الحجاج عند "بيرلمان" على مجموعة من الآليات والمقدمات والفرضيات التي ينشئها المحاجج ويبنى على أساسها خطته الإقناعية؛ "لأن ممارسة الحجاج الفعلية تتبلور فيه، وتتجسد أبعاده في ثناياه؛ مثل الأبعاد السياقية والمنطقية واللغوية. فالخطاب الحجاجي ثمرة لقدرة الإنسان التواصلية بوصفه ممارسة ناتجة عن تفعيل الكفاءة الحجاجية"¹ فهو إذن مجموعة من المكونات تشترك وتتفاعل فيما بينها تنبني على ذلك العملية الحجاجية والتي ينسج بها الخطيب خططه البرهانية. من هذا المنطلق "تقوم السيرورة البناء الحجاجي من حيث المبدأ على ثلاث آليات متعاقبة ومتداخلة هي: الإخبار والتفسير، والإقناع"²، الإخبار يكون كأسلوب لطرح الفكرة ويبقى يحتمل الصدق أو الكذب لتنتقل إلى مرحلة أخرى وهي التفسير وتكون بالشرح والتحليل هذا الخبر معتمدا على العقل عن طريق الوصف أو المقارنة أو التفريق أو التصنيف ليصل بعدها مباشرة إلى الخطوة الأخيرة هي إقناع المخاطب بتوزيع الأدلة وترتيبها عن طريق آليات استدلالية تتنوع بين المنطقية واللغوية والدلالية.

1_ الوقائع Les faits:

لا يمكننا تحديد مفهومها، وهذا ما أقره "بيرلمان" في قوله: "لن يكون من الممكن ولا مما يتوافق مع قصدنا تقديم تحديد للوقائع يسمح، في كل زمان ومكان، بتصنيف هذا المعطى الملموس أو ذاك باعتباره واقعا، بل بالعكس لا بد من التركيز على ما في الحجاج"³، ورغم ذلك تبقى "ثابتة لاشك فيها، فإنها تصلح لتأسيس نقطة بداية"⁴ لذا تعد نقطة انطلاق الحجاج عند "بيرلمان"؛ لأنها تعتمد على

¹ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، آليات الحجاج وأدواته، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، الحدود وتعريفات، ص76.

² - أبو زهرة، دروس الحجاج وما يعاضد هذا النص الفلسفي، ضمن مجلة الشبكة التربوية الشاملة، س 2007م، ص: 14.

³ - Chaïm Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca, Traite de L'argumentation La nouvelle Rhétorique, P:89 « Il ne serait ni possible ni conforme à notre propos de donner du fait une définition qui permette, en tous temps et en tous lieu, de classer telle ou telle donnée concrète comme un fait. Il nous faut, au contraire, insister sur ce que, dans l'argumentation ».

⁴ - د: محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر، ص: 111.

على الإحساس المشترك بين الجميع، "ومنها المفترضة *supposés*، أي الوقائع الممكنة أو المحتملة"¹، مع أنه قد ينتقض اتفاق ثبوتها في الحجاج إذا ما وقعت تحت وقع المصادرة².

2- الحقائق *Réalités*:

تعتبر نظام من الروابط الذي يعمل على الربط بين الوقائع لذا هي تعمل بالتوازي مع الوقائع كما أن هناك صلة مشتركة بين الوقائع والحقائق إذ كلاهما يعتمدان على ما اتفق حوله من قبل الجميع وهذا قصد ضمان "موافقة الجمهور على واقعة معينة غير معلومة"، وبما أنها تعمل مع الوقائع فهي كذلك تشكل نقطة انطلاق الحجاج، لكن الفرق بينهما أن "الوقائع" تعين مواد اتفاق دقيقة ومحصورة، في حين أن المقصود ب"الحقائق" أنها أنساق أكثر تعقيداً، تتعلق بصلات بين الوقائع.³ البعيدة عن التجربة فهي تتعلق بالنظريات العلمية وبالتصورات الفلسفية أو الدينية⁴ التي تستمد منها مادتها وتقوي بها الوقائع، فهي الأرضية التي تحتضن الوقائع ومنها تتغذى.

3- الفرضيات *Les présomptions*:

هي بمثابة نتيجة نتوقعها مسبقاً على أساس وقائع بمعنى آخر هي تمثل "تخمين، مؤسس علمياً حول الأسباب أو الروابط القانونية لهذه أو تلك من الظواهر أو الأحداث الطبيعية والمجتمع والتفكير"⁵ هي كذلك تشكل نقطة انطلاق الحجاج ومحور اتفاق الجميع "ولكن الإذعان لها لا يكونان قوين حتى تأتي في مسار الحجاج عناصر أخرى تقويهما"⁶، تتمثل هذه العناصر في مجموعة الاستدلالات التي يتوسل بها المحاجج في خطابه ليثبت بها هذه الفرضيات التي تبقى مضطربة قابلة لدحض حتى يتم الاتفاق حولها ولا يكون ذلك إلا عن طريق أدلة وبراهين قاطعة.

عليه فإن الفرض طرح مرجح ظناً وقوعه كنتيجة احتمالية قد تصبح بعد بسط الأدلة قانون عام أو نظرية علمية، والقصد الأساسي من طرح الفرضيات هو "الكشف عن أسباب ظهور القوانين

¹- د: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 87.

²- ينظر: د: الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شايبم بيرلمان، ص: 43.

³- ينظر: د: الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شايبم بيرلمان، ص: 43.

⁴- ينظر: د: محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 112.

⁵- الكسندرا غيتما توفاً، علم المنطق، 1999م، ص: 293.

⁶- د: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر والتوزيع، ط1، س2011، ص: 25.

لدى مجموعة فرعية من المجموعة المعينة¹ وفي الحجاج الهدف الرئيسي هو جعل المستمع طرف مشارك في البناء الحجاجي حيث أنه منذ البداية يكون مهياً لقبول النتيجة، وكذلك إن هذه الفروض مبنية على وقائع متفق عليها فمن السهل قبولها كنتيجة، وإشراكه في الحجاج يجعله مطمئناً للنتيجة فيقتنع بها، فهو إن عارضها إنما يطعن في ذاته.

بينما هذا الاتفاق حول الفرضيات فهو نسبي، فهو قابل لتغيير "تبعاً للوسط والمقام والمتكلم والسامعين، لأنها تقاس بالعادي Le normal، والعادي مفهوم مجرد يختلف باختلاف القدرات والإمكانات الفردية والجماعية."²، باعتبار أن "المظنونات تقوم على فكرة أن المعتاد قد يكون موضوع تأويلات مختلفة، فمن الممكن أن يطرح نقاش حول الملاءمة للمظنون للقضية، وسنكون في هذه الحالة، إزاء محاولة لقلب المظنون يرحح كفة دعوى الخصم. وهذا ما يظهر الأثر المباشر للمظنون: إنه يفرض مهمة تقديم الدليل على من يريد الاعتراض على تطبيقه"³، لكن في الأخير هذه التغييرات أو الاعتراضات الممكنة هي التي تجعل الحجاج مرناً يقبل التواطؤ وفي الوقت ذاته يتصف بالمصدقية.

4_ القيم les valeurs :

تشكل القيم أهم مكونات البناء الحجاجي عند "بيرلمان" "عليها مدار الحجاج بكل ضروبه. وهي إن خلت منها الاستدلالات ذات البعد العلمي والعلوم الشكلية Sciences formelles، فإنها تمثل بالنسبة إلى مجالات القانون والسياسة والفلسفة غذاءً أساسياً. فهي التي يعول عليها في جعل السامع يذعن لما يطرح عليه من آراء."⁴ سواء جمهور المستمعين أو خاصتهم "فما يرسمه الحجاج من مقدمات إنما مآله تثبيت قيم ترسخ وتثبت ليعتقد فيها ويقتنع بها"⁵ وفي كل زمان ومكان؛ لأن القيم النبيلة كانت ولا زالت ثابتة عموماً.

¹ -الكسندرا غيتما ترفا، علم المنطق، ص: 315.

² -د: محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة ، ص: 112.

³ -د: الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، ص: 44.

⁴ -د: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص: 26.

⁵ -د: علي شعبان، الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، بحث في الأشكال والاستراتيجيات، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، ص: 103، 104، 2010م.

قد قسم "بيرلمان" القيم إلى نوعين هما: "القيم مجردة كالجمال أو العدل، والقيم الملموسة كفرنسا أو الكنيسة. القيم الملموسة هي التي ترتبط بكائن أو شيء أو جماعة أو مؤسسة منظور إليها في وحدانيتها"¹. هذا التفريق بين أنواع القيم وضرورة التمييز بينها عند "بيرلمان" له دور كبير في العملية الحجاجية بحيث يتيح للمحاجج إمكانية اختيار استدلالاته وكيفية توظيفها.

5_ التراتيبات Les hiérarchies:

تتعلق التراتيبات بالقيم أي أن المحاجج يخضع حجاجه إلى عملية ترتيب يعطي فيها الأولوية إلى بعض قيم "فالعدل مثلا، قد يعتبر أفضل من قيم أخرى نبيلة. ولذلك فالترتيب استعمال حجاجي عملي للقيم"²، وعليه أن القيم عند توظيفها لا بد من احترام هذه التراتيبات وإلا أضحي الحجاج غير موضوعي وإن كانت القيم في الكثير من الأحيان لا تقوم على الموضوعية فإن هذه التراتيبات تمنح القيم نسبة معتبرة من الموضوعية. "وتلك الصفة التي لها الدائرة على الترتيب والتدرج ينتج عنها حاصل مفاده أن المحاجج وهو يراتب بين قيمه المجرد منها والمحسوس إنما يصنع مجال اختياره ويعرب عن باطن مقداره في تقديم قيمة على أخرى"³ وهو بهذا يعمل على رسم توجه واضح لحجاجه، يحدد به الأبعاد والحدود.

في المقابل تمنح التراتبية المتلقي الاشتراك في البناء الحجاجي بحيث تفسح له مجال التحليل والتركيب واكتشاف المضامين والمقارنة وكذا الإلحاق، كل هذه العمليات تعطي له القدرة الكافية على ترسخ الفهم الذي ييسر الإقناع. "وللقيم في نظره - بيرلمان - دور فعال في بناء الثقة بين المتحاورين، لذا فقد اعتبرها قواعد حجاجية"⁴ لا يمكن لأي محاجج الاستغناء عنها مهما كان نوع الخطاب الحجاجي وكذا نوع المستمع.

كما أن هذه "التراتيبات تكون مجردة تارة أو ملموسة تارة أخرى متجانسة كانت أم متغايرة. من التراتيبات الملموسة: الإنسان أسمى من الحيوان، والآلهة أسمى من الإنسان. ومن

¹ - الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، ص: 45.

² - د: عبد اللطيف عادل، بلاغة الاقناع في المناظرة، ص: 88.

³ - د: علي شعبان، الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، ص: 104.

⁴ - محمد سالم ولد محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 112.

الترانبيات المحردة: سمو العادل على النافع"¹ بينما تعتمد "الترانبيات المتجانسة على الكم، بحيث تمنح الأفضلية للكمية الأكبر من قيمة إيجابية، وبالتناظر لأقل قدر من قيمة سلبية"²، ومما يلاحظ أن الاهتمام بالمراتب الحجاجية أخذ حيزا هاما في الدراسات الحجاجية على اعتبار أن لها دور كبير في توجيه العملية الحجاجية، كما أنها أخذت أشكال أخرى لم يتطرق لها "بيرلمان".

6_ المواضع Les lieux:

هي مثل المقدمات لكنها "أعم وأشمل من كل العناصر السابقة"³ كالفرضيات والقيم "وتسمى المعاني Topos : Les lieux. ومنها أشتقت كلمة Topiques. وهي المصنفات الجعولة للاستدلال الجدلي"⁴، وهذا النوع من المكونات قد سبق أن رأيناه عند أرسطو في المدخل حيث أعطى لها أهمية قصوى، فهي "بالمعنى الأرسطي أي المقدمات العامة التي يلجأ إليها المحاج لبناء القيم وترتيبها. إنها مخازن الحجج والأطر الناظمة لها"⁵، فهي بذلك منطلقات الخطاب الحجاجي ومادته الأولية وعليها يؤسس بناءه.

قسمها "بيرلمان" إلى مواضع الأفضل وتكون في مجال القيم وهي التي تقوم بدور المماثل للمظنونات، ويمكن أن نميز بخصوصها كما أشار "أرسطو المواضع المشتركة (Les lieux communs)، والتي يمكن توظيف بطرق مختلفة في لأي مجال من العلوم ولا تنتمي إلى أي منها، والمواضع الخاصة (lieux spésifiques) التي تختص سواء بعلم خاص أو بنوع محدد من الخطاب محدد المعالم"⁶، بمعنى أن المواضع المشتركة تتعلق بكل ما هو أفضل قيمة والتي تكون في كل المجالات، بينما المواضع الخاصة فتتعلق بما هو أفضل قيمة لكن تختص بمجال معين دون غيره.

¹ - الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شايبم بيرلمان، ص: 46.

² - نفس المرجع، ص: 46.

³ - محمد سالم ولد محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 112.

⁴ - أ د: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص: 27.

⁵ - د: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 88.

⁶ - Chaïm Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca, Traite deL'argumentation La nouvelle Rhetorique , P:112. « Aristote distinguait Les lieux Communs, qui peuvent servir indifféremment en n'importe quelle science et ne relèvent d'aucun ;et les lieux spésifiques, qui sont propres soit à une science particulière soit à un genre oratoire bien défini »

يوجد نوع آخر للمواضع عند "بيرلمان" وتتمثل في مواضع الكم والكيف، وتعني "مواضيع الكم (Les lieux de la quantité) هي تلك التي تؤكد أن شيئاً أفضل من آخر لأسباب متعلقة بالكم: تلك التي تؤكد أن ما تُعْمُ فائدته أكبر عدد من الناس، وأن ما هو أكثر دواماً ونفعاً في وضعيات متنوعة، أفضل مما لا يفيد سوى عدد قليل، وآثر مما هو أكثر عرضة للزوال، أو لا يصلح إلاّ لوضعيات خاصة.¹ وعليه يتضح أن هذه المواضع تتفق مع القيم الأصلح والأنفع لأكثر عدد ممكن من الناس، وكذلك الأديم وأكثر ثباتاً. أما مواضع الكيف، إنها مواضع ترجح النخبة بدلاً من الجماهير، والاستثنائي بدلاً من المعتاد.² أي بمعنى القيم الأفضل عند الطبقة المميز ذات شأن في المجتمع كالطبقة الأرستقراطية أو المثقفة.

كما أن هناك مواضع أخرى عند "بيرلمان" أقل استعمالاً من المواضع التي سبق ذكرها غير أنها لا تقل أهمية عنها منها:

6-1- مواضع الترتيب (Les lieux de l'ordre): تعني كل ما هو أسبق فهو أفضل.

6-2- مواضع الموجود (Les lieux de l'existant): تعني كل ما هو موجود في الواقع ومضمون أفضل من ما هو مستحيل أو محتمل.

6-3- مواضع الجوهر (Les lieux de l'essence): تعني كل ما يكون أفضل تجسيدا عموماً.

6-4- مواضع الشخص (Les lieux de la personne)³: تعني إعطاء الأولوية للأشخاص على قدر كرامتهم وإنجازاتهم ومدى تأثيرهم في حياة الآخرين.

تعتبر أنواع المواضع التي أقرها "بيرلمان" الشروط الأساسية لإقامة الحجاج وبناء مساره. وهذه المقدمات تشكل أطر موافقات Cadres des accords ينطلق منها الحجاج⁴ إن تنوع المواضع

¹ - د: الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، ص: 47.

² - نفس المرجع، ص: 48.

³ - ينظر، د: الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، ص: 48.

⁴ - د: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 84، 85.

وأهميتها في العملية الحجاجية يدل على ثراءها وقيمتها اللتين تؤهلانها لأن تصدر قائمة المقدمات في الخطاب الحجاجي.

كما أن هذه المقدمات عند "بيرلمان" تنفرع إلى ضربين: أحدهما مداره على الواقع Le reel وهو الخاص بالوقائع والحقائق والافتراضات؛ والآخر مداره على المفضل Le préférable وهو المتعلق بالقيم ومراتبها وبالمواضع¹، وهذا التصنيف يعود أساساً إلى المنطق وكذا التوافق المشترك بين مجموعة من الأفراد على وجه العموم أو الخصوص. كما يبدو من هذا التصنيف أن المقدمات تقوم عند "بيرلمان" على عاملين أساسيين ينشأ من خلالهما التأثير وأولهما الحقائق التي محلها العقل والآخر المفضل الذي يحقق الانسجام والتوافق على اعتبار تحقيق المصلحة في أقصى الحدود المتاحة.

إن هذه المقدمات لا يعرضها المحاجج في بداية خطابه فحسب إنما عملية العرض تكون مستمرة متى احتاج إلى ذلك المحاجج؛ لأن "بناء الخطاب الحجاجي لا يكون بمجرد تطوير مقدمات تعرض في بداية الكلام؛ وإنما يكون بناء هذا الخطاب بصنع مقدمات أثناء الكلام."² وهذه العملية تحتاج إلى مهارة في استحضار المواضع مع حسن اختيار ما يتناسب منها وقت الحاجة وكل هذا يكون بسلاسة وسرعة.

كما أن المواضع قد يعتريها التغير والتجدد حسب الزمان والمكان، بل من ظرف لآخر فهي ليست "من قبيل المشترك العام في كل عصر وأنواعها ليست من قبيل الموحد الذي لا تبديل فيه ولا تحويل، إذ لكل زمان مواضع ولكل أوان منابع تصدر عنها الأفكار وبمنح منها الاعتبار فمواضع العصر القديم ليست بالضرورة مواضع عصر الثورة الصناعية ومواضع الثقافة العربية"³ فهذه المستجدات غير المتناهية والطارئة في الكثير من الأحيان تجعل مهمة المحاجج أكثر تعقيداً وتدقيقاً، لذا لا بد أن يكون المحاجج واعياً بإفرازات الخطاب الحجاجي مستعداً لمواجهة كل ظرف طارئ عليه، يمكن القول أن رغم الأهمية التي تحظى بها المواضع تبقى زائفة، هشة إن لم يعرف المحاجج التعامل

¹ - محمد سالم ولد محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 112.

² - أ د: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص: 30.

³ - د: علي شعبان، الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، ص: 108.

معها، فلا بد للمحاجج أن يعمل على حسن توظيفها والتنسيق بينها حتى يضبط حدود حججه وفي الوقت ذاته يبلغ مقاصده.

7- المقدمات بين الاختيار و العرض:

إن عملية اختيار المقدمات والطريقة الأنجع في عرضها تتوقفان على كفاءة المحاجج وقدرته في إدارة هذه المقدمات، "ومن أبرز مظاهر كفاءة المحاجج منهجه في بناء خطبه القولية، ورؤيته التي يؤسس عليها اختياراته في تقديم الفرضيات والمقدمات التي من حقها التقديم في مقام خاص ومع جمهور بعينه، لأن وحدات البداية هي أهم ما يقرع الأذهان المتلقية ويحدد درجة القبول أو الرفض للتصور المقدم"¹ فهي عامل جذب متى تناسبت واحتياجات المتلقين واستهوت ميولهم، وجعلتهم يترقبون ما هو آت بشغف، وعلى عكس ذلك فالمقدمات التي سيء استخدامها أو لم يتحكم في نظمها فإنها تكون نقمة على المحاجج فتعرضه للاعتراض أو للسخرية وتكون سببا رئيسيا في فشل خطابه أو مصادرة حججه.

عملية اقتناء المقدمات و عملية عرضها بعد ذلك تشكلان عنصرا واحدا ولا تقوم واحدة دون الأخرى، "فحجاج لا يكون فعالا بمعطياته فقط ولكن بصيغته."² فالخطاب الحجاجي يقوم عند "بيرلمان" على الشكل وعلى المضمون، فهما يشكلان ثنائية لا انفصال بينها، وهذا عكس ما كان سائدا قبل "بيرلمان" لما كان "الاهتمام بتقنيات العرض في الخطابة اعتبر في بعض مراحل تاريخها روح الخطابة، إذ قصرها على إجادة الكلام والكتابة واعتبروا الخطابة فن التعريف عن الفكرة لا غير فهي شكل محض وهي فكرة تفصل في الخطابة بين شكلها ومضمونها وتجعل الأهمية كلها في الشكل"³، هذا التلاحم والتزاوج الذي فرضه "بيرلمان" على الخطابة ينتج خطابا حجاجيا متماسك يعطي له قوة الحضور والهيمنة التي يفرضها المحاجج على السامع فلا يترك له مجالاً للانفلات فلا يكون له إلا الإذعان.

¹ - محمد سالم ولد محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 114.

² - د: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 89.

³ - أ د: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص: 33.

يرتبط الحجاج ارتباطاً وثيقاً بعملية الانتقاء والعرض، "فكل حجاج ينطوي على انتقاء سابق للوقائع والقيم، ولطريقة عرضها ووصفها، وللغة المعبر عنها، وللعناصر التي ينبغي الإلحاح عليها. هذا الانتقاء لا يكون بريئاً، بل هو تعبير عن رأي وموقف مسبق، بحيث يمكن أن نرى بوضوح أيّ انتقاء وطريقة عرض أخرى يمكن أن نعارضه بها"¹ وعلى هذا فإن بلاغة الخطاب الحجاجي تقوم أساساً على هذه الخاصية في التداخل بين عمليتي اختيار المقدمات التي تتناسب وموضوع الخطاب ومن ثم العملية الثانية وهي طريقة عرضها التي كذلك التي تأخذ بعين الاعتبار الموضوع ومقامه وكل ما له صلة بجمهور المستمعين، كالثقافة، المرجعيات، الفئة المستهدفة... إلخ.

بإضافة إلى أن عمليتي الكفاءة في الاقتناء والعرض قد تصل إلى أبعد حد ممكن وهو ما يسمى بعملية "الاستحضار"، أو "الحضور". فاختيار عناصر معينة تحتفظ بها ونقدمها في خطاب ما، يجعلها تحل في الواجهة من وعينا، ويعطيها بذلك حضوراً يمنع من إهمالها"² هذه العملية تعتبر من بين أرقى عمليات الانتقاء والعرض التي قد يحضى بها الخطاب الحجاجي؛ لأن التأثير الذي تحدثه عملية الاستحضار ذو أثر بالغ في نفوس السامعين، "ويقر بيرلمان وتيتيكا استناداً إلى جون بياجيه بالتأثير المباشر لتقنية الإحضار على الوجدان فضلاً عن نتائجها في حفز الهمّة وتحريك الإرادة"³؛ لأن من طبيعة الإنسان أنه يتأثر بما يرى أكثر مما يتأثر بما يسمع، كما أن ذلك يسهل على المحاجج أن لا يجهد نفسه في وصف الحقائق، وقد يلجأ إلى المبالغة والتفخيم للتأثير على السامعين وإن هذين الأخيرين كثيراً ما يذهبان بجمالية الخطاب التي تستوحى عادة من البساطة.

الحضور الذي يتكلم عنه "بيرلمان" ليس حضوراً مرئياً فحسب، إنما الحضور الأهم منه هو الحضور الذهني؛ لأن "ما هو حاضر في الذهن يكون أهم، وهو ما ينبغي على نظرية الحجاج أن تأخذه بعين الاعتبار"⁴، وفي حقيقة الأمر هنا تتجلى بوضوح كفاءة المحاجج؛ لأن "مجهود الخطيب يكون أهلاً للتقدير حين يستطيع، بفضل موهبته، في أن يعرض المعطيات ويقدمها، أن يجعل الأحداث- التي لن تحظى بأية أهمية بدون تدخله - تغدو محط اهتمامنا يصبح بذلك مجرداً وغير

¹- د: الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شايم بيرلمان، ص: 49.

²- نفس المرجع، ص: 50.

³- د: عادل عبد اللطيف، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 89.

⁴- د: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص: 31.

موجود تقريباً. هذا الترابط بين عناصر معينة في الوعي والاهتمام الذي يولى لها، جعل البعض لا يرى في الخطابة سوى فن خلق الحضور بواسطة تقنيات العرض والتقديم"¹ هذا لما كانت لهذين المسألتين (العرض والتقديم) دوراً كبيراً في تبلور الحجاج وتفعيله.

لذا توجب على المحاجج أن يولي عناية خاصة بعدة جوانب تتعلق بموضوع الخطاب وبالمخاطب نفسه.

4-2- تقنيات الحجاج:

نذكر منها بعض "التقنيات التي أوصى بها معلمو الخطابة لتحقيق ذلك: التكرار، ومترجمة بعض التفاصيل، وإبراز بعض المقاطع، وذكر الكل ثم تفصيل أجزائه أو ذكر التفاصيل والانتهاج إلى خلاصة، والترادف، والالتفات الزممي"². كل هذه التقنيات هي الوسائل التي غالباً ما يلجأ المحاجج إلى توظيفها لتدعيم مسألة الحضور الذهني، مما يلفت الانتباه أن هذه العناصر كلها تدخل ضمن العملية البلاغية الصرفة.

كما أنه هناك عناصر أخرى تساهم كذلك بشكل فعال في عملية الحضور قد أكد عليها "بيرلمان" منها:

1- المغايرة:

من طبيعة الإنسان الانجذاب إلى كل ما هو جديد، يخالف العادة بكل شكل من أشكال المخالفة، بل إن هذا يعد نوعاً من الإبداع الذي تتحقق به بلاغة القول، "فلكي يكون هناك وجه بلاغي ينبغي أن نجد أنفسنا أمام طريقة في الكلام غير مألوفة، وذات شكل قابل للإدراك من خلال بنية خاصة."³ الشكل القابل للإدراك في هذه الحالة هو ما يمكن أن نفهمه، بحيث يكون في حدود مدرجات المستمعين كاللغة أو الثقافة.

¹ - د: الحسين بنو هشام، نظرية الحجاج عند شايبم بيرلمان، ص: 51.

² - نفس المرجع، ص: 51.

³ - د: الحسين بنو هشام، نظرية الحجاج عند شايبم بيرلمان، ص: 51.

المغايرة التي ينشئها المحاجج "إن كانت ذات فعالية إقناعية، فهي وجوه بلاغية حجاجية، أما إذا كان أثرها الحجاجي فاشلاً، فإنها ستراجع إلى صف المحسنات"¹ وهذا حسب نظر "بيرلمان". لأن البلاغة الحجاجية هي بلاغة ذات مقصدية بامتياز.

2- الأسلوب الطلبي:

هنا سواء تعلق الأمر بالاستفهام أو الأمر، حيث "يولي بيرلمان أدواراً حجاجية لا يستهان بها للموجه الاستفهامي"² في العملية الإقناعية، وطلب هنا لا يعني على الوجه القصر والإلزامي، إنما يكون على وجه الترغيب والاتفاق الفكري.

3- الدلالة والتأويل:

إن اللغة الطبيعية التي ينبني عليها الحجاج تتيح إمكانية تعدد المعنى، وبالتالي تمنح المستمع البحث عن الدلالة في طيات المعنى للوصول إلى حقيقة المعنى، وهذه العملية تتم بمشاركة مختلف الأطراف الحجاجية؛ لأن "ليس الحجاج مجرد تعبير عن تخمين فردي، بل هو مساهمة في سيرورة تواصلية بين الأشخاص أو بين الجماعات التي تتبادل الأفكار مع بعضها بعضاً بغية حل خلاف في الرأي. تزيل بعض مقاربات الخطاب أو النصوص الحجاجية"³، هذه العملية التواصلية التي تتم بين المستمع وبين الخطيب وما يصاحبها من هذه العمليات التي ذكرناها، ما هي إلا تأويل قد يكون بمثابة الطريق الصحيح للإقناع.

من هذا المنطلق يظهر أن تحويل قناعة الذات إلى لغة غرضها الإقناع هو تأويل ولكنه تأويل أقرب إلى الفن منه إلى العلم لأن عملية التحويل تتم في مجال اللغة الطبيعية التي لا تظهر أية فروق اصطلاحية بين صياغة الذات اللغوية وصياغة الخطاب الحامل لرسالة الذات"⁴ وفي هذا الإطار كذلك يكون في يد البلاغة زمام التحكم في توجيه مسار الحجاج الذي تضمن به الإقناع؛ لأن عملية التأويل إن لم

¹ - د: الحسين بنو هشام، نظرية الحجاج عند شايبم بيرلمان، ص: 52.

² - محمد سالم ولد الأمين طلبية، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 116.

³ - فرانز فان إيمرن، روب غروتندورست، نظرية نسقية في الحجاج، المقاربة الذريعية- الجدلية، ت: عبد المجيد ححفة، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، س2016م، ص: 74.

⁴ - د: عمارة ناصر، الهرمينوطيقا والحجاج، مقارنة لتأويلية بول ريكو، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، س2014م، ص: 23.

تخضع لسلطة البلاغة قد تجعل المعنى ينحرف عن مقصدية المحاجج، وعليه يصبح التأويل في هذه الحال ضد المحاجج.

وتنصب عملية التأويل هنا على المقدمات الحجاجية التي انتقاها المحاجج بعناية قصوى خلال عملية الإيجاد، وحتى لا يذهب هذا الجهد "فوجب على الخطيب أن يضيف إلى مجهوده في اختيار المعطيات الحجاجية مجهوداً يبذله من أجل أن تؤول هذه المعطيات التأويل الذي يرتضيه، وأن تعطى لها الدلالة التي يريد"¹ ولا يتحقق ذلك إلاّ اعتماداً على عدة تقنيات حجاجية تشترك فيما بينها بتنسيق من المحاجج.

لذلك عملية تأويل المعنى هي عملية بلاغية في الحجاج، وفي المقابل تكون "الحجاجية بذلك هي فنّ تأويلي، ذلك أن الحجة لا تظهر في النصوص ضمن مقاصد المؤلف، وليست في أصل بناء الخطاب، ومن ثمة هي بحاجة إلى تأويل فلسفي حسب الدائرة الهرمينوطيقية"² هذا ما أكد عليه "بيرلمان" عندما ربط التأويل بالحجاج في قوله: "لكي نستخرج مخططاً حجاجياً، نحن مجبرون على تأويل كلام الخطيب، بإتمام الحلقات الناقصة."³ التي أضمرت عن قصد من الخطيب لغاية حجاجية بلاغية، أو دون قصد لضرورة كلامية، المهم أن الفهم وبلوغ مقاصد الكلام لا يتم إلاّ عن طريق التأويل، لكن التأويل في الحجاج لا بد أن تكون له حصانة يمتلكها الخطيب، ويعمل على الاشتغال بموجبه، فعلى أساسها يرتب حججه أو يظهر أو يضم هذه الحجج، فهو بذلك يحاصر المؤول وفي نفس الوقت يفسح له المجال التفكير والجمع بين المتناقضات ولم تثن المتفرقات ليقصر المسافات ويوسع دائرة القناعات، حيث "تقدم الدائرة الهرمنوطيقية وضعا حجاجياً موطنه الاستكشاف والإيجاد، وهو وظيفة بلاغية، بناءً على فهم استباقي الغرض منه استنطاق الوجود المغمور تحت رتبة الكتابة والمنمحيّ في تجلي الكلام"⁴، هذا يدل على العلاقة القائمة بين الحجاج والبلاغة التي لا انفصال

¹ -د: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص: 32.

² -د: عمارة ناصر، الهرمينوطيقا والحجاج، ص: 34.

³ -Chaim Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca, Traite de L'argumentation La nouvelle Rhetorique, P : 251. « pour dégager un schème argumentatif nous sommes obligés d'interpréter les paroles de l'orateur, de suppléer les chaînons manquants »

⁴ -د: عمارة ناصر، الهرمينوطيقا والحجاج، ص: 33.

عنها، كما أن الحصانة التي تتحكم في التأويل تقوم في الأساس على المنطق الاحتمالي، الذي تعمل في إطاره بلاغة الحجاج التي ترمي إلى الإقناع.

بما أن عملية التأويل في الحجاج تنقيد بالمنطق الاحتمالي، فهي تعطي حرية كاملة في الانتقاء المعاني التي تتوافق واحتياجات المستمع من المستمع ذاته "إذ يمكن لظاهرة واحدة أن توصف بطرق مختلفة"¹ في الخطاب الواحد، هذا عندما تؤول بطرق عديدة، وهو ما يعني أن التأويل في الحجاج هو انفتاح الذات المؤولة على عالمها الخاص من خلال تأويل الخطاب، وعملية التأويل هي عملية اندماج كلي في الخطاب مما يسهل عمليتي الفهم والاحتواء وبتالي عملية الإقناع.

4- اختيار النعوت: "Les choix des qualifications"

إن عملية صياغة النعوت وكذا اختيارها وترتيبها عملية ذات أهمية بالغة في تحديد المعنى وتوجيه الحجاج، حيث يبين "بيرلمان" على هذه القيمة وهذا الدور الفعال من خلال قوله "هذه الخيار الذي يتمظهر بطريقة الأكثر وضوحا من خلال استخدام النعت، هذا الأخير يلخص من الانتقاء الظاهر لنعوت نعمل على إظهاره أولا والذي يجب أن يكمل معارفنا حول الموضوع"²؛ لأنه يلخص مجموعة من الحجج وفي الوقت نفسه يعطينا معطيات جديدة أو يبدد أخرى.

إن عملية اختيار الصفات "تنهض بدور حجاجي يتمثل في كون الصفة، إذ نختارها، تجلو وجهة نظرنا وموقفنا من الموضوع. ويبدو هذا خاصة حين نجد صفتين متناظرتين - ولكنهما متعارضتين - قابلتين أن تظهر في الخطاب، ويكون اختيار إحدهما كاشفا عن رؤيتنا الخاصة"³، بمعنى آخر أن اختيار الصفات يحدد منطلقاتنا الحجاجية كما أنه يعين وجهتنا ويجلو مقاصد المخاطب، مما يعين على تركيز التفكير في الموضوع، واختيار النعوت لا يتوقف هنا فقط "إنما المقصد الحجاجي من إطلاق الصفة، تحديد نوع الموقف الذي ينبغي أن يحكم به عليه. فقولنا عن شخص إنه سارق يتجاوز مجرد

¹ - د: الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شايبم بيرلمان، ص: 52.

² - Chaïm Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca, Traite de l'argumentation La nouvelle Rhetorique, P: 169. « Ce choix se manifeste de la façon la plus apparente par l'usage de l'épithète. Celui-ci résulte de la sélection visible d'une qualité que l'on met en avant et qui doit compléter notre connaissance de l'objet »

³ - د: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص: 32.

الإدانة إلى تحديد نوع العقاب الذي ينبغي أن يلقاه"¹، على أساس كل هذه الاعتبارات التي من أجلها لا بد من مراعاة اختيار النعوت يمكننا اعتبار هذه العملية من مستلزمات الحجاج التي يجب على المحاجج الاعتناء بها وهذا لضمان سيرورة الحجاج في الطريق الذي رسمه له المحاجج من قبل وإلا أصبح حجاجه مهدد للاعتراض أو الدحض.

5 - اختيار الألفاظ:

إن "بيرلمان" جعل من مسألة اختيار الألفاظ للتعبير عن الفكر أمر يتعلق في الأساس بالعملية الحجاجية في قوله "إن عرض المعطيات ليس مستقل عن إشكاليات اللغة اختيار المصطلحات، للتعبير عن تفكيره نادرا ما يكون دون نطاق حجاجي"²، رغم أن عملية اختيار الألفاظ لم يعط لها دور كبير في البلاغة المعاصرة إذا ما قورنت بالأهمية التي أعطيت لنظام الكلام وللنسق الكلامي، غير أنه لا يمكن إهمال دور اللفظ لأنه في حقيقة الأمر هو أصل كلاهما، فإن "انتقاء اللفظ ذو قيمة حجاجية ثابتة، بحيث لا شطط. صحيح أن بعض الدارسين وبعض الاتجاهات في دراسة الشعر ترى أن اختيار لفظة دون مرادفها قد يكون على أساس شكلي، فهو لغاية إحداث التنعيم أو الإيقاع، بحيث تبدو قيمة اللفظ قيمة شكلية محضة. لكن الخطاب الحجاجي، لما كان مرتبطا دائما بالمقام الذي يقال فيه، إنما يعتمد إلى استخدام هذه الكلمة دون مرادفها في اللغة، لكونها أنسب منه في ذلك المقام"³ ومن هذا المنظور المقامي فإن اختيار لفظ دون سواها وإن اقتربت من المعنى إلا أن الخطاب الحجاجي يستدعي حسن اختيار الألفاظ التي يتناسب والموضوع وكذا مقام المتكلم والمخاطب وكذا زمان ومكان الخطاب.

إن كانت المرادفات تؤدي نفس الوظائف اللغوية في الكثير من أنواع الخطابات، "لكن لما يتعلق الأمر باستعمالاته عند الخطيب في خطاب معين، فمعادلة المترادفات لا يمكن ضمائها، إلا في ظل مراعاة الوضع العام الذي يتوافق مع الخطاب وبالموازاة مع أنواع من الاتفاقات الاجتماعية التي تحكم

¹ - نفس المرجع، ص: 32.

² - Chaïm Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca, Traite de l'argumentation La nouvelle Rhétorique, p : 200. La présentation des données n'est pas indépendante des problèmes de langue Sélection de termes, pour exprimer sa pensée rarement sans portée argumentative »

³ - د: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص: 36، 37.

عليه¹ خاصة أن اللغة الطبيعية التي يعتمد عليها الحجاج لغة تزخر بالألفاظ وقد اعتادت على توفير هذا الزخم اللفظي، هنا تدخل الكفاءة البلاغية للخطيب في انتقاء الألفاظ التي تعبر بكلمة واحدة عن المعنى وبما يكون وقع المعنى في النفس والعقل معاً فتحدث الإقناع.

4-3- طرائق تقنيات الحجاج:

تتوزع التقنيات الحجاج حسب "بيرلمان" على نوعين أي لها نوعان من الطرائق: طرائق الوصل أو الاتصال procédés de liaison، وطرائق الفصل أو الانفصال procédés de dissociation ومعنى هذا أنه توجد أشكال حجاجية اتصالية وأشكال حجاجية انفصالية²، وكل هذه التقنيات تتنوع وتتوسع حسب نوع موضوع الخطاب وكذا حسب مقامه.

4-3-1- الحجج القائمة على الوصل أو الاتصالية:

ويقصد بها تلك الحجج التي "تمكن من نقل القبول الحاصل حول المقدمات إلى نتائج"³، وهي بدورها تنقسم إلى:

1- حجج شبه منطقية: (les arguments quasi-logique)

هي حجج تبني على المنطق، حيث أنها تحدد على أنها قريبة من التدليلات الصورية، ولكنها تختلف عنها من حيث أنها ليست ملزمة، وأنها تفتح إمكانية النقاش. فالتناقض وتحصيل الحاصل وعلاقة التعدية... هي كلها من الحجج شبه المنطقية⁴ وفي هذه الحالات تبني الحجج على آلية الاستدلال، و"في عرض بيرلمان للحجج شبه المنطقية، كان يبين أولاً علاقة كل حجة بقريبتها في الاستدلال الصوري، ثم يوضح ما يميزها وما يتيح معارضتها ينبغي تدقيق الألفاظ المستعملة، واستبعاد

¹- Chaïm Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca, Traite deL'argumentation La nouvelle Rhetorique, p : 200,201. « Mais quand il s'agit d'utiliser dans un discours particulier, l'équation des synonymes ne peut être assurée qu'eu égard à la situation d'ensemble dans laquelle s'insère son discours et notamment à certaines conventions sociales qui pourraient le régir ».

²- د: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص: 41.

³- د: الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شايبم بيرلمان، ص: 66.

⁴- كريستيان بلانتان، الحجاج، ص: 66.

أي لبس، وإزالة أية إمكانية لتأويلية متعددة للاستدلالات.¹ فهي بذلك تتقارب إلى حد بعيد إلى الصرامة المنطقية التي لا جدال فيها، لكن تبقى فيها بعض النسبة الاحتمالية الضئيلة التي تضيفها عليها اللغة الطبيعية التي ينطلق منها الحجاج. ويدخل ضمن هذه الحجج ما يلي:

1-2- حجج التناقض والتعارض:

المعروف أن الحجاج يقوم أساساً قصد تثبيت أو تفنيد رأي، ففي الحالتين يجد المحاجج نفسه إما أمام عرض حجة لا تقبل التناقض أو تكون محل تعارض، ويتحقق ذلك بالاعتماد على الحجج شبه المنطقية؛ لأن "الأنساق الصورية لا تقبل التناقض، لأن إدخال قضية ونقيضها في نفس النسق الصوري يجعل هذا النسق متفككاً، وبالتالي معطلاً غير قابل للاستعمال، فيصبح من الضروري إلغاء إمكانية إثبات الصادق من الكاذب في آن واحد"² ومن أجل هذا قد يلجأ المحاجج إلى بسط كل الاحتمالات الواردة التي قد تناقض رأيه أو تعارضه مع تقديم حجج منطقية يفند بها حجج خصومه المحتملة، فهو بذلك يلغي إمكانية الوقوع في مأزق التعارض.

يشير هذه النوع من حجج الاتصال إلى أن "التناقض يحدث داخل النظام الواحد المشكلن. أما التعارض فيحدث في علاقة الملايظ بالمقام"³ أي بمعنى آخر أن التناقض لا يكون في نفس الكلام، بينما التعارض يكون حول الكلام في مقام محدد وإن حصل شيء من هذا القبيل فإن الحجاج في هذه الحالة يلجأ إلى التأويل؛ لأن "الحجة شبه المنطقية تستمد قوتها من قيامها على غرار البناء المنطقي مع تبريرها في صورة حصول التعارض."⁴ في المقابل المحاجج يبحث في دعوى الخصوم عن التناقض في فحوى الكلام بل يصل به الحال حتى إلى ما يسمى بالهزء "le ridicule"⁵، أو أنه يختار بين إحدى القواعد التي قد تتعارض مع دعواه حتى لا يكون في موضع السخرية.

¹ - د: الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شايم بيرلمان، ص 58، 59.

² - نفس المرجع، ص 59.

³ - د: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص: 43.

⁴ - نفس المرجع، ص: 44.

⁵ - أنظر: Chaïm Perelman et Lucie Olberegts-Tyteca, Traite de L'argumentation La nouvelle

Rhetorique, p:276

1-2-1- حجج التماثل والحد بالتعريف والتحليل:

يدخل هذا النوع من الحجج في الحجج الشبه منطقية لأنها تبدو من الناحية البنائية استدلالاً منطقية فهي "تعبير عن التماثل بين المعرف وليس المعرف تمام المعرف على الحقيقة"¹ بمعنى آخر هي تعتمد التعريف بالمثل كقولنا: القيم هي القيم المتعارف عليها منذ الأزل، "ويميز بيرلمان، في إجراءات المطابقة الحجاجية، بين إجراءات لا تسعى إلا إلى تطابق جزئي بين العناصر المتقابلة، وأخرى تسعى إلى تطابق تام؛ وهي التي يُمكن أن يتم بواسطة التعريف أو بواسطة التحليل"² فالتطابق الجزئي هو ما يكون بالتماثل، وهو يقترب كثيراً من المجاز، كما أن الكثير من حجج الحد والتماثل تصبح حكماً عامة "لكن هذا الحكم لا يمكن أن يكون له دلالة الحجاجية إلا في مقام بعينه"³ والصيغة الاستدلالية المنطقية هي التي تقوي الحجة في هذا الإطار.

1-2-2- التعريف:

يلجأ المحاجج إلى تحديد المفاهيم أو الأحداث لغرض عرض دعواه وتوضيحها لدى المخاطب، لكن هذا "لا يقوم على الاعتبار أو البدهة، بل هو قائم على التبرير الحجاجي. ذلك لأن التعريف يحرك العملية الاستدلالية ويقدم اختيارات دون أخرى، كما يشكل حكماً على الأشياء أو تقويماً لها"⁴ فالتعريف في الحجاج يقوم أساساً على اعتبارات وأحكام سابقة ومنه يتحدد نوع التعريف.

- التعريف المعياري، الذي يعين الطريقة التي نريد بها استعمال اللفظ

- التعريف الوصفي، الذي يعين نبرة التي يجب بها نطق الكلمة في مكان معين أو في لحظة معينة.

- التعريف التكتيفي، الذي يعين العناصر المهمة للتعريف الوصفي.

3- د: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص: 44.

2- د: الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شايم بيرلمان، ص: 62.

3- د: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص: 45.

2 - Chaïm Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca, Traite de L'argumentation La nouvelle Rhétorique, p : 282. « N'est considérée ni comme tout à fait arbitraire ni comme évidente, c'est-à-dire quant elle donne ou peut donner lieu à une justification argumentative. Nous distinguerons, parmi procédés d'identification ,ceux qui visent à une identité complète et autres qui ne prétendent qu'à une identité partielle des éléments confrontés »

-التعريف المركب، الذي ينسق بطريقة تنويع عناصر أنواع التعاريف السابقة¹

1-2-3- التحليل:

تكون المطابقة كذلك بالتحليل " ويكمن الطابع الحجاجي للتحليل في أنه يكون توجيهياً دائماً، يقصد إلى جعل عبارات معينة قابلة للتعويض لأن يعوض بعضها بعضاً. وذلك بسوق المستمع نحو تصورات مطابقة لفكرة الخطيب عنها، وبإبعاد كل التأويلات المخالفة"² فهو يعمل عمل التعريف إلا أن الأول يقدم صورة عن المعرف مستعينا بما هو معروف، والأخير يحاول تجزيء الدعوى بغرض تبسيطها وتقريبها إلى المخاطب.

4-3-2- الحجج القائمة على العدل والتبادل:

وهي الحجج التي تقضي التوزيع العادل على العناصر التي من نفس النوع "مبدأ التسوية هذا يعبر عن قاعدة للعدل ذات طبيعة صورية مفادها أن الكائنات المنتمية إلى نفس الفئة الأساسية ينبغي أن تعامل بالطريقة نفسها"³ لذا على المحاجج أن يطبق هذا المبدأ ويعتمد على البنى المنطقية. ومن خلال تلك الحجج تنشأ الحجج التبادلية العكسية "عن قلب وجهات النظر من قبيل: إذا كانت تبدو لكم تقاليد أهل الصين غريبة فإن تقاليدكم تبدو لهم كذلك"⁴ فهذا المثال يوضح قاعدة العدل بأن الحكم على التقاليد الغريبة دائماً يكون بالمثل، والحكم هنا يتعلق بالحالة الأولى كما يتعلق بالحالة الثانية سواء بسواء.

1- حجج التعدية والتضمين والتقسيم:

وهي علاقة استدلالية منطقية تقوم على مبدأ انتقال الحكم بين قضيتين إلى قضيتين أخرتين تشابهماً، بحيث يمكن "المرور من إثبات وجود علاقة بين طرف (أ) وطرف ثانٍ (ب)، وبين هذا الثاني وطرف ثالث (ج)، إلى استنتاج وجود نفس العلاقة بين (أ) و(ج). هذه الخاصية هي التي تميز علاقات

¹- د: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 92، 93.

²- د: الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، ص: 63.

³- د: الحسين بنو هشام، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، ص: 64.

⁴- د: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص: 46.

التساوي (Egal à) والتضمّن (Inclus dant) والكبر (Plus grand que).¹ ويقصد بالكبر التفوق أما التضمن وهو أن "القضية تتضمن قضية أخرى. ويبدو هذا خاصة في الاستدلال القياسي² القائم أساسا على التعدية في القياس الخطابي الذي يسميه أرسطو الضمير"³ هذا النوع من القياس هو من أكثر الأنواع الاستدلالات المتداولة، وخاصة الذي يقوم على التضمن فهو يشكل تقريبا جُلّ الكلام الطبيعي.

تلجأ اللغة الطبيعية إلى خاصية التضمن لعدة اعتبارات وظيفية، بحيث لا يمكن في بعض الأحيان الوقوف على كل أجزاء الحالة واحدة واحدة، فيتم الوصول إلى نتيجة عامة يمكن بعدها الحكم على جزئياتها بنفس الحكم على اعتبار أن الكل يعبر عن كل جزء فيه، ومن "حجة تضمن الجزء في الكل تسمح بالقول إن الكل أكبر من كل جزء من أجزائه. هذه الحقيقة القابلة للبرهنة في الرياضيات والهندسة تصبح حجة شبه منطقية إذا استنتجنا منها أن: "الكل أفضل من الجزء" أو "ما يمنع على الكل لا يُسمح به للجزء"، أو "من يستطع الكثير يقدر على القليل"⁴، كما أن حجة التعدية قد تكون بالوصول إلى نتيجة بعد تجزئ الكل، والحكم الذي يطلق على جزء يمكن التعميم⁵ على جميع عناصر العينة أو المجموعة على اعتبار أنهم يحملون نفس الخصائص وهذا ما يعرف بحجة التقسيم.

2- حجة المقارنة:

المقارنة حجة شبه منطقية لها وقعها الحجاجي الكبير، بحيث تفسح للمستمع فرصة التفكير العادل فهي "توحي بوجود وزن أو قياس ما"⁶ وقيمة العدل من أهم مقومات الحجاج لهذا السبب فإن "المقارنة في إطار الحجاج، تستعمل لتقوية دليل يدعم خلاصة أو حكما وذلك بإحداث إما تأثير ييداغوجي (المقارنة من أجل الدعم والإفهام على نحو أفضل) عندما تكون المقارنة موضوعية، وإما تأثير تضليلي (صرف الطرف المحاور إلى واقعة أخرى مماثلة تمنع تحت غطاء التشابه، من صحة تبين

¹ - د: الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شايبم بيرلمان، ص: 66.

² - القياس: هو كل قول مؤلف من مقدمتين تلزم عنها نتيجة.

³ - د: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص: 47.

⁴ - د: الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شايبم بيرلمان، ص: 67.

⁵ - إن الخبر 11 - 2 يتلاءم مع عدد كبير من الحالات التي كثيرا ما تتكرر. فيمكن أن يأتلف مع محور (الواجب) عندما يكون التعميم، عن : باتريك شاوورد، الحجاج بين النظرية والأسلوب، ص: 34.

⁶ - د: الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شايبم بيرلمان، ص: 69.

الدليل¹ والمقارنة الموضوعية هي التي تكون بين حالي واقعتين يمكن للمستمع أن يتأكد من صحة هذه المقارنة، بينما المقارنة التضليلية فهذه المقارنة الهدف منها الإيهام وكثيرا ما تلجأ إلى المقارنة بشيء أصلا غير واقعي، لكن هذا النوع من المقارنة ليس دائما يهدف إلى التضليل فقد يكون القصد منه هو إعطاء الصبغة التجريدية التي توحى بسمو الحجة وبالغرابية التي هي أساس بلاغة الحجاج.

3-3-4 حجج مؤسسة على بنية الواقع: (Les arguments fondés sur la structure).

تأخذ الحجج شبه المنطقية قيمتها الحجاجية من اعتمادها الاستدلالي المنطقي العقلاني الذي يقوم على صحة الأحكام، فإن الحجج المؤسسة "على بنية الواقع تستخدم الحجج شبه المنطقية للربط بين أحكام مسلم بها وأحكام يسعى الخطاب إلى تأسيسها وتثبيتها وجعلها مقبولة مسلم بها،"² أي أن المحاجج يعتمد على مسلمات، ويقوم بربطها مع أخرى بحيث تستمد الحجة الأخيرة صحتها من الحجة السابقة. لهذا سميت بالحجج الاتصالية، وتقوم عملية الاتصال أو الربط بطريقتين مختلفتين، ومنه تنقسم هذا النوع من الحجج إلى قسمين.

1- علاقة الربط التتابعي:

تتحقق علاقة الربط التتابعي بالاعتماد على ربط وقائع "ظاهرة ما إما بأسبابها أو نتائجها"³ وفي هذه الحالة يلجأ الحجاج إلى البحث عن الأسباب التي تقف وراء الوقائع أو العكس الوقوف على النتائج بتحليلها وتقييمها.

1-1 الحجج النفعية: l'argument pragmatique

يدخل ضمن هذا النوع من الحجج التي تعتمد الربط التتابعي ما يعرف ب"الحجج النفعية" وهي حسب تعريف "بيرلمان" "نسمي الحجة النفعية التي تسمح بتقدير قيمة واقعة أو حدث عن طريق

¹ - باتريك شاورد، الحجاج بين النظرية والأسلوب، ص: 88.

² - د: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص: 47.

³ - د: الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، ص: 71.

نتائجها الايجابية أو السلبية. هذه النوع من الحجج يلعب دورا مهما في الحجاج"¹؛ لأن الاحتجاج بالنتائج يكون أكثر قوة ومصداقية بحيث يقوم على أن "الحقيقة فكرة قد لا تقيم إلا بواسطة آثارها"²؛ لأن النتائج تكون بمثابة أدلة مادية ونحن نعرف أن الدليل المادي لا يمكن أن يتفوق عليه أي دليل فهو أقوى الأدلة.

الحجة النفعية لا تقوم على مجرد وصف النتائج إنما تركز على تقييم هذه النتائج، ومنه فإن "حجة النفعية لا تقتصر على نقل جودة قد منحها النتيجة للسبب، إنما يسمح ذلك انتقال نظام القيم إلى آخر من الانتقال من قيمة كامنة في الثمار إلى قيمة أخرى كامنة في الشجرة، لنخلص إلى أن تفوق التصرف يبدأ من أهمية النتائج، يمكن كذلك، إذن من هنا يبدو فلسفيا الأكثر أهمية، اعتبار النتائج الجيدة لدراسة ما دليل على الحقيقة"³ أي كلما كانت النتائج تقترب من الحقيقة كان نفعها أفضل والحجاج الذي يقوم عليها أكثر تأثيرا وإقناعا؛ لأن مقدماته صحيحة وبتالي نتائجها كذلك.

1-2- حجة التبديد:

هذا النوع من الحجج يقوم على مبدأ أن الغاية يمكن بلوغها مادامت الوسيلة متاحة لنا فمن العبث ترك هذه الغاية تذهب من بين أيدينا. إذن "هي تركز على القول: بما أننا سبق أن بدأنا عملاً تجشمناً، لأجل إنجازها، تضحيات ستذهب هباءً إن استسلمنا وتقايسنا عن مواصلة الجهد لإتمامه، فينبغي، إذن أن نواظب على العمل في نفس الاتجاه"⁴ هنا يتم ربط السابق مع اللاحق، بل قد يتم تبديد اللاحق إن لم يتم استكمال العمل بعد أن ضفرنا به.

¹- Chaïm Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca , Traite deL'argumentation La nouvelle Rhétorique, p :358 . « Nous appelons l'argument pragmatique celui qui permet d'apprécier un acte ou un événement en fonction de ses conséquences favorable ou défavorable. Ce arguments joue un rôle à tel point essentiel dans l'argumentation »

²- د: الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شايبم بيرلمان، ص: 73.

³-Chaïm Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca , Traite de L'argumentation La nouvelle Rhétorique, p :360. L'argument pragmatique ne se borne pas à transfert une qualité donnée de la conséquence sur la cause, il permet passer d'un ordre de valeurs à un autre, de passer d'une valeur inhérente aux fruits à une autre valeur inhérente à l'arbre, de conclure à la supériorité d'une conduite en partant de l'utilité de ses conséquences, il peut aussi, et c'est alors qu'il parait philosophiquement le plus intéressant, considérer les bonnes conséquences d'une thèse comme preuve de la vérité ».

⁴- د: الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شايبم بيرلمان، ص: 74.

1-3- حجة الاتجاه:

هي حجة تقوم على التدرج والانتقال بين الجزئيات بهدف الوصول برفق إلى الأخير، وهذا "حين تكون هناك مسافة كبيرة تفصل بين المسلمات المستمع ودعاوى الخطيب، يُحسن أن يتم التقريب بينهما بالتدرج، فبدل الانتقال مباشرة من "أ" إلى "د"، يقوم الخطيب بنقل المخاطب إلى "ب"، ومنها إلى "ج" ليصل أخيراً إلى "د"¹ ورغم أن هذا النوع من الحجج يتيح للفكر إمكانية توقع الخطوات التالية، إلا أن هذا التوقع قد يكون ليس في صالح المحاجج " وبالتالي المرور من النقطة "أ" إلى "د" يثير صعوبات، قد يكون من الممكن ألا يرى الجانب السلبي للمرور من النقطة "أ" إلى "ب" من النقطة "د" يظهر من وجهة نظر أخرى أين يظهر النقطة "د" نسمي هذا النوع من التقنية عملية تتابع المراحل"² التي تسير وفق اتجاه معين.

هذه التقنية قد تأخذ شكل آخر وهو ما يسمى بالتنازل المتدرج بل الأمر قد يصل حسب بيرلمان إلى أسوأ من ذلك "إذا أنت تنازلت هذه المرة، وجب عليك أن تتنازل أكثر المرة القادمة، والله أعلم أين ستتوقف حينها"³ وإن التنازل في هذه الحالة يصبح يشكل خطراً لأنه لا تضبطه حدود. فتكون الحجة في مثل هذه الحالات بمثابة الناقوس الذي يدق خطر اللاحق.

1-4- حجة التجاوز:

هذه الحجة تقوم على ضرورة السير قدماً دون النظر إلى الإفراط في ذلك " في مقابل حجة الاتجاه التي تحذر من الوقوع في متزلق يخشى نتيجته، حجج التجاوز تركز على إمكانية الذهاب دائماً إلى

¹ - نفس المرجع ، ص: 75.

² - Chaïm Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca , Traite deL'argumentation La nouvelle Rhétorique, p :379. « appelons cette technologie le procédé des étapes »

³ - Chaïm Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca , Traite de L'argumentation La nouvelle Rhétorique , p : 379. « Si vous cédez cette fois-ci, vous devez cédez un peu plus la prochaine fois, et Dieu sait ou allez vous arrêter »

أبعد اتجاه معين، بدون إعطاء نظرة محددة على هذا الاتجاه، وذلك مع تطور مستمر للقيمة¹ لكن تبقى للمبالغة والإفراط جانب سلبي وإن كانت هذه المبالغة مرتبطة بعلو شأن القيمة.

لكن تبقى لحجة التجاوز دورها في الإقناع بحيث "كثيرا ما تستخدم هذه التقنية من أجل استبدال حجة مقابل حجة أخرى، لكي تبين أن الذي كان يعتبر ليومنا هذا عائق، هو في الحقيقة وسيلة للوصول إلى مستوى أفضل وأعلى"² فهي تحاول أن تستثمر ما هو السلبي أو كان ينظر إليه كذلك وتبني منه ما يخدمها فهي تغير مسلمات الأمور وتجعلها لصالحها.

2- علاقة التعايش:

ترابط حجج التعايش مع بعضها البعض بعلاقة تتمثل في "الصلة الموجودة بين شخص وتجلياته، أي ما يصدر عنه من أعمال أو أحكام أو ما يخلفه من آثار"³ فيتكون الحكم عموما على الأشخاص من مما يقومون به من أعمال أو الكيفية التي يبدو بها هؤلاء الأشخاص.

انطلاقا من هذا المعطى "علاقة التعايش" يترتب الحكم على شخص ما بحسب العمل الذي أسند إليه، فإن "طبعه والنوايا التي تُسندها له هي التي تعطي معنى وبعداً تفسيريّاً لتصرفاته. إن الشخص وأعماله في تفاعل مستمر، بحيث يصعب الجزم في من يسبق الآخر"⁴ ومن هنا يمكن تبرير أي فعل أو ردة فعل تبعاً لهذه العلاقة الموجودة بين الشخص وأعماله كما يمكننا تكوين أفكار سابقة على الشخص كلما تم ربط الشخص بحدث معين.

¹-Chaïm Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca , Traite de L'argumentation La nouvelle Rhétorique, p : 387 « A l'encontre de l'argument de direction, qui fait craindre qu'une action ne nous engage dans un engrenage dont on redoute l'aboutissement, les arguments du dépassement insistent sur la possibilité d'aller toujours plus loin dans un certain sens, sans que l'on entrevoie une limite dans cette direction, et cela avec un accroissement continu de valeur »

² - Chaïm Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca , Traite de L'argumentation La nouvelle Rhétorique, p : 388 «Souvent Cette technique est utilisée pour transformer les arguments contre en arguments, pour montrer que ce qui était considéré jusqu'à présent comme un obstacle, est en réalité un moyen pour arriver à un stade supérieur »

³ - د: الحسين بنو هاشم، نظرية الحجج عند شايم بيرلمان، ص: 76.

⁴ - د: الحسين بنو هشام، نظرية الحجج عند شايم بيرلمان، ص: 77.

علاقة التعايش تستمد مقوماتها من قانون القيم حيث أن "علم الأخلاق والقضاء يعتمدان مفهومي "الإنسان وأعماله" من حيث هما مفهومان مرتبطان متواشجان لا فكاك لأحدهما عن الآخر. فعلم الأخلاق والقضاء يحكمان على العمل وعلى صاحبه في الوقت نفسه"¹ هذا يثبت اعتماد الحجاج مبدأ القيم؛ لأنه في الأصل يفسر ويرر الأحكام في الحجاج، ويمنحه المصدقية الإقناعية التي يتوخاها المحاجج.

2-1- حجة السلطة:

هذا النوع من الحجج يكون فيه الدعم خارجي للحجج المقدمة، فهناك "حجج عدة تغذوها هبة المتكلم ونفوذه وسطوته، فعلى سبيل المثال وعد الشرف يأتي على لسان شخص ما باعتباره شاهد إثبات على ما يقول إنما يكون وفقاً على القيمة التي لهذا الشخص في عيون الناس"² هذه السلطة تكون نتيجة لتاريخ طويل حافل بأعمال أكسبته سمعة طيبة لدى الناس؛ من هنا يتبين لنا أن لهذا النوع من الحجج علاقة سابقة مع "حجج التعايش".

كما أن هذا النوع من الحجج "السلطة" قد تأخذ هذه الهبة من أنماط أخرى سبق وأن تأصل مفهومها السلطوي في أذهانهم على اعتبارات كثيرة منها ثقافية وأخرى دينية "فقد تكون "الإجماع" أو "الرأي العام" أو "العلماء" أو "الفلاسفة" أو "الكهنوت" أو "الأنبياء" وقد تكون غير شخصية مثل "الفيزياء" أو "العقيدة" أو "الدين" أو "الكتاب المقدس" وقد يعتمد في الحجاج بالسلطة إلى ذكر أشخاص معينين بأسمائهم على أن تكون سلطة هؤلاء جميعاً معترفاً بها من قبل جمهور السامعين، في المجال الذي ذكرت فيه"³. وقد اعتبر "بيرلمان" الحجة الأكثر سلطوية وبالتالي الأقوى تأثيراً هي حجة السلطة في قوله: "حجة السلطة هي عالم الاستدلال الخطابي الذي كان هاجم بشدة، في البيئات المعادية لحرية البحث العلمي، فهي تشكل الحجج الأكثر توظيفاً وهذا بطريقة سيئة، استبدادية، أي أننا نوفر له قيمة ملزمة، كما لو أن السلطات التي تم الاستشهاد بها معصومة"⁴ من هذا المنظور يتضح

¹ - د: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص: 51.

² - نفس المرجع، ص: 52.

³ - د: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص: 53.

⁴ - Chaïm Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca, Traite deL'argumentation La nouvelle Rhétorique, P : 411. «L'argument d'autorité est le monde du raisonnement rhétorique qui fut le

الدور الذي يقوم به هذا النوع من الحجج في تعزيز الحجج الأخرى، لكن حجة السلطة لا تكون دائما دعما واقيا للمعارضة؛ لأنها حبيسة البيئة التي تدعمها.

2-2- حجج الترابط الرمزي:

علاقة الترابط التي تجمع بين الرمز والمرموز قد تشكل نوع من الحجج الخفية التي تعمل بجدية وسلاسة في نفس الوقت، لذا يرى "بيرلمان" في الواقع الرمز بالنسبة لنا يختلف عن العلامة؛ لأنها ليست تقليدية بحتة، ولها معنى وقيمة تمثل هذا المعنى وسوف تستمد هذه القيمة من أنه يبدو وجود علاقة قائمة بين الرمز وما يذكر الرابط الذي سوف ندعو لعدم وجود مصطلح أفضل لتقرير المشاركة¹ إذن العلاقة التي بين الرمز والمرموز إليه هي علاقة مشاركة في المعنى" إذ من المهم في الحجاج من معرفة مقياس الشيء، وكل ما يلامسه، مع هذه الطابع الرمزي، لكن هناك طريقة، نظرا للطابع غير المعين وغير المحدد من حيث الهدف² من هنا نستنتج أن الرمز يكتسب قيمته من الأوساط التي يحتلها هذا المعنى وتدرج هذه القيمة.

4-3-4 حجج مؤسسة لبنية الواقع: (Les arguments qui fondent la structure du) rée

1-الشاهد:

يعتبر من أكثر الحجج المتداولة في الحجاج وهي تمثل "الحجج الجاهزة أو الشواهد وهي من دعائم الحجاج القوية، إذ يضعها المرسل في الموضوع المناسب، ومن هنا تتبدى أهليته وبراعته في

plus vivement attaqué, parce que, dans les milieux hostiles à la liber de la recherche scientifique, il fut le plus largement utilisés et cela d'une manière abusive ,péremptoire, c'est-à-dire en lui accordant une valeur contraignante, comme si les autorités invoquées avaient été infaillibles »

¹- Chaïm Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca , Traite de L'argumentation La nouvelle Rhétorique, p :446. « En fait, le symbole pour nous se distingue du signe, parce qu'il n'est pas purement conventionnel; s'il possède une signification et une valeur représentative, cette sinification et cette valeur se tirent de ce qu'il semble exister, entre le symbole et ce qu'il évoque ,un rapport que, faute d'un meilleur terme nous qualifierons de rapport de participation ».

²- Chaïm Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca , Traite deL'argumentation La nouvelle Rhetorique, p :448. « Il est importe donc, dans l'argumentation, de savoir dans qu'elle mesure une chose, et tout ce qui la touche, est pourvue de cette nature symbolique. Or il y a moyen, étant donné le caractère indéterminé et indéfini objectivement ».

توظيفها حسب ما يتطلبه السياق... فهي ليست من إنتاج المرسل بقدر ما هي منقولة على لسانه، ونقلها على لسانه ينبئ عن كفاءته التداولية، إذ يكمن دوره في توظيفها التوظيف المناسب في خطابه، وبهذا فهي تعلقو الكلام العادي درجة¹ لأنها عصارة خبرة و تكون شاملة موجزة دقيقة متقنة السبك تصب في صلب الموضوع.

فالنقل يتطلب مهارة خاصة من المحاجج؛ لأنه "يتمثل في نقل أقوال مكتوبة أو شفوية صادرة عن متكلم آخر غير الذي يستشهد وذلك بأكثر أمانة ممكنة (أو على الأقل بإعطاء انطباع من الدقة) من أجل إحداث تأثير تصديقي في المحاجج"² هذه الأقوال تنم عن خبرة صاحبها ومعرفته ودقته في طرح الموضوع، يساهم هذا في منحها مصداقية أكثر مما يتوقع قبولها بل حتى تبنيتها من جديد لإعادة توظيفها متى استدعت الحاجة إلى ذلك.

2-المثال:

الشاهد يأتي في الحجاج على أشكال، فمنها ما هو " اقتراض وجود انتظام أو اطراد لما يوفر الشاهد تجسيداً له، فهو يسعى إلى إثبات قاعدة، إذ يبحث، انطلاقاً من حالة خاصة، عن قانون أو بنية التي تكشف عنها هذه الحالة"³، ويطلق عليه في مثل هذه الحالة "مثالاً"⁴ يعني أن المثل يشكل كذلك حجة داعمة لإثبات القاعدة، وفي هذه الحالة "ينبغي للمثال أن يستهدف المخيلة، في حين ينبغي أن تكون حقيقة الشاهد أكيدة وغير مجادل فيها"⁵. حتى يحقق الشاهد غايته الحجاجية.

يستخدم المثال كذلك قصد إثبات حالة خاصة أو التوضيح عن طريق المقارنة أو الوصف أو السخرية⁶ أو سرد حادثة تاريخية "إذ إنه يعتمد على الحقيقة، وهو تبعاً لذلك، الأكثر إثارة

¹ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص: 537

² - باتريك شارودو، الحجاج بين النظرية والأسلوب، ص: 94.

³ - د: الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شايبم بيرلمان، ص: 83.

4-Voir : Chaïm Perelman et Lucie Olberegts-Tyteca , Traite deL'argumentation La nouvelle Rhétorique, p :481

⁵ - د: الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شايبم بيرلمان، ص: 84، 85.

⁶ - ينظر: د: الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شايبم بيرلمان، ص: 85.

للتصديق¹ حتى أنه قد يؤخذ المثال من الأساطير أو الخرافة الشعبية لما لهذه الأخيرة من اجتماع عامة الناس على توارثها من جيل إلى جيل حتى أضحت وكأنها حقيقة وإن كانت بعيدة عن الموضوعية.

3- القدوة والقدوة المضادة:

وفي هذا النوع من الحجج يطرح المحاجج نموذج قد يحتذي به المخاطب، أو العكس يطرح نموذج نرفض أن نكون مثله فبطبيعة الحال فإننا نسلك غير مسلكه، وهو "يصلح على صعيد السلوك لا لتأسيس قاعدة عامة أو دعمها فحسب وإنما يصلح كذلك للحث على عمل ما، اقتداء به أو محاكاة له"² والقدوة تعطي للمخاطب قناعة أن ذلك السلوك يمكن حذوه بما أنه سبق وأن قام به، أو أن القدوة توضح مختلف جوانب الموضوع ومن جميع الزوايا فيقرب الموضوع لدى المخاطب وهذا يساعده على اختيار ما يتناسب ومؤهلاته من النموذج كما يجنبه الوقوع في الأخطاء؛ لأنه قد أدرك أسبابها.

كل هذا يجعل من القدوة والقدوة المضادة دورا بارزا في إحداث الاقتناع "ودور القدوة والقدوة المضادة، يدرك حين نكون مقتنعين أننا وجدنا لها تجسيدا لا يرتقي إليه الشك، مثل الله أو الشيطان"³ مما يتوجب علينا الاقتداء به أو ترك ذلك دون أي معارضة؛ لأن قوة الحجج في مثل هذا النوع من الحجج تكمن في فاعلية النموذج المختار، فكلما كانت القدوة المأخوذة للحجاج تتميز بمواصفات النمذجة التي يفترض تقديمها كان الحجج أقوى وأمتن.

4- التناسب والاستعارة:

¹ - د: محمد الوالي، مدخل إلى الحجج أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان، ص: 31

² - د: عبد الله صولة، في نظرية الحجج، ص: 55.

³ - د: الحسين بنو هاشم، نظرية الحجج عند شايم بيرلمان، ص: 87.

1- التناسب¹

التناسب من أهم الحجج المتداولة في اللغة الطبيعية التي هي عمدة الخطاب الحجاجي وعليها يقوم، لما يوفره من تقنيات تتماشى وحاجيات الخطاب الحجاجي منها الإضمار والتضمين والإلحاق وغير ذلك، إذ تجمع بين التواصل وبين الاستدلال غير الصوري يختزل خصائص الخطاب الحجاجي التي يقوم عليها الإقناع.

التواصل + الاستدلال غير الصوري = الإقناع

الحقيقة التناسب في الأصل عبارة عن صيغة رياضية تكون بين علاقيتين نثبت أن العلاقة الأولى تماثل العلاقة الثانية، مثلاً: "نثبت أن "أ" بالنسبة إلى "ب" هي مثل "ج" بالنسبة إلى "د"؛ أي أن العلاقة "أ _ ب" تشبه العلاقة "ج _ د"². لكن هذا التناسب يأخذ أبعاد متعددة في الخطاب الطبيعي.

من هذا المنظور يرى "طه عبد الرحمن" أن الخطاب الطبيعي أوسع وأفضل من المقام الرياضي عند توظيفه التناسب وهو يسميه القياس التمثيلي³، بحيث "ليست وظيفة الخطاب الطبيعي أن ينجز عمليات حسابية آلية، وإنما هو:

أ_ خطاب متعدد الوظائف تتداخل فيه المستويات وتتزوج فيه الأقوال ويتمازج فيه العرض بالاعتراض.

ب_ خطاب موجه توجيهها عملياً تتداخل فيه الوقائع مع القيم والمعطيات مع المبنيات والمعاني مع المباني.

ج_ خطاب مفتوحاً فتحاً مستمراً تُبنى موضوعاته بناءً تدريجياً ويُعوّل في هذا البناء على معارف المخاطب ويترك له فيه جانب من المبادرة.⁴ يتضح من خلال هذا التحليل لوظائف الخطاب الطبيعي

¹ - جاءت لمصطلح "ترجمات عدة منها القياس، التمثيل، التمثيل القياسي، التناسب وقد اعتمدنا مصطلح التناسب لأننا رأيناه يمثل الترجمة المعجمية.

² - د: الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شايم بيرلمان، ص: 88.

³ - ينظر: طه عبد الرحمن، التكوثر العقلي، ص: 291.

⁴ - طه عبد الرحمن، التكوثر العقلي، ص: 291.

وارتباطه بالتناسب، أنه يمكن للتناسب أن يستوعب كل أطراف الخطاب بتنوعها وتشاكلها وتناقضها، ويكون هذا الاستيعاب بصورة عملية، متدرجة، مكشوفة، مما يعطي إمكانية المشاركة، في التحديد المحتمل.

لعل أن "طه عبد الرحمن" استند في هذا التحليل على ما ذهب إليه "بيرلمان" في قوله: " بالرغم من أن التناسب هو عبارة عن استدلال متعلق بالعلاقات التي توجد داخل الحامل وداخل الموضوع، مما يجعلها تختلف بشكل عميق عن نسبة رياضية بسيطة، إن طبيعة المصطلحات في التناسب ليست أبدا مختلفة، قد ثبت، في الواقع، أن بين "أ" و"ج" وبين "ب" و"د" على أساس نفس القياس، تقارب يؤدي إلى التفاعل، وعلى وجه الخصوص إلى إنعاش، أو التقليل من قيمة، قضايا الموضوع.¹ هذا من جانب كما أنه من جانب آخر يحيلنا إلى قول "بيرلمان": "التناسب يلعب دورا مهما في الإبداع وفي الحجاج بسبب ضرورة التطورات والامتدادات التي تدعمها، انطلاقا من الحامل تستطيع أن تخطط بناء الموضوع"² وإن هذه الأسباب تفرضها خصائص الخطاب الطبيعي.

في بعض الأحيان يشتغل التناسب ضد الحجاج حين "تكون أطراف الحامل غامضة المعنى مما يترتب عليه انقلاب في الأدوار إذ يصبح الموضوع هو الذي يوضح الحامل في حين أن العكس هو المطلوب في الحجاج. وتقتضي هذه الحالة أيضا جهدا لتقريب الحامل من الموضوع فتكون النتيجة أن التمثيل في الحجاج يفقد قوته الإقناعية"³ فالحامل يُعول عليه لتقريب الموضوع إلى الإفهام، وعملية التناسب بين أطراف الحامل أي الانتقال من طرف إلى آخر هو الذي يحقق الإقناع، فإذا ما احتل عنصر من هذه العناصر التي يقوم عليها التناسب (الحامل ، الانتقال) تعثرت العملية الحجاجية.

¹-. Chaïm Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca , Traite deL'argumentation La nouvelle Rhétorique, p :508 « Bien que la l'analogie soit un raisonnement qui concerne des relations celle qui existent à l'intérieur du phore et à l'intérieur thème, ce qui les diffère profondément de la simple proportion mathématique, c'est que la nature des termes, dans l'analogie, n'est jamais indifférente. Il s'établit, En fait, entre A et C "Et entre" B "et" D "grâce à l'analogie même, un rapprochement qui conduit à une interaction, et notamment à la valorisation, ou la dévalorisation, des termes du thème. »

²-Chaïm Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca , Traite deL'argumentation La nouvelle Rhetorique p :517. « Les analogies jouent un rôle important dans la l'invention et dans l'argumentation à la cause essentiellement des développements et des prolongements qu'elle favorisent : à partir du phore, elle permettent de structurer le thème »

³-د: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص: 59،60.

بما أن التناسب من بين الحجج التي تؤسس لبنية الواقع فكثيراً ما "نكون مضطرين إلى خلق الموضوع؛ لأننا لا يمكننا فهم مصطلحات الخطاب الخاص، فمن الضروري منحهم معنى مجازي، ذلك بالبحث في الموضوع من أجل إعادة اختراع تناسب الذي من شأنه أن يعطي خطاب معناه الحقيقي"¹، لذا لا يمكن أن نحصر التناسب في الألفاظ أو بين مصطلحين فقد يتجاوز التناسب، "وأول اجتهاد لتجاوز التناسب، من أجل تقريب الموضوع من الحامل بهدف إنشاء بينهم رابط المشاركة: يقدم الحامل كرمز، كصورة، أسطورة، الحقائق حتى تستمد وجودها من مشاركتهم في هذا الموضوع،"²، هنا يكمن الاختلاف بين التناسب الرياضي، الذي يعتمد على اللغة الصناعية وبين التناسب الحجاجي الذي يعتمد على اللغة الطبيعية، فالأول صارم نتائجه مشكوك في حقيقتها، ومن هذه النقطة بالتحديد لقي التناسب الرياضي نقداً³، بينما التناسب الحجاجي هو تناسب مرن نتائجه رغم أنها احتمالية إلا أنها ترقى إلى اليقين الذي يشترك الواقع والخيال في بلوغه.

2- الاستعارة:

تغيرت مفاهيم الاستعارة على يد "بيرلمان" و"تيتكا" باعتبارها حجة قوية ذات أثر فعال يستعين بها المحاجج لدعم حججه، على غرار ما وصفت به الاستعارة في البلاغة الكلاسيكية، "فالتراث البلاغي في نظر هذين الباحثين، يعتبر الاستعارة هي نقل دلالة خاصة لاسم ما إلى دلالة أخرى، ولا تناسب بينهما إلا بالنظر إلى تشبيه ذهني. وكان هناك من تخلى عن فكرة التشبيه، مشدداً على الطابع الحيّ والمتنوع والمفارق للعلاقات بين المفاهيم المعبر عنها دفعة واحدة بواسطة الاستعارة، فهي بذلك

¹ -Chaim Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca , Traite deL'argumentation La nouvelle Rhetorique, p : 516. « Il arrive d'ailleurs que l'on soit obligé d'inventer le thème, parce que ne pouvant comprendre les termes de discours au propre, on est amené à leur donner un sens figuré, à rechercher donc le thème, à réinventer l'analogie qui donnerait au discours son sens véritable »

² - Chaim Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca , Traite de L'argumentation La nouvelle Rhétorique, p : 528. « Le Premier effort pour dépasser l'analogie, pour rapprocher le thème du phore vise à établir entre eux un rapport de participation : le phore est présenté comme symbole, comme figure, comme mythe réalité dont l'existence même dérive de leur participation au thème »

³ - ينظر: د: الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شايم بيرلمان، ص : 89.

تفاعل أكثر منها استبدال، وتقنية للابتكار قدر ما هي تقنية تزيين¹، من هذا المنطلق بالتحديد أخذت الاستعارة البعد الحجاجي الذي تتمنه قدرتها الخارقة في التصوير الإبداعي وتقريب المعنى واستحلاء الغموض عنها.

غالباً ما يكون التناسب بين العلاقات، بحيث يتم الانتقال من العلاقة الأولى لإثبات العلاقة الثانية أو العكس على أساس المشابهة، ومتى حصل "تناسب مكثف بفضل اتحاد الثيمة والحامل"² سمي ذلك ب"الاستعارة" أي تكون علاقات التناسب شديدة التلاحم في ما بينها إلى درجة الانصهار، "هذا الصّهر الاستعاري الذي ينتزع إلى المطابقة بين الثيمة ومجال الحامل بهدف خلق انفعال شعري غالباً، يفتح المجال لتلك الحركة المكوكية بين الثيمة والحامل بشكل أفضل من التناسب، حيث يصبحان غير قابلين- إذا صحّ القول - للانفصال"³ مما يضطر السامع إلى اللجوء في الكثير من الأحيان إلى قراءة الاستعارة قراءة اجتهادية التي يكون للمقام والنسق دورهما الفعال في توجيه هذا النوع من القراءة، التي تصل بالقارئ المجتهد في الغالب أن يقف طويلاً وقفة إجلال وانبهار أمام المعنى الدقيق والأنيق والبلوغ الذي تقدمه الاستعارة من خلال هذا التناسب المكثف.

من خلال ذلك يتضح لنا أن "التناسب بفضل هذا الاندماج لا يقدم كاقترح، لكن يقدم كمسلمة، هذا يعني أن الاستعارة يمكن أن تتدخل لاعتماد التناسب. لذا فإنه ليس من المستغرب أن يتضح عندما نفحص الحجج عن طريق التناسب الذي غالباً ما لا يتردد المخاطب خلال عرضه من استخدام الاستعارة المستمدة من التناسب المقترح، وهذا بتعويد القارئ على رؤية الأشياء كما يريها له، مع أنه من النادر أن موضوع و الحامل يتم التعبير عنهما بشكل مستقل عن بعضها البعض"⁴ لكن

¹ - حسن المودن، حجاجية المجاز والاستعارة، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، إشراف، د:حافظ إسماعيلي علوي، ابن النديم للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، دار الروافد الثقافية -ناشرون، بيروت، لبنان، ج2، ط1، س2013م، ص: 359.

² - د: الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شايم بيرلمان، ص: 92.

³ - د: الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شايم بيرلمان، ص: 93.

⁴ -Chaïm Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca, Traite deL'argumentation La nouvelle Rhetorique, P : 536 « L'analogie, grâce à cette fusion, est présentée non comme une suggestion, mais comme un données. C'est dire que la métaphore peut intervenir pour accréditer l'analogie. Il n'est donc pas étonnant de constater, quant on examine les argumentations par analogie que, souvent, l'auteur n'hésite pas au cours de son exposé, à se servir lors de la métaphores dérivée de l'analogie proposée, habituant ainsi le lecteur à voir telles qu'il les lui montre. Il est assez rare que thème et phore soient exprimé Indépendamment les uns des autres. »

كلاهما يعبر عن معنى خاص به غير أن الاندماج بينهما هو الذي يخلق هذه العلاقة لا انفصالية بين الحامل والموضوع، ولذلك دور مهم في خلق هذه العلاقة.

إن المحاجج يسعى إلى إيجاد أنجع الكلمات والعبارات التي يصل بها إلى التأثير غير أن ذلك لا يتأتى له في الكثير من الأحيان، فيلجأ إلى الاستعانة بالاستعارة التي تفي بالغرض خاصة تلك الاستعارة المغايرة للعادة؛ إذ "تعالج الاستعارة في الواقع، عجز اللغة، وفقر الكلمات، والاستعارة الرديئة، هي غالباً، الاستعارة المستعملة، تشيخ بعض الاستعارات وهي شابة بسبب التكرار المكثف، والاستحضارات المريبة"¹، على هذا الأساس قسم "بيرلمان" الاستعارة إلى قسمين: الاستعارات الحية والاستعارات الميتة²، وتصنف الاستعارات على أساس عدد استعمالها، وكذا قوة حججيتها.

وإن الاستعارة الميتة حسب "بيرلمان" لها كذلك "قيمتها في الحجاج بارزة بشكل خاص نظراً للقوة الإقناعية الكبيرة التي تمتلكها هذه الاستعارات النائمة متى استعانت بوحدة أو بأخرى أو بتقنية أخرى، يتم تفعيل عملهن، هذه القوة تُنتج مما تستعيره من آثارها على وسائل التناسب، يعرف هذا بكل سهولة؛ لأنه ليس فقط معروف، إنما مندمج عن طريق الكلام في التقليد الثقافي"³، إذن بعث الاستعارات الميتة من جديد يعطي لها دفعا حججيا آخر غير متوقع، "لأن بضدها تعرف الأشياء، مما يؤدي إلى خرق أفق انتظار المتلقي وإحداث مفاجأة ناتجة عن التنوع (تولد اللامتظر من المنتظر) لأن الرتابة لا تؤدي إلا إلى الملل والنفور وليس إلى الإمتاع أو الإقناع"⁴ أن من الطبيعة البشرية أنها تنجذب نحو ما هو جديد خاصة ما كانت قد ألفته على طريقة خاصة فإذا بها يقدم لها بطريقة لم تتصورها من هذه المنظور يكون للاستعارة قوة الانجذاب ومن ثم سهولة التأثير فالإقناع.

¹ - ليونيل بلنجر، عدة الأدوات الحجاجية، ت: فضيلة قوتال، ضمن: الحجاج مفهومه ومجالات، إشراف د: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، الأردن، إربد، 2010، ج 1، ص: 403.

² - ينظر: Ch aïm Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca , Traite deL'argumentation La nouvelle Rhetorique p : 5

³ - Chaïm Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca , Traite de L'argumentation La nouvelle Rhetorique . p :543 «Il nous semble, quant à nous, que Leur valeur chez dans l'argumentation est surtout éminente à cause de la grande force persuaasive que possèdent ces métaphores endormies quant à l'aide de l'une ou l'autre technique, elle sont remises en action. Cette force résulte de ce qu'elles empruntent leurs effets à un matériel analogique, aisément admis ,car il est non seulement connu, mais intégré, par langage dans la tradition culturelle »

⁴ - عمر أركون، اللغة والخطاب، ص: 136.

إنَّ حجاجية الاستعارة تعطي المعنى العام الذي تروم بلوغه البلاغة الجديدة حيث أن الاستعارة "يمكن أن نرى فيها الخاصية الأساسية للغة الشعرية. وهذا لأن الاستعارة ليست الانزياح نفسه، ولكن اختزال الانزياح. لا وجود للانزياح إلا عندما نتناول الكلمات بمعانيها الحرفية: الاستعارة هي الإجراء الذي بفضلُه يُختزل المتحدث الانزياح"¹ يطرح هذا التعميم البلاغي بين الخطاب الثري والشعري من خلال عملية الانزياح الدلالي التي تتبلور ضمن الخطاب الشعري الصوتي.

4-3-5 حجاج الفصل والوصل:

إن هذه الآلية تسعى إلى تحليل المفاهيم بالفصل في ما بينها، هذا يعني أن " الانفصال بين العناصر في الحجاج يقتضي وجود وحدة بينها ومفهوم واحد لها فهي عناصر عائدة إلى اسم واحد يعينها وإنما وقع الفصل بينها لأسباب دعا إليها الحجاج"² منها اتضاح الرؤية بالبحث عن الحقيقة؛ لأن الارتباط والتعلق كثيرا ما يجعل المعنى خفيا، مبهما فلا يتحقق معه الإفهام الذي هو أقصر طرق الإقناع وأيسرها، وإن "هذا التمييز بين الظواهر يتم بواسطة إجراء عملية فصل اعتمادا على ثنائية "ظاهر/ واقع"؛ ففي حين أن الظاهر معطى مباشر، وحدُّ أول للمعرفة، فإن الواقع - الذي لا يُعرف عادة، حين يكون معلوماً، إلا بواسطة الظاهر"³ بمعنى آخر أننا نستدل على الواقع بمعطيات الظاهر، إذا كان تطابق بينهما.

بينما نبحث في خلفيات الظاهر أو نتبع الظواهر ونؤولها للوصول إلى الواقع هذا إذا كانت "الظواهر (les apparences) متعارضة (العصا مثلاً، عندما يلقي في الماء، تظهر ملتوية حين ننظر إليها ومستقيمة حين نلمسها) فإنها لا يمكن أن تمثل الواقع كما هو، لأنه محكوم بمبدأ عدم التناقض. يصبح من الضروري، إذن تمييز الظواهر التي تطابق الواقع عن تلك التي تكون خادعة"⁴ فعلمية الفصل تعتبر بمثابة عملية كاشفة للواقع المتطابق مع الظاهر من ذلك الذي يتعارض معه، و بها تتحدد المفاهيم التي كانت قبل عملية الفصل ملتبسة أو أهما غير حقيقية، خاطئة.

¹ - بول ريكور، الاستعارة الحية، ص: 256.

² - د: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص: 59، 60.

³ - د: الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شايم بيرلمان، ص: 95، 96.

⁴ - نفس المرجع، ص: 95.

يمكن القول أن "بيرلمان" حدد عملية الوصل والفصل التي يسعى الحجاج إلى توظيفها في قوله التالي بشكل أوضح، حيث يرى أن "تقنية قطع الوصل هي إذنك التأكيد على أن يتم الجمع بين نحو غير ملائم للعناصر التي ينبغي أن تبقى منفصلة ومستقلة على العكس الفصل يفترض سلفا وحدانية العناصر الملتبسة ضمن نفس التصميم، المعين من قبل المفهوم نفسه، فصل المفاهيم تحديدا هو إجراء إعادة تعديل جذري نسبيا من المعطيات الخيالية التي تكون بمثابة أساس للحجة، لم يعد تماما ، في هذه الحالة، قطع الروابط التي تصل بين العناصر المنعزلة، لكن بتغير نفس البنية"¹ بالتالي أن العمليتين (الفصل ، الوصل) التي يقوم بها المحاجج هي من المفترض ما يجب أن يكون، فالمحاجج يقوم بإرجاع المفاهيم إلى نصابها الأصلي الذي يجب أن تكون عليه.

إن عمليتي الفصل والوصل تكونان عادة للتعريفات "خصوصا إذا جاءت هذه التعريفات تزعم تقديم معنى للمفهوم الحقيقي في المقابل معناه الظاهري الجاري به العرف والعادة وقد يكون الاعتراض على المعنى الظاهر مفهوما فحسب"² فيتوجب في مثل هذه الحالات الفصل بين المفهوم الظاهر الذي هو راسخ في المخيلة وذلك المفهوم الحقيقي الجديد حتى لا يتم التباس بين المفهومين، فالمحاجج بهاتين العمليتين يقوم بدعوة المخاطب إلى ضرورة كشف الحقيقة ومن ثم الظفر بها.

¹- Chaïm Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca , Traite deL'argumentation La nouvelle Rhetorique- p : 550,551. « La technique de rupture de liaison consiste donc à affirmer sont indument associés des éléments qui devraient rester séparés et indépendants, par contre, la dissociation présuppose l'unité primitive des éléments confondus au sein d'une même conception, Désignés par une même notion. La dissociation des notions détermine remaniement plus ou mois profond des données conceptuelles qui servent de fondement à l'argumentation, il ne s'agit plus, dans ce cas de rompre les fils qui attachent des éléments isolés, mais de modifier la structure même de ceux-ci »

²-د: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص: 63،64.

خاتمة الفصل الأول:

رأينا في الفصل الأول الهدف الذي من أجله تم بعث بلاغة الحجاج من جديدة، وهو إعادة الاعتبار للبلاغة، على يد "بيرلمان" و"تيتيكا" في النصف الثاني من القرن العشرين الذي اعتبر البلاغة مطابقة للحجاج، مع لفتهم النظر للبعد الشامل الذي تجسده بلاغة الحجاج، في اكتساحها كل أنواع الخطاب في المجال الإنساني.

انطلاقاً من هذا البعد ولجت البلاغة المعاصرة مرحلة جديدة بانفتاحها على جميع أنواع الخطاب وتوجهها إلى أنواع مختلفة من المستمعين، وبهذا تجاوز "بيرلمان" و"تيتيكا" خطابة أرسطو التي كانت أساس نظريته البلاغية الحجاجية، والتي كانت محصورة على الخطابة الشفاهية وخطابة الحشود العامة.

إن بلاغة الحجاج عند "بيرلمان" تهدف إلى دراسة الآليات التي يعتمد عليها المحاجج في إثارة انفعال المخاطب واستمالة عواطفه أو تحميله على الاقتناع، وإنّ هذه الآليات تشكل مواد أساسية في بناء الخطاب الحجاجي والتي تعتمد في إنشائها على اللغة الطبيعية وعلى المنطق الحملي لما يتمتعان به من خصائص تنهض بالعملية الحجاجية وتفعّلها منها الخاصية العقلية، والاحتمالية والمرونة...

تغيرت نظرة الاستعارة في البلاغة الجديدة، حينما أخذت الطابع الحجاجي لما تعطيه من فهم أعمق وممتد النظر، جعلت المستمع طرفاً مشاركاً في بناء العناصر الحجاجية حتى يكون اقتناعه أكبر وأثبت، هذا من الجانب العقلي الذي يعول عليه في الحجاج، بإضافة إلى الجانب الانفعالي الذي تثيره الاستعارة في نفس المستمع حين تكون استعارة مبتكرة، مغايرة.

الفصل الثاني

حضور آليات الحجاج في التراث البلاغي العربي

سقف ضمن هذا الفصل على آليات الحجاج في البلاغة العربية القديمة، وكيفية توظيفها، ودورها في نهضة البلاغة العربية، والبحث البلاغي خاصة، وستعرف كيف أن البلاغة العربية القديمة تحتوي الكثير من ملامح البلاغة الجديدة حسب ما ذهب إليه بيرلمان في نظريته الحاجية، كما أننا سنتين مدى اعتناء البلاغيين العرب القدامى ببلاغة الحجاج وهذا يرجع لعدة عوامل فرضت حتمية ذلك، سنفصل فيها خلال هذا الفصل.

1- قراءة عامة للبلاغة العربية القديمة :

شغلت علوم البلاغة العرب في جاهليتهم وبعد إسلامهم وقد انبثقت نشأتها الأولى من مرحلة "الاستكشاف"¹ كما سماها "د: محمد العمري" فقد "ظهرت منذ العصر الجاهلي ملاحظات وتعليقات واصفة، أو مأخذ على القول الشعري الذي صار موضوع تأمل، تم توسعت وتكاثرت خلال العصر الإسلامي"²، وإن أخذت بعدا غير مسبوق خلال العهد الإسلامي، "حيث سار البحث البياني في الزمن، وتناولته أقلام العلماء والأدباء والنقاد على حسب تصورهم معناه، وكان من مجموع ما كتبوا ذلك التراث الخالد، الذي سمي حيناً "بيانا" وسمي أحيانا "بديعا" كما سمي بلاغة وفصاحة، وهي ألقاب أو مصطلحات لا تبعد كثيرا في مدلولها"³، وإن ضمن هذه المداولات ما يصب في الحقل الدلالي لبلاغة الحجاج، وسنعرض ذلك عند تفصيل هذه المداولات خلال المباحث اللاحقة.

1-1- الخلفية الحاجية لتأسيس علوم البلاغة العربية القديمة:

هناك الكثير من العوامل كانت سببا وراء النهضة البلاغية التي شهدتها العالم العربي في منتصف القرن الثاني هجري، لأن الجهود كلها سواء من البلاغيين أو اللغويين أو المتكلمين وحتى علماء الأصول تضافرت وتنافست فيما بينها لإيجاد أقوى الحجج وأدمغها ليقطعوا بها ادعاء كل طاعن أو مشكك في الدين الجديد "الإسلام" على اعتبار أن "البيئات التي ساهمت في صرح البلاغة العربية هي بيئات متعددة المشارب والاهتمامات ولكنها يجمعها أنها مشدودة إلى النص القرآني تستلهم جمالياتها

¹ - ينظر: د: محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، (د، ط)، 1999م، ص: 19.

² - د: محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 20.

³ - د: بدوي طبانة، "البيان العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط3، ص 1962م، ص: 15.

وتلقت إلى جماليات روائع الشعر العربي تستخلص منها القيم البلاغية⁽¹⁾ من خلال كل هذه المعطيات لم تعد الحاجة البلاغية مجرد إضفاء الجمالية على النص بقدر ما تصبو إلى تحقيق الإقناع .

1- أثر التصانيف الشعرية في إبراز القيمة الحجاجية:

إن عملية الاختيار والانتقاء في الشعر ذات أثر واضح لفتح مجال جديد في البلاغة العربية القديمة حيث كانت بمثابة "المحرك الأول لطرح الأسئلة الجوهرية في النقد العربي، الأسئلة التي تصدت البلاغة لمناقشتها"⁽²⁾ ، عن طريق الاحتجاج للأحكام التي على أساسها تم الاختيار أو الانتقاء "فالاختيار عمل نقدي بلاغي: يبرز قيما بلاغية ويكرسها"⁽³⁾ ، وما صاحب هذه التصنيفات من شروح أو تعليقات تضمنت قدرا غير قليل من الأحكام النقدية، التي تركز كثيرا على محددات بلاغية، فرض على أصحاب هذه المصنفات إقامة الحجج بل إن منهم من كان يضع بعض المعايير يلزم نفسه بإتباعها خلال عملية التصنيف، تعتمد في جلها على مقاييس بلاغية تستند على استدالات حجاجية تهدف إلى الإقناع والذود بأحقية الحكم البلاغي الذي منحه المصنف للنص الشعري سواء حكم عليه بال جودة أو الرداءة وإلا رد عليه حكمه ونعت بالعي.

حيث كان الشعر العربي الجاهلي يشكل محل ارتكاز البحث والانتقاء وبلورة المفاهيم ومنها استخلاص القوانين والمقاييس التي تضبط بها علوم اللغة. "وقد تتقارب العلوم أو تشترك كليا أو جزئيا في المناهج المستخدمة فيها أو في الأسس الفكرية والمنطقية التي تقوم عليها تلك المناهج، ولكنها بحكم اختلاف الموضوع أو زاوية النظر إليه، وبحكم تطور البحث، وأدواته ومتطلباته الخاصة في إطار كل علم، تتميز عن بعضها البعض منهجيا، وتصطنع أساليبها الملائمة وتطور آلياتها الخاصة"⁽⁴⁾. ومن أهم الآليات الحجاجية التي استعملت مع هذه التصانيف الشعرية "حجج المقارنة" نذكر على سبيل المثال بداية من "طبقات فحول الشعراء" لابن سلام الجمحي مرورا بديوان "الحماسة" وصولا إلى "الموازنة"⁽⁵⁾ للآمدي كل هذه المؤلفات ساهمت بشكل أو بآخر في تطوير أساليب البلاغية بتحريك عجلة

¹ - عباس أرحيلة، الأثر الأرسطي في البلاغة والنقد العربيين، المملكة المغربية، ص: 263.

² - د: محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 84.

³ - نفس المرجع، ص: 43.

⁴ - حسن محمود الشافعي، مدخل إلى دراسة علم الكلام، إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، كراتشي باكستان، ط2، س 2001م، ص: 123-124.

⁵ - ينظر: الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر يحيى، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تح: أحمد صقر، دار المعارف، ط 04، س 2009م.

البحث البلاغي، وعليه أصبح تحديد القيمة الفنية في النص مشغلا من مشاغل النقاد الكبرى تنظيرا وتطبيقا، "وقد أعانت الخصومات الأدبية حول أبي تمام، ثم حول المتنبي، على ضبط جانب مهم من المقاييس النقدية الراجعة إلى النص ذاته، وطريقة الشاعر في بنائه، وما يضمنه من الأساليب لإنفاذ تجربته الشعرية"¹ وبذلك بدأت تظهر في الشعر التزعة العقلية بشكل أوضح وأعمق مما كانت عليه من قبل، حتى أن شعر الحكمة والذي يتناول مسائل فلسفية عميقة أخذ يشكل وزن أكبر ويتصدر قائمة الشعر الفني المتميز.

ولم تكن التصنيفات⁽²⁾ هي وحدها التي أدارت عجلة تطوير البلاغة، فلا يغيب عن ذهن أي دارس للتراث العربي الدور المهم الذي لعبه القرآن معتمدا في ذلك على مرتكزات حجاجية، استدلالية الهدف الرئيسي هو إقناع الخصوم في خضم الصراع العنيف الذي لازم ظهور الإسلام وانتشاره في مختلف البلدان.

2- أثر النص القرآني في التوجه الحجاجي للبلاغة العربية القديمة:

لما أصبح من أولويات المسلمين الدفاع عن معتقدات دينهم ورد مزاعم الطاعنين فيه "كانت الحاجة ماسة إلى الدعوة للدين بين صفوف الأمم التي غلبها العرب وتثبته في نفوس الذين اعتنقوه رهبة، أو رغبة في مجارات الحكام"⁽³⁾، فحاول العلماء السير على السبل الكفيلة لإقناعهم بالدين الجديد ومن هنا تغيرت وجهة الدعوة التي كانت خاصة بالعرب إلى غيرهم من العجم الذين لا يقدر على معرفة "إعجاز القرآن" لعدم معرفتهم باللغة العربية عامة وببلاغتها خاصة، ففي أول أمرهم "حاول المسلمون التصدي لمن يهاجم العقيدة الإسلامية ولكن دفاعهم كان يعتمد على حجج وبراهين مستمدة من القرآن والحديث وهي حجج كانت مقبولة عند المسلمين ولكنها كانت تتعرض أحيانا للطعن من قبل غير المسلمين الذين كانوا يشككون في صحة النبوة الرسول وفي الوحي القرآني

¹ - حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية، (ط،د)، 1981م، ص: 595.

² - التصنيفات التي اهتمت بالطبقات، كطبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي.

³ - محمد زغلول سلام، تاريخ النقد الأدبي والبلاغي حتى القرن الرابع، منشأة المعارف الإسكندرية(د.ط، تا)، ص: 16.

وكل ذلك لم يبق بين الطرفين من عامل مشترك إلى العقل"⁽¹⁾. الذي يقود إلى الحقيقة عن طريق استثمار الأدلة التي يتفق حولها الفكر البشري عامة، سواء كانوا مسلمين أو غيرهم.

فدعت الحاجة عندها إلى ضرورة إيجاد الحجج التي يتقبلها العقل، ولم تكن هذه لتكفي دون تفعيل أسس الطرق وأقومها وكذا الاستعانة بوسائل تضمن النتائج المرجوة تحقيقها لاسيما وسائل إنتاج الخطاب المبين.

إن علماء العرب تنبهوا إلى هذه المسألة سواء كانوا لغويين أو بلاغيين أو فلاسفة، إذ تم "إحلال المبحث البلاغي محل الوسيلة للوصول إلى مقاصد الرسالة الدينية جعل البلاغيين يلحون على "البيان" بالمعنى اللغوي الأصلي أو الوظيفة الإفهامية وجعلوا البحث عن أنجع الوسائل التي يتم بها ذلك، موضوع علم البلاغة فلم يعطوا مجموع الوظائف الأخرى، كالوظيفة الشعرية المكانية التي تستحقها في مباحثهم، وعن هذا نشأت في رأينا، تلك الفكرة السائدة في التراث البلاغي والنقدي عندنا ومؤداها أن هذه الوسائل غلاف يغلف به المعنى وضرب من الزينة يقصد من ورائه إخراج المعنى في أحسن صورة. وبذلك قطعوا من الأساس، ما يمكن أن يقوم بين الشكل والمضمون من تأثير وتأثير، وبقي البحث يدور في نطاق التأثير في السامع أو المتقبل باعتبار النص القرآني يرمي إلى إقناعه والوصول إليه"² فالوظيفة البلاغية لم تعد وظيفة جمالية بقدر ما هي وظيفة قصدية في المقام الأول، ينشأ من أجل القصد الخطاب وتبقى تدور حول المعنى المقصود وإليه يصبوا الخطاب، فالخطاب بذلك هو وسيلة لا غير، وكل عنصر من عناصر تكوين الخطاب هو أداة يستعين بها الخطيب لإخراج الخطاب الذي يكون له القدرة الكافية على التأثير وقلب موازين الأحكام لصالحه، بأرقى الوسائل وأسلمها وهي الخطاب الفعال، البليغ.

3- أثر الثقافة في استحداث الآليات الحجاجية :

عندما كثرت الترجمات بدخول الموالي الذين أجادوا لغة الأم الأصلية واللغة الجديدة، أي اللغة العربية وكان أغلب هؤلاء الموالي من بلاد فارس أو من بلاد الروم، "نشأت طبقة جديدة من المثقفين

¹ - حسن الصديق، المناظرة في الأدب العربي الإسلامي، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر لنجمان، القاهرة(د.ط)، 2000م، ص:115.

² - حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، ص: 44،45.

هم عمال الدواوين وكتاب الخلفاء الذين كان معظمهم من غير العرب"⁽¹⁾، كما كان منهم من بقي على دينه فاصطبغت بذلك كتاباته بألوان معتقداته التي كانت تؤثر سلبيًا أو إيجابًا على الحياة العقلية الثقافية العربية عامة فنفذت إلى "اللغة العربية أساليب لم يعهدها العرب من قبل"⁽²⁾، أهم هذه الأساليب القائمة على الحجج المنطقية.

زاد نشاط الترجمة ودورها الثقافي بفعل تشجيع الخلفاء عليها لاسيما الفلسفية منها "وهو ما أثر بشكل خاص في تطوير البيان العربي وبخاصة عندما كانت هذه الترجمات تتناول كتبها علاقة بمفهوم البيان عند الأمم الأخرى مثل "الخطابة" و"الشعر" و"الجدل لأرسطو"⁽³⁾، حيث لقي هذان الكتابان اهتماما لا مثيل له من قبل العرب ففي رواية أن الخليفة "المأمون" نفسه طلب من المترجمين نقله إلى اللغة العربية⁽⁴⁾، منه يبدو الأثر البالغ للترجمة الذي ساهم بشكل فعال في النهضة الفكرية البلاغية العربية ونستنتج إذن مما سبق أن كتابي "الخطابة" و"الشعر" كانا مترجمين في فترة شهدت بوادر التأليف المستقل في فن البلاغة مع كتاب "البدیع" لعبد الله بن المعتز (ت. 296هـ)؛ ونهجا في نقد الشعر لم نصادف مثله في المحاولات السابقة نعني بذلك "نقد الشعر" لقدامية بن جعفر (ت. 326هـ)⁽⁵⁾، وكما نعلم أن بلاغة أرسطو كان مدار دراستها بلاغة الحجاج.

إذن هذه الكتب المترجمة كان لها دور في تطوير وسائل الحجاج "فهذه الفرس ورسائلها وخطبها وألفاظها، ومعانيها. وهذه اليونان ورسائلها وخطبها، وعللها وحكمها، وهذه كتبها في المنطق التي قد جعلتها الحكماء بما تعرف السقم من الصحة، والخطأ من الصواب، وهذه كتب الهند في حكمها وأسرارها، وسيرها وعللها، فمن قرأ هذه الكتب، وعرف نور تلك العقول، وغرائب تلك الحكم، عرف أين البيان والبلاغة، وأين تكاملت تلك الصناعة"⁽⁶⁾. وإن كانت هذه الأخيرة قد تأثرت

¹ - حسن الصديق، المناظرة في الأدب العربي الإسلامي، ص: 206.

² - المرجع نفسه، ص: 206.

³ - حسن الصديق، المناظرة في الأدب العربي الإسلامي، ص: 207.

⁴ - ينظر: عباس أرحيلة، الأثر الأرسطي في البلاغة والنقد العربيين، المملكة المغربية، ص: 263.

⁵ - حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، ص: 65.

⁶ - الجاحظ، عمرو بن بحر أبو عثمان، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، (د، ط)، ص 1423، ج 3، ص: 10.

بالبلاغة اليونانية فليس بالبعيد تأثر البلاغة العربية القديمة بهذه البلاغة التي هي أقرب منها عهدا، وأنفع لها توظيفا؛ من حيث ضبط المعارف والأفكار وتنظيمها وكذا تثبيتها أو تنفيذها.

فكانت هذه الكتب المترجمة المنهل الأساسي الذي ساعد على إثراء وتطوير وتقنين أساليب اللغة العربية وضبط قواعدها حتى تكون أكثر دقة وحجاجة وأشد وقعا على الخصوم، وأقوى إقناعا وتأثيرا، فقد "أفادوا من الفلسفة إذ نظمت عقولهم تنظيما منطقيا دقيقا وإذ جعلتهم يحسنون استنباط الآراء وخصائص الأشياء، كما جعلتهم يقتدرون على إيراد الحجج والبراهين وتشعيب المعاني وتفريعها"⁽¹⁾ وبدا هذا التأثير في كل مجريات الحياة الفكرية العربية وانتقل ذلك من علم الكلام إلى النحو فالبيان العربي، حيث "نلاحظ منذ الآن سمات نمطية تسم الفكر في أواخر القرن الثامن: إنه فكر غير مجزأ، اختياري، متدفق، غزير، متحرر من الضغوط"⁽²⁾ ولكن كانت تحرص على أن تأخذ النص التراثي العربي المرجع الأصيل والنموذج المقدس و بهذا نشأ خطاب عربي جديد مميز يتسم بالبلاغة المتينة المشبعة بالجمال الإبداعي المحكوم بالعقلانية المنطقية.

كما أن هذا التنوع الثقافي المتدفق على الثقافة العربية انعكس على المستوى العام للتفكير المعرفي للفرد العربي، فظهرت عندها الحاجة إلى التعلم والتعليم، خاصة تعلم أصول البلاغة لما لهذه الأخيرة من أهمية كبيرة في الرفع من قيمة الأفراد في مجتمع ارتقى حضاريا، أصبح يجد العلم والعلماء، وللخطاب دور مهم في تغيير الأفكار بداية من التغيير السياسي إلى التغيير الاجتماعي القومي العصبي الذي تذكىه المناظرات الشعرية أو الجدلية "وقد تضافرت هذه العوامل على خلق ملابسات حضارية وفكرية جديدة، وصراعات مذهبية، وتوترات في بنية المجتمع، ساهمت بقسط وافر في إذكاء الجدل والاحتجاج حول قضايا كان بعضها متصلا بمقومات الحضارة العربية الإسلامية في الوجهة اللغوية والبيانية"⁽³⁾، أهم هذه القضايا قضية الإعجاز القرآني، ولا ننسى قضية "خلق القرآن" وما دار حولها من نقاشات كان الخطاب الحجاجي قائدها بدون منازع.

¹ - شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، ط9، (د.تا)، ص:35.

² - محمد أركون، الفكر العربي، ت: عادل العوّ، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط3، 1985م، ص:58.

³ - حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، ص:53.

من جهة أخرى فإن الانفتاح الحضاري الواسع الذي شهده العالم العربي وما اكتسبه العقل العربي من روافد فكرية جديدة، كان لذلك أثر واضح على النص العربي عموماً وعلى النص الشعري خصوصاً، حيث "لم تعد المسألة تتعلق كما هو الحال في المرحلة السابقة بملاحظة خصوصيات ومفاضلة بين نصين لشاعرين بل تعدى الأمر ذلك إلى إدعاء وجود خصوصية مذهبية تميز فئة من الشعراء تنتمي إلى زمن فئة تحس بالتميز كمجموعة وتنعت منجزها"⁽¹⁾ ونعني بهذه الفئة، فئة الشعراء المولدين أمثال بشار وأبي نواس وغيرهم.

كما أن الهزات العنيفة التي رسمت معالم الساحة البلاغية النقدية العربية آنذاك، كان لها صدى واسع في نمو الوعي الحجاجي، نذكر منها انقسام أهل البيان إلى فريقين أحدهما يمجّد القديم على حساب الجديد وفريق الآخر يعتني بجماليات الأدب لا يهمله إذا كانت أساليبه تقليدية أو جديدة، ومنها قضية اللفظ والمعنى التي أسالت أقلام الكثير من العلماء وكل منهم إلا ونراه يدي بدلوه محاولاً إقناع خصومه وتثبيت فكرته، وغير ذلك من المسائل البلاغية التي ناقشتها البلاغة العربية القديمة والتي كانت وراء شحن المنازعات الخطابية الجدلية القائمة على المحاجاة الفكرية، التي بلغت بذلك ذروة الرقي العقلي الاستدلالي البعيد عن كل المغالطات الفكرية غير الأخلاقية؛ لأن الفكر العربي كان فكر مستهدف إن لم يكن مبني على القيم الأخلاقية لا كان من السهل القضاء عليه، لذا حرص العلماء على إتباع القواعد السليمة للحجاج المنطقي الذي يركز على القيم الأخلاقية.

هذا ما سنحاول أن نثبته خلال دراستنا؛ لأن القيم تعتبر من أهم الأسس التي بنيت عليها البلاغة الجديدة.

4- بلاغة الحجاج إنتاج جدلي :

لما كثرت الطوائف وتشعبت الفرق الدينية واختلفت الرؤى وتغيرت المفاهيم، رفع المتكلمون خاصة المعتزلة الراية لخوض غمار معركة الدفاع عن الدين، وسلاحهم في ذلك العقل "وإليهم يعود الفضل في تأسيس علم الكلام الذي يعتبر نتاجاً أصيلاً للحضارة العربية الإسلامية"⁽²⁾. فبدأ المتكلمون يحاولون تبين "أسباب الظفر والهزيمة، فيعودون إلى النظر في حجج الخصمين وفي لغتهما ومخارج

¹ - محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 60.

² - حسن الصديق، المناظرة في الأدب العربي الإسلامي، ص: 115-116.

حروفهما وإشارتهما، وهياتهما" (1) مما أفرزت مقتضيات الخطاب العربي في تلك الفترة تطوير أساليب الاستدلال وإرساء قواعده.

حتى أن المذهب الكلامي الذي ذاع صيته في تلك الفترة عُرِف بين العام والخاص بأنه "أسلوب حجاجي يوظفه المتكلم لإقناع خصمه بالحجة والبرهان" (2) والخصم في هذه الحالة هو صاحب الدعوة في الغالب يكون له كذلك أدلة وحجج يستند فيها على دعواه وعلى هذا الأساس يكون على المحاجج أن يتسلح بأقوى الحجج، ولا يكفي ذلك فحسب إنما لا بد من إتقانه فنون الكلام وأساليب البيان، حاذقا بخوايا الموضوع الذي ينوي الخوض فيه، مدركا لما قد يجول في خاطر المدعي.

من ثم نجد أن علم الكلام كان من أهم العوامل التي عملت على قلب معايير البلاغة بما استحدثته من طرق الاستدلال في تعليم الشباب "فأخذوا يقفونهم النقص في الحجج والأدلة والنقص في الأداء والبيان، كما أخذوا يقفونهم على أسرار المهارة في الإقناع والظفر بالخصوم وأسرار البراعة في القول" (3) فإذا ما تفحصنا كل هذه الوسائل اتضح لنا جليا أنها كلها تهدف إلى الاحتجاج، وبالتالي ما هي إلا إجراءات لصناعة القول البليغ وفي نفس الوقت استخلاص ما يتطلبه ذلك القول وتعميم النتائج على ما يشاكله من أساليب "وفي هذا المجال فإن علينا الاعتراف بالدور الكبير الذي قام به المعتزلة في تطوير البيان العربي عموما وما له علاقة بالاحتجاج خصوصا، فقد كان يقابل طائفة المعلمين من النحاة واللغويين الذين كانوا لا يهتمون إلا بالبيان العربي الخالص" (4)؛ لأنهم لم يكونوا يقتنعون إلا بما نقلوه عن العرب من معارف سواء في الميدان اللغوي أو الأدبي أو ما يخص القرآن والحديث معا.

فالحجج والأدلة التي كان يستند عليها أهل الكلام في الاستدلال لدفاع عن قضاياهم، عملوا على وضع ضوابط تحكمها، تبعد عنها المغالطات الجدلية التي كثيرا ما يقع فيها صاحبها نتيجة أنه لا يدرك طبيعة الاستدلالات المنطقية وما قد ينشأ عنها من زيف أو قلب للحقائق إذا ما لم يكن متمرسا ملتزما بالقواعد المنطق الصحيحة، وحتى تتسم بالقوة المنطقية التي تتماشى وطبيعة المعتقد الإسلامي،

1 - شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص: 33.

2 - د: رضوان الرقي، الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات إشتغاله، عالم الفكر، المجلد 40، 2011م، ص: 76.

3 - شوقي ضيف، البلاغة تاريخ و تطور، ص: 33.

4 - حسن الصديق، المناظرة في الأدب العربي الإسلامي، ص: 210.

وكان نتيجة "استنباط وسائل الاستدلال على الرأي، وصنع البرهنة على بطلان النقيض من العوامل التي جعلت الفكر يتحرك في فضل التجريد والتنظير والاستحداث، ارتقاء بالحوادث العارضة والإشكالات الحادثة في سياقاتها التاريخية، إلى أبعاد نظرية تصبح معها الوقائع والأحداث مسائل في الكلام تصاغ على أساس منها بعض أصول الاعتقاد مسائل تنفذ إلى مجال الإدراك والفهم والاستدلال والاحتجاج حتى تلتئم المقالة الثام بيان ودفاع ونقض"⁽¹⁾. فيمكن القول أن علماء الكلام استطاعوا بفضل جهودهم وحثقهم في الجدل واطلاعهم على معارف الأمم التي سبقت، التغيير وخلق طرق جديدة.

باعتبار أن أهم المسائل البلاغية التي كان الخلاف يدور حولها في نفس الوقت كالمجاز والتشبيه والاستعارة هي التي أرست قواعد الاستدلال الحجاجي، التي تمكن التحكم في المسائل البلاغية، وهي في الوقت ذاته أعطت لهم دفعا قويا في النهوض بالفكر الإسلامي العقائدي وتأسيس نظرية بلاغية قائمة على أسس استدلالية: "فقد كان في كل مدارس وفي مختلف مراحلها تقريبا للحجة انتصارا للمبادئ التي تقوم عليها العقيدة وتخليصا للأصول التي تمثل أسس كيانها"⁽²⁾. ومنبع قوتها وسيادتها .

فقد تميز المتكلمون عن غيرهم بأنهم كوتوا "لأنفسهم مذاهب عقلية جديدة مصبوغة بالصبغة العقيدية الكلامية، وبالمثل أخضعوا كل ما يسمعه أو نقل إليهم عن البلاغة عن الأمم الأجنبية لفكرهم وللغة العربي وما يتصل به من الذوق المحكم الأصيل الذي يقيس روعة الكلام قياسا مضبوطا دقيقا"⁽³⁾. وكذلك كان المتكلمون على وعي تام بأنهم لا يمكنهم الوصول إلى حقيقة النص القرآني إلا على ضوء تمكنهم وتحكمهم الكامل في علوم اللغة والبيان العربيين.

1-2- علماء الأصول والتأصيل للفكر الحجاجي:

هناك الكثير من مؤرخي البلاغة العربية يرون أنه يرجع الفضل الأول لعلماء الأصول في تقنين وسائل الإقناع، فقد أخذوا على عاتقهم مهمة "تعليل إعجاز القرآن وتفسيره بلاغيا، وكانوا معتدلين،

¹ - د: محمد النوري، علم الكلام والنظرية البلاغية، دار محمد علي الحامي للنشر والتوزيع، سفاقس تونس، ط1، س 2001م، ص:96.

² - نفس المرجع، ص:96.

³ - شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص:64.

فهم لا يحافظون محافظة اللغويين، وهم لا يسرفون في التحديد بل يقفون موقفاً وسطاً⁽¹⁾، هذا التوسط ساهم بشكل كبير في الوقوف على الحقيقة الموضوعية البعيدة عن المغالاة أو التزييف، كما أنهم جعلوا مسألة النظر والاستدلال للأحكام الشرعية من الواجبات الدينية التي تجنب المشرع والقاضي والحاكم وكذا المفتي أن يقع في الخطأ، ولا يكون ذلك إلا بالدليل العقلي الذي يثبت صحة الأحكام؛ لأن "النظر واجب، وفي التقليد ترك للواجب، فلا يجوز"⁽²⁾؛ والمقصود بالنظر هو الاستدلال الذي يتوقف على أعمال العقل للوصول إلى الحقيقة التي يحصل بها العلم اليقيني الذي تقتنع به العقول فتطمئن إليه النفوس وتكن بذلك لبارئها وتسلم بالإيمان الذي لا يخالطه شك.

هذا الاعتقاد رسخ في ذهن "الفكر الأصولي السلفي يعتقد بإمكانية فك لغز اللغة الدينية (كلام الله بالذات) أو تفسيرها وفهمها إذا ما سيطرنا على النحو العربي وعلم المفردات والبلاغة وعلم المعنى: أي مختلف العلوم الخاصة باللغة العربية"⁽³⁾؛ لأن كل هذه العناصر إذا تلاحت فيما بينها شكلت الخطاب البلاغي المبين الذي يسعى إلى الفهم والإفهام اللذين يعتبران من أهم وسائل الإقناع إن لم نقل أنه من المستحيل أن يتم بدونهما الإقناع.

يبدو من خلال هذه الممارسة الاستدلالية التي اتسع نطاقها ومن خلال "جدل واسع تولد عنه فقه إسلامي متعدد المذاهب حول موضوع إرساء المبادئ والأصول ومناهج النظر"⁴ ومنه انتقل إلى مختلف الحقول العلمية في تلك الفترة، لتحط هذه الممارسة الحجاجية رحالها وبكل قوة في الحقل البلاغي العربي، ومنه تنتقل إلى كل العلوم التي كان لها صلة بالبلاغة، بطريقة مباشرة، مثل الإعجاز القرآني، علم الدلالة، النحو، أو بطريقة غير مباشرة كالمناظرات والخطب السياسية.

يمكن القول أن علوم الشريعة وأصول الفقه كانت في حاجة إلى إنتاج الخطاب البلاغي قبل غيرها من مختلف العلوم الأخرى لما له من دور فعال في تحديد أحكام الشريعة في تلك الفترة، التي جعلت من آلية الاستدلال على صحة الأحكام الشرعية أصل من أصول الدين الإسلامي⁽⁵⁾ وضبطت

¹ - شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص: 63.

² - الأمدي، الإحكام في أصول الأحكام، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (د.ط.تا)، مجلد 4، ص: 446.

³ - محمد أركون، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، مركز الإنماء القومي لرمز الثقافي العربي، ت: هائم صالح، ط2، 1996م، ص: 24.

⁴ - أحبيب أعراب: الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 186.

⁵ - ينظر، محمد يوسف موسى، الرسالة للإمام الشافعي الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، (د.ط) 1995م، ص: 27.

هذه الوسيلة بقوانين خاصة ومعايير محددة، يقاس بها صحة الدليل من فساده لتنتقل هذه الآلية من هذا العلم إلى بقية العلوم الأخرى وتصبح من أبرز وأهم وسائل إثبات صحة الأحكام في جميع العلوم العربية الإسلامية.

هذه العملية "إنتاج الخطاب" أفرزت عملية ذات قيمة أكبر وذات دور أهم، "هو أن التيار الآخر من الدراسات البيانية الذي كونه الفقهاء وعلماء الأصول هو الذي امتد تأثيره إلى الساحة البلاغية. فصرف الناس عن الاهتمام بالخطابة، أي شروط وتقنيات إنتاج الخطاب البليغ إلى الانكباب على دراسة قوانين تفسير الخطاب المبين، وقد حصل ذلك بصورة خاصة عندما اشتغل المتكلمون، وفي مقدمتهم المعتزلة بقضية "إعجاز القرآن" ⁽¹⁾. و لو أننا تفحصنا كل هذه القوانين التي أنتجتها مختلف هذه التيارات وفي مقدمتهم علماء البلاغة سنجد أن كلها على حد سواء تقوم على الآليات الاستدلالية التي يحتج بها لقضية الإعجاز القرآني.

من هنا نستنتج أنه "كان لبيئة الفقهاء والمتكلمين ومجادلاتهم أثر قوي في إكساب الخطابة طابعا عقليا وحجاجيا، حولها إلى مناظرات ساوقت النشاط المعرفي الجاري آنذاك" ² خاصة البيان العربي الذي كان يعتمد على النقل والاجتذاب بمنهج النموذج القديم إلى منهج أدمجت فيه الكثير من المفاهيم المنطقية التي تتناسب مع المنظومة العربية البيانية.

1-3- أثر الفكر الفلسفي في انتشار الخطاب الحجاجي:

إضافة إلى كل هذه العوامل التي ساهمت في إرساء الوعي في إنتاج قوانين البلاغة الحجاجية، عامل كان له أثر جد فعال في ذلك وهو اشتغال عامة الطبقة المثقفة بالفكر الفلسفي إذ "أخذت تنشط في النصف الثاني من القرن الثالث هجري بيئة جديدة، عنيت بشؤون البلاغة هي بيئة المتفلسفة وكان مما ساعد على ظهورها كثرة ما نقل عن اليونان واحتفال العرب بفلسفتهم وكل ما خلفوه في شؤون الفكر من منطق وغير منطق" ⁽³⁾، فاصطبغ الخطاب العربي بالصبغة الفلسفية الجدلية الحجاجية وتأثرت جل الخطابات العربية بالمذاهب الفلسفية التي نشأت في أحضان الساحة العلمية العربية

¹ - محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط6، 2000م، ص:31.

² - د: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 149.

³ - شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص:64.

لاسيما الساحة البلاغية. هذا ما ذهب إليه " بعض الدارسين المعاصرين إلى أن نشأة البلاغة في الثقافة العربية قد خضعت إلى القاعدة التي خضعت لها في سائر الثقافات. فلقد كانت الفلسفة الرحم الحاضن للفكرة البلاغية وكانت النظريات البلاغية سليلة الاعتبار الفلسفي ووليدة عناية الفلاسفة.¹ فقد كانت الكثير من العناصر الحجاجية محل طرح التفكير الفلسفي، من أبرزها مسألة "القيم"، و"مبدأ الشك"...

كما لا يخفى على أي دارس أن الأسلوب الحجاجي المنطقي هو السمة البارزة في جميع الخطابات الفلسفية، "إذن، إن التفكير الفلسفي هو تفكير حجاجي بامتياز"² خاصة وأنها تبنى هذه الخطابات أصلا نتيجة من إشكالات وتساؤلات غالبا ما تطول حولها نقاشات كثيرة لا تجزم في آخر المطاف على إجابة واضحة نهائية، لذا فإنها تدور حول احتمالات يحاول كل طرف يخوض النقاش أن يظفر بالنصر في النهاية أو على الأقل أن يحتفظ بنهاية الحلقة لصالحه فلا يجد من يباريه لقوة حججه وقدرته الفائقة في مجارات الكلام. فأخذت الخطابات العربية تعرف من هذا الأسلوب الفلسفي وتصبغ به خطاباتها باعتبار هذا الأسلوب يحاذي العقلانية التي أضحت هن أهم مساعي الفكر العربي، حتى أصبح كل خطاب لا يجانب المنطق أو التعقل يقصى من دائرة الفكر البلاغي، وهذا ما سنقف عليه عند تصفحنا للمدونات النقدية البلاغية العربية.

2-المصطلح الحجاجي في التراث البلاغي العربي بين الضبط والاضطراب :

2-1-عوامل اضطراب المصطلح الحجاجي:

إن المصطلح الحجاجي في الموروث البلاغي العربي اشتركت في تشكيله الكثير من الثقافات الفكرية "وطبيعي أن يكون لكل من هذه البيئات اهتمامها ونظرتها إلى طبيعة الفنّ القولي ووظيفته والأداة الأمثل لتحقيق هذه الوظيفة، وأن تكون لكل منها كذلك اهتمام خاص بنوع من أنواع الفنّ القولي، وبالتالي أن يكون لكل منها مصطلحاتها، أو - على الأقل - فهمها الخاص لبعض المصطلحات، وهو ناتج عنه - في أحيان غير قليلة اختلاف مدلول المصطلح الواحد من بيئة إلى

¹ - د: محمد النويري، علم الكلام والنظرية البلاغية، ص: 46.

² - أحبيب أعراب: الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 187.

أخرى¹ بحيث نجد مصطلح "الحجاج" وغيره من المصطلحات الحجاجية الأخرى مثل: الحججة، الدليل، البرهان، البينة، القياس... إلخ، تأخذ نفس الدلالة اللغوية، وتستعمل بنفس المعنى فلا نكاد نرى اختلافا سواء من حيث الدلالة أو من حيث التوظيف.

مما يلاحظ كذلك أن هذا التأثير لم يكن على مستوى الأفكار والأساليب فقط "بل أدى ذلك التفاعل إلى امتزاج مصطلحات العلم الموحد بمصطلحات غيره من العلوم إلى حد أن تبدو بعض الإشكاليات المعرفية التي يولدها هذا العلم كما لو كانت تنسب إلى الإشكاليات المعرفية التي تدخل في علم غيره"⁽²⁾. وهذا يرجع في الأساس إلى طبيعة المادة البلاغية التي تترج فيها مجالات معرفية مختلفة.

إن هذه السمة التي ميزت علوم اللغة العربية والإسلامية منذ بداية تطورها تجعل الدارس لا يستطيع تصنيف مؤلفاتها تصنيفا دقيقا لتداخل وتمازج الموضوعات فيما بينهما "فالمباحث الكلامية تتفاعل مع المباحث اللغوية والبلاغية والفلسفية، كما تتفاعل المباحث المنطقية مع المباحث اللغوية، الأصولية"⁽³⁾ ولعل أهم سبب يرجع إليه ذلك هو أن هذه المباحث إنما حقل دراستها واحد وهو "النص القرآني" وهو محور الصراع وإليه تتطلع المقاصد "ولذا يصبح لازما قراءة القرآن على ضوء التحديات والمنهجية التي رسخها المفسرون وعلماء الأصول"⁽⁴⁾ أي بتوظيف جميع العلوم التي تخدم التفسير عامة دون التمييز بين علم أو آخر مادام يجد فيه الفقيه ضالته، بل حتى أن دراسة مختلف العلوم والتعمق فيها أصبح ضرورة لا بد على الفقيه أن يلتزم بها.

هذا الذي جعل جل البلاغيين العرب يوصفون بالموسوعيين، حيث كانوا يجمعون بين مختلف المعارف الفقهية والبلاغية واللغوية، والجمع هنا من باب التخصص، إذ نجد أن العالم الواحد يتخصص في عدة علوم مختلفة، يتجلى هذا التوسع المعرفي بوضوح بين علم البلاغة والنحو واللغة والفقه وعلم الكلام، والإعجاز القرآني، فتمتزج هذه العلوم فيما بينها لدرجة أنه لا يمكنك أن تستل منها خيطا لفصل علم منها عن آخر "وثمة قرينة أخرى تدل على هذا الفكر غير الجزأ الباحث عن

¹ - د: عبد الحكيم راضي، من آفاق الفكر البلاغي عند العرب، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، س2006م، ص: 119.

² - د. طه عبد الرحمن، تحديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، ط2، ص: 90.

³ - د. طه عبد الرحمن، تحديد المنهج في تقويم التراث، ص: 90.

⁴ - محمد أركون، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ص: 24.

الاضطلاع بوضع تفسيري ونحن نجدها في التداخل الوثيق بين الطرائف والمصطلحات"⁽¹⁾. ستبين هذا التداخل والامتزاج الذي يكاد لا ينفصل عن بعضه البعض كلما بحثنا في التراث الفكري البلاغي العربي.

فطريق الاستدلال نجدها في أصول أحكام الشريعة، نفسها في أصول النحو وكذلك علم البلاغة لا تختلف إلا في بعض الجزئيات "إننا نجد في هذه المباحث كلها كلمات: الجميل، الخير الصلاح (حسن)، القبيح المكانة (المتزلة) ما يمكن قبوله (الجائز)، الشبه (القياس)، السبب، العلة، البرهان، الدليل، الحجة، الدليل، التعريف، الحد... الخ"⁽²⁾ ولهذه المصطلحات نفس المفاهيم والوظائف سواء عند علماء الأصول أو النحو أو البلاغة وإن اختلف مستوى تطبيقها "ولعل مرجع هذا التشابه في الموقفين إلى أن البلاغيين لم يبدؤوا التفكير في موضوعهم من نقطة الصفر وإنما بنوا صرح البلاغة على أساس من جهود من تقدمهم من النحاة واللغويين، فلا عجب أن تتم الفروع عن الأصول، وتقف البلاغة غير بعيد من موقف النحو واللغة"⁽³⁾، وإنما تطلب ذلك جهدا كبيرا في بداية الأمر حيث كانت تتسم البحوث البلاغية بالتداخل لكثرة ما تضمنته من مباحث فرعية واستطرادات، وطرائف في بعض الأحيان ليست لها أي صلة بالبحث، مما نتج عن ذلك في الكثير من الأحيان إلى تشتت الفهم وتداخل المفاهيم؛ لأنها تذهب بالقارئ بعيدا عن الوجهة الحقيقية للبحث إذ كانت تفتقد إلى طريق منهجي واضح.

لذا نجد الكثير من أحكام البلاغة تتشابه في أصول نظريتها مع النحو أو اللغة وحتى الفقه الإسلامي وهذا يعود إلى أن البلاغيين، إنما شيدوا أعمالهم وأسسوا نظرياتهم على مبادئ ومناهج هذه العلوم.

2-2- مفهوم المصطلح الحجاجي في الفكر العربي القديم :

¹ - محمد أركون، تاريخية الفكر العربي الإسلامي ، ص:59.

² - نفس المرجع، ص:59

³ - حسان تمام، الأصول دراسة استمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، عالم الكتب، القاهرة، (د.ط)، س 2009م، ص:316.

إن المصطلح الحجاجي في الغالب لا يمكن أن نميز مفهومه عن المصطلحات الأخرى التي تتداخل معه في الحقل الدلالي الاصطلاحي، مثل مصطلح الاستدلال والحجة و الدليل والاستنتاج والاستقراء والقياس وغيرها من المصطلحات التي تزخر بها المدونات النقدية البلاغية في التراث البلاغي العربي القديم.

1- مفهوم الحجاج "الدلالة اللغوية":

في لسان العرب في مادة حجج "الحجة: البرهان وقيل الحجة ما دفع به الخصم، وقال الأزهري الحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصوم، وهو رجل محاجج أي جدل والتجاج: التخاصم وحجه حجا، غلبه بالحجة واحتج بالشيء اتخذه حجة قال الأزهري: إنما سميت حجة لأنها تحج أي تقصد لأنّ القصد لها وإليها، والحجة الدليل والبرهان"⁽¹⁾، فالحجة تختص بالمنازعات ويؤتى بها عند إقامة الدعوى حسب ما ورد في التعريف السابق ومن جهة "ترادف الحجة "الدليل"... وهو ما يلزم من العلم به العلم بشيء آخر"⁽²⁾ من هنا ندرك أن الحجاج يتوقف حسب التعاريف المعجمية على المكتسبات السابقة.

والحجاج بالمعنى العام "هو جملة من الحجج التي يؤتى بها للبرهان على رأي أو إبطال رأي، أو هو طريقة تقديم الحجج أو الاستفادة منها. والحجة أخيراً، هي البيّنة، ومنهم قولهم "البيّنة على المدعي" *Onus probandi* ومعنى هذا إن عبء الإثبات يقع على المدعي لا على المنكر"⁽³⁾ كما أن الحجاج أكثر ما نجده في المنازعات الكلامية، كالمناظرات، والمناقشات.

أغلب التعاريف الواردة في المعاجم العربية تتفق على أن الحجاج يكون لفك التزاعات عن طريق إثبات رأي أو تفنيده، نذكر منها ما جاء في معجم المحيط التعريف التالي: "والحجة: الوجه الذي به يقع الظفر عند الخصومة، ويقال: حاججته فحججته."⁽⁴⁾ وكذلك ما جاء في القاموس المحيط بمعنى " الغلبة بالحجة وكثرة الاختلاف والتردد..بالضم البرهان والحجاج الجدل"⁽⁵⁾ وهو يتوافق مع

¹ - ابن منظور، لسان العرب، مادة حجج، دار المعارف، القاهرة، ج4، ط جديدة، (د.تا)، ص: 38.

² - التهانوي، كشاف إصلاح الفنون، مادة الدليل، مكتبة لبنان الناشر، ج1، ط1، س 1999م، ص: 797.

³ - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ج1، (د،ط)، س 1982م، ص: 446.

⁴ - الصاحب اسماعيل بن عباد، المحيط في اللغة، تح: الشيخ محمد الحسن آل ياسين، مطبعة المعارف، بغداد، ج3، ط1، س 1981م، ص: 19.

⁵ - الفيروز الأبادي، القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج1، ط3، س 1301هـ، ص: 181.

التعريف الذي جاء به الأزهري في معجمه "تهذيب اللغة" "أمثال العرب: لَجَّ فحجج. قال بعضهم: معناه: لَجَّ فغلب من لاجه بحججه. يقال: حاججته أحاجه حجاجا ومُحاجَّة حتى حججته أي غلبته بالحجج التي أدليت بها." ¹ من خلال هذه التعريف وغيرها يتضح لنا أن الغرض من الحجاج هو حصول الغلبة والمقصود بالغلبة في هذا المقام غلبة الرأي أي بمعنى الإقناع ومنه حصول التأثير.

مما يلاحظ كذلك عند تتبع معنى الحجاج في المعاجم العربية أنه ورد بصيغ كثيرة مشتقة من نفس الجذر اللغوي "حج"، منها "التحاجج" كما ورد بمعنى وبصيغة "اللجاج" "المحاجة" كما ذكرت بفك الإدغام "المحاججة" وتعريف "ابن منظور" يكاد يجمع بين كل تلك الصيغ، إذ يذكر "قوله لَجَّ فحجج أي أنه لَجَّ فتمادى به لجاجه وأداه اللجاجُ إلى أن حَجَّ البيتَ الحرام وما أَراده أُريد أنه هاجر أهله بلجاجه حتى خرج حاجاً والمَحَجَّة الطريق وقيل جادَّة الطريق وقيل مَحَجَّة الطريق سنَّه والمَحَجَّجُ الطَّرِيقُ تستقيم مرَّةً وتَعَوَّجُ أُخرى وأنشد أجدُّ أيامك من حَجَّوَجٍ إِذا استقام مرَّةً يَعَوَّجُ والحُجَّةُ البرهان وقيل الحُجَّةُ ما دُوْفِعَ به الخصم وقال الأزهري الحُجَّةُ الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة وهو رجل مِحْجَاجٌ أي جدلٌ والتَّحَاجُّ التَّخَاصُّمُ وجمع الحُجَّةِ حُجَجٌ وحِجَاجٌ وحاجه مُحَاجَّةٌ وحِجَاجاً نازعه الحُجَّةُ وحَجَّه يَحُجُّه حَجًّا غلبه على حُجَّتِه وفي الحديث فَحَجَّ آدمُ موسى أي غلبه بالحُجَّةِ واحتجَّ بالشيءِ اتخذهُ حُجَّةً قال الأزهري إنما سميت حُجَّةً لأنها تُحجُّ أي تقتصد لأنَّ القصد لها وإليها وكذلك مَحَجَّةُ الطريق هي المَقْصِدُ والمسَلَكُ وفي حديث الدجالِ إن يَخْرُجُ وأنا فيكم فأنا حَجِيجُهُ أي مُحَاجُّهُ ومُغَالِبُهُ بإظهار الحُجَّةِ عليه والحُجَّةُ الدليل والبرهان يقال حاججته فأنا مُحَاجٌّ وحَجِيجٌ فَعِيلٌ بمعنى فاعل ومنه حديث معاوية فَجَعَلْتُ أَحُجُّ خَصْمِي أي أَعْلِبُهُ بالحُجَّةِ وحَجَّه يَحُجُّه حَجًّا فهو مَحْجُوجٌ ² وعليه فإن لفظ الحجاج وكل لفظ مشتق منه إلا ويعبر عن نفس المعنى الذي يدل عليه لفظ الحجاج مع بعض معاني الزيادة التي قد تضيفها بعض الاشتقاقات.

جاءت لفظة الحجاج والألفاظ المشتقة من نفس الجذر اللغوي من لفظة "حجج" في القرآن الكريم بنفس المعنى اللغوي للفظ الحجاج الذي يدل على المقارعة في الكلام باستعمال الدليل العقلي، في الكثير من الآيات نحو قوله تعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ" ³ وقوله: "فَمَنْ حَاجَّكَ

¹ - الأزهري أبي منصور محمد بن أحمد تهذيب اللغة، تح: عبد الحلیم النجار، دار للتأليف والترجمة، ج3، (د، ط، تا)، ص: 390.

² - ابن منظور، لسان العرب، الجزء2، مادة (ح، ج، ح)، تح: عبد الله الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، (د، ط، ت)، ص: 779.

³ - سورة البقرة، الآية: 258.

فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ" ¹ وقوله تعالى: "هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ" ² فقد اقترن لفظ الحجاج في هذه الآيات كل مرة بالعلم، لأنه هو ركيذته ومآله في الوقت نفسه.

2- العلاقة السببية بين الاختلاف ومفهوم الحجاج:

عموماً يمكن القول أن لفظة الحجاج في اللغة العربية يدور معناها حول المقصدية، وتكون لتقريب وجهات النظر أو توحيدها والقضاء على ما يمكن أن نسميه بالدافع إلى الحجاج أو سببه، وهو الاختلاف في الرأي، الذي ينجر عنه في الغالب التنازع والتخاصم، وإنّ هذا المفهوم اللغوي العربي يتطابق مع مفهوم الحجاج الغربي عند "بيرلمان" والذي قامت على أساسه البلاغة الغربية، إذ يعتبر "الباعث أو المحرك الأول للحجاج هو الاختلاف Disagreement، فالحجاج لا يكون فيما هو يقيني أو إلزامي، فنحن لا نحاجج في أمر مأخوذ على أنه حقيقة يقينية راسخة كحقائق الرياضية مثلاً، أو أمر مأخوذ على أنه أمر صارم واجب النفاذ" ³، فلا يقبل الأخذ ولا الرد، إنما الحجاج يكون فيما هو محتمل، أو ممكن ⁴. لكن بقوة الحجاج يصبح حقيقة واقعة وإن تعددت، أو كانت مجرد حقيقة مجانبة للواقع قد يتفنن الحجاج في تجسيدها بآليات معينة. هذا ما يعرف في العرف العربي بالعلم "النظري" وهو يتضاد مع العلم "الضروري" الذي يعرف كذلك بالعلم "الفطري" سنفصل في ذلك عندما نبحث في علاقة البلاغة العربية القديمة بمسألة الحقيقة التي يسعى إلى تقريرها الحجاج.

¹ - سورة آل عمران، الآية 61.

² - سورة آل عمران، الآية 66.

³ - د: جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، ص: 106.

⁴ - Voire : Chaïm Perelman et Lucie Olberegts-Tyteca , Traite de L'argumentation La nouvelle Rhétorique ,p 91.

المخطط التالي يوضح العلاقة القائمة بين المفهوم اللغوي للحجاج وبين الاختلاف:

<p>مظاهر الاختلاف</p>	<p>الحُجَّة ما دُوْفِعَ به الخصم الظَّفَرُ عند الخصومة المدعي رجل مِحْجَاجٍ أَي جَدِلٌ وَالتَّحَاجُّ التَّخَاصُّمُ نازعه الحُجَّةُ غَلَبَهُ بِالْحُجَّةِ كثرة الاختلاف والتردد</p>	<p>مفهوم الحجاج</p>
-----------------------	--	---------------------

لكن الحجاج هو الطريق السوي الذي يتم به فك الخصومة والتزاع بين الأطراف المختلفة؛ لأنه يصل إلى هذه الغاية بطرق سلمية بعيدة عن العنف مهما كان نوعه، ولو عن طريق المغالطة وتزييف الحقائق، وهنا تكمن بلاغة الخطاب الحجاجي وقوته التأثيرية على النفوس، فالطبيعة البشرية تنقاد عن طواعية وعن حب وإعجاب أكثر بكثير مما تنقاد عن إجبار وإكراه.

لكن هذا الاختلاف غير مطلق تماما، إنما هو مقيد بحقل معرفي معين، قد يظهر وقد يختفي، فيصبح الحجاج الطريقة المثلى لحل الاختلاف، وهو الطريقة الحضارية السلمية في ذلك.

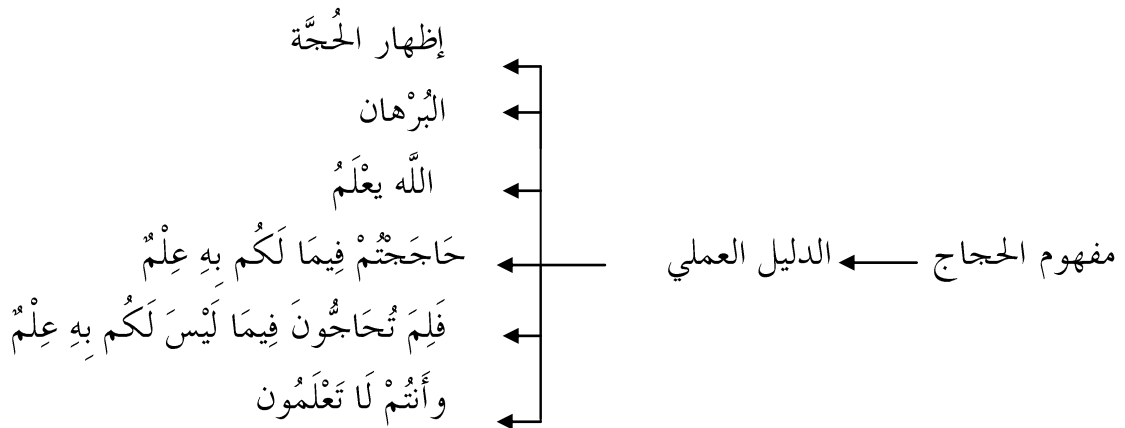
3- العلاقة الوظيفية بين مفهوم الحجاج والحقائق:

يلاحظ ارتباط لفظ الحجاج بالعلم في كل التعاريف المعجمية السابقة، وكذا في الآيات القرآنية الكريمة، لما للعلم من دور فعال في توجيه الحجاج وتفعيله؛ لأن الحقيقة العلمية هي من مقومات الحجاج أساسها الدليل العلمي القاطع أو على الأقل الدليل الذي يقارب الحقيقة، وإن مفهوم الحجاج وعلاقته بطلب الحقيقة، يرد بهذا المعنى في الكثير من المعاجم العربية، نحو: "وَمِنَ الْبَابِ الْمَحْجَّةُ، وَهِيَ جَادَةُ الطَّرِيقِ. قَالَ:

أَلَا بَلِّغَا عَنِّي حُرَيْثًا رِسَالَةً فَإِنَّكَ عَن قَصْدِ الْمَحْجَّةِ أَنْكَبُ

وَمُمْكِنٌ أَنْ يَكُونَ الْحُجَّةُ مُشْتَقَّةً مِنْ هَذَا؛ لِأَنَّهَا تُقْصَدُ، أَوْ بِهَا يُقْصَدُ الْحَقُّ الْمَطْلُوبُ... وَالْجَمْعُ حُجَجٌ. وَالْمَصْدَرُ الْحِجَاجُ.¹ هذا المعنى يمكن أن يكون يتوافق إلى حد بعيد مع الغاية الأساسية للحجاج "والحجة قد تكون قطعية، وقد تكون إقناعية، فأما القطعية فهي الحجة التي تفيد اليقين ولا يقصد بها إلا اليقين بالمطلوب وأما الإقناعية فهي الحجة التي تفيد الظن لا اليقين، ولا يقصد بها إلا الظن بالمطلوب"² هذا يدل على أن مفهوم الحجاج واستعماله يرتبط عادة بما هو عقلي جاد وينأى عن كل هزل أو عبث.

نستخلص من التعاريف السابقة ما يدل على أن الحجاج لا يمكنه أن يحقق التأثير والإقناع إلا من خلال التوظيف العملي للدليل في المخطط التالي:



العلم في الحجاج ينقسم إلى فرعين أساسيين، أولهما العلم بآليات الخطاب الحجاجي البليغ وكذا معرفة الطرق الإجرائية التي يحقق بها الحجاج، ويعتبر هذا الفرع من العلم أهم العلوم لمن أراد أن يخوض خطابا حجاجيا بامتياز ويفحم به خصومه؛ فيقول ابن الأثير: "إن في الاطلاع على أقوال المتقدمين من المنظوم والمنثور، فوائد جمة، لأنه يعلم منه أغراض الناس، ونتائج أفكارهم، ويعرف به

¹ - ابن فارس أحمد بن زكرياء القزويني، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ج2، 1399هـ - 1979م، ص: 30

² - حافظ الإسماعيلي، مفهوم الحجاج ومجالاته، ج1، ص: 261 .

مقاصد كل فريق منهم...⁽¹⁾. فليس للمحاجج سبيل إلى ذلك وإن كان عالماً ضلوعاً في موضوع حجاجه.

أما الفرع الثاني الذي يجب على المحاجج أن يجتهد في طلبه وأن يلم بأسراره هو العلم بموضوع حجاجه؛ أي بدراسة موضوع الخطبة، فالرأي المحكم يكون بدراسة عميقة، وإحاطة تامة، وإطلاع واسع، وفكر غزير وقويم، لكي يكون كلامه مسدداً، سواء كانت الخطبة مرتجلة أم مهياًة⁽²⁾. لأن ذلك يربطه بمصادقية خطابه المحجاجي فالعلم بالموضوع هو منبع الحقيقة.

عليه فإنَّ المحاجج الذي يفتقد العلم بموضوع الحجاج أو قل جزءاً بسيطاً منه فإنه قد يكون عرضة لمصادرة أدلته أو التشكيك في كلامه.

بعد تحليل هذه التعاريف المعجمية نخلص إلى أن مفهوم الحجاج في اللغة العربية ارتبط بالسبب الذي من أجله يفعل الحجاج، وهو الاختلاف في الأفكار والآراء، والحجاج يحاول عن طريق توظيفه للدليل القائم على العلم أن يصل إلى الإقناع وهو المقصود بالغلبة في التعاريف المعجمية.

2-3- المفهوم الاصطلاحي للحجاج في الموروث البلاغي العربي:

إنَّ المفهوم الاصطلاحي لا يكاد يختلف عن المفهوم اللغوي للحجاج في الموروث العربي، إلا في بعض التفاصيل الدقيقة التي اكتسبها الحجاج عندما لامس البلاغة العربية، حيث أن الحجاج في التراث البلاغي العربي يقترن دائماً بالخطاب، ولكي نصل إلى مفهوم الحجاج في الاصطلاح البلاغي لابد من تحديد مفهوم الخطاب أولاً ثم لابد من وصله بالحجاج.

2-3-1 مفهوم الخطاب في البلاغة العربية القديمة:

ورد لفظ الخطاب في المعاجم العربية بمعاني مختلفة، غير أن المعنى الذي يهمننا هو المعنى الذي يدل على الخطاب والمخاطبة: مُرَاجَعَةُ الْكَلَامِ، وَقَدْ خَاطَبَهُ بِالْكَلامِ مُخَاطَبَةً وَخِطَاباً، وَهُمَا يَتَخَاطَبَانِ. اللَّيْثُ: وَالْخُطْبَةُ مَصْدَرُ الْخُطِيبِ، وَخَطَبَ الْخَاطِبُ عَلَى الْمُنْبَرِ، وَاخْتَطَبَ يَخْطُبُ خِطَابَةً، وَاسْمُ الْكَلَامِ: الْخُطْبَةُ؛ قَالَ أَبُو مَنْصُورٍ: وَالَّذِي قَالَ اللَّيْثُ، إِنَّ الْخُطْبَةَ مَصْدَرُ الْخُطِيبِ، لَا يَحْوِزُ إِلَّا عَلَى وَجْهِ

¹ - محمد أبو زهرة، الخطابة أصولها وتاريخها في أزهر عصورها عند العرب، مطبعة العلوم بشارع الخليج، ط1، س: 1934م، ص: 20.

² - محمد أبو زهرة، الخطابة أصولها وتاريخها في أزهر عصورها عند العرب، ص: 48.

واحد، وهو أَنَّ الخُطْبَةَ اسْمٌ لِلْكَلامِ، الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ الخَطِيبُ، فَيُوضَعُ موضِعَ المَصْدَرِ. الجَوْهَرِيُّ: خَطَبْتُ عَلَى المِنْبَرِ خُطْبَةً، بِالضَّمِّ¹، ونفس المعنى ورد في القرآن الكريم في عدة مواضع، ومنها قوله تعالى: "رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ، لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا"² وقوله تعالى: "وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَهُ الحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الخِطَابِ"³ وَفَصَّلُ الخِطَابِ: الحُكْمُ بِالْبَيِّنَةِ، أو اليمِينِ، أو الفِقهُ فِي القَضَاءِ، أو النُّطْقُ بِأَمَّا بَعْدُ"⁴. البينة يقصد بها إظهار الحق، ومنها جاء "البيان" الذي يعد من أهم علوم البلاغة، كما ورد هذا اللفظ عند النحاة، خاصة باشتقاقاته المخاطب والمخاطب، "من جانب آخر، فلا نعدو الحقيقة، إذا قلنا إن لفظ الخطاب، قد ورد، أكثر ما ورد، عند الأصوليين، انطلاقاً من أن الخطاب هو الأرضية التي استقامت أعمالهم عليها.

فقد شكل "الخطاب" محور بحث علم الأصول، "فقد تردد كثير من اشتقاقات مادة (خطب) في مواضع متعددة عندهم، ومن أبين الأدلة على ذلك إيرادهم لاسم الفاعل (مُخاطَب) ولاسم المفعول (مُخاطَب) بوصفهما طرفي الخطاب"⁵، وهناك تعريف آخر بمعنى الرسالة: (الخطاب) الكَلَامُ وَفِي التَّنْزِيلِ العَزِيزِ "فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزِي فِي الخِطَابِ" والرسالة (مج) وَفَصَلَ الخِطَابِ مَا يَنْفَصَلُ بِهِ الأَمْرُ مِنَ الخِطَابِ وَفِي التَّنْزِيلِ العَزِيزِ "وَأَتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وَفَصَلَ الخِطَابِ" وَفَصَلَ الخِطَابِ أَيضاً الحُكْمُ بِالْبَيِّنَةِ أو اليمِينِ أو الفِقهُ فِي القَضَاءِ أو النُّطْقُ بِأَمَّا بَعْدُ أو أَنْ يَفْصَلَ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ أو هُوَ خِطَابٌ لَّا يَكُونُ فِيهِ اخْتِصَارٌ مَحَلٌّ وَلَا إِسْهَابٌ مُمَلٌّ وتاء الخِطَابِ مثل التَّاءِ مِنْ أَنْتَ وَكَافُ الخِطَابِ مثل الكَافِ مِنْ لَكَ وَالخِطَابِ المَفْتُوحِ خِطَابٌ يُوجَهُ إِلى بَعْضِ أُولِي الأَمْرِ عِلَانِيَةً (محدثة)، (الخطابة) (عند المنطقيين) قِيَّاسٌ مؤلف من المظنونات أو المقبولات"⁶، وعليه يمكن القول أن مفهوم لفظ الخطاب بصورة عامة هو كلام يراد به إظهار الحقيقة.

2-3-2 تقارب مفهوم فن الخطابة العربية من مفهوم الخطابة اليونانية "الريطوريقى":

¹ - ابن منظور، لسان العرب، ج 1، ص: 361.

² - سورة النبأ، الآية: 78.

³ - سورة ص، الآية: 38.

⁴ - الفيروز آبادي محمد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، القاموس المحيظ، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 8، ص 2005 م، ص: 81.

⁵ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص: 36.

⁶ - إبراهيم مصطفى، وآخرون، المعجم الوسيط، دار الدعوة، (د، ط، تا)، ص: 243.

وإنّ هذا المعنى اللغوي يقترب من مفهوم الخطابة، الذي عرفه التراث الأدبي العربي الجاهلي بفن الخطابة، يقصد به ذلك الكلام الذي يلقي على مجموع من الناس حول موضوع معين في محفل معين، وكان جل مواضع الخطابة الجاهلية وحتى مع الفتح الإسلامي، حول الدين أو الحرب لإثارة الهمم والتأثير في نفوس المستمعين، فهي بذلك فن جماهيري بامتياز، أو طريقة للاتصال المباشر مع الجماهير، وهذا الاتصال يعني وجود ملقي (الخطيب)، وجمهور يسمع له، فكانت الخطابة الطريق أو السبيل الذي يتواصل به الخطيب مع جمهوره، ولها شعبية في المجتمع بسبب فصاحة لغتها، وبساطة ألفاظها، ووضوح عباراتها، بالإضافة إلى المواضيع التي تهتم بجميع شرائح المجتمع وتتناول مواضيع في شتى الميادين. هذا يفسر "تبلور الحجاج في شتى العلوم والمعارف، بل كان سببا في تنامي المعرفة بينهم، ولم ينحصر الحجاج في هذه العلوم. بل كان حاضرا في خطب الخلفاء والسلاطين والعلماء الذين كانوا يعمدون إليه بغرض إقناع الجمهور بأفضلية خيار الخلفاء من بين الخيارات المتاحة في السياق الذي يحف بهم"¹ وما يلفت الانتباه هنا أنّ فن الخطابة العربية لا يختلف عن نظيرتها اليونانية شكلا أو مضمونا، وربما هذا الذي جعل المترجمين العرب عند ترجمتهم كتاب "الخطابة" Rhétorique، بالخطابة بدل لفظة "البلاغة".

2-3-3 تشابه أطر اشتغال البلاغة العربية مع البلاغة الجديدة:

اعتناء البلاغة العربية بجميع أنواع الخطاب:

غير أنّ الخطابة العربية قد شهدت تطورات مختلفة وغير مسبوقه، وهذا بتعدد مواضيعها، ومجالات اشتغالها، فانتقلت مادة الخطابة إلى الكثير من الفنون الأدبية الأخرى، عندما صار "الإقناع" الهدف الرئيسي من كل خطاب تقريبا، حتى الخطاب الشعري تغذى بآليات الإقناع، وقبلها كان "يبدو ميل القدامى واضحا إلى رفض اعتماد الاستدلال وضروب القياس في الشعر مؤكدين أنّ الحجاج يفقده، ما به يكون شعرا أي يسلبه ثوابت الشعرية، ويحوّله إلى خطب"⁽²⁾، لكن هذا الطرح سرعان ما تلاشى في ظل المتغيرات التي شهدتها الساحة العربية، وإن المكونات الخطابية شكلت المادة الرئيسية للكثير من الفنون على اعتبار أنّ الإقناع كان أهم الدوافع التي قامت من أجلها أكثر العلوم

¹ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص: 459.

² - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني، ج1، ص: 51.

والفنون العربية منها: المناظرة، فن التراسل، عندها نشأ علم يحاول أن ينظم ويضع معايير تضبط إنتاج هذه الأنواع من الخطابات المختلفة، عرفت باسم "البلاغة" لذا تعتبر علوم البلاغة الميدان الفسيح الذي رحلت إليه مادة الخطابة وأهم من ذلك "الإقناع".

التوجهات العامة للبلاغة العربية:

بهذا تغيرت عدة مفاهيم للخطابة العربية، فلم تعد موجهة لعامة الناس أو تلتزم بشكل فني معين، ولم يصبح همها هو إخراجها في أحسن حلة لفظية لا غير كما كانت عليه من قبل في العصر الجاهلي، ومن خلال تصفح تاريخ تطور الخطابة العربية فإنه شهد تقريبا نفس النقلة التي شهدتها الخطابة الغربية المعاصرة، حيث حافظت على نفس مكونات الخطابة التقليدية لكن أصبحت موجه لأنواع من المستمعين، "لقد أثبت أرسطو في كتابه (البلاغة) أن الحجاج لا يتحقق بشكل جلي إلا في بعض الأجناس، مثل الخطاب القضائي، والخطاب الاستشاري، والخطاب البرهاني، بيد أن بيرلمان (Perleman)، قد وسع إمبراطورية الحجاج لتشمل مجموعة من الخطابات مثل الخطاب الفلسفي، والأدبي والاجتماعي، والأخلاقي، والاقتصادي وغيرها من الخطابات التي تتضمن الحجاج، الأطروحات ووجهات النظر المختلفة"¹ وعلى أساس هذا التوجه المنفتح على جميع الخطابات قامت خطابة "بيرلمان"، نفس الطرح أقرته البلاغة العربية حينما اتخذت مكونات الخطابة مقياس كل خطاب بليغ مهما كان نوعه، وجعلت منها معايير لتحديد الخطاب البليغ ومن ثم تصنيفه، وأهمها هو مفهوم الخطابة إذ تغير إلى البلاغة التي بها يتم إنتاج كل أشكال الخطاب نثرا كانت أو شعرا.

المبالغة في التخريج اللفظي ينافي البلاغة العربية:

أما التزيين اللفظي لم يعد ذا أهمية قصوى في الإنتاج الخطابي، إنما "الإقناع" غايته، بأيسر الأساليب وأكثرها وضوحا، كما أن هذه المكونات الخطابية "آليات الإقناع" استعارتها الكثير من الفنون والعلوم لتشهد بذلك تغيير لا مثيل له، وإن هذا المسار قد عرفته البلاغة العربية القديمة قبل أن

¹ - د: جميل حمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، ص: 43.

يقره بيرلمان، وإن هذا المبدأ في ضرورة تفادي الزخرف اللفظي يتفق عليه جميع علماء البلاغة وعلى رأسهم الجاحظ "قال: وهم وإن كانوا يجيئون البيان والطلاقة، والتجوير والبلاغة، والتخلص والرشاقة، فإنهم كانوا يكرهون السلاطة والهذر، والتكلف، والإسهاب والإكثار، لما في ذلك من التزويد والمباهاة، واتباع الهوى، والمنافسة في الغلو. وكانوا يكرهون الفضول في البلاغة، لأن ذلك يدعو إلى السلاطة، والسلاطة تدعو إلى البذاء. وكل مرء في الأرض فإنما هو من نتاج الفضول."¹ وإن هذا النوع من المبالغة غير المحمودة عرف في علم البلاغة بما يسمى "التكلف".

لعل نفس الظروف التي ساهمت في تشكل البلاغة العربية من انفتاح حضاري وازدهار فكري وانتعاش اقتصادي وانتشار التعليم، هي نفسها التي عرفتتها النهضة الأوربية والتي أفرزت عدة مستجدات انعكست على الخطاب البلاغي، فساهمت في بعث البلاغة الغربية الجديدة وتربعها على جميع أصعدة الفنون والعلوم. وإن كان الاختلاف بين البلاغتين العربية والغربية، يكمن في الزمان والمكان وخصوصية كل منهما.

3- الإقناع من أساسيات البناء الفكري للبلاغة العربية:

وبما أن البلاغة الحجاجية لها ارتباط وثيق بالإقناع، وإن البلاغة العربية أخذت مكونات الخطابة التقليدية لتشكيل كل خطاب يسمو إلى الإقناع؛ فأصبح بذلك مطلب البلاغة العربية، وهذا ما سنقف عليه كلما بحثنا في المدونات البلاغية العربية قديماً. لذا يتوجب علينا أن نفهم معنى الإقناع الذي جعلت منه البلاغة العربية هدفها الأساسي.

3-1- مفهوم الإقناع في الخطاب البلاغي العربي:

جاء لفظ الإقناع من الفعل "قنع: قَنَعُ قِنَاعَةً: أي رَضِيَ بالقَسَمِ فهو قَنَعٌ وهم قَنَعُونَ"²، كما جاء في المعاجم العربية أن الإقناع بمعنى "قنع بنفسه قنعا وقناعة أي رضي ورجل قانع من قوم قنع وقنع من قوم قنعين وقنيع من قوم قنعين قنعا، وقد قنع بالكسر يقنع قناعة فهو قنع وقنوع قال

¹ - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 168.

² - الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين تح: د مهدي الخزومي، د إبراهيم السامرائي دار ومكتبة الهلال، ج1، (د، ط، تا)، ص: 170.

ابن بري : يقال قنع فهو قانع وقنيع وقنوع أي رضي قال: ويقال من القناعة أيضا تقنع الرجل أي رضي بما قدم له، وقال بعض أهل العلم: إن القنوع يكون بمعنى الرضا والقانع بمعنى الراضي¹. ومنه القناعة أي (الرضا) بما قدم، أما القانع فهو (الراضي) فهي صفة تحصل في المتلقي إذا ما اقتنع أي مقتنعا، راضيا بالأمر. " (اقتنع) قنع وبالفكرة أو الرأْي قبله وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ"² وجاء تعريف الإقناع بصيغة أخرى، بقولهم: معنى الإقناع: أن يعقل نفس السامع الشيء بقولٍ يصدق به وإن لم يكن ببرهان³ وفي هذا التعريف ارتبط الإقناع بالصدق أو بالبرهان ويمكن أن نقول أن هذه من أسمى أنواع الإقناع وأعلى درجة؛ لأنه يصل بالسامع إلى مرحلة اليقين، بحيث كلما فتش المخاطب في ثنايا كلام المحتج زاد اقتناعا وإيمانا بصدق دعواه.

بما أن البلاغة تقوم على الإقناع، فهي حجاج في أرقى مستوياته، "والناظر المتقصي في أقوال هؤلاء وأولئك يستطيع أن يستخلص من جملة أن البلاغة هي بمعناها الشامل الكامل ملكة يؤثر بها صاحبها في عقول الناس وقلوبهم من طريق الكتابة أو الكلام. فالتأثير في العقول عمل الموهبة المعلمة المفسرة؛ والتأثير في القلوب عمل الموهبة الجاذبة المؤثرة؛ ومن هاتين الموهبتين تنشأ موهبة الإقناع على أكمل صورة. وتحليل ذلك أن بلاغة الكلام هي تأثير نفس في نفس، وفكر في فكر"⁴، لأن مدار الكلام هو إيجاد أحسن الطرق وأيسرها وأقواها لإيصال الأفكار والأحاسيس وهذه الطرق استدالات بأنواعها، فإن تمكن المتكلم من إخراجها وتفعيلها فقد وصل إلى مرحلة الكلام البليغ.

إن الإقناع هو عبارة عن نتيجة للحجاج وعندما يحصل الإقناع يمكن أن نحكم على قوة الحجاج وفعاليتها، والطريق الأكثر فاعلية للإقناع هو الخطاب الحجاجي عادة، "فهو عملية خطابية يتوخى بها الخطيب تسخير المخاطب لفعل أو ترك، بتوجيهه إلى اعتقاد قول يعتبره كل منهما شرطا كافيا ومقبولا للفعل أو الترك"⁵ فالإقناع عنصر من العناصر الأساسية والفعالة في نجاح الخطبة

¹ - ابن منظور، لسان العرب المحيط، ج5، ص: 173.

² - إبراهيم مصطفى، وآخرون، المعجم الوسيط، ج2، ص: 763.

³ - الكاتب البلخي الخوارزمي، مفاتيح العلوم، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، (د، ط، تا)، ص: 177.

⁴ - أحمد حسن الزيات، دفاع عن البلاغة، عالم الكتب، القاهرة، ط2، س 1967م، ص: 34، 35.

⁵ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، مقارنة لغوية تداولية، ص: 451.

والاتصال بشكل عام فبواسطتها يستطيع الخطيب استمالة الجمهور وكسب تأييدهم وذلك عن طريق تقديم أدلة وبراهين صحيحة وصادقة تؤيد كلامه وتدعمه.

3-2- الدور الإقناعي للبيان:

اهتم العرب الأوائل بعناصر البيان، إذ اعتبروه من بين أهم مقومات التراث العربي وعلى أساسه تقوم جميع العلوم الأخرى، لذا نجد أن البيان هو من بين أول الدراسات التي شغلت العرب، ولا بد أن نشير أن البيان العربي في بدايات الدراسات العربية هو الذي كان يقصد به البلاغة العربية بشكل عام.

1- الفهم مقصد بياني:

يبدو الارتباط الوثيق بين علم البيان "البلاغة" وبين الفهم ارتباط وثيق، وأن غاية البيان هو الفهم ومن ثم غايتهما الإقناع، فقد اتفقت كتب البلاغة على أن البيان هو "الإظهار المعاني وتقريبها للإفهام، وقال: البيان: الكشف عن المعنى حتى تدركه النفس من غير عقلة"¹، ويعتبر كتاب الجاحظ "البيان والتبيين" أول محاولة في فهم ماهية البيان، وقد "تحدث الجاحظ منذ مطلع الكتاب وقبل التصدي للتعريف، عن فعل البيان وأثره ومساوئ العي وضرره، فكشف عن مقصوده بصورة غير مباشرة ومرجعه الدور الإقناعي للكلام وما يتصل به من عناصر إقناعية غير لغوية. كما عرض لهذا الجانب الإقناعي ضمن أخبار وأحداث داخل الكتاب."² والحق أن الجاحظ اعتنى بالإقناع وبأدواته؛ لأنه كان متأثر بمذهب المتكلمين، وكذا لأنه يقف موقف الرد على الشعوبية وإن هذين السببين كافيين لأنّ بيينا بأنّ البلاغة العربية هي بلاغة حجاجية قصدية ليست نابعة من فراغ.

يستدل الجاحظ بالرسالة التي جاء بها القرآن الكريم حيث يرى أن الله تعالى جاء بـ: "جميل بلائه في تعليم البيان، وعظيم نعمته في تقويم اللسان، فقال: "الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ"³، وقال تعالى: "هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ"¹، ومدح القرآن بالبيان والإفصاح، وبجسّن التفصيل

¹ - ابن رشيق، أبو علي الحسن القيرواني الأزدي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط 5، س 1981 م، ج 1، ص: 254.

² - د: محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 196.

³ - سورة الرحمن، الآية: من 1 إلى 4.

وإيضاح، وبجودة الإفهام وحكمة الإبلاغ، وسماء فرقانا كما سماه، وقال: "وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا"² وقال: "وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ"³، وقال: "وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا"⁴. وذكر الله عز وجل لنبيه عليه السلام حال قريش في بلاغة المنطق، ورجاحة الأحلام، وصحة العقول، وذكر العرب وما فيها من الدهاء والنكراء والمكر، ومن بلاغة الألسنة، واللدد عند الخصومة، فقال تعالى: "فَإِذَا ذَهَبَ الْحَوْفُ سَلَقُواكُمْ بِاللِّسَانِ حِدَادٍ"⁵ وقال: "وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا"⁶. وقال: "وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ"⁷، وقال: "إِلَهْتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ"^{8,9}، فالنصوص القرآنية تدل على أن غاية البيان هو إقامة الحجة وهنا يكمن الإعجاز القرآني.

حتى أن الحجة أخذت معناها من الإظهار والبيان "وقولهم في الحجة إن كانت معلومة الأجزاء، يقينية التأليف، بينية الاستلزام للمطلب" هو كشمس في الظهور¹⁰ تشبيه الحجة عندما تكون قوية كوضوح الشمس للعيان في وضوح النهار الذي لا ينكرها إلا جاحد أو معاند. وجاء بنفس المعنى لفظ "البرهان: الحجة، قال الله عز وجل: "قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"¹¹، أي حججكم. والمآقط: موضع الحرب، فضربه مثلاً لموضع المناظرة والمحاجة. والألد: الشديد الخصومة، قال الله تبارك وتعالى: "وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا" ، وقال: "وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ"¹². منه نستنتج أن البيان أخذ معنى الحجة الحجة في البلاغة العربية القديمة.

¹ - سورة آل عمران، الآية: 138.

² - سورة طه، الآية: 113.

³ - سورة النحل، الآية: 89.

⁴ - سورة الإسراء، الآية: 12.

⁵ - سورة الأحزاب، الآية: 19.

⁶ - سورة مريم، الآية: 97.

⁷ - سورة البقرة، الآية: 204.

⁸ - سورة الزحرف، الآية: 58.

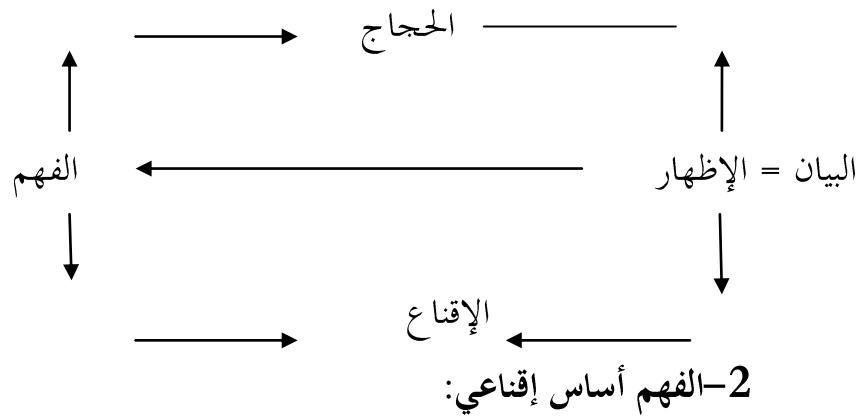
⁹ - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 31

¹⁰ - نصر حامد أبو زيد، الاتجاه العقلي في التفسير دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة، المركز العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2007، ص: 192.

¹¹ - سورة النمل، الآية: 111.

¹² - سورة البقرة، الآية: 204.

فقد بدأ الجاحظ كتابه "البيان والتبيين" بتعريف معنى البيان موضحا ارتباطه بالفهم كقوله: "وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل، يكون إظهار المعنى وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين"² وبعد الوقوف على مجمل القضايا التي أسهب الجاحظ في الحديث عنها، يمكن أن نخلص من خلال هذه العلاقة المتعدية القائمة بين البيان والفهم فالإقناع هو أن "البلاغة إذن توجه إلى العقل أو إلى القلب أو إليهما معا تبعا لما تقتضيه حالات المخاطبين من مقاومة الجهل والرأي والهوى منفردة أو مجتمعة. فإذا كان غرض البليغ نفي جهالة أو توضيح فكرة أو تقرير رأي"³، ومنه يمكننا القول أن الحجاج في البلاغة العربية يتكون من عنصرين مهمين أولهما البيان وآخرهما الفهم .



السؤال الذي يطرح نفسه هنا عما يكشف البيان وماذا يظهر؟ ، تكمن الإجابة في أن "البيان) الحجة والمنطق الفصيح والكلام يكشف عن حقيقة حال أو يحمل في طياته بلاغا وعلم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة من تشبيه ومجاز وكناية"⁴، كما يرى الجاحظ أن البيان له قواعد وأسس حتى يرقى إلى الإقناع يقول في ذلك: "وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة، وإلى ترتيب ورياضة، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة، وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق، وتكميل الحروف وإقامة الوزن، وإن حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة، كحاجته إلى الجزالة والفضامة، وإن ذلك من

¹ - المبرد أبو العباس، الكامل في اللغة، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط3، س: 1997، ج3، ص: 44.

² - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 81.

³ - أحمد حسن الزيات، دفاع عن البلاغة، 36.

⁴ - إبراهيم مصطفى، وآخرون، المعجم الوسيط، ج1، ص: 80.

أكثر ما تستمال به القلوب، وتثنى به الأعناق، وتزين به المعاني، وعلم واصل أنه ليس معه ما ينوب عن البيان التام، واللسان¹، الكشف في البيان يكون بإظهار والوضوح في الكلام قصد الوصول إلى الحقيقة التي لها وقع وأثر على السامع.

3-العقلانية الحجاجية شرط مكون للبيان :

إنّ من المقومات الأساسية للحجاج هو أن يتصف الخطاب بالمعقولية، فإننا نجد نفس هذا الطرح موجود في البلاغة العربية، ومقترن بالبيان حيث يقول الجاحظ في ذلك "وقال سهل بن هارون: العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل، والبيان ترجمان العلم وقال صاحب المنطق: حد الإنسان: الحي الناطق المبين. وقالوا: حياة المروءة الصدق، وحياة الروح العفاف، وحياة الحلم العلم، وحياة العلم البيان."² فقد أقر الجاحظ أن البيان لا بد أن يتسم بشيء من العقلانية؛ لأنه من خصائص الإنسان العاقل، فلا نجده عند أي من الكائنات الأخرى لأنها لا تتميز بالعقل.

على اعتبار أنّ البيان هو الذي ينقل المعارف بأوضح العبارات وأدقها فإن إحتل ذلك حصل انقطاع لحبل الإتصال وقد تأخذ العملية بعدا مغايرا، فتتبدد المعارف وتبقى مبهمة حبيسة الأفكار و"السر في ذلك إن ضروب المعرفة تقوم على ملكات المحصلة، وتعتمد على العقل المجرد، والتثبيت بالدليل القاطع، ولكن التثبيت ليس معناه الإقناع، فإن الإقناع لا يكون بغير السيطرة على النفس، والسيطرة على النفس لا تتم بغير البلاغة وهي وحدها التي تعتد بالعقل في إدراك الخير، وبالذوق في إدراك الجمال، وهي وحدها التي تنفذ إلى القلب بسلطان غير ملحوظ، وتؤثر في الذهن ببرهان غير ملفوظ، وتذهب في تصوير الواقع وتقرير الحق"³. وكما نعلم أنّ المعقول والتعقل لا يتحركان إلاّ في ظل الإستدلال الصحيح.

هذا ما نلمسه في كتاب الجاحظ الحيوان في قوله: "لولا استعمال المعرفة لما كان للمعرفة معنى، كما أنّه لولا الاستدلال بالاستدلال بالأدلة لما كان لوضع الدلالة معنى (...). وللعقل في خلال ذلك

¹ - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 36.

² - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 83.

³ - أحمد حسن الزيات، دفاع عن البلاغة، ص: 38.

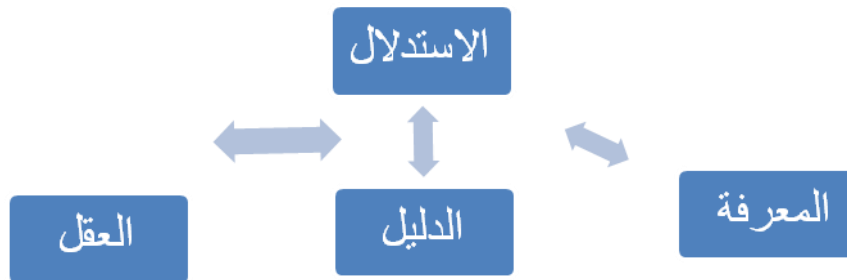
مجال، وللرأي تقلب، وتنبثق للخواطر أسباب، ويتهيأ للصواب الرأي أبواب⁽¹⁾ فالجاحظ من خلال هذا النص يقف على المقومات الأساسية في العملية الاستدلالية وهي:

1- **توظيف المعارف:** المعارف هي المكتسبات القبلية "المقدمات" وتكون على شكل فرضيات، بديهيات، نتائج مستخلصة من استدلالات سابقة التي تقود بالضرورة إلى الحقائق أي معارف جديدة،

2- **الدليل الصحيح:** إذ لا تنفع الحقائق إذا ساء استخدامها والتي يكون بها التفكير السليم لا بد أن يحسن المستدل اختيار استعمال هذه المعارف، فإن استغلال المعرفة في أحسن وجه هو الذي يؤهل الكلام أن يتصف بالبيان وهذا ما عبّر عنه في قوله: "واللسان لا يكون أبرأ، ذاهبا في طريق البيان، متصرفا في الألفاظ، إلا بعد أن تكون المعرفة متخللة به، منقلة له واضعة له في مواضع حقوقه، وعلى أماكن حظوظه، وهو علة له في الأماكن العميقة، ومصرف له في المواضع المختلفة"⁽²⁾.

3- **العقل:** وهو المحرك الرئيسي للعملية الاستدلالية إذ به يتم التفكير والتنظيم والتمييز

فهو بذلك يحدد المقومات الأساسية التي يبنى عليها الاستدلال الصحيح الذي تبني عليه المعرفة نلخص هذه المقومات في المخطط التالي:



يكاد نص الجاحظ التالي يجمع بين طياته الآليات التي يتم بها الحجاج في البلاغة؛ من خلال الإجابة على السؤال الذي طرحه الجاحظ في كتابه.

"قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل.

¹ - الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، س: 1424، ج: 06، ص: 115.

² - الجاحظ، الحيوان، ج: 01، ص: 117.

وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام، واختيار الكلام.

وقيل للرومي: ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة.

وقيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة.

وقال بعض أهل الهند: جماع البلاغة البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة.

ثم قال: ومن البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة، أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها، إذا كان الإفصاح أوعر طريقة، وربما كان الإضراب عنها صفحا أبلغ في الدرك، وأحق بالظفر¹ نلاحظ أن المعنى العربي للبلاغة له علاقة مباشرة بالحجة وكيفية توظيفها، فالبلاغة العربية ما هي إلا عملية حجاجية بحتة في نظر الجاحظ.

4- أطراف العملية الحجاجية في التفكير البلاغي العربي:

1- المخاطب، المتكلم: "المحاجج"

أولت البلاغة العربية اهتماما بالغا للمتكلم باعتباره الآلة التي تصنع البلاغة؛ باعتبار أن "أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة. وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير اللفظ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوقة. ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة، ولا يدقق المعاني كل التدقيق، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح، ولا يصفها كل التصفية، ولا يهذبها غاية التهذيب"² إن هذه الصفات التي يجب أن يعمل المتكلم عامة على أن يتسم بها هي في حقيقة الأمر جوهر العملية الحجاجية، التي نصت عليها البلاغة الجديد.

قد أورد الجاحظ نصا "لبشر بن معمر" يكاد يجمع بين سطوره كل ما يجب أن يكون عليه البليغ، حيث "مرّ بشر بن المعمر بإبراهيم بن جبلة بن مخزومة السكوني الخطيب، وهو يعلم فتياهم الخطابة، فوقف بشر فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة، فقال بشر: اضربوا عما قال صفحا واطووا عنه كشحا. ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتميقه، وكان أول ذلك الكلام: خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك، فإن قليل تلك الساعة أكرم

¹ - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 91.

² - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 95.

جوهرًا، وأشرف حسبًا، وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصدور، وأسلم من فاحش الخطاء، وأجلب لكلّ عين وغرّة، من لفظ شريف ومعنى بديع. وأعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول، بالكد والمطاوله والمجاهدة، وبالتكلف والمعاودة. ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولاً قصداً، وخفيفاً على اللسان سهلاً، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه. وإياك والتوعر، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك. ومن أراغ معنى كريماً فليتمس له لفظاً كريماً، فإن حقّ المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصوفهما عما يفسدهما ويهجنهما، وعما تعود من أجله أن تكون أسوأ حالاً منك قبل أن تلتمس إظهارهما، وترتحن نفسك بملاستهما وقضاء حقهما. فكن في ثلاث منازل، فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقاً عذباً، وفخماً سهلاً، ويكون معنك ظاهراً مكشوفاً، وقريباً معروفاً، أما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت. والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتّضع بأن يكون من معاني العامة"¹. ما نلاحظه أثناء تصفح كتب البلاغة العربية بعد الجاحظ أنها تكاد تجمع على هذه الصفات مع بعض التفاصيل، فهناك من جعل هذين النصين مرجعاً أساسياً يرتكز عليهما في التعقيد لصفات البليغ وللبلادة عامة، حتى أن منهم من أورد أحد النصين أو كلاهما ليستدل به على كلامه.

من هذه النصوص، ومن نصوص أخرى غيرها يمكن أن نستنتج المخطط التالي الذي يوضح عناصر آلة البلاغة كما حددتها البلاغة العربية في المقابل عناصر البلاغة الجديدة التي تتوافق معها.

البلاغة الجديدة	البلاغة العربية القديم
الاتصال الفكري، مواضع الأفضل تكيف الخطيب مع مستمعيه	رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ اختيار أفضل الأوقات لتحرير الخطاب وكذا إجابتها إياك.
الدلالة، اختيار المعطيات وكيفية تكييفها مع الحجاج، إبراز العناصر المهمة	اختيار أحسن اللفظ، وعدم تدقيق المعاني

¹ - الجاحظ البيان والتبيين، ج1، ص: 130.

اللغة الطبيعية المتداولة المفهومة لدى المخاطب، اختيار النعوت، الروابط بين الجمل. مقدمات مسلم بها مقبولة	يكلم الناس حسب طبقاتهم الاجتماعية والثقافية، لا ينقح الألفاظ كل التنقيح، الفهم والإبانة متداولان بين الناس تجنب الوعر والتعقيد
تصور الوجوه البلاغية على أنها تقنيات حجاجية.	تحري المعاني البديعة
سعة الحجاج، كفاءة الخطيب	طول الممارسة والاجتهاد في طلب الأحسن
تنوع المستمعين: المستمع الخاص، المستمع الكوني	الخطاب يوجه للعامة وللخاصة

يرى الجاحظ على لسان "بشر بن معمر" أن صناعة الخطابة ليست متاحة للجميع لكن يمكن للمرء أن يتعلمها ويصبح متقنا لها، هذا "إن ابتليت بأن تتكلف القول، وتتعاطى الصنعة، ولم تسمح لك الطباع في أول وهلة، وتعاصى عليك بعد إجمالة الفكرة، فلا تعجل ولا تضجر، ودعه يياض يومك وسواد ليلتك، وعأوده عند نشاطك وفراغ بالك، فإنك لا تعدم الإجابة، ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"¹. فهنا نلمس كذلك بعض الآليات الإقناعية، أهمها: المقام، معرفة أحوال المستمعين، وفي قوله التالي: "والخطيب يقنع بالأخلاق إذا كان كلامه يلقي على نحو يجعله خليقا بالثقة"² يتضمن مسألة القيم التي ينبغي أن يبنى عليها كل خطاب حجاجي، بليغ.

2- المخاطب المتلقي، "المستمع":

¹ - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 130.

² - د: محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، إفريقيا الشرق، ط2، (د.ت.)، ص: 27.

إنّ الاختلاف بين مستويات المستمعين من الناحية (الثقافية، المترلة الاجتماعية، الحالة النفسية، المعتقدات الدينية، الخلفيات الإيديولوجية)، كلها عوامل تفرض على المحاجج أن يراعيها ويبنى على أساسها خطابه المحجاجي "إذا كان موضوع الكلام على الإفهام فالواجب أن تقسّم طبقات الكلام على طبقات الناس، فيخاطب السّوقى بكلام السّوقة، والبدوي بكلام البدو، ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه؛ فتذهب فائدة الكلام، وتعدم منفعة الخطاب"¹. فمعرفة طبقات المستمعين وطباعهم وأحوالهم توفر على الخطيب الكثير من الكلام الذي قد لا يفهم معناه، فيصبح محل مصادرة للكلام، بل وتذهب معه ثقة المتكلم.

إنّ الإقناع مسألة تتعلق بالمتلقي أكثر من المحاجج؛ لأنّ إليه يصل الخطاب، ولا تتخيل أن المتلقي صفحة بيضاء نرسم فيها ما نشاء ويتقبل كل شيء بصدر رحب، بل بالعكس تتجاذبه عدة أطراف تتحكم في رغباته وتحدد ميوله واتجاهاته وتفرض عليه أفكار شتى، "ومدار الأمر على إفهام كلّ قوم بقدر طاقتهم، والحمل عليهم على قدر منازلهم؛ وأن تواتيه آتته، وتنصرف معه أدواته، ويكون في التهمة لنفسه معتدلاً، وفي حسن الظنّ بها مقتصداً؛ فإنه إن تجاوز الحقّ في مقدار حسن الظنّ أودعها تهاون الآمنين، وإن تجاوز بها مقدار الحقّ في التهمة ظلمها وأودعها ذلّ المظلومين. ولكلّ ذلك مقدار من الشغل، ولكلّ شغل مقدار من الوهن، ولكل وهن مقدار من الجهل"². من هنا تنطلق مهمة المحاجج الصعبة، وعلى أساسها يتسم بالمهارة والحذق في اختيار وتصريف أنواع الحجج التي تتلاءم ومقتضيات خطابه المحجاجي.

حتى أنّ الألفاظ التي يوظفها المحاجج تكون منتقاة بعناية جد فائقة حتى لا يقع في مواقف محرجة؛ لأنّ الألفاظ لها دلالاتها الخاصة التي ترتبط ببعض الثقافات دون الأخرى؛ لأنّ "لكلّ قوم ألفاظ حظيت عندهم. وكذلك كلّ بليغ في الأرض وصاحب كلام منشور، وكلّ شاعر في الأرض وصاحب كلام موزون؛ فلا بد من أن يكون قد لهج وألف ألفاظاً بأعيانها؛ ليديرها في كلامه، وإن

¹ - العسكري، الصناعتين، ص: 20.

² - العسكري، الصناعتين، ص: 20.

كان واسع العلم غزير المعاني، كثير اللفظ.¹، وإنّ هذا يتوافق مع ما تذهب إليه البلاغة الجديدة في اعتمادها اللغة الطبيعية المتداولة فهي مادة الحجاج ومنبع قوته.

كل لغة تحتوي على ألفاظ مستحبة وأخرى مستكرهة؛ واللفظ المستكره في حقيقة " ما كان من الألفاظ دالاً على معنى وُضِعَ له في أصل اللغة، فغيرته العامة وجعلته دالاً على معنى آخر،"² فتعبر به العامة على معنى قبيح، فإذا استعمله المتكلم أخط من قيمة الكلام وأخرجه عن نطاق الكلام البليغ رغم أنّ هذه الألفاظ متداولة بين العامة غير أنّها مكروهة، منبوذة، فإنها تحكم على الكلام عامة بالابتدال وعلى المحاجج بضعف الحجة وقلة العقل. لذا كان لازماً على المخاطب الحذق أن يجتهد في الإطلاع على مثل هذه الألفاظ خاصة إذا كان الكلام موجه إلى نوع من المستمعين لم يسبق للمخاطب التعامل معهم، من هذا الطرح يبدو لنا جلياً مدى التفصيل في مسألة المقام، التي أولتها البلاغة الجديدة "بلاغة بيرلمان" أهمية قصوى والتي اعتنت بمقامات الكلام لكن دون أن تفصل في ذلك كثيراً.

بما أن الغرض الأساسي في العملية الحجاجية هو الإقناع والتأثير فيلزم المخاطب أن يبحث في الظروف المحيطة بالمخاطب التي تسهل وتفعل هذه العملية بحيث يستغل كل موقف مهما كان شكله لحسابه وعادة ما "يبني فعل الإقناع وتوجيهه دوماً على افتراضات سابقة بشأن عناصر السياق خصوصاً المرسل إليه والخطابات السابقة والخطابات المتوقعة"³، كل هذه العناصر لا بد أن تكون من اهتمامات المتكلم؛ لأنه "إذا لم يكن المستمع أحرص على الاستماع من القائل على القول، لم يبلغ القائل في منطقة، وكان النقصان الداخل على قوله بقدر الخلة بالاستماع منه"⁴. فعملية البث الحجاجي تبدأ بالحضور الذهني للمستمع وتنتهي بالإقناع.

3- الخطاب الحجاجي:

3-1- المقام: "مراعاة مقضى الحال"

¹ - الجاحظ، الحيوان، ج3، ص: 174.

² - ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة - القاهرة، (د، ط، تا)، ص: 196.

³ - محمد طروس، النظرية الحجاجية، ص: 444.

⁴ - الجاحظ، الحيوان، ج2، ص: 215.

قبل الكلام على أنواع الاستدلالات "الحجج" التي اقترضت البلاغة معظمها من المنطق الأرسطي، لابد لنا الكلام عن أهم ما يجب أن يلتزم به المخاطب حتى تكتمل لديه صناعة البلاغة، وهي مراعاة "مقتضى الحال"، والالتزام بمبدأ "لكلّ مقام مقال"¹. إذ يعتبر ذلك بمثابة قاعدة لا يتحرك البليغ إلاّ ضمنها، ويقصد بمراعاة مقتضى الحال هو "إذا شرعت في الكلام فلكل كلمة مع صاحبها مقام ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به وهو الذي نسميه مقتضى الحال"²، الذي يرنو إلى بناء الخطاب البلاغي الإقناعي " إذ قد تحققت أن علم المعاني والبيان هو معرفة خواص تراكيب الكلام ومعرفة صياغات المعاني ليتوصل بها على توفية مقامات الكلام حقها بحسب ما يفي به قوة ذكائك وعند علم مقام عندك أن الاستدلال بالنسبة على سائر مقامات الكلام جزء واحد من جملتها وشعبة فردة من دوحتها علمت أن تتبع تراكيب الكلام الاستدلالي ومعرفة خصوصها مما يلزم صاحب علم المعاني والبيان"³. ويقصد في هذا النص "سائر مقامات الكلام" كل المتغيرات التي تؤثر في مجريات الكلام سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، والتي تتحدد بها ملامح الحجاج لذا يجب أن يحسن المحاجج توظيفها حتى يصل بها إلى الإقناع، ومنها يمكن للمقام أن يركز على العناصر الخطابية التالية:

1- القصد من إنتاج الخطاب:

إنّ مواضيع الكلام تنوع وتباين لذا من مما يجب على المحاجج أن يبقى يحاجج في إطار موضوع الكلام الذي يقصده، على اعتبار أنّ كل كلام إلاّ ويبنى على مقصدية، فيحرص المتكلم على أن لا يخرج عن مقصد الكلام تحت أي ظرف؛ " يكون إنتاج الخطاب بين طرفيه مرهونا بفهم مقاصد المرسل، وذلك في الحجاج مثلا، وفي الاستراتيجيات التي تبلور العلاقة بين طرفي الخطاب، ويتم ذلك بإدراك مقاصد بوصفها الإدارة أم مقاصد بوصفها المعنى، وينبني على عدم فهم القصد إنتاج خطابات غير مناسبة للسياق"⁴، يتضح من هنا أن عملية فهم معاني الخطاب لها علاقة بإدراك

¹ - العسكري، أبو هلال حسن بن عبد الله، الصناعتين، تح: علي محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية، بيروت، (د، ط)، 1419م، ص: 27.

² - السكاكي، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي، مفتاح العلوم، تح: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2، 1987م، ص: 168.

³ - السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 432.

⁴ - عبد الهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص: 211.

مقاصد المخاطب وحتى عملية التأويل تتوقف عليه، لذا "فلا يخلط بين أقدار الألفاظ وأقدار المعاني، ولا يتصنع الجد حيث يجب الهزل،"¹ كما لا بد أن يكون متتبعا للمستجدات التي قد تطرأ في غير حينها، ويكون مستعداً لأي طارئ مفاجئ، فيعرف كيف يتعامل معه بكل مهارة دون أن يخل ببلاغة الخطاب، إنما المخاطب الكفاء قد يستغل تلك المستجدات ويوظفها لصالحه.

قد أكد الجاحظ على ضرورة الالتزام بمسألة مراعاة الموضوع في قوله: "لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة التشكر يبين مقام الشكاية ومقام التهئة يبين مقام التعزية ومقام المدح يبين مقام الذم ومقام الترغيب يبين مقام الترهيب ومقام الجد في جميع ذلك يبين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداءً يغير مقام الكلام بناءً على الاستخبار أو الإنكار ومقام البناء على السؤال يغير مقام البناء على الإنكار"²، فالعلاقة التي بينها المحاجج بين المقام وموضوع الخطاب تفرض عليه نسقا خطايا معيناً يحاول أن يجمع له أقوى الأدلة والأدوات المتاحة ليضمن حصول التأثير.

2- جنس الكلام:

إنَّ أجناس الكلام تختلف فيما بينها، وهذا الاختلاف يفرض على المتكلم أن يراعي الجنس الكلامي الذي اختاره كي يكون الرسالة التي تحمل كلامه للمستمع، وقد نبه البلاغيون العرب على هذه المسألة خاصة عندما فرقوا بين خصائص النثر والشعر، حيث لاحظوا "أن في الشعراء من يجعل أكثر معانيه وألفاظه مخيلة ولا يعرج على الإقناع الخطابي إلا في قليل من المواضع، وفيهم من يقصد الإقناع في كثير من معانيه - لأن صناعة الشعر تستعمل يسيراً من الأقوال الخطابية كما أن الخطابة تستعمل يسيراً من الأقوال الشعرية لتعتضد المحاكاة في هذه بالإقناع والإقناع في تلك بالمحاكاة."³ فالمرعاة الجنس الخطابي يحدد نوع الحجج وطريقة ترتيبها وكذلك كيفية عرضها بالطريقة التي تتناسب والجنس الكلامي فليس من المعقول أن نحاجج على طريقة الحجج المنطقية ذات الصرامة العلمية ونحن مع الجنس القصصي.

¹ - حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص: 211.

² - السكاكي، مفتاح العلوم، 168.

³ - حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ت: محمد الحبيب ابن خوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3، (د، تا)، ص: 293.

3-آلية الاستدلال:

ربط علماء البلاغة آلية الاستدلال بالبيان، وهذا ما ذهب إليه ابن المعتز في وصفه للبيان عندما قال: "البيان ترجمان القلوب، وصقيل العقول، ومجلي الشبهة وموجب الحجة، والحاكم عند اختصام الظنون، والمفرق بين الشك واليقين، وهو من سلطان الرسل الذي انقاد به المعتصب، واستقام الأصيل وسلم الممتنع"⁽¹⁾. في هذا النص يكاد يجمع كل أغراض الحجاج، وعليه فإن البيان "البلاغة العربية" من مقاصدها الرئيسية "الإقناع" الذي نصل إليه بالحجاج.

إنّ البلاغة العربية لم يعد الهدف منها بث المتعة و السرور في النفس، إنما هدفها يقوم على توضيح الملتبس وإقامة الحجة أو الدليل للوصول إلى الإقناع، وهذا الأخير من أهم ما تصبوا إلى تحقيقه البلاغة عن طريق الخطاب المبين، وقد أقر الجاحظ بهذا الهدف في كتابه الحيوان بقوله "ثم جعل للمستدل سبب يدل به على وجوه استدلاله، ووجوه ما نتج له الاستدلال، وسموا ذلك بياناً"⁽²⁾ فالكلام البليغ هو الكلام الذي يعتمد على الاستدلال، الذي هو من آليات الإقناع، إذ لا بد للحجاج أن يكون موافقا لما يقره العقل وإلا وصف الكلام على أنه مجرد ضرب من اللغو.

تعددت المقاصد التي ترنو بلوغها البلاغة العربية غير أنّ "موقف البيانيين، من المعرفة الاستدلالية موقف واحد من الناحية الاستدلالية، المعرفة النظرية أو الاستدلالية هي التي تحصل بتوسط النظر، أو تتولد عن النظر، والنظر يكون في الدليل والدليل أمانة أو علامة ترشد إلى المدلول، والعلاقة بين الدليل والمدلول ليست ضرورية بمعنى أنّها لا تخضع لمبدأ السببية"⁽³⁾. فهي علاقات متنوعة تربط الدليل بالمدلول منها: (اللزوم، تماثل، تباين)... إلخ لكن كلها تقوم على المنطق السليم، الذي يفرض النظام والترتيب والمعقولية المحتملة.

إنّ مرجع هذه الرؤية الاستدلالية في البلاغة العربية للمدرسة الأصولية التي اعتمدت على مبادئ الاستدلال في علم الفقه الإسلامي، من خلال "وضع الشافعي الأساس لنظرية "أصولية" بيانية، نظرية تهتم بتحديد أصول التفكير ومنطقاته وآلياته واهتمامها بدراسة أنواع الألفاظ والعبارات من

¹ - أبي إسحاق إبراهيم الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، المكتبة العصرية صيدا بيروت، ج1، ط1، 2001 م، ص:136.

² - الجاحظ: الحيوان، ج1، ص:33.

³ - محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص:222.

حيث دلالتها على المعاني"⁽¹⁾. فقد كان للشافعي دورا كبيرا في توجيه البحث البياني توجيهها استدلاليا معتمدا التفكير والملاحظة وكل صور الاستدلال السليم من استنتاج واستقراء وقياس لإعطاء أحكام مقبولة، والخروج بنظرية علمية تعتمد على مبادئ عقلية.

من هذه المرجعية الأصولية للمقاييس البلاغية وغيرها من المرجعيات الأخرى أخذ مصطلح الاستدلال ألفاظ أخرى تداولها علماء البلاغة، ومنها: "القياس، الاستدلال، النظر، الاعتبار أسماء علمية ذهنية واحدة تقوم على تقدير شيء آخر لجامع بينهما"⁽²⁾ فجميع هذه المصطلحات سواء الاستدلال أو القياس أو جميع صفات الاعتبار، هي كلمات لمفهوم واحد إنما كل حقل معرفي تبني إحداها وتعامل مع لفظ دون سواه حسب ما اختار واعتاد أهل كل اختصاص عليه .

يمكن استنتاج "أن مفهوم الاستدلال عند العلماء والبلغاء العرب عدا أهل المنطق والبرهان - كان يتم استقصاء القول فيه ضمن إطار علم البلاغة وعلم المعاني والبيان، معنى ذلك إنهم ميزوا بين أسس بيانية (بلاغية - فقهية - نحوية.. الخ)، والاستدلال البياني، إن صح التعبير، هو ما يشكل دليلا أو دلالة، بمعنى، البينة أو الحجة، كمعايير يحصل بها التبيين أو إظهار الحق وصدق الخبر، وفي المنظور العربي اللغوي - البلاغي نجد مفهوم الاستدلال (الترادف للقياس أيضا) لا يخرج عن حظيرة التشبيه والوصف والاستعارة ومن ثم فهو ليس عملية عقلية استنباطية محضة، بل عملية "خطابية" يتم بموجبها اتخاذ علامة مادية أو معنوية وجعلها شاهدا أو مثلا على شيء أو وصفة من صفاته، لذلك لا يخرج الاستدلال عن دائرة التشبيه والاستعارة وبشكل أعم عن دائرة المجاز"⁽³⁾. إن هذا ما سنقف عليه كلما تصفحنا المدونات البلاغية العربية.

5-آلية الاستدلال في الخطاب البلاغي العربي:

¹ - محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي ، ص:24.

² - نفس المرجع، ص: 144.

³ - أحبيب أعراب: الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص:124.

5-1- المفهوم الإجرائي لآلية الاستدلال عند الجاحظ:

أهم ما يمكن أن نستنبطه من نصوص الجاحظ السابقة الذكر، ومن نصوص أخرى غيرها (يرجع إليها في كتاب البيان والتبيين أو الحيوان): "أن مفهوم البيان عند الجاحظ مفهوم إجرائي، أي أنه العملية الموصلة إلى الفهم والإفهام في حالة اشتغالها"⁽¹⁾ والاشتغال يكون بحسن استخدام وسائل إنتاج الخطاب وطرق أداء المعنى وهذا ما أراد تأكيده عندما أتى بمفهوم البيان للعتابي "إنما عنى العتابي إفهامك العرب حاجتك على مجاري كلام العرب الفصحاء"⁽²⁾ ويعني مجاري كلام العرب الفصحاء، وعدم الخروج عن القواعد العامة للكلام العربي الفصيح، فهو يأخذ الكلام ويقيسه مع الكلام العربي الفصيح "كلام أهل البوادي"، فإن كان يتوافق معه حكم عليه بالبلاغة والبيان، وما خرج عنه رُد على صاحبه وتُعت بالعيّ والرداءة، فهو يطبق المنهج الاستدلالي ومن ثم يقيم الكلام وينقده.

هنا نص أورده الجاحظ على لسان العتابي إذ يقول: "قلت للعتابي: ما البلاغة؟ قال: كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ، فإن أردت اللسان الذي يروق الألسنة، ويفوق كل خطيب، فإظهار ما غمض من الحق، وتصوير الباطل في صورة الحق"⁽³⁾ إذا ما توقفنا عند هذا النص وتفحصناه ملياً أدركنا القصد من البلاغة وهو بلوغ الهدف من الكلام من دون تكرار ممل أو تردد أو محاولة الاستعانة بغيره ثم إن كل هذا يترك انبهاراً بجمال العبارة، وهنا يدخل ضمن بلاغة الحجاج وروافده، فهي تسعى إلى تقرير الحقيقة دون زيف أو كذب، وكذلك توظف آليات الحجاج من أجل التحوير والتظليل كالمغالطات المنطقية لتحوير الحقيقة وهذا ما قصده من تصوير الباطل في صورة الحق.

رغم ما يلاحظ على "كتاب الجاحظ" البيان والتبيين" من غزارة المادة الأدبية التي تناولها والتي تتسم بالكثير من الفوضى، "فقد سار مع ذلك في كتابه الذي يهمننا هنا كتاب "البيان والتبيين" حسب تصميم منطقي "مضمّر" عرض من خلاله العملية البيانية بمختلف مراحلها"⁽⁴⁾، وفي كل مرحلة

1 - محمد العمري، البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها، ص: 191.

2 - الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، ص: 162.

3 - الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، ص: 112.

4 - محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص: 26.

من هذه المراحل إلا ويربطها بالمنهج الاستدلالي وإن لم يذكر ذلك صراحة⁽¹⁾، خاصة طريقة الاحتجاج التي "تبنى على معطيات تاريخية وتستمد قدرتها على الإقناع من إقرارها أمرا واقعا وحدثا تاريخيا ثابتا، وهي لا تتأتى إلا لعقل كعقل الجاحظ يجد الحجة حيث طلبها"⁽²⁾ والواضح من المادة النقدية التي يقدمها الجاحظ أنه يستثمر آلية الاستدلال، ويوظفه في كل خطوة يخطوها مع إشارة كل مرة إلى أهمية هذه الآلية وإن لم يرق معه إلى وضع نظرية تسطر المعالم التي لا بد أن يتبعها المستدل في إنتاج الخطاب البلاغي أو إصداره للأحكام.

غير أن ملاحظاته وتحليلاته تنم على أن الجاحظ كانت له نظرة خاصة لآلية الاستدلال لعلها هي التي أرست مبادئ النقد والبلاغة فيما بعد، "وأكثر التصنيفات تواترا استقاه المؤلف على ما يبدو من بيئة المتكلمين، خاصة المعتزلة الذين اعتنوا بصناعة الكلام ورتبوا لكل معنى طريقة في الجدل"⁽³⁾ فقد استفاد الدرس البلاغي كثيرا من طرق الاستدلال التي اعتنى بها المتكلمون.

5-2-فاعلية آلية الاستدلال في مشروع ابن وهب البياني:

كتاب ابن وهب عبارة عن إعادة بناء وتنظيم جديدتين للبلاغة العربية واستدراك ما فات الجاحظ من الوجوه البلاغية في كتابه "البيان والتبيين"، كما أنه يمثل عصارة ما وصلت إليه الساحة البيانية من نتاج بلاغي، خاصة في قضية اللفظ والمعنى والبحث من خلالها عن الحقيقة وتجاوز المعنى الحقيقي. حيث "يريد ابن وهب أن يدرس البيان دراسة منظمة تعتمد بناء الموضوع على أصوله وفروعه بطريقة تقريرية، طريقة الأصوليين من فقهاء ومتكلمين، وليس بطريقة تعتمد البيداغوجيا البيانية كما فعل الجاحظ"⁽⁴⁾ وقد ساعدت ابن وهب ثقافته المتنوعة "الدينية، البيانية، المنطقية أن يغترف من عمل هذه الجوانب المتعددة ليؤسس بذلك هذا المشروع البياني المنطوق كما أراد هو له ذلك"⁽⁵⁾، هذه الدراسة فتحت طريقا واضح المعالم لرؤية بلاغية حجاجية حول الخطاب والمفهوم

1 - ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، ص: 40.

2 - حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، ص: 179، 180.

3 - نفس المرجع، ص: 170.

4 - محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص: 32.

5 - عباس أرحيلة، الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين، ص: 419.

والدلالة وآليات الإقناع، واللافت للنظر هو منهجية الكتاب التي اختلفت عن معاصريه من ناحية التنظيم والتقنين.

مساهمة ابن وهب في تطوير البحث البلاغي والرفع من مستوى النقد البلاغي كان له أثر واضح بحيث كانت بلاغة الحجاج المحور الرئيسي الذي دارت حوله تقريبا جميع القضايا البلاغية التي تطرق إليها ابن وهب، حيث ركز على الآليات الإقناعية ضمن مشروعه البياني في كتابه "البرهان في وجوه البيان" وهو "مشروع بياني محض وهو يجمع بين البحث الأصولي الذي دشنه الشافعي والبحث البلاغي الذي طوره الجاحظ وركز على محور العلاقة بين اللفظ والمعنى بالإضافة إلى ما أنجزه الأصوليون والمتكلمون في موضوع الخبر والقياس وشروط اليقين ودرجات الصدق يتعلق الأمر إذن بنظرية في المعرفة بيانية على جميع المستويات"⁽¹⁾ وبالتالي الخروج عن الطريقة التي اعتمدت قبله من تشتت في المعلومات دون مراعاة اختصاص معين.

إن الرؤية الحجاجية للبلاغة عند ابن وهب تتصدرها آلية الاستدلال لكل الأشكال البلاغية العربية، هذا يفسر العنوان الذي اختاره لكتابه "البرهان في وجوه البيان" حيث ربط بين البيان والبرهان وإن هذا المصطلح في وقته يدل على الحجة كما يدل على الدليل، وإن تصدير كتابه بالحديث عن أهمية العقل² الذي يركز عليه الاستدلال السليم. للدليل قاطع على الاستراتيجية الحجاجية التي يرغب ابن وهب ترسيخها في الفكر البلاغي العربي، حيث أفرد الباب الأول من كتابه لآلية الاستدلال وقد سماه "الاعتبار" وهو المسمى بالنظر في عرف المتكلمين وقد قال القاضي أبو بكر في حده هو الفكر الذي يطلب به من قام به علما أو ظنا"⁽³⁾، وقد شاع استعمال هذا المصطلح عند الفقهاء والمتكلمون بدل استعمال مصطلح القياس، الذي يفيد التشبيه.

قسم ابن وهب "الاعتبار" إلى قسمين: قياس، التشبيه أو التمثيل فهو يقول: "والقياس في اللغة التمثيل، والتشبيه، وهما يقعان بين الأشياء في بعض معانيها لا في سائرهما"⁽⁴⁾، وهي من الجازم صور الاستدلال حسب التقسيم المنطقي، وبعد عرض هذه الوجوه للاستدلال يقر بأن "هذه جمل من وجوه

¹ - محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص: 37، 38.

² - ينظر: ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، تح: د حنفي محمد شرف، مطبعة الرسالة، القاهرة، (د.ط)، س 1969م، ص: 51 إلى 55.

³ - الأمدي، الأحكام في أصول الأحكام، ج 1، ص: 11.

⁴ - ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، ص: 67.

الاستدلال والقياس تدل ذا اللب على ما يحتاج إليه، ومن أراد استيعاب ذلك نظر في الكتب الموضوعية في المنطق، فإنها جعلت عيارا على العقل ومقومة لما يخشى زله⁽¹⁾ وقد اعتمد عليها لتكون دراسته دراسة علمية تقوم على أسس منطقية.

ركز اهتمامه في فاتحة الكتاب على التفريق بين المسائل التي تستجوب الاستدلال و بين التي لا تتطلب ذلك في قوله: "فالظاهر مستغن بظهوره عن الاستدلال عليه، والاجتماع عليه؛ لأنه لا خلاف له، والباطن هو المحتاج إلى أن يستدل عليه بضروب الاستدلال، ويعتبر بوجوده المقاييس والأشكال"⁽²⁾، وهنا يقصد بما هو مستغن عن الاستدلال هو العلم الضروري (البديهيات، المعارف السابقة)، أما الذي يستوجب الاستدلال هو ما اختلف حوله و المحتمل وهذا الذي يكون فيه الحجاج، وإن هذا الطرح من أهم الأسس التي قامت عليها البلاغة الغربية الجديدة عند ربط الحجاج بالمسائل التي تقبل الاحتمال أما المسائل التي اتفق حولها فليست محور الحجاج.

نجد ابن وهب قد عبر عن الاستدلال مرّة بالبيان في قوله: "إن الأشياء تبين بذواتها لمن تبين، وتعبر بمعانيها لمن اعتبر"⁽³⁾، ومرّة بالقياس في قوله: "وحاجتنا في القياس أن الله عزّ وجل قال "فاعتبروا يا أولي الأبواب"⁽⁴⁾ وقوله: "وكذلك الأمثال التي جاءت في كتابه كمثل كذا وكذا في مواضع كثيرة وذلك كله تشبيه وقياس"⁽⁵⁾، في هذه النصوص تظهر الدلالة المقصودة من الاعتبار، حيث أردفها لمعنى الاستدلال، وقرنها بالعقول حينما استدل بقوله تعالى.

إنّ النظام الذي رسم به ابن وهب كتابه "البرهان في وجوه البيان" أقرب إلى نظرية عامة في علم البلاغة يهدف على أساسها تقنين آليات الحجاج وفق المنطق العقلي السليم، فقد كان على يقين تام أنّه لا بد من توظيف المنطق ضمن الدائرة البيانية العربية، حتى تكون المعايير البلاغية أقرب لصحة وأكثر فاعلية، وقرينة من الدقة العلمية؛ وعلى اعتبار أن جميع الوجوه البلاغية العربية قائمة على أساس فكري منطقي، هذا الذي يرفع الكلام عامة إلى مستوى الكلام البليغ؛ لأنه يكسبه قوة ومتانة عقلية

1 - ينظر ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، ص:76.

2 - ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، ص:49.

3 - ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، ص:65.

4 - سورة الحشر، الآية 2.

5 - ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، ص:65.

تتفق على صحتها جميع الناس، مما يجعله ذا فعالية حجاجية. فهو يدعو دعوة صريحة إلى تعلم مبادئ المنطق، مع مراعاة خصوصية اللسان العربي، فهو بهذا قرب بين البيان العربي والمنطق الفلسفي، واشترط أن يكون للعقل الدور الرئيسي في عملية التقريب، "والخلاصة أن ابن وهب استفاد من دراسته لجوانب من المنطق (القياس والجدل) لينظر إلى البيان نظرة علمية دقيقة من داخل التراث البياني في لسان العرب"⁽¹⁾، فمشروعه البلاغي يعتبر أول محاولة لتنظيم الساحة البيانية العربية على أساس منطقية استدلالية؛ "فالمهمة التي أناطها بنفسه هي تنظيم التراث البياني العربي بطريقة منهجية، تحدد الأصول، وتحيط بالفصول (الفروع) فغايته جمع ما تفرق وتنظيمه لتقديم رؤية بيانية، نابعة من القرآن والسنة وأقوال علي كرم الله وجهه، ومن خطب العرب وأشعارهم وأمثالهم"⁽²⁾. بحيث أنه تطرق إلى جميع القضايا البلاغية من خلال ربطها بالمنطق والعقل لكن في المقابل مراعى الخصوصية البلاغية العربية.

من خلال ما سبق يمكن القول أن مشروع كل من الجاحظ وابن وهب كان لهما الأثر الكبير في توجيه الإطار العام للبلاغة العربية نحو نظرة حجاجية نفعية، تشترك في تكوينها أنظمت التفكير الصحيح، فقد كان على النقاد البلاغيين العرب بعد هذين المشروعين البلاغيين أن يتتبعوا أسلم طرق الاستدلال التي تمكنهم من الدفاع عن آرائهم، ودحض آراء المعارضين، وأصبح لازماً على علماء البلاغة البحث عن الآليات الحجاجية التي يجب أن تتوفر في الخطاب البلاغي الحجاجي، مع البحث عن العناصر المساهمة في تشكل هذه الآليات، وعندها برزت عدة قضايا نقدية احتدم الصراع حولها، ولعل أهم تلك المشاغل هي القضايا الجوهرية التي اعتنى بها كل من صاحب "البيان" وصاحب "البرهان" من إثباته ووضوح اللذين يقودان إلى الفهم أو الإفهام، ومنهما إلى الإقناع، في حدود مبادئ المنطق الذي يقوم أصلاً على العقلانية.

6- عناصر تشكيل الخطاب البلاغي وأثرها في تحقيق الإقناع:

6-1- ثنائية اللفظ والمعنى:

¹ - عباس أرحيلة، الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين، ص: 419.

² - نفس المرجع، ص: 411.

اشترطت البلاغة العربية في الخطاب البلاغي العربي أن يتوافق اللفظ مع معناه، وستبين من خلال الكثير من النصوص الواردة في المدونات البلاغية العربية أثر هذا التوافق في إنتاج الخطاب الحجاجي وأثر ذلك في الرفع من نسبة الإقناع، نذكر على سبيل المثال ما قاله الجاحظ: قال ثمامة بن أشرس: قلت لجعفر بن يحيى: ما البيان؟ قال: أن يكون اللفظ يحيط بمعناك، ويخبر عن مغزائك، ويخرجه من الشركة، ولا يستعين عليه بالكثرة، والذي لا بد منه أن يكون سليماً من التكلف، بعيداً من الصنعة، برياً من التعقيد، غنياً عن التأويل قال الجاحظ: وهذا هو تأويل قول الأصمعي: البليغ من طبق المفصل، وأغناك عن المفسر"، بعبارة أخرى "البلاغة تفسير عسير الحكمة بأقرب الألفاظ."¹ إن هذا النصوص تحيلنا إلى ما أكدت عليه البلاغة الجديدة في اعتمادها اللغة الطبيعية كلغة أساسية في إنتاج الخطاب الحجاجي.

هذا التوافق بين المعنى واللفظ فرض على البلاغيين، بحيث أن يقوم بدراسة كل طرف من الثنائية على حدة حتى يتبينوا خصوصية كل منهما، فوضعوا عندها للفظ شروطاً صارمة، واتفقوا على أن "من تمام آلات البلاغة التوسّع في معرفة العربية، ووجوه الاستعمال لها؛ والعلم بفأخر الألفاظ وساقطها، ومتخيرها، وردئها"²؛ بل هناك من جعل "مدار البلاغة على تحيّر اللفظ؛ وتخيّره أصعب من جمعه وتأليفه"³؛ لأنّ عملية انتقاء الألفاظ ترفع مستوى الكلام من الكلام العامي المتبدل إلى الكلام البليغ القوي.

فيكون أكثر دقة وصحة بعيداً عن الشبهة أو الحشو، ويكون طريق الإقناع ميسراً لإحداث التأثير، "فأما إذا كان في زيادة الألفاظ وتكثيرها، وترديدها وتكريرها، زيادة فائدة فذلك محمود، وهو من باب التذييل"⁴. يبقى تحقيق فائدة الإيجاز أو الإطناب في يد البليغ الكفء الذي يعرف مقادير المعاني وكم يضع لها من ألفاظ، كما أن ذلك يقدر حسب طبيعة المستمع فهناك من يفهم بالإشارة وآخر بالكلمة وآخر بكلام مسهب، وإنّ هذا ما أولته البلاغة الجديدة عناية خاصة عند حديثها عن أنواع المستمعين.

¹ - أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص: 52.

² - نفس المصدر، ص: 21

³ - نفس المصدر، ص: 23

⁴ - نفس المصدر، ص: 23.

الألفاظ مجتمعة في نسق معين هي مقدمات نُخرج منها بنتائج صحيحة محتملة أو يقينية، وهنا يكمن دور المنطق في تشكيل الخطاب الإقناعي في البلاغة العربية. —"نحن حين نستخدم ألفاظا محددة في قضية أو مسألة ونسعى من ورائها إلى معرفة الأسباب والدلائل، وحين نصوغ مقدمات ويلزم عنها بتالي نتائج، فإنّ اللغة الاصطلاحية المنطقية هي التي تعيننا على استخدام تلك الحدود أو الألفاظ التي تسمى قياساً"¹ يجب أن تختار بعناية؛ لأن كل واحدة منها إلاّ وعبارة عن مجموعة من الحجاج وطريقة تنظيم كل واحدة من هذه الحجاج تعطي لنا أنواع الحجاج التي رصدتها البلاغة الجديدة.

من ناحية أخرى درس علماء البلاغة المعاني دراسة معمقة حتى جعلوها قسما خاصا من علوم البلاغة، وبما أن المعاني لها علاقة بالفكر "قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني: المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم، والمختلجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم، مستورة خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلاّ بغيره. وإنما يحى تلك المعاني ذكرهم لها، وأخبارهم عنها، واستعمالهم إياها. وهذه الخصال هي التي تقرّبها من الفهم، وتجليها للعقل، وتجعل الخفي منها ظاهرا، والغائب شاهدا، والبعيد قريبا. وهي التي تلخص الملتبس، وتحل المنعقد، وتجعل المهمل مقيدا، والمقيد مطلقا، والمجهول معروفا، والوحشي مجلّوفا، والغفل موسوما، والموسوم معلوما"² إذن البلاغة هي الطرق التي يستحدثها المتكلم أو يبتكرها من أجل التعبير عن معنى كامن في النفس.

هذه الطرق تعمل على إخراج المعنى في أفضل صورة يتقبلها فكر الطرف الآخر، هذه الصور المخرجة عبارة عن مجموعة من الألفاظ منتقاة بعناية مركبة بطريقة مؤتلفة مع بعضها البعض، بحيث "يكون لفظه مونتقا، ومعناه نيرا واضحا"³ من هذا المنطلق يكون ارتباط اللفظ بمعناه ارتباطا حجاجيا؛ لأنّ المعنى نستدل عليه من خلال اللفظ والكيفية تركيبه مع غيره ضمن نسق معين، فهو بمثابة دليل على المعنى، وهذا ما طرحته قضية النظم في البلاغة العربية.

¹ - د: زينب عفيفي، فلسفة اللغة عند الفارابي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع عبد غريب، القاهرة، (د، ط)، س، 1997م، ص: 181.

² - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 81.

³ - أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص: 20.

6-1-1- قضية النظم:

إنّ مسألة ائتلاف اللفظ بمعناه كان لها امتداد بحثي واسع، وهذه البحوث أفرزت في مجملها قضية "النظم" التي ارتسمت حدودها واكتملت صورتها مع عبد القاهر الجرجاني، فما وصل إليه عبد القاهر الجرجاني من أبحاث يمثل زبدة ما وصل إليه البحث النقدي البلاغي مع بداية القرن الخامس الهجري، لاسيما مع علماء الإعجاز. فلو عدنا إلى كتب البلاغة في قضية اللفظ والمعنى نجد أنّ معظم البلاغيين "لم يفصلوا بين الشكل والمضمون بل رأوا إليهما أنهما يشكلان نوعا من الوحدة العضوية التي لا يجوز تجزئتها وتفكيكها"⁽¹⁾، ورغم أنهم اتفقوا منذ بداية البحث البلاغي على هذه الحقيقة ظل الصراع محتدما حول هذه المسألة، لم يتم الفصل في مسألة ثنائية "اللفظ والمعنى" إلا على يد الجرجاني فقد استطاع أن يصوغ تلك القناعة التي تشكلت لدى علماء البلاغة ضمن مسألة كاملة تستوعب كل المفارقات، ويعود ذلك إلى ما "توفر لعبد القاهر الجرجاني الذي استطاع أن يبيّن طريقة في تحليل الكلام على رسم عقلي مسبق وموقف نظري قائم على أسس معرفية واضحة"⁽²⁾ وما توفر لعبد القاهر الجرجاني على غرار السابقين هو تحكّمه في القواعد الاستدلالية بشكل لم يسبقه إليه أحد بفضل تأثره بالمذهب الكلامي، وإننا لو أمعنا النظر سيتضح لنا جليا أن هذه القضية حاولت أن تلخص كل الآليات التي تقود إلى الإقناع.

مشروع الجرجاني البلاغي كان يتمحور حول إيجاد الحجج ومن ثمّ توظيفها ضمن نسق كلامي منظم ومرتب ترتيبا فريدا من نوعه، هذا الأمر الذي يؤكد "أنه أبرز من خلال تحليله لمعنى "النظام" الطابع الاستدلالي للأساليب البيانية العربية من تشبيه ومجاز واستعارة وكناية وتمثيل وهذا الطابع الاستدلالي الذي يجعل الذهن ينتقل من خلال الأساليب البلاغية تلك من المعنى إلى معنى المعنى هو ما عناه مؤلفنا بينما فسر "النظم" على أنه تناسق دلالات الألفاظ وتلاقي معانيها على الوجه الذي يقتضيه العقل"⁽³⁾. وهنا يبدو ربط البلاغة صراحة بعمليات الفكر التي اعتنت بها البلاغة الجديدة من توظيف المنطق والوقوف على الحقائق، بالاستناد على المعارف السابقة.

¹ - سمير أبو حمدان، الإبلاغية في البلاغة العربية، منشورات عويدات الدولية، بيروت، باريس، ط1، 1991م، ص: 85.

² - حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص: 489.

³ - محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص: 88.

الاستدلال أصبح لدى الجرجاني شرطا من شروط البلاغة سواء كان هذا الاستدلال بأدوات معنوية أو بيانية، وتعتبر هذه الأدوات الآليات الحجاجية التي فصلت فيها البلاغة الجديدة من "حجج تستند على بنية الواقع" و أخرى "حجج لا تستند على بنية الواقع". أي "أن الكلام البليغ عند الجرجاني هو الكلام الذي يكون سبيل الاستدلال بمعنى اللفظ على معنى آخر وما الفرق بين الظواهر الذي ستسمى بعده معنوية "نسبة إلى علم المعنى أو بيانية" نسبة إلى علم البيان "إلا فرق في المستدل منه والمستدل به والمتنقل منه والمتنقل إليه أو الدليل والمدلول، وهذا ما اقتضى عند الجرجاني وحده الجهاز المفسر لمختلف الظواهر البلاغية"⁽¹⁾، فلا فرق بين أنواع الاستدلال مادامت تؤدي نفس المهمة "الإقناع" فالاختلاف يكمن في الوسيلة لا غير، التي يحصل بها حسن الكلام.

إن كل القضايا البلاغية التي أسهب الجرجاني في الاستدلال لها عبارة عن عمليات استدلالية للأساليب البلاغية المتعارف عليها عند البلاغيين وحسب الجرجاني لا يمكن إخراج خطاب بليغ إلا ضمن إطار الفكر، يقول في ذلك: "أنا نعلم ضرورة أنه لا يتأتى لنا أن ننظم كلاما من غير روية وفكر"⁽²⁾. ويمكن أن نستخلص هذا من خلال النص الذي يشرح فيه الجرجاني مفهوم النظم فهو "لفظ يعني الانتظام والنسق والترتيب وارتباط الأشياء متفرقة متميزة ومجموعة مترابطة، والعقل هو السبيل إلى إدراك كل أولئك"⁽³⁾، وهذا الذي يجعل منها عمليات عقلية بامتياز، إذ هناك علاقة واضحة بين الفكر واللفظ.

النظم في الفكر البلاغي العربي هو عبارة عن ترتيب أجزاء القول التي تنص عليها البلاغة الجديدة، "بناء على ما سبق يتضح أن كل نص ترتبط أقواله ارتباطا موحها توجيهها يجعل أحد طرفيه متعلقا بالآخر، يعد بمثابة دليل فالدليل إذن هو ما كان من النصوص مرتبة الأقوال ومرتبنا بعضه على بعض"⁽⁴⁾ يمكن لهذا النص وحده أن يعزز النظرة الحجاجية التي يلتقي فيها الفكر البلاغي العربي بالفكر الحجاجي الغربي، أولها الانتظام، حيث يقترن من فكرة ترتيب أجزاء القول بعد أن جمعت وكانت أجزاء متفرقة هنا وهناك ونعني بها هنا المواضيع أو الحجج والارتباط بعدها يتوافق مع طريقة

¹ - شكري المبخوت، الاستدلال البلاغي، دار المعرفة للنشر كلية الآداب والفنون الإنسانية بجامعة منوبة، تونس، ط1، 2006 م، ص: 78.

² - عبد القاهر الجرجاني، أبو بكر، دلائل الإعجاز، تح: محمد شاكر فهري، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني، بجدة، ط3، 1992م، ص: 360.

³ - د، مصطفى ناصف، نظرية المعنى في النقد العربي، دار الأندلس، بيروت، لبنان، (د.ط. تا). ص: 83.

⁴ - طه عبد الرحمن، التكوثر العقلي، اللسان والميزان، ص: 139.

العرض وربط الحجج ببعضها البعض إما قياساً أو استقراء، والأداة التي تجمع وتنظم وتنسق وتربط هي العقل، الذي يشكل مبدأ القيمة الذي قامت على أساسه البلاغة الجديدة ونحن نرى هنا أن العقل من أهم المقومات التي يركز عليها الاستدلال عند الجرجاني وهو القيمة التي يرتفع بها الخطاب البلاغي إلى مستوى الخطاب الحجج الإقناعي.

قد كان هذا المعيار العقلاني من أهم الشروط التي لا بد أن يلتزم بها المستدل عند أهل الكلام حيث " لا يعاقل المتكلم إلا إذا التزم طرق الاستدلال الذي يطالب غيره بالالتزام بها"⁽¹⁾، هناك إذن ارتباط وثيق بين النظم والاستدلال الذي هو آلية حجاجية ضرورية لكل محاجج، "إذ كلاهما يعتمدان على العقل وعلى النص، فالعقل والنقل يمثلان الحجة من حيث اعتبارهما مصدر للأدلة وأداة في الاستدلال ومرجعاً له"⁽²⁾ حيث لا يمكن للحجاج أن يصل إلى الإقناع، إن لم يبن على حدود العقل الذي يصون الكلام من الخطأ والزيف وتحوير الحقائق، التي أراد "بيرلمان" أن يتخلص منها الخطاب عامة.

كما يمكننا أن نستنتج من خلال قراءة نصوص الجرجاني أن "الذي يقوم بعملية التنظيم والتنسيق والربط بين الباطن والظاهر في عملية "النظم" هو المتكلم، وهو بذلك يعطي للمتكلم دوراً مهماً في العملية الاستدلالية وهذا الدور الذي يمنحه عبد القاهر للمتكلم فيما اتصل بالنظم يؤكد وعي عبد القاهر بخصوصية الأداء اللغوي، هذه الميزة هي التي تؤهل الكلام أن يكون متفاوتاً فيما بينه من كلام بليغ إلى كلام أبلغ منه إلى حد يوصف بالإعجاز، وإنّ هذا التفاوت يحدده حسن الاستدلال الذي يبنى عليه حسن الكلام. "فالقوانين البلاغية عند الجرجاني لا تستند إلى الاعتبار الكلامي مجرد استناد، إذ هي أصبحت في ذاتها قوانين كلامية تستدرك على المتكلمين ما فاتهم وتوفر لهم الوسائل النظرية التي تيسر منعة الاعتقاد، وتضمن انتظامه نسقاً"⁽³⁾. بالتالي أضحت المعايير البلاغية وسائل يستعين بها المتكلم ليصل إلى مقاصده، "فالجرجاني يعتبر من أكثر العلماء الذين رددوا مصطلح القصد، بل كان محور نظريته، بوصف سبب العدول عن التركيب الأصل هو لبيان قصد المرسل

¹ - طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتحديد علم الكلام، ص: 156.

² - د. محمد النويري، علم الكلام والنظرية البلاغية عند العرب، ص: 142.

³ - د. محمد النويري، علم الكلام والنظرية البلاغية عند العرب، ص: 316، ص: 317.

بالاستجابة للسياق تداوليا كما ألمح من مواطن عديدة إلى أن القصد هو المعنى¹، والمعنى عند الجرجاني مصدره النفس فيأخذ أشكالا متنوعة حسب قصد المتكلم.

على أساس المعنى المقصود من الخطاب يتبلور الفهم وحتى "يتلاءم الفهم مقترحات الجرجاني في نظرية النظم أن يشتمل "المعنى" ومعنى المعنى" على الضروب الأربعة من المعاني أي معنى اللفظ (الدلالة المعجمية) والمعنى النحوي (الوجوه والفروق) وأصل المعنى (مضمون الجملة) والغرض (معنى المتكلم وحكمه)²، يقصد بالمعنى الأول (مداولات التركيب)، أما المعنى الثاني فيقصد به (الأعراض التي يصاغ لها الكلام)؛ والمعنى الثاني حسب الجرجاني هو أصل المعنى، و به يتم الإثبات والتوكيد، أما المعنى الأول ما هو إلا دليل على المعنى الثاني.

نخلص إلى أن الألفاظ تعطينا معاني وهذه المعاني تقود إلى معاني أخرى هي مقاصد الكلام وإليه يتطلع المتكلم، إن هذا المسار يتوافق مع مسار الحجاج في البلاغة الجديدة فالخطاب ما هو إلا مجموعة من الحجج تجتمع فيما بينها في نسق معين تقود إلى مقاصد المحاجج وهي الإقناع فالتأثير، لذا نجد أن الجرجاني قد أعطى عناية خاصة للنص وما يحمله من إيجاءات أي المعاني المتعددة التي قد يحتملها النص الواحد. وبهذا الجرجاني أعطى بعدا آخر لفك شفرة المعاني التي حصل فيها التباس المقصود والتصادم مع العقل وقد دار حولها جدل كبير ضمن الدائرة الفكرية العربية خلال تلك الفترة. والتي أنتجت ما عرف في الفكر العربي "تأويل الكلام" وهذا التأويل للكلام لو أمعنا النظر فيه سنجد أنه عبارة عن عملية حجاجية بحتة لفهم مقاصد النص.

6-2- التأويل والحجاج:

عرفنا أن الحجاج مرتبط دائما بالمقصدية ، ومن هذه القاعدة قد نصل إلى فهم الكلام لكن يبقى القصد مبهما ولا نصل إليه إلا من خلال إعادة النظر مرة أخرى في الكلام بإعادة بنائه من جديد وحتتنا في ذلك المعنى الظاهر بمساءلته ومحاولة استنطاق النص وإن هذه العملية تعرف "بعلم

¹ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجية الخطاب، ص: 201.

² - شكري مبخوت، الاستدلال البلاغي، ص: 50.

التأويل " وأصله في اللغة من الأول ومعنى قولهم: ما تأويل هذا الكلام؟ أي إلام تؤول العاقبة في المراد به كما قال تعالى: يوم يأتي تأويله أي تُكشَفُ عَاقِبَتُهُ وَيُقَالُ آلَ الْأَمْرِ إِلَى كَذَا أَي صَارَ إِلَيْهِ وَقَالَ تَعَالَى: ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا، وَأَصْلُهُ مِنَ الْمَالِ وَهُوَ الْعَاقِبَةُ وَالْمَصِيرُ وَقَدْ أَوْلَتْهُ فَالَ أَي صَرَفْتُهُ فَانصَرَفَ فَكَانَ التَّأْوِيلَ صَرْفُ الْآيَةِ إِلَى مَا تَحْتَمِلُهُ، الْإِبَالَةَ وَهِيَ السِّيَاسَةُ فَكَانَ الْمُؤَوَّلَ لِلْكَلامِ يُسَوِّي الْكَلَامَ وَيَضَعُ الْمَعْنَى فِيهِ مَوْضِعَهُ.... وَأَكْثَرُ اسْتِعْمَالِ التَّأْوِيلِ فِي الْمَعَانِي" ¹ أي هو صرف المعنى إلى ما يتحملة من معاني أخرى "عبر ظاهر العبارات والألفاظ، أو تم تجاوز الظاهر نحو البنيات العميقة للمعنى. والتأويل هو الحقيقة التي يؤول إليها المعنى وحقيقته، وفي الوقت ذاته في فهم المتفهمين" ² إذن فالتأويل مهمته توجيه المعنى توجيهًا حجاجيًا بإضاءة الجوانب الخفية لمقاصد المتكلم.

بما أن الحجاج يعتمد على اللغة الطبيعية في بناءه فإن الالتباس وغموض المعنى من خصائص هذه اللغة غير أن البلاغة الجديدة الغربية عدت "هذا الالتباس ليس نقصاً في اللغة الطبيعية، بل هو مزية فيها يكسبها الطواعية الكافية لجعلها تستجيب لأغراض التبليغ التي لا تحصى" ³، وإن هذه النظرة لها ما يؤيدها في التراث البلاغي العربي، إذ أن "الكلام إذا كان قوياً من مثل هذا الفحل احتمل لقوته وجوهاً من التأويل بحسب ما تحتمل ألفاظه، وعلى مقدار قوى المتكلمين أراد الأصمعي الشعر القوي الذي يحتمل مع فصاحته، وكثرة استعماله ألفاظه، وسهولة تركيبه، وجودة سبكه معاني شتى يحتاج الناظر فيه إلى تأويلات عدة، وترجيح ما يترجح منها بالدليل" ⁴، الدليل غالباً ما يستنبط من التركيب "التقديم والتأخير"، أو من السياق العام للكلام "المقام" وغير ذلك، فقوة المعنى يتفتق منها تأويلات تكون سندا للحجج تدعمها وتثبتها، فالبلاغة الحجاجية اتخذت "علم التأويل" سلاحاً ودرعاً في نفس الوقت تستعمله في غالب الأحيان لتدعم حججها وتأسس قاعدة حجاجية منفتحة على الكثير من أنواع التفكير هذا من جهة و لتقوية الأثر الحجاجي من جهة أخرى.

¹ - الزركشي أبو عبد الله بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ط1، ص1957 ج2، ص: 148، 149.

² - محمد بازي، نظرية التأويل التقابلي، دار الأمان، الرباط، ط1، 1434، 2013، ص: 81، 80.

³ - د: طه عبد الرحمن، أصول الحوار وتحديد علم الكلام، ص: 99.

⁴ - ابن أبي الإصبع العدواني، عبد العظيم بن الواحد بن ظافر البغدادي، تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر، تح: الدكتور حفي محمد شرف لجنة إحياء التراث الإسلامي، الجمهورية العربية المتحدة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ص: 455.

ما يؤكد ارتباط التأويل بالحجاج هي الأسس المعتمدة في التأويل من بين أهم ركائز الحجاج وهو التوافق بين المؤول والمؤول له وهذا ما أشار إليه صاحب دلائل الإعجاز في حديثه عن مسألة غموض الكلام في قوله: "لم يكن هذا الاشتباه وهذا الغلط إلا لأنه ليس في جملة الخفايا والمشكلات أغرب مذهباً في الغموض، ولا أعجب شأناً، من هذه التي نحن بصددها، ولا أكثر تفلتاً من الفهم وأنسلاً منها وإن الذي قاله العلماء والبلغاء في صفتها والإخبار عنها، رموز لا يفهمها إلا من هو في مثل حالهم من لطف الطبع، ومن هو مهياً لفهم تلك الإشارات، حتى كأن تلك الطباع اللطيفة وتلك القرائح والأذهان، قد تواضعت فيما بينها على ما سبيله سبيل الترجمة يتواطأ عليها قوم فلا تعدوهم، ولا يعرفها من ليس منهم"¹. والتواطؤ في هذا النص هو ما يقصد به "الاتفاق" بحيث لو تم اتفاق بين الطرفين كان قد حصل عندها لا محالة إقناع.

إن الظفر بإذعان الخصوم وتحقيق الإقناع يتطلب فرض سلطة خطابية وإن هذه السلطة يجسدها الفعل التأويلي، فرغم "أن التأويل من جهة كونه حفراً مضمياً في مجاهيل الكلام، يمكن صاحبه من امتلاك القدرة الكافية على سياسة عوالم ألفاظه وتوجيه حركة خطابه، ومن ثمة يجعله باسطاً نفوذه الرمزي والمادي على عقول السامعين وأهوائهم، امتلك إرادتهم ويقن عقولهم بجدوى عقائده وتمام حقائقه وبذلك جاز لكل محاج/مؤول أن يشرح الفهم الذي يريد، ويثبت المعنى الذي يبتغي"² والسلطة التي يحظى بها التأويل يكتسبها من قدرته على استيعاب كل المعاني الممكنة مع استحضار ما يتوافق مع المعنى من معاني أخرى قد تكون بعيدة عن المعنى الأول كل البعد، هذه المنحة التي يتميز بها التأويل يستغلها المحاجج في إعطاء حجاجه وزناً ثقيلاً.

فرض التأويل تعدد الآراء بحيث أن كل رأي إلا ويستند على أدلة وحجج يثبت بها صحة أو طلان الرأي الآخر وإن هذا التنوع في الآراء واختلاف، نتج عنه ما يعرف بـ "المنظرة"

6-3- الحجاج بين الحقيقة والمجاز:

أهم مسألة اشتغل بها علماء البلاغة كما رأينا "ثنائية اللفظ والمعنى" وإن هذه المسألة تفرعت عنها الكثير من القضايا البلاغية، لكن تبقى قضية الحقيقة والمجاز أبرز هذه القضايا تداولاً بين

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، 250.

² - د: علي شعبان، الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، ص: 483.

البلاغيين، إذ استحكمت فيها آليات الحجاج بكل صورها لاسيما عند علماء الإعجاز، وعلماء الكلام، لما أثارته من جدل واسع بين مختلف الأوساط العلمية والبيانية في تلك الفترة، وما كان لها الأثر الكبير في إثبات الإعجاز القرآني والوصول إلى حقيقة التأويل، " وكان من نتائج النظر إلى مسألة الإعجاز من الزاويتين معا أن تحول البحث البياني في إشكالية اللفظ والمعنى من مستوى العلاقة العمودية بينهما (الإعراب، الدلالة وقصد المتكلم) إلى مستوى العلاقة الأفقية بين تركيب الكلام وصياغة المعاني بين نظام الخطاب ونظام العقل مما كانت نتيجة الكشف بوضوح عن الطابع الاستدلالي للأساليب البيانية العربية"⁽¹⁾. حيث أن المسائل البلاغية أخذت الحيز الأكبر من القضايا التي اشتغل بها علماء الكلام خاصة قضية "المجاز"

عموما فإن علم الكلام قد ساهم كالتحو تماما في البحث عن "الخصوصية البلاغية للنص القرآني، فساهم بطريقة غير مباشرة في تطوير السؤال البلاغي، إذ هو على العموم كما نعلم البحث في ذات الله وصفاته واحتجاج للعقيدة بالنظر العقلي"⁽²⁾، ومن خلال هذا النص يمكن استخلاص أن الأسس التي اعتمدها أهل الكلام في إثبات مسائل الاعتقاد هي (النص القرآني، الاستدلال، العقل)، وقضية اللفظ والمعنى كان لها الفضل الكبير في تطوير أساليب البحث التي قادت إلى الكشف عن الخصائص الاستدلالية التي تتميز بها الأساليب البيانية البلاغية العربية خاصة قضية الحقيقة والمجاز .

قبل أن نفصل في هذه القضية لابد أن نحدد مفهوم كل من الحقيقة والمجاز في التراث البلاغي العربي، "فأما "الحقيقة" فهي: اللفظ الدالّ على موضوعه الأصلي. وأما "المجاز" فهو: ما أريد به غير المعنى الموضوع له في أصل اللغة، وهو مأخوذ من جاز من هذا الموضوع إلى هذا الموضوع، إذا تخطّاه إليه. فالجواز إذاً اسم للمكان الذي يجاز فيه كالمعاج والمزار وأشباههما، وحقيقته"⁽³⁾ باختصار أن مفهوم كل من الحقيقة والمجاز عند السلف مرتبط بالمعنى.

إنّ هذا المعنى لا بد أن يدور في فلك السياق فلا نستطيع الحكم على حقيقة المعنى أو مجازيته إلاّ من خلال النظر إلى السياق العام للكلام. "والمجاز جنس يشتمل على أنواع كثيرة، كالاستعارة

¹ - محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص: 75.

² - د: محمد النويري، علم الكلام والنظرية البلاغية، ص: 209.

³ - ابن الأثير، المثل السائر، ص: 84.

والمبالغة والإشارة، والإرداف، والتمثيل، والتشبيه، وغير ذلك مما عدل فيه عن الحقيقة الموضوعية للمعنى المراد، فهذه الأنواع وإن كانت من المجاز فلكونها متعددة جعل لكل منها اسم يعرف به، ويميزه عن غيره من جنسه"¹، وكذلك لأن كل واحد منها وله أثر بلاغي يختلف عن بعضه البعض في الدرجة وفي التوظيف.

حرص معظم البلاغيين على تحري الحقيقة والاستدلال لها بالحقائق حتى تكون أقرب للأذهان وأوقع في القلوب، لكن رغم ذلك يرى الكثير منهم أن هذه الحقائق والوقائع يمكن الاستدلال لها بما هو خارج عن المؤلف أي بالمجاز؛ لأنهم على يقين من أن "المجاز في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة، وأحسن موقعاً في القلوب والأسماع، وما عدا الحقائق من جميع الألفاظ ثم لم يكن محالاً محضاً فهو مجاز؛ لاحتماله وجوه التأويل، فصار التشبيه والاستعارة وغيرهما من محاسن الكلام داخلة تحت المجاز، إلا أنهم خصوا به أعني اسم المجاز باباً بعينه؛ وذلك أن يسمى الشيء باسم ما قاربه أو كان منه سبب"²، وابن الرشيق في هذا النص بين لنا القوة الإبداعية التي يحققها المجاز كما يحدد الوظيفة الجمالية التي يلعبها المجاز في الكلام وهو في الحالتين يحدد مقاصد تجاوز الحقيقة وإن هذه المقاصد سواء "قوة المعنى" أو "جماليات العبارة" هي من مقاصد العملية الحجاجية، فنص ابن رشيق يكاد يلخص لنا ما وصل إليه علم البلاغة في هذه القضية.

غير أننا لو فتشنا في كتب البلاغة سنلمس الأثر الإقناعي للمجاز بصورة أوضح وأدق فالجرجاني يربط مباشرة عملية تجاوز المعنى بالعملية الحجاجية "فإذا سمعتهُم يقولون: إن من شأن هذه الأجناس أن تُكسب المعاني نبلاً وفضلاً، وتوجب لها شرفاً، وأن تُفخِّمها في نفوس السامعين، وترفع أقدارها عند المخاطبين، فإنهم لا يريدون الشجاعة والقرى وأشباه ذلك من معاني الكلم المفردة، وإنما يعنون إثبات معاني هذه الكلم لمن ثبت له ويخبر بها عنه"³. بمعنى أن المعاني الحقيقية لم يكن لها أثر من قوة المعنى وفخامته إلا في ظل المعنى المجازي الذي نقل لنا المعنى الحقيقي.

¹ - أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص: 457.

² - ابن رشيق، العمدة في محاسن الكلام، ص: 266.

³ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 70.

يفسر ابن أثير السبب الذي يدفعنا إلى تجاوز الحقيقة إلى المجاز واعتباره الأولى في الاستعمال من الحقيقة، في قوله: "فاعلم أن المجاز أولى بالاستعمال من الحقيقة في باب الفصاحة والبلاغة؛ لأنه لو لم يكن كذلك لكانت الحقيقة التي هي الأصل أولى منه حيث هو فرع عليها، وليس الأمر كذلك؛ لأنه قد ثبت وتحقق أن فائدة الكلام الخطابي هو إثبات الغرض المقصود في نفس السامع بالتخييل والتصوير حتى يكاد ينظر إليه عياناً،.... ولا يعدل عن الأصل إلى الفرع إلا لفائدة"¹ والسبب في نظره يعود إلى قصد الإثبات في النفس وإن هذه الوحدات التي ذكرها ابن الأثير تمثل عناصر المسار الحجاجي بالترتيب، حيث تنطلق العملية من المقصدية لتصل إلى الإثبات الذي هو جوهر الإقناع الذي محله النفس التي تعتبر النقطة النهائية في العملية الحجاجية. حتى أن الإثبات بالعقل قد لا يصل في الكثير من الأحيان إلى الإقناع ما لم يثبت في النفس؛ لأنها محل الإيمان الذي لا يخالطه شك وإن ذلك من أسما درجات الإقناع، كما يذكر ابن الأثير أهم التعبيرات المجازية التي تحقق هذه النسبة العالية من الإقناع وهي "التخييل" و"التصوير".

يظهر وعي البلاغيين العرب بالإجرائية الحجاجية للمجاز بربطه بالمتلازمات المنطقية في قول السكاكي: "وإذا عرفت أن إيراد المعنى الواحد على صور مختلفة لا يتأتى إلا في الدلالات العقلية وهي الانتقال من معنى إلى معنى بسبب علاقة بينهما كلزوم أحدهما الآخر بوجه من الوجوه ظهر لك أن علم البيان مرجعه اعتبار الملازمات بين المعاني، ثم إذا عرفت أن اللزوم إذا تصور بين الشيئين فإما أن يكون من الجانبين"²، بهذا التصور الإجرائي لتلازم قضايا المجاز أي بين اللفظ والمعنى وبين المعنى والمعاني الأخرى المستنبطة من هذه العلاقات الدلالية المتلازمة، توسعت دائرة تفسير العلاقات المجازية بالمنطق، هذا ما أقره السكاكي حين قال: "بأن من أتقن أصلاً واحداً من علم البيان كأصل التشبيه أو الكناية أو الاستعارة ووقف على كيفية مساقه لتحصيل المطلوب به أطلعه ذلك على كيفية نظم الدليل"³، فهو بهذا الشرط "انتظام الدليل" يرمي إلى ضرورة تعلم كيفية الاستدلال للمسائل البلاغية، وإذا طرحنا السؤال لما لا بد من تعلم مبادئ الاستدلال وما الفائدة من ذلك؟ فلا نجد لذلك غير أن

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، ص: 78، 79.

² - السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 330.

³ - السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 435.

الوجه البلاغي ما هي إلا أدوات إجرائية لتشكيل الخطاب الحجاجي، ونحن نقصي من هذا الإطار الخطاب البرهاني على اعتبار أن البرهان يعتمد على قضايا يقينية وكذلك على اللغة الصناعية.

عموماً فإن المسائل البلاغية كالمجاز وما تفرع عنه من تشبيه واستعارة والتي كان الخلاف يدور حولها في الوقت نفسه، أعطى كل ذلك دفعا قويا للنهوض بالفكر الإسلامي العقائدي وتأسيس نظرية بلاغية قائمة على أسس استدلالية.

6-3-1- حجاجية الاستعارة:

اعتنى علماء البلاغة بالاستعارة عناية جد خاصة، حتى أن منهم من عدّ "الاستعارة أفضل المجاز، وأول أبواب البديع، وليس في حلي الشعر أعجب منها، وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها"¹، رغم أن الاستعارة فرع عن المجاز؛ إذ يبقى "المجاز أعمّ من الاستعارة، وأن الصحيح من القضية في ذلك: أن كل استعارة مجاز، وليس كل مجاز استعارة، وذلك أننا نرى كلام العارفين بهذا الشأن أعني علم الخطابة ونقد الشعر، والذين وضعوا الكتب في أقسام البديع، يجري على أن الاستعارة نقل الاسم من أصله إلى غيره للتشبيه على حدّ المبالغة"²، والنقل هنا يكون للمعنى وعلاقة التشابه بين المستعار والمستعار له تكون على سبيل الاحتمال لا اليقين أي التشابه يكون من باب الترجيح.

كما أن الاستعارة عبارة عن تركيب خاص للكلام يتأسس على مبدأ الاستدلال القياسي الذي يعرف بالتمثيل عند أهل البلاغة "وَحَقِيقَةُ الْإِسْتِعَارَةِ التَّمثِيلِيَّةُ أَنْ تُؤْخَذَ أُمُورٌ مُتَعَدِّدَةٌ مِنَ الْمُشْبِهَةِ وَتَجْمَعُ فِي الْخَاطِرِ وَكَذَا مِنَ الْمُشْبِهَةِ بِهِ وَيَجْعَلُ الْمَجْمُوعَاتِ مُتَشَارِكِينَ فِي مَجْمُوعٍ مُنْتَزِعٍ يَشْمَلُهُمَا، وَمَذْهَبُ السَّكَاكِيِّ هُوَ أَنَّ الْإِسْتِعَارَةَ تَشْمَلُ التَّمثِيلَ، وَيُقَالُ: التَّمثِيلُ اسْتِعَارَةٌ تَمثِيلِيَّةٌ، وَأَمَّا عَلَى مَذْهَبِ عَبْدِ الْقَاهِرِ وَجَارِ اللَّهِ فَالْإِسْتِعَارَةُ مُخْتَصَّةٌ بِالْمَجَازِ فِي الْمَفْرَدِ الْمَبْنِيِّ عَلَى التَّشْبِيهِ"³، ومن هذا المنطلق تقوم الاستعارة على أسس حجاجية، "الاحتمال، الاستدلال القياسي". لكن ما هي المزية التي تختص بها

¹ - ابن الرشيقي، العمدة في محاسن الشعر والنثر، 268.

² - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 398.

³ - الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني القريشي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية تح: عدنان درويش - محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، (د، ط، تا)، ج 1، ص: 101

الاستعارة والتي تؤهلها لأن تكون أفضل أنواع المجاز؟ لعل هذه المزية اكتسبتها من ما تحمله من إفادة للمعنى.

النص التالي أجمل وظائف الاستعارة: "نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض، وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ، أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه؛ وهذه الأوصاف موجودة في الاستعارة المصيبة؛ ولولا أن الاستعارة المصيبة تتضمن ما لا تتضمنه الحقيقة؛¹ بهذا الاستعارة تكون مصيبة إذا حققت أحد الأغراض المذكورة، وإنَّ جل هذه المقاصد ما هي إلاَّ أساليب حجاجية يروم المحاجج أن يحقق بها الإقناع؛ والاستعارة تشكل الآلية التي تلعب على وترين وتر الجمع بين المتفرقات وتشكيل صورة تخيلية تعجب لها النفس، وتلعب الاستعارة في المقابل على وتر آخر وتر الجمع بين تراكيب الكلام الاستدلالي الذي يقوم على المشابهة وعلى القرينة التي تدل على المحذوف هذه القرينة تمثل الدليل الذي يؤسس المشابهة التي يقبلها العقل، منه إذن فالاستعارة تحقق القبول المنطقي العقلي وفي الوقت نفسه تحقق الإعجاب النفسي التي تحدته المغايرة والتي عرفت في البلاغة الجديدة باسم "الاستعارة الحية"² وإذا ما اجتمع ذلك وصلنا إلى قمة الإقناع.

تتوافق هذه الرؤية الغربية الجديدة للاستعارة مع ما ذهب إليه "الجرجاني" فقد خلص إلى جعل مدار الاستعارة "الإفادة" لا غير "فقد بنى الجرجاني كتابه في أسرار البلاغة، كما سيأتي على أساس النقل المفيد الذي يحقق معنى إضافيا ولذلك أقصى منذ البداية ما أسماه الاستعارة غير المفيدة وتكون الزيادة في الدلالة كلما فتح باب التأويل بالغوص على المعاني، فالكتاب مبني كله على هذا الأساس وذلك خروجاً بالمقولات البلاغية من مفهوم الاضطراب، ومن أن تكون مجرد إجراءات غير هادفة، من خلال مراجعته بمفهوم الزيادة والنقص في آخر الكتاب، إذ اشترط لمجازيتها أن يفيد معنى جديد"³ فهو بذلك أقر أن الاستعارة مرتبطة بالمقاصد و"المغايرة".

¹ - أبو هلال العسكري، الصناعتين، 268.

² - بول ريكو، الاستعارات الحية، ص: 267.

³ - د: محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 140.

قد استند طه عبد الرحمن على حجاجية الاستعارة في التراث البلاغي من خلال تصور الجرجاني للمفهوم الاستعارة الإجرائي المبني على "الإدعاء" و"الاعتراض" كما جاء في كلام الجرجاني: "واعلم أن المعنى في المبالغة وتفسيرنا لها بقولنا جَعَلَ هذا ذاك، وجعله الأسد وادّعى أنه الأسد حقيقةً، أنّ المشبّه الشيءَ بالشيء من شأنه أن ينظرَ إلى الوصف الذي به يجمع بين الشيعين، وينفي عن نفسه الفكر فيما سواه جملةً، فإذا شَبَّه بالأسد، ألقى صورة الشجاعة بين عينيه، ألقى ما عداها فلم ينظر إليه، فإنّ هو قال زيد كالأسد، كان قد أثبت له حظاً ظاهراً في الشجاعة، ولم يخرج عن الاقتصاد، وإذا قال هو الأسد، تناهى في الدعوى، إمّا قريباً من المحقّ لفرط بسالة الرجل، وإمّا متجوّزاً في القول"¹، ومن هذا النص ومن نصوص أخرى يشرح فيها الجرجاني استراتيجيه عمل الاستعارة القائمة على دعوى يفترضها المستعير وهي الادعاء بالمطابقة بين المستعار والمستعار له، وعليه فإن "المقتضى المعنوي للإدعاء هو أن القول الاستعاري يستند إلى بنية استدلالية"² فالجرجاني قد ربط بين الاستعارة وبين الحجاج وذلك من خلال استراتيجيه عمل هذه الأخيرة وكذلك من خلال الوظيفة التي تؤديها في إنتاج الخطاب البليغ وإن لم يصرح بذلك مباشرة، حتى يبدو حيادياً في آراءه، ذلك لأسباب مذهبية كلامية إذ ارتبط الحجاج في تلك الفترة بالجدل وأهل الكلام.

بينما السكاكي فقد صرح بهذا الارتباط عند تحديد مفهوم " الاستعارة هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر مدعياً دخول المشبه في جنس المشبه به دالاً على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به"³ والإثبات عند السكاكي لا يكون إلا "تتبع خصوص تراكيب الكلام في الاستدلال"⁴ وقد رأى أنّ للاستدلال دور بارز في تراكيب الكلام بصفة عامة، دعا إلى ضرورة تعلمه، وأفرد له جزءاً هاماً من فصول كتابه المفتاح.

6-3-2- التمثيل قياس بلاغي:

شاع استعمال هذا النوع من أهم الأقيسة في كلام العرب، فلا يمكن أن نجد كلاماً عربياً يخلو منه، ولذا حتماً نجد له تسميات متنوعة، فيسميه علماء الفقه بالقياس وكذا علماء النحو:

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 250، 251

² - طه عبد الرحمن، التكوثر العقلي، ص: 306.

³ - السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 369.

⁴ - السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 435.

"القياس النظري النحوي وهو قياس الحكم على الحكم لغة جامعة أو لشبه بين الطرفين"⁽¹⁾، أما في البلاغة العربية القديمة يظهر بشكل "القياس التطبيقي هو الذي نكتب به أساليبنا في الكتابة والتكلم أيضاً"⁽²⁾، يظهر من التعريفين أنّ وظيفة القياس واحدة، الاختلاف يكمن في أدوات القياس، ومما يلاحظ أنّ هذا النوع من القياس في البلاغة يعتمد على اللغة الطبيعية.

هذا يفسر اتساع مجالات توظيف هذا النوع من القياس مقارنة بالوجوه المجازية الأخرى، كما تبدو قوته التأثيرية في الإقناع من مدى استخدامه بين جميع أنواع المتكلمين على مختلف أنماطهم الثقافية، وفناتهم الاجتماعية والسبب الوحيد في رأينا الذي أعطى التمثيل هذه القوة الحجاجية هو اعتماده على القياس المنطقي، وقد شكل "التمثيل" الموضوع الأبرز في كل الدراسات البلاغية، النقدية في التراث البلاغي. يعرفه المناطق بقولهم: "قول مؤلف من قضايا تشتمل على بيان مشاركة جزئي لآخر في علة الحكم يثبت الحكم له"⁽³⁾، كما يعرف عند البلاغيين بالتشبيه ويدخل فيه كل أنواع التشبيه، وكثيراً ما يوظف في الحدود لتقريب المفاهيم وإعطاءها صورة كاملة للمفهوم.

انطلاقاً من أن القياس عند العرب استخدم في كثير من العلوم العربية، نستنتج مدى الطواعية والمرونة التي يتميز بها رغم أنه يعتمد على المنطق وكذا الترتيب والانسجام بينه وبين حدود القياس. إذ يعتمد القياس التمثيلي عامة سواء عند الفقهاء وهو قياس الأصل على الفرع أو عند البلاغيين الذين عرفوه باسم التشبيه على رابط يجمع بين حدي القياس وهذا الحد المعروف بوجه الشبه عند البلاغيين أو بالعلة الجامعة عند علماء الفقه وبالتالي: "أيا كانت الصيغة التعبيرية التي يرد بها "القياس" إما مقارنة أو تشبيهاً أو استعارة أو غيرها فإنه يقوم بالربط بين شيئين على أساس جملة من الخصائص المشتركة بينهما"⁽⁴⁾، باعتبار أنّ "الشبه مُنتزَع من مجموعها، من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض، وإفراد شرط من شرط، حتى إنك لو حذف منها جملة واحدة من أيّ موضع كان، أخلّ ذلك بالمغزى من التشبيه، ولا ينبغي أن تعدّ الجُمْل في هذا النحو بعدّ التشبيهات التي يُضمّ بعضها إلى بعض، والأغراض الكثيرة التي كل واحد منها منفرد بنفسه، بل بعدّ جُمْل تُنسَق ثانياً منها على أوّل، وثالثة على ثانية،

1 - حسان تمام، الأصول، ص: 66.

2 - المرجع نفسه، ص: 153.

3 - ألكسندر اغنتمانوف، علم المنطق، ص: 195.

4 - طه عبد الرحمن أصول الحوار وتحديد علم الكلام، ص: 98.

وهكذا، فإنّ ما كان من هذا الجنس لم تترتب فيه الجمل ترتيباً مخصوصاً حتى يجب أن تكون هذه سابقةً وتلك تالية والثالثة بعدهما،¹ وإنّ كل هذه الصفات "الترتيب"، "التنسيق"، "اللزوم"، "الإلحاق" تعطي للتمثيل المصدقية الكامل التي تعلن بلوغ الحقيقة التي هي قيمة سامية في الحجاج. ورغم أنّ التمثيل واسع الاستعمال. غير أنه ظلت الدراسات تبحث في أثره العميق على المعنى وفي سلطته على العقول فكثرت بشأنه الأقاويل.

يعتبر "عبد القاهر الجرجاني" من البلاغيين العرب الذين كان لهم دور فعال في رسم حدود "التمثيل" الاقناعية في المنظومة البلاغية العربية، خاصة من حيث الإجراء، بعد أن ضبط مفاهيم هذا النوع من القياس ورفع عنه ما اعتراه من الشبهات فقد بيّن الجرجاني في باب التمثيل أنه من بين أهم صور الاستدلال حيث يقول: "واعلم مما اتفق العقلاء عليه، أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورتها كساها أبهة، وكساها منقبة، ورفع من أقدارها، وشبّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها واستتار لها من أقاصي الأفتدة صباية وكلفا، وفسّر الطباع على أن تعطيتها محبةً وشغفا".⁽²⁾ فالجرجاني نظر إلى التمثيل كأداة ذات قوة جبارة في دعم الكلام وجعله في منزلة أرقى مما لو أنه خلا من التمثيل؛ لأنه يضيف على المعنى نوعاً من السحر والجلال، فهو يجذب النفوس ويبهر العقول.

ما يثير الاهتمام عند الجرجاني أنه نازعه البحث عن السبب الذي يجعل هذا النوع من القياس "التمثيل" له هذه الطاقة الكبيرة في الإقناع فيعتقد لذلك باباً خاصاً، ويعلل ذلك بقوله: "فأول ذلك وأظهره، أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جليّ، وتأثيرها بصريح بعد مكّني، وأن تردّها في الشيء تعلمها إيّاه إلى شيء آخر هي بشأنه اعلم، وثقتها به في المعرفة أحكم، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس وعمّا يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع".⁽³⁾ فالسبب الوحيد في نظر الجرجاني هو أنّ للتمثيل علاقة مباشرة مع النفس، فالطرق التي يعمل بها هذا النوع من القياس وهي "الاخفاء"، "الكناية"، "الإلحاق"، "التقريب" تميل لها النفس البشرية فتعمل على إثارتها والانقياد لغاية المتكلم بكل سهولة.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 109.

² - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة ص: 115.

³ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 121.

إن هذه العلاقة بين المعاني التي تنتج عن التمثيل وبين النفس البشرية أشار إليها "بيرلمان" في قوله: "إن نظرية الحجاج تستهدف، بفضل الخطاب، التأثير الفعّال على الأذهان، كما يمكن أن تستغل كفرع لعلم النفس، بالتأكيد إذا لم تكن الحجج مقيدة، إذ ليس حتماً أن تكون مقنعة، لكن يكفي أن تملك نوع من القوة التي تمكنها رغم ذلك من أن تتعدد حسب المستمعين.... يصبح عندئذ الدرس الحجاجي أحد المواضيع النفسية التحريية، حين تصبح الحجج المتعددة أمام اختبارات المستمعين المتنوعين"¹ ينتج عن هذا التنوع في المستمعين تعدد في الرؤى؛ لأنها تتوقف على نفسية كل فرد والحجج تكون بمثابة وقع على النفوس فتحاصرها وتتغلغل إلى رغباتها وأهوائها وميولها فتعمل عمل السلطة القوية غير أنها تعمل في الخفاء، لكن تتطلب جهداً أكبر ومرونة أكثر.

إن هذه الطرق التي يعمل بها التمثيل، بالتفاعل مع بعضها البعض تقوم عليها في المحمل الصور البلاغية الأخرى حسب الجرجاني، كالتشبيه بأنواعه والكناية وخاصة الاستعارة "وهو بذلك جعل من هذه الأنواع البلاغية أصولاً تتفرع جل محاسن الكلام عنها وتدور أقطاب المعاني وأقطارها، وصنيعه هذا القائم أساساً على الذوق المرهف الإحساس العميق والاعتماد على العقل، والاستفادة من جهود سابقه وبلورتها كي تصبح أصيلة جعلته متفرداً في عمله، إذ لم يتفق أحد مثله عند التشبيه والاستعارة والتمثيل ككل، يدرسها معاً، ويربطها ربطاً واضحاً، يحاول فيه أن يوجد أوجه الاختلاف والتشابه بينهما بالقياس إلى درجة الإثبات والمشابهة"⁽²⁾ ولعل وجه الشبه الذي نستجليه من هذا الربط هو "الاستلال" الذي يحرك كل هذه الصور البيانية ويقودها إلى حجاجة الخطاب البلاغي وتمكنه من النفس.

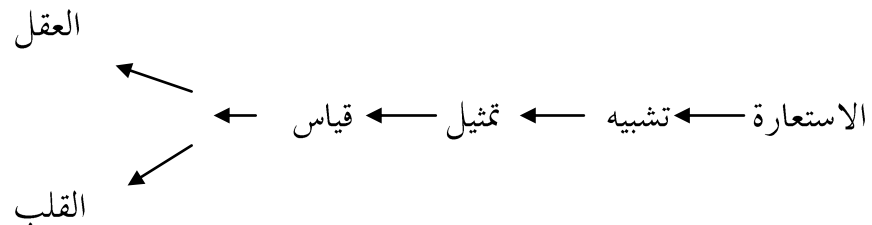
أول ما نلمس فيه التصور الاستدلالي لطرق عمل الصور البيانية عند الجرجاني هو: "اهتمام مفيد في بيان تصور الجرجاني للآلية الاستدلالية التي يقصدها والتي تمكن من الانتقال من المعنى الأول

¹ - P :12 la théorie de l'argumentation visant, grâce au discours, à obtenir une action efficace sur les esprits, aurait pu et retraitée comme une branche de la psychologie. En effet, si les arguments ne sont pas contraignants, s'ils ne doivent pas nécessairement convaincre mais possèdent une certaine force, qui peut d'ailleurs varier selon les auditoires, n'est-ce pas à l'effet produit que l'on peut....l'étude de l'argumentation deviendrait ainsi un des objets de la psychologie expérimentale, ou des argumentations variées seraient mises à l'épreuve devant des auditoires variés.

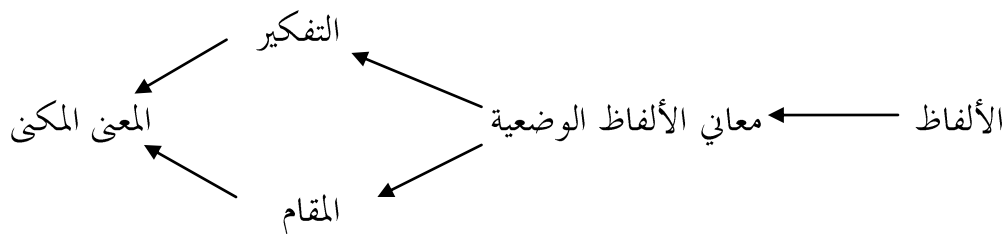
² - د: أحمد علي الدهان، الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني، "منهجاً وتطبيقاً" وزارة الثقافة، دمشق، ط2، س 200م، ص: 283.

إلى المعنى الثاني⁽¹⁾، فالأساليب البلاغية كما شرحها عبد القاهر الجرجاني تعتمد على معارف سابقة "المعنى الأول" لتنتقل عن طريق عملية عقلية "استدلالية" لتصل إلى معارف جديدة "المعنى الثاني".

بينما الشيء الآخر الذي نلمس فيه التصور الاستدلالي للصور البيانية هو تتبع ما قاله عن خصائص كل صورة على حدة فنجد يقول عن الاستعارة مثلاً: "فهي ضرب من التشبيه ونمط من التمثيل، والتشبيه قياس والقياس يجري فيما تعيه القلوب، وتدركه العقول"⁽²⁾ فالجرجاني وصل إلى حقيقة استدلالية الاستعارة من خلال الحجة التتابعية.



الكناية تنحى نفس المنحى الاستدلالي عند الجرجاني إذ يقول: "وإذ قد عرفتَ هذه الجملة، فينبغي أن تنظر إلى هذه المعاني واحداً واحداً، وتعرفَ مَحْصُولَهَا وحقائقَهَا، وأنْ تَنْظُرَ أولاً إلى "الكناية"، وإذا نظرتَ إليها وجدتَ حقيقتها ومَحْصُولَ أمرِها أنها إثباتٌ لمعنى، أنتَ تَعْرِفُ ذلكَ المعنى مِنْ طريقِ المعقولِ دونَ طريقِ اللفظ."⁽³⁾ "منه نستنتج أن دلالة الكناية نستدل عليها من خلال تقليب المعنى في الفكر عن طريق الألفاظ التي تعمل هنا كحجج على المعنى المقصود.



¹ -شكري المبخوت، الاستدلال البلاغي، ص: 42.

² - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 20.

³ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 431.

ما قاله "الجرجاني" عن الاستعارة والكناية وارتباط كل منهما بالاستدلال قاله عن التمثيل: "فإن التمثيل... فهو يفيد أمراً آخر يجري مجراه، وذلك أن الوصف كما يحتاج إلى إقامة الحجة على صحة وجوده في نفسه، وزيادة التثبيت والتقرير في ذاته وأصله، فقد يحتاج إلى بيان المقدار فيه، ووضع قياس من غيره يكشف عن حدّه في القوة والضعف والزيادة والنقصان"¹، فالعمليات الاستدلالية التي تقوم عليها الصور البلاغية حسب الجرجاني، لا يمكن الاستغناء عنها؛ لأنها تحدد دلالة الكلام بعد أن كان قائماً على مبدأ الاحتمال، إذا كان يقع هذا الكلام ضمن البليغ أو أبلغ من البليغ أو المعجز أو عكس ذلك تماماً، أي الكلام المتبدل، فهي بذلك أداة تثبيت ومادة حية تستوعب المتفرقات وتصنع منها قوة حجائية ترفع عنها الالتباس وتقرر بها اليقين بأسلوب نابض بالجمال الفني الذي تتوقه النفس ويتقبله العقل، لذا لا مناص لهذه الأساليب البيانية من أن تخرج عن قواعد الاستدلال.

6-4- أنواع الدلالة وأثرها الحجاجي:

إنّ الحديث عن الاستعارة أو التمثيل أو عن المجاز عامة يجرنا حتماً إلى الكلام حول الحذف أو ما يسمى الإضمار كما يقودنا إلى الحديث عن الاقتضاء أو اللزوم وحتى عن التضمين؛ ويدعم كلامنا هو ما قاله صاحب المفتاح عن ذلك عند حديثه عن مفهوم البيان، بحيث اعتبر أن السامع إن لم يفهم شيئاً أصلاً وإنما يمكن ذلك في الدلالات العقلية مثل أن يكون لشيء تعلق بآخر ولثان ولثالث فإذا أريد التوصل بواحد منها على المتعلق به فمتى تفاوتت تلك الثلاثة في وضوح التعلق وخفائه صح في طريق إفادته الوضوح والخفاء، وإذا عرفت هذا عرفت أن صاحب علم البيان له فضل احتياج على التعرض لأنواع دلالات الكلم فنقول: لا شبهة في أن اللفظة متى كانت موضوعاً لمفهوم أمكن أن تدل عليه من غير زيادة ولا نقصان بحكم الوضع، وتسمى هذه دلالة المطابقة ودلالة وضعية ومتى كان لمفهومها ذلك ولنسمه أصلياً تعلق بمفهوم آخر أمكن أن تدل عليه بوساطة ذلك التعلق بحكم العقل سواء كان ذلك المفهوم الآخر داخلياً في مفهومها الأصلي كالسقف مثلاً في مفهوم البيت ويسمى هذا دلالة التضمن ودلالة عقلية أيضاً أو خارجاً عنه كالحائط عن مفهوم السقف وتسمى

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 125.

هذه دلالة الالتزام ودلالة عقلية أيضاً¹ من هنا نستنج أنّ فهم الكلام يتوقف على دلالة المعنى، والفهم في العملية الحجاجية يعتبر أول درجة يبدأ بها المحاجج إذا ما أراد بلوغ الإقناع.

1- دلالة الاقتضاء واللزوم:

إنّ دلالة اللزوم من بين أهم العلاقات التي تربط الحجج عند "بيرلمان"، وإنما عند استقراء الوجوه البلاغية في التراث البلاغي قد تتوقف على أحد هذه العلاقتين، "الاقتضاء واللزوم" هذا ما يفسر لنا الحضور المهم لهاتين العلاقتين في محور الدراسة النقدية البلاغية؛ فمثلاً عند تعريف "الجرجاني" للاستعارة يربط مفهومها بدلالة الاقتضاء في قوله: "وهو أن الاستعارة وإن كانت تعتمد التشبيه والتمثيل وكان التشبيه كما لا يخفى يقتضي شيئين مشبهاً ومشبهاً به..."²، ويربط عمل التشبيه كذلك بدلالة الاقتضاء "أنّ مدار التشبيه على أنه يقتضي ضرباً من الاشتراك"³ هذه بعض النماذج من أقوال كثيرة في التراث البلاغي تجزم ارتباط دلالاتي الاقتضاء واللزوم للوصول إلى المعنى الخفية للأساليب البلاغية.

محمل القول في البلاغة العربية أنّ المجاز يرتبط بهذه الدلالة حسب رأي السكاكي إذ يؤكد أنّ "انصباب علم البيان على التعرض للمجاز والكناية فإنّ المجاز ينتقل فيه من المزوم على اللازم"⁴ تبدو عندئذ أنّ الدلالة ما هي إلاّ عملية منطقية استدلالية، فالمعروف أنّ "مبدأ اللزوم سواء كان صورياً أو مادياً، فهو في الأساس انتقال من شيء إلى شيء لازم عنه، وهو من أدوات المنطقي الضرورية في كل تركيب وفي كل حكم"⁽⁵⁾ ومفاد هذا التعريف أنّ دلالة اللزوم ناشئة من الاستدلال المنطقي، الذي يؤسس للحقيقة التي يرمي إليها المحاجج قصد إعطاء الكلام المصدقية التي هي أهم وسائل الإقناع ومقاصد الحجاج.

¹ - السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 329، 330.

² - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 241.

³ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 99.

⁴ - السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 330.

⁵ - محمد شطوطي النظرية المنطقية عند الشيخ الرئيس ابن سينا، دار صقيلية، دار قرطبة، ط1، ص2007م، ص: 213، 212.

الاستدلال عند الجرجاني يعني طلب "للدليل على ما تفيد الصيغة الصرفية، باتخاذ المعنى الأول المفهوم من اللفظ دليلاً على ما المعنى الثاني فإن الاستدلال علاقة بين معنيين متلازمين أحدهما مقول، منطوق والآخر مستلزم منه بوجه من الوجوه"⁽¹⁾، فهذه العلاقة الإستلزامية بين المعنى الأول والثاني هي التي لها الدور الفعّال في بناء الدليل لاسيما الدليل البلاغي

إن دلالة الالتزام "تحتاج إلى أمر خارجي لعقد الصلة التي تكون بين اللفظ ومعناه وبين "الدال والمدلول"⁽²⁾، هذه الصلة التي تكون بين اللفظ ومعناه هي ما تسمى في عرف البلاغيين بالقرينة التي تدل على المعنى، "فهي إذن ترتبط بين المعنى الحقيقي أي الوضعي وبين المعنى المجازي في الأساليب البلاغية لا تختلف في وظيفتها عن العلة"⁽³⁾. أي العلة الجامعة التي تكون في حدي الاستدلال فتؤدي بالتالي إلى نفس النتيجة، كذلك القرينة تجمع بين المعنى الحقيقي وبين المعنى المجازي بعد أن كان أحدهما بعيداً عن الآخر فتضعهما في خانة واحدة إما لزوماً أو اقتضاءً.

الدلالة اللزومية هي دلالة عقلية وهي نفسها دلالة "معنى المعنى" الذي استند عليها عبد القاهر الجرجاني في تفسير مختلف الأساليب البلاغية تفسيراً استدلالياً. وهي عملية يقوم بها المخاطب استناداً على دلالة المعنى، إذن هذه العملية الاستدلالية البلاغية تجعل المخاطب مشاركاً في طلب الدليل مما يعزز قوة الحجاج كأنّ المخاطب هو الذي جاء بالدليل.

¹ - شكري المبخوت، الاستدلال البلاغي، ص: 60.

² - إدريس بن حويبا "البحث الدلالي عند الأصوليين قراءة في مقصديه الخطاب الشرعي عند الشوكاني، مطبعة بن سالم، الأغواط، ط1، (د، تا)، ص: 51.

³ - محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص: 70.

2- دلالة التضمين والإضمار:

بلغ انشغال القدماء بدلالاتي التضمين والإضمار حدا واسعا، حيث نلاحظ أنها أخذت حيزا لا بأس به في الدراسات البلاغية العربية، وإذا دققنا النظر نجد أن السبب يعود إلى ما أشار له الجرجاني في فاتحة كلامه عن الحذف، فقد خص بابا كاملا حول الحذف أو ما سمي بالإضمار، إذ يقول: "الحذف باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة، وتحدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبين"⁽¹⁾ أي أن الحذف في البلاغة العربية معاني بلاغية جليلة تجعل المعنى أقوى وأدل من أن ينطق به صراحة، ويكون الحذف أكثر ما يكون في القياس إذ أن "خفاء الصفات المشتركة في الاستدلال القياسي قد يقوي من القدرة الإقناعية لهذا الاستدلال"⁽²⁾ ويضرب لذلك عبد القاهر الجرجاني أمثلة، يبين من خلالها المعاني التي يضيفها الحذف على الكلام من جمال وقوة وأثر لا مثيل له على النفس. وقد أطال الجرجاني شرح ما يجب فيه الحذف وما لا يجب.

الإضمار عادة ما يكون فيه "المدلول مضمرا أي محذوفا من الكلام ويكون تقديره ضروريا يتوقف عليه صدق المتكلم، إذ يستحيل فهم الكلام إلا بتقدير المحذوف"⁽³⁾، وقد بين عبد القاهر الجرجاني في باب الحذف أهمية الحذف في النص القرآني ودوره الإعجازي، وكثيرا ما ربط بين الحذف والبلاغة. ويتضح ذلك من خلال تحليلات الجرجاني للشواهد الشعرية أو الأمثلة المتداولة في التراث العربي التي قدمها حول كل الأساليب البلاغية.

المعنى المحذوف لا يمكن الوصول إليه إلا في ظل السياق النصي والمقامي وهذا ما ترسم الاستعارة أبعاده "ففي طرفي الاستعارة تكون أمام معنى جديد، نابع من التفاعل الحي من الدلالات القديمة لكل طرفي من طرفيها داخل السياق الجديد الذي وضعت فيه"⁽⁴⁾ وعليه نستنتج من خلال ذلك أن الدليل الذي يوصلنا إلى المعنى المراد من الأساليب البلاغية يكون منبعه نص الكلام أو المقام الذي قيل بشأنه هذا الكلام، وتتوقف هنا مهمة استنباط المحذوف على المستمع الذي يكمل

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 146.

² - عبد الهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص: 108.

³ - الأمدي، الأحكام في أصول الأحكام، ج3، ص: 22.

⁴ - د: أحمد علي الدهمان، الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني، ص: 248.

استدلالات المتكلم، فهو مطالب بأن يبذل الوسع في استحضار كل العناصر الضرورية لإقامة صحة هذا الاستدلال ملتزم في ذلك روح التعاون التي يجب أن تقوم بين المتحاورين¹، تبرز عندئذ حجاجية دلالة المحذوف في الرفع من فاعلية الخطاب البلاغي، فالمساءلة التي تتم بين المستمع والخطاب تفتح أمام المستمع فرصة الدعوى والنقض، وكلاهما يحتاجان إلى حجج يستنبطها المستمع من القرائن ومن المقام، وينتقل بذلك المستمع من مجرد مستقبل للكلام إلى محاجج، لكن في هذه الحالة يكون الإقناع مرهونا بين طرفين (الخطاب، ذات المستمع).

أما دلالة التضمين فيقصد بها أن: يكون المعنى جزءا من المعنى الذي أداه اللفظ الحقيقي، "فبلاغة الكناية والمجاز التي تحدث عنها الجرجاني تعود إلى كثرة المعاني التي يؤديها القول بإيجاز في أحصر لفظ يجمع دلالة صريحة غير مقصودة في ذاتها بدلالة ضمنية تمثل المراد من الكلام"²، و يسميه البعض الآخر إيداع، كما "هذا الباب يسميه من لا يعرف اصطلاح أهل هذه الصناعة تضميناً"³، المهم هو ما يعرف اليوم في الوسط البلاغي بـ "الاقتباس" و يكون على طريقتين إما تضمين الكلام معاني أخرى سبق تداولها، "قد أطبق المتقدمون والمتأخرون على تداول المعاني بينهم؛ فليس على أحد فيه عيب إلا إذا أخذه بلفظه كله، أو أخذه فأفسده، وقصر فيه عمّن تقدمه، وربما أخذ الشاعر القول المشهور ولم يبال"⁴، وإما عن طريق الاستشهاد وكثيرا ما يكون بالنص القرآني أو الشعر، على اعتبار أن الشعر هو ديوان العرب، إذ أُعتبر "الشعر هو الحجة"⁵، وإن هذه الوسيلة البلاغية ربطها البلاغيون بالحجاج مباشرة فقد أشار قول صاحب الصناعتين لذلك في قوله: "وهذا الجنس كثير في كلام القدماء والمحدثين، وهو أحسن ما يتعاطى من أجناس صنعة الشعر، ومجراه مجرى التذييل لتوليد المعنى، وهو أن تأتي بمعنى ثم تؤكد. بمعنى آخر يجري مجرى الاستشهاد على الأول، والحجة على صحته"⁶. فالدرس البلاغي العربي لم يخرج عن الإطار العام لما كان معمولا به في كلام العرب، ليبين أصالة التضمين في الكلام العربي الذي يراد منه الحجة وتقرير الدليل.

¹ - عبد الهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص: 108.

² - شكري الميخوت، الاستدلال البلاغي، ص: 44.

³ - ابن أبي الإصبع العدواني، تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر، ص: 380.

⁴ - أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص: 197.

⁵ - أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس، الإمتاع والمؤانسة، المكتبة العنصرية، بيروت ط1، ص 1424هـ، ص: 252.

⁶ - أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص: 416.

يلاحظ أن الدرس البلاغي القديم كلما تعرض لقضية بلاغية ما إلا وربطها بدلالة الإضمار أو دلالة التضمنين أو كلاهما معا، يظهر ذلك من خلال التحليل التطبيقي للمسائل البلاغية في الخطاب الشعر أو الخطاب النثري وخاصة في التفسير أو التأويل.

6-5- الإقناع والتخييل بين "الصدق والكذب":

احتدم الصراع بين البلاغيين العرب القدماء حول مسألة ضرورة تحري الصدق وبين ضرورة التفنن في الكذب خاصة في الشعر حتى سار عندهم المثل القائل "أعذب الشعر أكذبه"، لكن هذا قد يوقع المخاطب إلى المصادرة أو السخرية ويؤخذ الكلام من باب التمتع لا يرقى إلى مستوى الإبانة والاستدلال القوي، هذا جعل أهل البلاغة يبحثون على ما يمكنه أن يضع الحدود لهذه المعضلة البلاغية.

فذهب جل البلاغيين إلى أن البلاغة العربية في الأصل تجنح إلى الصدق، كقولهم: "إذا دعت الضرورة إلى سوق خبر واقتصاص كلام، ففتحناج إلى أن تتوختى فيه الصدق، وتتحري الحق؛ فإن الكلام حينئذ يملكك ويجوجك إلى إتباعه والانقياد له"¹، لكن الكذب هو فرع قد تستعين به البلاغة إذا دعتها الحاجة إلى ذلك، وبما أن البلاغة تقوم على "المغايرة" فإن تحري الصدق لا يحقق هذا المطلب في الكثير من الأحيان، وقد يكون الكذب أفضل سبيل إلى ذلك.

هذا يفسر ما ذهب إليه ابن وهب عندما تحدث عن مسألة "الاعتبار" التي قصد بها الاستدلال حيث رأى أنه لا يكون بالقياس وحده بينما قد يكون بالخبر ويقسمه إلى خبر صادق ومنه التواتر والخبر دون ذلك، كما أن الاعتبار يكون بالظن والتخمين ويكون بطريقة "السير والتقسيم" ويؤول هذا الاعتبار إلى الاعتقاد، وقسمه إلى ثلاثة أقسام القسم الثاني منها هو "المشبه" وهو الذي يحتاج إلى إقامة الحجة للاستدلال على صحة الاعتقاد به⁽²⁾، فهو بهذا التقسيم لأنواع الاستدلال أقر أن هنا ما يعتمد الصدق وهناك ما يعتمد الظن وهذا القسم لا هو صادق ولا هو كاذب فهو بين بين.

¹ - أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص: 147.

² - ينظر ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، ص: 85 إلى ص: 87.

كما أن ابن وهب يقسم القياس إلى: القياس الصادق وهو البرهان و القياس الكاذب وهو القياس الشبه "فالشبه في الحد هو الذي يحكم لشبهة يمثل حكمه إذا وجد فيه فيكون ذلك قياساً صادقاً وبرهاناً واضحاً، والشبه في الوصف هو الذي يحكم لشبهة به، فيكون في بعض الأشياء صادقاً، وفي بعضها فيكون كاذباً"⁽¹⁾، فهنا إشارة واضحة لأنواع المقدمات التي يوظفها المناطقة في بناء القياس والتي تكون صادقة صدقاً حتمياً والمقدمات التي يوظفها صانع الخطاب والتي تتراوح بين الصدق والكذب.

بما أن مسألة الكذب أحدثت نوعاً من الارتباك في مصداقية الحجج وأثر ذلك على العملية الحججية، حاولت عندها البلاغة العربية القديمة أن تضع حداً لهذا الصراع فأخذت عندها هذه المسألة بعداً آخرًا باقترانها بمسألة "التخييل" الذي أحدث نقطة تغيير وفصل لهذا الصراع وأخذ بعداً حججياً قوياً تخطى عتبات "الصدق".

بما أن الفكر العربي البلاغي قام على الفهم والإفهام لكن يكون ذلك بأسهل الطرق وأدق العبارات لذا قد لا يتحقق للمتكلم أن يصل إلى هذه الغاية بما هو متاح له في عالمه الواقعي فينشئ عالماً وهمياً خاصاً يحاك به العالم الواقعي، يعبر به عما يختلج في نفسه، وهذا ما عرف في الموروث البلاغي العربي بالتخييل، وقد استطاع الجرجاني أن يعطي مفهوماً كاملاً للتخييل بعيداً عن المفهوم الفلسفي الذي غلب على هذا المصطلح في تلك الفترة، بقوله: "الذي أريده بالتخييل ها هنا، ما يُثبت فيه الشاعر أمراً هو غير ثابتٍ أصلاً، ويدّعي دعوى لا طريقَ إلى تحصيلها، ويقولُ قولاً يخدع فيه نفسه ويُريها ما لا ترى."⁽²⁾ يرتبط إذن التخييل بالشعر والوهم وبالخداع لكن هذه العناصر لها ارتباط بالخصائص الفنية أكثر من ما توحيه معانيها.

التخييل لا يقع في الشعر فقط في المنظور العام البلاغي العربي، وهذا "لما كان علم البلاغة مشتملاً على صناعتي الشعر والخطابة وكان الشعر والخطابة يشتركان في مادة المعاني ويفترقان بصورتي التخييل والإقناع وكان لكليهما أن تخيل وأن تقنع في شيء من الموجودات الممكن أن يحيط بها علم إنساني وكان القصد في التخييل والإقناع حمل النفوس على فعل شيء أو اعتقاده أو التخلي

¹ - المصدر نفسه، ص: 68.

² - عبد القاهر الجرجاني أسرار البلاغة، ص: 275.

عن فعله واعتقاده وكانت النفس إنما تتحرك لفعل شيء أو اعتقاده أو التحلي عن واحد من الفعل والطلب والاعتقاد بأن يخيّل لها أو يوقع في غالب ظنها أنه خير أو شر بطريق من الطرق التي يقال بها في الأشياء إنها خيرات أو شرور¹ منه فإن التخيّل في الشعر يعمل نفس عمل الأدلة العقلية في الكلام المنشور.

إنما قد يوظف التخيّل في الخطاب إن كان لذلك حاجة كما قد يوظف الاستدلال المنطقي في الشعر، "وإنما ساغ لكليهما أن يستعمل يسيرا فيما تتقوم به الأخرى، لأن الغرض في الصناعتين واحد، وهو إعمال الحيلة في إلقاء الكلام من النفوس بمحلّ القبول لتأثر لمقتضاه. فكانت الصناعتان متوخاتين لأجل اتفاق المقصد والغرض فيهما. فذلك ساغ للشاعر أن يخطب لكن في الأقل من كلامه، وللخطيب أن يشعر لكن في الأقل من كلامه"² لأن طبيعة تقوم على الإحساس والعواطف أكثر من الحجج والمنطق وإن كثر فيه مثل هذا ذهب جمال الشعر وسحره، إنما الجمال هو الذي يقع في النفس ويتحقق به الإقناع الممتع، على غرار الخطاب يقوم على الأدلة العقلية والحجج المنطقية مع حاجة كل نفس إلى عجب التخيّل دون مبالغة قد تجعل الكلام متكلفا يشوبه الكثير من الغموض.

الخداع المرتبط بالتخيّل لا نفهم منه ذلك الخداع الذي فيه تحايل والمنافي للقيم، إنما هو تصوير ما لا وجود له على أنه حقيقة، والهدف هنا ليس هو تغيير الواقع وتزييفه إنما حمل النفس على إدراك ما لا يدرك أو تعيش ما ليس بموجود أصلا وهذا "لما كان كل كلام يحتمل الصدق والكذب إما أن يرد على جهة الإخبار والاقتصاص وإما أن يرد على جهة الاحتجاج والاستدلال، وكان اعتماد الصناعة الخطابية في أقاويلها على تقوية الظن لا على إيقاع اليقين -اللهم إلا أن يعدل الخطيب بأقاويله عن الإقناع إلى التصديق، فإن للخطيب أن يلم بذلك في الحال بين الأحوال من كلامه- واعتماد الصناعة الشعرية على تخيّل الأشياء التي يعبر عنها بالأقاويل وإقامة صورها في الذهن بحسن المحاكاة، وكان التخيّل لا ينافي اليقين كما نافاه الظن، لأن الشيء قد يخيّل على ما هو عليه وقد يخيّل على غير ما هو عليه، وجب أن تكون الأقاويل الخطابية -اقتصادية كانت أو احتجاجية- غير صادقة ما لم يعدل بها عن الإقناع إلى التصديق، لأن ما يتقوم به وهو الظن مناف لليقين"³ من هذا النص

¹ - حازم القرطاجي، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص: 20، 19.

² - حازم القرطاجي، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص: 361.

³ - نفس المرجع، ص: 62.

نفهم أن التخييل يقترب من اليقين كما قد يقترب من الظن وإن هذه الاحتمالية المتناهية بالتقريب بين قطبي الشك واليقين تتوافق والطرح الغربي الذي قامت عليه بلاغة الحجاج في الفكر البلاغي المعاصر. أما العنصر المهم المرتبط بالتخييل حسب الجرجاني هو الوهم الذي يتفنن المتكلم في خلقه؛ لأنه يتعلق بالقدرات الإبداعية، ولأن "الوهم قائم على قوة القرينة. وحينئذ لا بد أن تتناصر قوى العقل جمعاء على كسر هذه المقاومة من طريق البرهان؛ وذلك عمل الجدل، والجدل عصب البلاغة. وربما حدث مع ذلك كله أو بدون ذلك كله، فتور في الطبع فلا ينشط لحديث ولا يرتاح إلى رأي. وهنا يجب على صاحب البلاغة أن يدفع السأم ويحرك النشاط، فيوشي الحقيقة بخياله، ويحي الأسلوب"¹ فوظيفة التخييل تتجلى في القوة الحجاجية التي يقدمها للمستمع ويقوده في رحلة ممتعة إلى عوالم يصنعها بنفسه يجعله يعيش فيها ويقتني له منها ما يتلاءم ونفسه فترتاح لها وتتهيأ لقبول أي شيء وإن كان زيفه ظاهراً، فقد يكون مفعول التخييل أقوى من أي مخدر قوي.

6-6- الفصل والوصل الحجاجي:

تقوم أغلب الوجوه البلاغية على أشكال الوصل والفصل الحجاجي في الموروث البلاغي العربي، بل إن هناك من حصر البلاغة في معرفة مواضع الفصل من مواضع الوصل في الكلام، والنص التالي يقر بذلك: "قيل للفارسي: ما البلاغة؟ فقال: معرفة الفصل من الوصل. وقال المأمون لبعضهم: من أبلغ الناس؟ فقال: من قرب الأمر البعيد المتناول...؛ فإن البلاغة إذا اعتزلتها المعرفة بمواضع الفصل والوصل كانت كالآليء بلا نظام"² فمهمة الوصل والفصل قبل كل شيء هو ترتيب أجزاء القول الذي هو من بين أهم عناصر بنية الخطاب الحجاجي في البلاغة الجديدة.

علاقة الوصل بالفصل هي علاقة عكسية، بحيث أن "الوصل عطف بعض الجمل على بعض والفصل تركه وتمييز موضع أحدهما من موضع الآخر على ما تقتضيه البلاغة فن منها عظيم الخطر، صعب المسلك دقيق المأخذ لا يعرفه على وجهه، ولا يحيط علماً بكنهه، إلا من أوتي في فهم كلام العرب طبعاً سليماً، ورزق في إدراك أسراره ذوقاً صحيحاً، ولهذا قصر بعض العلماء البلاغة على معرفة الفصل من الوصل، وما قصرها عليه؛ لأن الأمر كذلك، إنما حاول بذلك التنبيه على مزيد

¹ - أحمد حسن الزيات، دفاع عن البلاغة، ص: 38.

² - أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص: 438.

غموضه وأن أحداً لا يكمل فيه إلا كمل. في سائر فنونها فوجب الاعتناء بتحقيقه على أبلغ وجه في البيان¹ يبدو جلياً في النص السابق حرص البلاغيين القدماء على تفعيل الدور التأثيري للوصل والفصل والحرص في نفس الوقت على استحالة إلغاء أو تجاهل هذا الأثر الإجرائي الذي يحدثه كلاهما على مستوى الدلالة باعتبارها تركيباً من مجموعة من المعاني تلتقي عند قصدية الخطاب، التي هي من أولويات الخطاب الحجاجي.

من هنا يمكننا تفسير المنحى الجديد الذي أخذته عملية الوصل و الفصل في الدرس البلاغي القديم، فقد كان يشار إليهما في بدايات البحوث البلاغية، لتستقل بعدها كمباحث خاصة، فكان لهذا المنحى أثر بالغ في توجيه البحث البلاغي وتصبح ضرورة معرفة مواضع الفصل والوصل من المسائل البلاغية التي يجب أن يتقنها صانع الخطاب البليغ لما لهذه الأخيرة من وظائف جديدة تأثيرية تعمل على توجيه الخطاب توجيهاً حجاجياً.

الوصل والفصل يرتكز على الربط أو الفصل بين القضايا داخل الخطاب وهذا حسب مقتضى الكلام فقد "كان أكثم بن صيفي إذا كاتب ملوك الجاهلية يقول، لكتّابه افصلوا بين كل معنى منقضى، وصلوا إذا كان الكلام معجوناً ببعضه ببعض. وكان الحرث بن أبي شمر الغسانی يقول لكتّابه المرقش: إذا نزع بك الكلام إلى الابتداء بمعنى غير ما أنت فيه فافصل بينه وبين تبعته من الألفاظ، فإنك إن مذقت ألفاظك بغير ما يحسن أن تمذق به نفرت القلوب عن وعيها، وملته الأسماع، واستثقلته الرواة. وكان بزرجمهر. يقول: إذا مدحت رجلاً، وهجوت آخر، فاجعل بين القولين فصلاً حتى تعرف المدح من الهجاء، كما تفعل في كتبك إذا استأنفت القول، وأكملت ما سلف من اللفظ..... وتأليف الأوصال بمشاكلة الاستعارة، وشرح المعنى؛ حتى ينصب ضورها، وبمقاطع الكلام، ومعرفة الفصل من الوصل؛ فإذا كان ذلك كذلك فهو كاتب مجيد. والقول إذا استكمل آتته، واستتم معناه فالفصل عنده"²؛ لأن الكثير من المعاني لا يمكن أن نتوصل إلى مقاصدها وأثرها إلا عن طريق عمليتي الوصل أو الفصل فهما يحددان الأثر الكامن وراء اجتماع أو تفارق المعاني.

¹ - القزويني جلال الدين، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، الايضاح في علوم البلاغة، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجليل - بيروت، ط3، (د، تا)، ج3، ص: 97.

² - أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص: 440.

يوضح الجرجاني في موضع آخر الغاية من استعمال العطف في مواضع دون أخرى في قوله: "فترك العطف يكون إمّا للاتصال إلى الغاية أو الانفصال إلى الغاية والعطف لما هو واسطة بين الأمرين، وكان له حالٌ بين حالين¹". فهذه إشارات واضحة في البلاغة العربية القديمة لتحديد مقتضيات الوصل وكذا الفصل في الكلام.

إنّ الكثير من مواضع الفصل والوصل كانت بمثابة حجج يستدل بها على المعاني المضمرّة أو المجازية، بل قد تشكل قيوداً استدلالية لتأويل الخطاب، وقد شرح السكاكي ذلك في قوله: "وتركيب القياسات عندهم ينقسم على موصول وهو أن يكون الدليل المودع في الدليل قد وصل بذكر سابقته ولاحقته، والحاصل منهما في المثال المذكور. وعلى مفصول وهو أن يكون قد فصل عنه ذكر الحاصل من جمليته كما إذا قلت كل جسم قرين كون في جهة معينة وكل كون في جهة معينة حادث وكل قرين حادث وكل جسم حادث ولك أن تجعل الوصل عبارة عن أن يوصل الدليل بالتصريح بجمع ما لا بد منه في استلزامه للمطلوب والفصل عبارة عن ترك شيء إذا علم موقعه فنقول في قولك هذا مساو لذلك وذاك مساو لذلك فهذا مساو لذلك إنه مفصول، وفي قولك هذا مساو لذاك وذاك مساو لذلك وكل لمساو لشيء مساو لذلك الشيء فهذا مساو لذلك أنه موصول"² شرح السكاكي لمبدأ الوصل والفصل يحيلنا إلى قضية الادعاء في الخطاب الحجاجي والاستدلال لها لإثباتها عن طريق الوصل وأما الاعتراض عليها عن طريق الفصل وهذا لإثبات أو نفي حقيقة ما.

هذا يعني أنّ مسألة الوصل والفصل الحجاجي هي من الأشكال البلاغية المؤسسة للوجوه البلاغية عامة بداية من المجاز بنوعيه حيث يتم وصل الحقيقة الظاهرة بحقيقة خفية وصولاً إلى الاستعارة التي هي عبارة عن وصل الدليل الذي يستدل به على المحذوف.

خاتمة الفصل الثاني

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 243.

² - السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 501، 500.

بناء على ما سبق يمكننا أن نقر أن هناك حضور بين آليات الحجاج في البلاغة العربية القديمة، حيث أنها تركز على الكثير من العناصر التي تعتبر أساس بناء البلاغة الجديدة وكذا آليات اشتغالها، ونلمس هذا التقارب كما لاحظنا تقريبا في جميع الأشكال والوجوه البلاغية التي حددتها البلاغة العربية القديمة كمقاييس بلاغية لإنتاج الخطاب بأنواعه المختلفة.

- إن المقاصد التي قام عليها البحث البلاغي العربي القديم، والمادة المتنوعة والغزيرة التي يحويها تراثنا البلاغي تنم على مدى الوعي المتأصل لدى البلاغيين العرب بالدور الإقناعي للخطاب البلاغي، وقد شكل هذا الوعي القاعدة الأساسية التي بنت عليها البلاغة العربية محددات جودة الخطاب الفنية وقيمتها العلمية

- ما يؤخذ على التراث البلاغي العربي بالنسبة لبلاغة الحجاج هو أنها لم تأخذ حقها الوافي من التخصص البلاغي والتنظيم المنهجي النظيري، الذي حظيت به في البلاغة الغربية، لكن من الناحية الإجرائية التطبيقية فإن الآليات الحجاجية قد كان لها دور الريادة ومحور الفصل في الحكم على جودة المنتج وحتى على مستوى تفسير معاني النص ووصول إلى المقاصد الحقيقية له.

- إن التصور الذي ساد فترة غير قليلة من الزمن حول اعتبار البلاغة مجرد شكل جمالي يمنح المتلقي قدرا من المتعة لم يعرفه الفكر البلاغي العربي إلا في فترة تقييد البلاغة في قوالب معينة وانحسار البلاغة في القاعدة والمثال المتكرر، إنما التصور الحقيقي للبلاغة قديما كان يرى أن البلاغة هي علم رفيع القدر شامل متحدد لا يمكن الاستغناء عنه في فهم كل أنواع الخطاب المتنوعة.

إن هذا النقص الذي اتسمت به البلاغة العربية القديمة حاولت البلاغة العربية المعاصرة أن تستدركه، وتؤسس بلاغة عربية جديدة لكن هذا المسعى لا تزال البلاغة العربية إلى يومنا هذا تحاول بين الإخفاق تارة وبين الإصابة تارة أخرى أن تحققه في ظل التحديات المختلفة التي تواجهها، هذا ما سنقف عليه من خلال الفصل التالي.

الفصل الثالث

موقع البلاغة العربية المعاصرة من البلاغة الجديدة

قبل الخوض في الحديث عن واقع البلاغة العربية المعاصرة ومستجداتها، لا بد أن نقف سريعا على بداية حركة البلاغة العربية منذ النصف الثاني من القرن العشرين، وكيفية انفتاحها على البلاغة الغربية الجديدة، ومدى تعاملها مع إشكاليات التنوع الفكري الغربي وزخم المصطلح في خضم إكراهات عديدة أهمها الاصطدام بالموروث البلاغي العربي، رغم أنه كانت محاولات هامة في القرن الماضي توحى بنهضة بلاغية هامة خلفت عدة تراكمات ثقافية ونقدية بلاغية ذات قيمة، لكن لم نستفد منها إلا فيما خص الضبط المنهجي، والتوثيق الأكاديمي.

يرجع سبب ذلك إلى الرؤية المغايرة التي فرضها الواقع الثقافي والاجتماعي وكذا الاقتصادي العالمي؛ "لأن الحقل المعرفي الذي ينتمي إليه النقد الأدبي حقل يتطور (تطورا دائريا) بمعنى أن مقولة الإلغاء فيه غير واردة فهو يتراكم تراكما تصاعديا دائريا. ولا يلغي بعضه بعضا من حيث هو ففكر قابل لأن تتلبسه حياة في فترة ما؛ فيصبح جوهره (معاصرا) كرة أخرى بعد أن كان (معاصرا) قبل مئات السنين"¹ الأمر الذي طرح مفاهيم أدبية انبثق عنها تصورات فكرية بلاغية تحاول أن تحتوي هذه المفاهيم وتعطي بذلك نفسا جديدا يرتقي بالدرس البلاغي العربي، ونقله من سباته العميق الذي وضعته فيه قوالب "السكاكي" المنطقية. فكان عندها لازما على البلاغة العربية أن تجد لنفسها مكانا ضمن البلاغة العالمية، بتجديد الآليات، وتفعيل العمل الإجرائي.

واقع المشهد البلاغي العربي المعاصر:

إنّ المتأمل للمشهد البلاغي العربي المعاصر يتبين مدى انفتاحه على مسرح البلاغة الجديدة بكل ما أفرزته من اتجاهات فكرية بلاغية لاسيما بلاغة "بيرلمان" التي كان لها الريادة في كل ذلك، رغم التجاذب التراثي البلاغي الذي لا يمكن للبلاغة العربية المعاصر أن تستغني عليه أو تتحداه عنه ولو بالقليل. "إن هذه الملاحظة تذكر بأنّ تشكل الخطاب النقدي العربي الحديث، كان وما يزال تشكلا إشكاليا، لأنه انطلق من إطارين مرجعين لكل منهما سياقه التاريخي وشروطه المعرفية الجمالية والإيديولوجية، وهما التراث النقدي والنقد الغربي"² هذان المرجعان كان لهما أثر واضح في تشكل

¹ - د: البشير العيسوي، الترجمة إلى العربية قضايا وآراء، دار الفكر العربي، مدينة نصر، مصر، ط1، 1997 م، ص: 122.

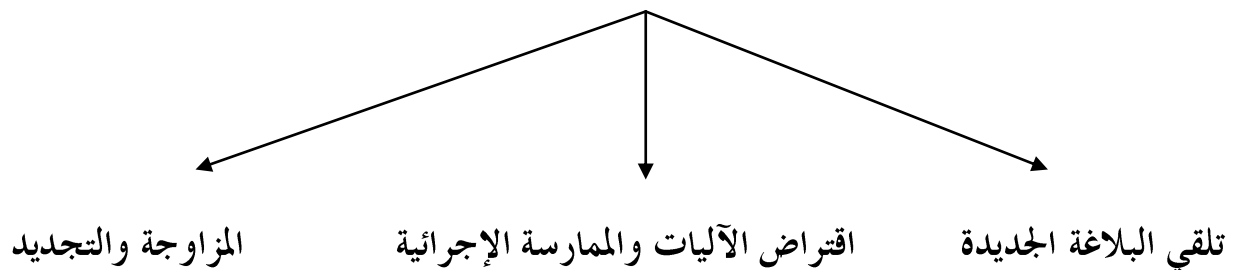
² - حسن محافي، المفهوم والمنهج، في القراءات العربية المعاصرة للتراث النقدي، إفريقيا الشرق، المغرب، (د، ط)، 2016 م، ص: 119.

البلاغة العربية المعاصر، وإن هذا الأثر ينعكس بوضوح، خاصة التخبط الاصطلاحي الذي يدور في حلقة مزدوجة بين التأصيل والتجديد.

ليس هذا التجاذب التراثي البلاغي وحده الذي يؤرق البحث البلاغي الجديد إنما كذلك العلوم المعاصر، كعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم الأنتروبولوجيا وغيرها من العلوم الأخرى التي وجدت البلاغة نفسها لا بد لها من الاحتكاك بها والاستفادة منها في تأسيس بلاغة عربية جديدة تتوافق ومقتضيات العصر.

هنا لابد من تبين حقيقة أن الانفتاح الذي شهدته الساحة البلاغة العربية في أيما هذه لا يعد انبهارا بالغرب وتجسيد فكرة "المغلوب مولع بتقليد الغالب" إنما هو تحصيل حاصل، فالظروف التي أعادت بعث بلاغة الحجاج على يد "بيرلمان" هي نفسها الظروف التي لفتت نظر البلاغيين المعاصرين إلى ضرورة تبني بلاغة الحجاج؛ لأنها السبيل الوحيد الذي يستطيع أن يستوعب بكل إمكانياته الكم الهائل من أنواع الخطاب التي تدفقت في عصرنا هذا،¹ فلا بد إذا من اقتحام عقبة الترجمة وخوض غمارها لتقريب المفاهيم الغريبة واستقدامها كلما دعت الضرورة إلى ذلك¹، فقد وجدت البلاغة العربية المعاصرة ضالتها في بلاغة الحجاج التي تكاد تكون مكتملة المعالم عند الغرب، فلم يكن أمامها سوى أن تعرف منها ما استطاعت فتشكلت عندها ثلاثة تيارات رئيسية في هذا الإطار حسب هدف كل تيار تمت عملية التأثير بالبلاغة الجديدة نلخص هذه التيارات ضمن المخطط التالي ثم نرجع إلى تفصيل كل تيار على حدة.

اتجاهات البلاغة العربية المعاصرة



¹ - رشيد سوسان، آليات وضع المصطلحات وتوليدها لدى الدكتور محمد مفتاح، مكتبة الطالب، وجدة، ط1، 2015م، ص: 88.

تيارات البلاغة العربية المعاصرة:

1- تلقي البلاغة العربية المعاصرة للبلاغة الجديدة :

1-1- ترجمة منجز البلاغة الجديدة:

إنّ هذا التيار الذي اعتنى بمسألة الترجمة والنقل لا يتبادر إلى الأذهان أنه هو الذي اتجه إليه البلاغيون المعاصرون قبل الخوض في أي من التيارات الأخرى إذ أن عملية قراءة ونقل البلاغة الجديدة لاسيما أعمال "بيرلمان وتيتكا" لم تنحصر في فترة زمنية محددة حيث لا تزال محط أنظار الباحثين في كل العالم العربي إلى أيامنا هذه بل إن الاهتمام بعملية النقل اكتسبت أهمية اليوم أكثر من أي وقت مضى لما لها من فائدة جلية في توضيح المفاهيم وتقريبها من القارئ العربي، فكلما كانت قراءة جديدة للبلاغة الغربية إلّا ومنحت البلاغة العربية بعدا جديدا يمكنها الخوض في تجربة بلاغية مغايرة لسابقتها، هذا يظهر من خلال الأبحاث والدراسات البلاغية الجديدة في الساحة البلاغية العربية المعاصر.

غير أنّ عمليتي النقل والقراءة اصطدمتا بإشكالية أرقت الباحث العربي والقارئ العربي على حد السواء وهي مشكلة "الاصطلاح"

1-1-1- المصطلح الحجاجي بين الضبط والاضطراب:

لا يمكننا الكلام عن مصطلح البلاغة العربية المعاصرة إلا بمقاربة بين المصطلح البلاغي الغربي والعربي، هذا لا يتم إلا بوضع هنا البلاغة الجديدة الغربية في مقابلة البلاغة العربية المعاصرة؛ لأنه لا يمكن أن تتجاوز ثنائية "المغادرة" و"الارساء" بين طرفي عملية الترجمة التي يعتمد عليها في حالتها النقل المباشر أو القراءة التحليلية عندما نريد المقارنة والتقييم؛ لأنّ جذور بلاغة الحجاج الجديدة أصولها البلاغة الغربية فلا يمكننا الحديث عن البلاغة الحجاجية العربية بمعزل عن البلاغة الغربية لما كانت نظرية الحجاج تجذب مختلف الباحثين في تخصصات شتى منها: اللسانية، التداولية، السميائية...، وبالإضافة إلى أن كل هذه التخصصات قد تجتمع مع بعضها البعض لتشكيل بلاغة الحجاج وتستوعب بذلك جميع أنواع الخطابات المتداخلة فيما بينها كان لهذا التداخل أثر عميق على التباين في تبني مصطلحات معينة لنظرية الحجاج وعدم ضبط دقيق لمنظومة اصطلاحية حجاجية متفق عليها.

هذا جعل المنظومة الاصطلاحية البلاغية العربية المعاصرة تعيش فوضى اصطلاحية، بداية بعدم ضبط المنهج، والترعة إلى تداول التعريفات وطرحها للقارئ العربي دون تحليلها أو حتى التعليق عليها، أو حتى تحديد الأقرب منها إلى الصواب، وبيان قيمتها وضرورتها وفعاليتها، انتهاء إلى اقتناء المصطلحات الغربية الجديدة دون مراعاة السياق الذي جاءت فيه هذه المصطلحات¹ إن هذه العملية التي يقوم بها الناقد أو الباحث في تعامله مع المصطلح تعتبر عملية تجريدية تغرب المصطلح عن سياقه من ناحية وعن النظرية التي أفرزته من ناحية أخرى. لأن الناقد أو الباحث قد تخلى عن الاهتمام بمعناه أو مضمونه الذي يبدو فيه مظاهر الحياة اللغوية، والمعرفية، واهتم بالكلمة واستعمالاتها أو بصورة العلاقات بين الألفاظ وبعضها دون النظر إلى مضمون تلك العلاقات باعتبار أن الترعة الشكلية هي الترعة التي تسيطر على نصه أو عمله¹ خاصة إذا تمت العملية بالاعتماد على المعاجم اللغوية المزدوجة، دون عرضها على خبراء في مجال المصطلح فقط إنما على المترجمين المتخصصين في ذلك؛ لأن العملية متشعبة تتطلب توفر خبراء في مجالات مختلفة.

المصطلح البلاغي كثيرا ما يكون له ارتباط بسياقات أخرى ومنها تسرب إلى الدرس البلاغي، لذا لا بد قبل الترجمة العودة إلى السياقات الفكرية والتاريخية التي أنتجته ومن ثم يسهل على الباحث نقل المصطلح وقد اطلع على عدة جوانب أرسى المصطلح، فقد يأمن بذلك على قدر الإمكان عدم الوقوع في الخطأ، لكن هذا المطلب يصعب تحقيقه في ظل عوامل مختلفة تقف عائقا أمام ذلك.

من هذا المنطلق قد يكون للبلاغة العربية المعاصرة بعض العذر في اضطراب المصطلح البلاغي بسبب كثرة المثبطات والمعوقات التي تحيط بها، سنتطرق إلى بعض من جوانبها، حتى نتبين الأسباب وراء تباين المصطلح البلاغي في المنجز البلاغي المعاصر رغم وفرته، مع القطيعة التي أحدثها هذا التباين بين المنجز والقارئ وحتى المتخصص في ذلك، حتى أن في الكثير من الأحيان عند استقراء المنجزات البلاغية المعاصرة تشعر أن الباحث المعاصر يفتعل هذا الغموض؛ لضبابية الرؤية الاصطلاحية لديه فتجده يحوم حول المفهوم دون أن يضبطه، فتبقى دلالة المصطلح ناقصة غامضة وأحيانا أخرى يأخذ مفاهيم مختلفة كلما تنقلت في المنجزات البلاغية .

¹ - د: سمير سعيد الحجازي، النظرية الأدبية ومصطلحاتها الحديثة، دار طيبة للنشر والتوزيع والتجهيزات العلمية، القاهرة، (د، ط)، س 2004م، ص:.

يرجع هذا في نظر الباحثين البلاغيين المعاصرين إلى تداخل المصطلحات البلاغية فيما بينها، إذ أن كل المصطلحات الحجاجية: الاستدلال، البرهان، الحجاج، الحجة، القياس الجدال والاستقراء، وغيرها من المصطلحات الأساسية في النظرية الحجاجية غير منضبط المفهوم ولا مستقر على لفظ واحد أو أنه غلب عليها مفاهيم أو ألفاظ. يقي الباحث الجديد من التبحر في الجهاز الاصطلاحي الحجاجي ورغم كل هذا التوتر هناك بعض المحاولات التي ارتأت أصحابها أن يفكوا خيوط التشابك بين تداخل مصطلحات البلاغة الجديدة مع الضبط الموضوعي أمثال "محمد العمري" و"طه عبد الرحمن" غير أن أعمالهم في مجملها سلطت الضوء على بعض هذه المصطلحات وبقي الكثير من المصطلحات لا يزال يكتنفها الكثير من الغموض.

يعرف الخاص والعام أن عملية ضبط المصطلح عامة تسهل الوظيفة الإجرائية التي يؤديها داخل الحقل المعرفي والبحثي الخاص به، كما أنه يساعد الباحث على الفهم الصحيح والتحكم في آليات المنهج الذي يوظف به بحثه ويضع له الحدود التي تبني على أساسها المفاهيم والقواعد؛ لأن المنظومة الاصطلاحية... تمثل الأدوات المنهجية التي يطبق بها المنهج، وهي خاضعة للتغيير من منهج إلى آخر. وتلعب المصطلحات الخاصة بكل مجال دوراً أساسياً في التمييز بين اختصاصات المناهج¹، لا سيما إذا ما تعلق الأمر بالبلاغة الجديدة التي تعتبر بلاغة عامة؛ لأن قيام بلاغة عامة يتطلب منظومة مصطلحية تعبر عن المشترك بين التخيل والتداول، من جهة وتميز بعض الخصوصيات التي تأخذ ما تستحقه من الاهتمام في الدرس العربي من جهة ثانية²، كما أنه يوفر الجهد والوقت على الباحث والقارئ معا في عملية التواصل المعرفي. فهو بمثابة لغة أو علمية يتواصل بها أهل الاختصاص، هذه المنظومة الاصطلاحية الحجاجية لا بد أن تقوم على مبدأ الاتفاق بين أهل الاختصاص وبعدها لا بد من تداولها ضمن حدود حقلها المعرفي، حتى تتضح من خلاله المفاهيم والرؤى، ويسهل توظيفه.

إن وضع المصطلح لا بد أن يضبط بشروط حتى يرقى إلى المستوى العلمي وإن حديثنا ينصب على المصطلح الحجاجي الذي قام في الأساس على العلوم التجريبية، لذا الحاجة إلى الالتزام بالقواعد العلمية في وضع المصطلح الحجاجي ضرورة لا بد منها، فالباحث "هنا بحاجة إلى أخصائي يستشيره

¹ - د: صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2013م، ص: 11، 12.

² - د: محمد العمري، الحجاج مبحث بلاغي ما البلاغة؟ ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ص: 25.

أولا في بيان المدلول العلمي للمصطلح وتوضيح ما يرتبط به من خصائص وعلاقات¹، فعلا إن الكثير من البلاغيين المعاصرين قبل أن يستخدم مصطلحا بلاغيا معينا تجده يجده بتعاريف مختلفة وخاصة المنطقية منها حتى يفضي على المصطلح الصبغة العلمية، هذا الإجراء يوحي إلى وعي الناقد البلاغي العربي بالخاصية العلمية التي يجب أن يختص بها المصطلح الحجاجي، غير أن هذا الوعي لا نجد له الصدى الواسع والانعكاس الواضح في عملية النقل أو الوضع، وهذا يرجع في مجمله إلى انعدام التنسيق بين الخبر العلمي وبين الناقل أو القارئ للبلاغة العربية.

كما أن عملية النقل تستدعي شروطا حتى تتحقق في المصطلح الحجاجي الصفة العلمية فإن عملية قراءة المنجز الاصطلاحي لها شروط لا بد من أن يحيط بها القارئ حتى يعي مفهوم المصطلح فيمكنه ذلك من نقله نقلا صحيحا في منجزه القرائي، فهو لغة البلاغي وأداته النقدية، يضبط بها أفكاره ويرسم بها أبعاد بحثه ويتواصل عن طريقها مع العلماء والمفكرين من أهل اختصاصه.

من هنا ندرك أهمية الاختصاص الذي يجب أن يتميز به المصطلح عامة والمصطلح الحجاجي خاصة حتى يؤسس ضبط الدلالة ويمنع التميع والإيجاء الدلالي اللذان يضيعان الكثير من المعارف، التي تغيب على القارئ العربي بسبب سوء النقل ومن ثم سوء الفهم.

ما يلفت الانتباه في البلاغة الحجاجية العربية أننا كل مرة نجد القارئ العربي نفسه أمام مفهوم جديد لمصطلح واحد، والأمر من هذا عندما يكون تتعدد المفاهيم لمصطلح واحد في منجز بلاغي واحد، أو عند مؤلف واحد في مؤلفاته المختلفة.

هنا يمكننا أن نقول أن الحاجة لهذا الضبط الاصطلاحي أحوج ما له المنظومة الاصطلاحية البلاغية العربية الجديدة، لأن تشعبها وتداخلها مع المجالات العلمية والأدبية واللغوية الأخرى وكذا استرادها من لغة أخرى ومع تصادمها بالتراث البلاغي العربي، تطرح إشكالات مختلفة وكل إشكالية إلا وأعقد من الأخرى، أي " أن ما يملي على الناقد أو الباحث العربي هذه الحاجة أيضا تزايد انفتاح النقد الأدبي على العلوم الإنسانية في العقود الأخيرة، فقد تخلقت بين علوم الاجتماع، وعلم النفس وعلم اللغة، وعلم التاريخ أرضية مشتركة تزداد مساحتها يوما بعد يوم. وتزايد هذا الانفتاح بين النقد

¹ - رشيد سوسان، آليات وضع المصطلحات وتوليدها لدى الدكتور محمد مفتاح، ص: 89، 90.

وبين هذه العلوم أدى إلى ظهور مفاهيم واصطلاحات جديدة¹، هذا يخلق تحديات مستمرة ومتنامية خاصة وأن البلاغة الحجاجية كل مرة وتنكشف لنا عن مجالات بحث جديدة تظهر إلى الوجود البلاغي كلما تعالقت بعلوم جديدة أو اتصلت بمجال فني معين.

1-1-2-أسباب الاضطراب الاصطلاحي الحجاجي:

1-2-1-1-الجدور التراثية البلاغية:

إن عملية المثاقفة عامة يشترك فيها جميع الشعوب وفي جميع الأزمان، والحضارات تبنى على أنقاض بعضها البعض، ففي وقت مضى كانت حاجة العرب لترجمة علوم الحضارات السابقة، ومن هنا كانت بداية ظهور الاضطراب الاصطلاحي الحجاجي ومفاهيمه، مع ترجمة كتاب الخطابة "الريطوريقا" لأرسطو على يد الفلاسفة العرب وهذا لا يعد في نظرنا قصورا للغة العربية عند احتواء المصطلحات اليونانية لكن يرجع ذلك في الأساس إلى محاولة العرب التوفيق بين لفظة "الريطوريقا" اليونانية وبين لفظة الخطابة التي تشترك اللفظتين في عناصر البناء وكذا الوظيفة الاقناعية، ويرجع كذلك إلى أن العرب في تلك الفترة كانت تعرف الشعر والخطابة وقد اتفق أن "أرسطو" خص الشعر بكتاب "فن الشعر" وخص كتاب للخطابة اليونانية بكتاب "الريطوريقا" وهذا ما أوحى للناقل العربي "ابن رشد"²، في تلك الفترة أن اصطلح على "الريطوريقا" "فن الخطابة" غير أن الخصائص الخطابة التي نص عليها "أرسطو" في كتابه "الريطوريقا" ما فتأت تظهر جليا في الكثير من فنون الكلام العربي عامة فأخذ علماء البلاغة يضعون القواعد لضبط الكلام العربي و يستدلون لها من الكلام العرب الفصحاء، فاتفق أن جل هذه المعايير قد سبق وأن تكلم عنها "أرسطو" في كتابه "الريطوريقا" من هذه الزاوية بالتحديد، يبدأ الاضطراب الاصطلاحي الحجاجي.

إن الاضطراب القديم في التداخل بين لفظي الخطابة والبلاغة امتد للبلاغة العربية المعاصرة حين أراد النقاد العرب اقتراض العتاد الاصطلاحي الحجاجي الغربي ومحاولة توطينه ضمن دائرة حجاجية عربية، وقد أفرز العديد من الاختلال والتباين البين لم يستقر إلى أيامنا هذه، خاصة وأن الكثير من هذه المصطلحات لها أصول وبعض الملامح في التراث البلاغي العربي فالتنصل منه غير ممكن البتة، كما

¹ - د: سمير سعيد الحجازي، النظرية الأدبية ومصطلحاتها الحديثة، ص: 97.

² - ابن رشد، تلخيص الخطابة، ت: عبد الرحمن بدوي، دار العلم، بيروت، (د، ط، ت)، ص: 3.

أن عملية التوفيق بين هذا الموروث وبين البلاغة الجديدة أمر غير يسير وإن كان ممكناً، بينما الإمكان لا يكون عبثاً أو ارتجالاً؛ لأن الفروق بين الثقافة العربية والثقافة الغربية تفرض على الباحث الكثير من التنقيب والبحث والتدبر "أضف إلى ذلك ضرورة مرونة فكر الناقد أو الباحث، ومرونة إطاره الثقافي في نفس الوقت، فبواسطة هذه المرونة يستطيع تجنب النقل الحرفي والتطبيق الآلي للمناهج والمصطلحات الحديثة"¹، فالمرونة تعبر عن حيادية الباحث لأي من الثقافتين "العربية، أو الغربية" فعمله ينصب على البحث عن كيفية النقل السليم والواضح دون أي اعتبارات ثقافية أو فكرية مما يؤهل عمله إلى أن يرتقي إلى عالمية الفكر النقدي البلاغي الموضوعي.

بالإضافة إلى ذلك مشكل كثرة المصطلح البلاغي التراثي وتباينه، "حيث نجد أعداد المصطلحات البلاغية، إذ بلغت في أكثر المعاجم استقصاء- وهو معجم الدكتور أحمد مطلوب- سبعة وثمانين وألف مصطلح"²، إنَّ هذا الإرث يشكل محطة اصطدام اصطلاحي تجعل الباحث أمام اختيارات صعبة بين اعتماد مصطلح معين وترك مصطلح آخر، رغم أنه يعتبر ذخراً كبيراً تحفل به البلاغة العربية.

1-1-2-2-1 الزخم الاصطلاحي للبلاغة المعاصر:

امتد أثر الاضطراب والفوضى الاصطلاحية التي يعاني منها المصطلح النقدي العربي المعاصر إلى المصطلح الحجاجي في البلاغة العربية المعاصرة، بما أن كلا العتاد الاصطلاحي في "النقد المعاصر، أو البلاغة الحجاجية" له نفس الروافد ونفس معطيات التنقل ونفس قواعد الاستقبال باعتبار "أن المصطلح الأجنبي قد ينتقل بمصطلح عربي مبهم الحد والمفهوم، أو أن المفهوم الغربي الواحد قد ينقل بعشرات المصطلحات العربية المترادفة أمامه، أو أن المصطلح العربي الواحد قد يرد مقابلاً لمفهومين غربيين - أو أكثر - في الوقت ذاته، أو أن الناقد العربي الواحد قد يصطنع مصطلحاً فيه كثير من التصرف - زيادة أو نقصاناً - في مقابله الأجنبي"³ لذا يظهر بعد هذا التحول بانتقال المصطلح من لغته الأم إلى لغة العربية المستقبلية له الكثير من الخصائص الجديدة قد تؤثر بشكل أو بآخر على المفهوم.

¹ - د: سمير سعيد الحجازي، النظرية الأدبية ومصطلحاتها الحديثة، ص: 22.

² - أ، د: محمد بن علي الصامل، قضايا المصطلح البلاغي، كثرته تعدده اشتراكه صياغته، كنوز اشبيليا، رياض، ط1، س 2007م، ص: 19.

³ - د: يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2008م، ص: 55.

إن كان هذا التحول غير مضبوط وغير منظم نتج عنه فوضى اصطلاحية وتششت ومن ثم نشأت على أساس ذلك نفس الإشكالية، ولعل أهم مشكلة امتدت إلى البلاغة العربية هو عدم الاتفاق على منظومة اصطلاحية بلاغية واحدة مستقرة، "فإن كل الشهادات النقدية المنقولة تشير في رميها للمصطلح الجديد بسهام الإشكال والإغراب والانغلاق"¹، إن هذه الصفات التي نعت بها المصطلح النقدي عامة وما يقال على الوضع الراهن للمصطلح البلاغي العربي المعاصر يقال على المصطلح الحجاجي، بل إن مجمل الأسباب التي كانت وراء تأزم الوضع في المصطلح النقدي المعاصر هي نفسها التي أفرزت نفس المشاكل التي يعاني منها المصطلح الحجاجي اليوم؛ لأنها ذات مصدر واحد - ثقافة غربية - . وربما أكثر حدة من ذلك؛ ويعود ذلك في الأساس على أن المجال البلاغي أفسح المجالات النقدية وأكثرها تداولاً بين النقاد.

1-2-2- تحديات صناعة المصطلح البلاغي الجديد:

من الواضح أن البلاغة الجديدة تحمل بين طياتها مجموعة من المصطلحات الجديدة لم يسبق للباحث العربي التعامل معها أو أنه تلقاها بمفاهيم أخرى ومن هنا يبدأ الإشكال والتحدي، سنرصد عدداً من المصطلحات التي تداولت بين مختلف الباحثين العرب المهتمين بالبلاغة الجديدة

1-2-1- غياب المعيار الاصطلاحي عند "الوضع، الاستعمال":

إن البلاغة الجديدة بلاغة وافدة من الغرب فأصول مصطلحاتها ارتبطت في الأصل بما قدمته البلاغة الجديدة التي تأسست على يد "بيرلمان" عند الغرب، فاعتماد الترجمة أمر لا بد منه، غير أن هذه الترجمة لا تتبع المعايير التي تحدد عملية الوضع الاصطلاحي، بل إنها لا تعتمد حتى على مقاييس الترجمة المتخصصة التي تتم على يد مترجم مختص²، وإن توفر ذلك، فإنه في المقابل غير مختص في قضايا البلاغة، مما ينعكس سلباً في الحالتين على سلامة الترجمة ومنها على سلامة الاستعمال.

¹ - د: يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، ص: 55.

² - إذ أن جل النقاد الذي ألفوا في البلاغة الجديدة نجد اختصاصهم تتمحور حول "النقد الأدبي، البلاغة، الأدب العربي" وإن كان أغلبهم يحسنون على الأقل لغتين "العربية، وأخرى أجنبية: الفرنسية، الإنجليزية" لكن تخصص ترجمة فهذا نفتقده بين المهتمين بالبلاغة الجديدة.

فتطرح بعد هذا "إشكالية ثالثة هي إشكالية السياق، نظراً لأن اختلاف السياق يؤدي إلى اختلاف المعنى والمضمون"¹ وهذه الإشكالية أعقد وأصعب من نظيرتها "إشكالية المصطلح" هذا لا يعني الحط بكل المحاولات النقدية التي ساهمت في وضع المصطلح، فلو أننا أخذنا كل محاولة نقدية على حدى سيتبين لنا مدى الجهد المبذول من طرف الباحث في انتقاء المصطلح وإعطاء المفهوم المناسب له مع الحرص على حسن توظيفه، لكن هذه الجهود تبقى فرادى لا ترتقي إلى معيار الاتفاق الاصطلاحي فينشأ على إثر ذلك ما يسمى بـ "المصطلح الذاتي" الذي عادة ما يتأثر بعدة عوامل أهمها ثقافة الناقد، في ظل المقاربات المنهجية التي تعين الباحثين اليوم على إقحام بلاغة الحجاج ودراساتها مما يؤثر بشكل مباشر في المعنى الاصطلاحي الحجاجي.

"المصطلح الذاتي" يتسبب في تعدد المصطلح لمفهوم واحد أو العكس مصطلح واحد ومفاهيمه متعددة وهذا ما سنعرضه عند استقرائنا للمصطلح الحجاجي في المدونات النقدية، كما أنه في حالات يتفرد بعض باحثين في وضع مصطلحات لا نجد لها أثر في الكتب البلاغية الأخرى. بالتالي عدم وجود رؤية عربية موحدة لإعادة توطين المصطلح الغربي ضمن الدائرة البلاغية العربية، هو الذي يسمح بتفاقم مشكل المصطلح، لكن مهما كان هذا المشكل يمكن لهذه الجهود الفردية أن تتكاثف فيما بينها لإنجاز منظومة اصطلاحية حجاجية تلتزم بمعايير توليد المصطلح عامة، كما هو منصوص عليها في الدائرة الحد الاصطلاحي².

"المصطلح المعرب" هو كذلك نوع من المصطلح يثير تساؤلات عدة منها ما هو سبب لجوء الباحث العربي إلى هذا النوع من المصطلحات؟ رغم أن اللغة العربية لغة غنية بالمفردات وتتميز بالاشتقاق، خاصة وأن بعض النقاد في نقل مصطلح واحد تجد منهم من يعتمد التعريب وآخر يضع له مصطلح بديل في اللغة العربية .

مع كل هذه الإفرازات التي نتجت عن ترجمة المصطلح، فإنه "كان لحركة الترجمة دور كبير في التعرف على التجارب النقدية في الغرب. وعلى الرغم من أغلب الذين تعاطوا للنقد الغربي و تحمسوا

¹ - د: سمير سعيد الحجازي، النظرية الأدبية ومصطلحاتها الحديثة، ص: 31.

² - ينظر: د: يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، ص: 78. وينظر: د: أحمد مطلوب، معجم النقد العربي، دارا لشؤون الثقافة العامة، بغداد، (د، ط)، 1989، ج1، ص: 11، 12.

له كانوا ممن تلقوا تعليماً عربياً أصيلاً¹ ساهم هذا الحماس في تفاقم إشكالية المصطلح، فأنجر على محاولات ترجمة المصطلح وتشغيله نتائج قد تحسب عليه وليس له.

1-2-2-علاقة علم البلاغة بالعلوم الأخرى :

فسر "د: محمد العمري" سبب اضطراب المصطلح البلاغي الجديد إلى أن البلاغة "ملتقى لعلوم مختلفة لكل منها عُلُقَةٌ بالخطاب وحاجة إلى استنطاقه وكشف جانب من أسرارهِ"² يخص بهذا الكلام البلاغة عامة عربية كانت أو غربية، بينما "زادت المسألة تعقيداً، في المجال العربي، بتعايش هذه المباحث مع المباحث الجزئية التقليدية التي ظلت تحتفظ بكيانها المنحط غير عابثة بما يجري حولها، مثل: علم القافية، و علم العروض، و علم المنطق (في بعض البيئات العتيقة).... ولذلك بدأ المحققون المدققون من الباحثين في مجالي التداول الحجاجي (منطق الحجاج) و"نظرية الأدب" و"علم النص" يكتشفون أن ما يبحثون عنه، في تناولهم لشتى أنواع الخطابات الاحتمالية المؤثرة، موجود في علم عتيق أصابه الإهمال حتى تلاشت معالمه، هذا العلم هو البلاغة"³ إن هذا التصور بالتحديد هو الذي قاد "بيرلمان" إلى دراسة البلاغة لما كان يبحث عن مبدأ حكم القيمة في العدالة فقد انتقل "بيرلمان" من القضاء إلى علم البلاغة لأن ببساطة عملية التنقل يسهلها الاشتراك والتداخل بين علم البلاغة والعلوم الأخرى.

فقد بنت البلاغة الجديدة مفاهيمها من مختلف العلوم الأخرى بداية من علم المنطق، علم النحو، الفلسفة، علوم اللغة بصفة عامة، انتهاء إلى السميائيات، التداولية، فالتأويلية. ولا ننسى المجالات التي تتحرك البلاغة الجديدة داخلها بل إنها تقودها إلى التميز وبلوغ أهدافها وترويج أفكارها وتحديد مهامها نخص بالذكر: الإعلام بكل أنواعه المرئي والمكتوب والمسموع والالكتروني، الخطاب السياسي، الاقتصادي والإيديولوجي والديني،... إلخ.

هذا التداخل بين علم البلاغة الجديدة وبين مختلف العلوم الأخرى هو الذي ساهم في تشكيل البلاغة الجديدة وتفرع حقولها، وهو في نفس الوقت الذي أنتج مجموعة اصطلاحية حجاجية غير

1- حسن مخافي، المفهوم والمنهج، في القراءات العربية المعاصرة للتراث النقدي، إفريقيا الشرق، المغرب، (د، ط)، 2016م، ص: 125.

2- د: محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، إفريقيا الشرق، المغرب، (د، ط)، 2013م، ص: 12.

3- د: محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص: 14.

منضبطة، يصعب تطبيق معايير الحد الاصطلاحي لوضع منظومة اصطلاحية موحدة تنضبط فيها المفاهيم وتحدد بها وظيفة كل مصطلح.

1-3- نماذج من المصطلحات الحجاجية التي تعاني الاضطراب:

إنّ هذه المصطلحات التي يدور حولها الإشكال نجدها ماثورة هنا وهناك في الكتب المترجمة أو في المنجز البلاغي العربي المعاصر سواء في الكتب البلاغية أو المقالات النقدية البلاغية لمختلف الباحثين والنقاد لكن لا نجد مؤلف ولو واحد خص المصطلح البلاغي الحجاجي بدراسة معمقة لحد الساعة، وفي الحقيقة هذا ما نفتقده في الساحة البلاغية المعاصرة، وقد كان هذا من بين التوصيات التي خرجت بها الندوة الوطنية التكريمية للبلاغي المغربي "محمد العمري"¹

مصطلح: "Rhetorique"

شاع استعمال مصطلح "البلاغة الجديدة" بين النقاد العرب ترجمة لمعناها الغربي (Rhetorique)، إضافة إلى ورود عدة مصطلحات أخرى، ومن خلال تصفح المدونات البلاغية يبدو أثر المشقة التي تكبدها الباحث العربي المعاصر في وضع المصطلح وكذا تحديد مفهومه، في الجدول التالي حاولنا فيه رصد مختلف الترجمات التي وردت في المنجز البلاغي العربي المعاصر:

الريطوريقا	د: سامية الدريدي	
البلاغة الجديدة	د: الحسين بنو هاشم - د: صلاح فضل - د: صولة الحاج	
البلاغة	الخطابية	د: محمد العمري
	الافناعية	د: صلاح فضل، طه عبد الرحمن
	البرهان	د: صلاح فضل
	العلم الكلي	د: سامية الدريدي
	الحجاج	د: سامية الدريدي
	نظرية الحجاج، الحجاجية	محمد طروس - د: الحسين بنو هاشم - د: صولة الحاج
خطابة	الحجاج	علي شعبان

¹ - المنظمة من قبل مختبر الترجمة وتكامل المعارف ومركز الكندي للترجمة والتدريب وجامعة القاضي عياض في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بمراكش، المغرب، يومي 23، 22 فبراير 2017م.

د: حسين بنو هاشم	الجديدة	
د: حسين بنو هاشم	إمبراطورية الخطابة	
د: الحسين بنو هاشم - د: سامية الدردي - طه عبد الرحمن	الحجاج	

نلاحظ أن مصطلح "Rhetorique" ترجم إلى عدة صيغ كلامية إلى ما يقارب خمسة عشر مصطلحا بمفاهيم تقريبا متماثلة مثلما يظهر ذلك في الجدول، ومصطلحي البلاغة الجديدة، والحجاج تصدر هذه الترجمات من حيث التداول والاستخدام.

الواضح أن بعض هذه الترجمات أثارت اهتمام د: "محمد العمري" فكانت عنوان مقاله المنشور ضمن "الحجاج، مفهومه وقضاياها" وبعدها في كتابه "أسئلة البلاغة" فقد دقق توصيف هذا المشهد في اختيار الصيغة المناسبة لهذا المصطلح بقوله: " فهناك من الباحثين العرب المحدثين من استعمل كلمة "خطابة" مقابلا لها (وهم أقل)، وهناك من استعمل كلمة بلاغة (وهم الأكثر)، وهناك من ظل متردداً بينهما؛ يستعمل هذه أو تلك حسب السياق وهو الأقرب إلى معاناة المشكل، وهناك من وقف عند حدود الحيرة يورد إحداها مطلقة والثانية بين قوسين تاركا للقارئ أن يرجح ما يراه مناسباً"¹ فقد رد هذا الاختلاف بين الباحثين في الترجمة مصطلح "Rhetorique" إلى بعدين أساسيين: تأصيلي تراثي وآخر تجديدي غربي.

¹ - محمد العمري ، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص: 27.

1- البعد التأصيلي، التراثي:

"Rhetorique" = الخطابة:

مصطلح "الخطابة" اصطلاح عليه المترجمون العرب قديما عند ترجمتهم كتاب أرسطو "فن الخطابة"¹، وعلى هذا الأساس أرجع "د: محمد العمري" سبب اعتماد البلاغيين المعاصرين هذا المصطلح فقد كان أسلافهم قد ترجموا هذا المصطلح من قبل على حسب " المعنى الأرسطي للكلمة والسياق الخطابي الحجاجي الذي يؤطرها"²، وبما أن "بيرلمان" أسس البلاغة الجديدة معتمدا على ما جاء في كتاب أرسطو "فن الخطابة" باعتراف من "بيرلمان" نفسه في مقدمة كتابه "مصنف في الحجاج" بأن تأليف مصنف مخصص للحجاج وارتباطه بتقليد قديم، وهو الخطابة والجدل الإغريقي³ بل إنه يرجع السبب الحقيقي من تأليفه الكتاب هو إعادة إحياء بلاغة "أرسطو" في قوله: " المنطقيون والفلاسفة المعاصرون هم أنفسهم لم يعد يهمهم بتاتا موضوعنا، لهذا السبب مصنفنا يرتبط أساسا حول الانشغال بإعادة بعث البلاغة مجددا، وعبر المؤلفات اليونانية والإغريقية، التي تناولت بالدراسة فن التأثير والإقناع، تقنية التحرير والكلام، لهذا السبب كذلك نقدمه كبلاغة جديدة"⁴، وكأن عملية الترجمة في هذه الحالة هي عملية تعديدية أي بما أن العرب القدامى ترجموا مصطلح "Rhetorique" إلى الخطابة. وبما أن "بيرلمان" بلاغته هي في الأصل بلاغة أرسطو فتم إذن ترجمة بلاغة "بيرلمان" بمصطلح "الخطابة"

¹ - ينظر: ترجمة "ابن الرشد" تلخيص الخطابة، ص:3.

² - محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص:27.

³ - Chaïm Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca, Traite de L'argumentation La nouvelle Rhetorique ,P : 1: « la publication d'un traité consacré à l'argumentation et son rattachement à une vieille tradition celle de la rhétorique et de la dialectique grecques »

⁴ - Chaïm Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca, Traite deL'argumentation La nouvelle Rhetorique , P :6« Logiciens et philosophes modernes se sont, eux complètement désintéressés à tout notre sujet, c'est la raison pour la quelle notre traitése rattache surtout aux préoccupation de nouveau la renaissance et, par delà, envoyé de nouveau, à celles des auteurs grecs et latins, qui ont étudié l'art de la persuader et de convaincre, la technique de la délibération et de la discussion, c'est la raison aussi pour la quelle nous le présentons comme une nouvelle rhétorique »

من هنا ندرك أن مصطلح "الخطابة" الذي اعتمده النقاد العرب المعاصرين له مرجعيات وأصول من التراث الثقافي العربي القديم وتم إسقاطه مباشرة على المصطلح الجديد لـ "بيرلمان" انطلاقاً من ربط بلاغته الجديدة بالخطابة الأرسطية. غير أن هناك من الباحثين العرب من أراد أن يفرق بين خطابة أرسطو" وبين خطابة "بيرلمان" فأضاف إلى الخطابة لفظة الجديدة ومنها جاء مصطلح "الخطابة الجديدة" وقد ورد هذا المصطلح في المنجز البلاغي المعاصر كثيراً باعتبار أنه تقريباً الترجمة الحرفية لعبارة "La nouvelle Rhetorique". التي وصف بها "بيرلمان" بلاغته.

إن من بين أهم ما يثير اهتمام القارئ العربي في اعتماد مصطلح "الخطابة" هو تباين التعليقات التي يقدمها النقاد لذلك، نجد "د: محمد العمري" يفضل استعمال مصطلح "الخطابة" و"الابتعاد عن كلمة "خطاب"، حيث نقول مثلاً: الخطابة منطقة بين الخطبة والخطاب، الخطاب أوسع والخطبة أضيق مما نريد، الخطابة ملتبسة بين التناج الكلامي ووصفه (أي البلاغة)، بين النص والتقنية"¹ وفي رأي "العمري" حتى لا يبقى مصطلح "الخطابة" مرتبط بالخطاب الشفوي مثل ما اصطاح عليها في التراث البلاغي العربي لا بد من تغيير "التفكير في الخطبة كحدث ننظر إليها كوظيفة من وظائف القول يهدف إلى التأثير والتفعيل على طول المسافة الواسعة الممتدة بين التخييل والبرهان، سواء كان شفويًا أو مكتوبًا فهو قول خطابي"² وإنّ هذا الإجراء ولّد كذلك صعوبة في ضبط المصطلح بين التخصيص أو التعميم على جميع أنواع الخطابات.

عندها ذهب النقاد العرب في تداول بعض المصطلحات مشتقة من الجذر اللغوي للفظ "الخطابة"، فمثلاً اقترح د: محمد العمري مصطلح "الخطابية" الذي يخص به "فن الخطابة" ولعله يقصد به "فن الخطابة" المعروفة في الأدب العربي، لأن د: العمري لم يوضح ذلك إنما أشار أنه اختار هذا المصطلح قياساً على "الشعرية" المقابلة لـ "فن الشعر"³، ورغم هذه الاقتراحات التي قدمها "د: العمري" يبقى مصطلح "الخطاب" و"بلاغة الخطاب"، يحتلان المرتبة الأولى من حيث التوظيف مقارنة بجميع مختلف المصطلحات "الخطابية" الأخرى، ويرجع السبب في رأينا إلى عاملين أساسيين.

¹ - د: محمد العمري، دائرة الحوار ومزالق العنف، إفريقيا الشرق، (د، ط)، 2002م، ص: 36.

² - د: محمد العمري، دائرة الحوار ومزالق العنف، ص: 36، 35.

³ - د: محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص: 28.

1- مصطلح "الخطاب" بما أنه على صيغة المذكر فهو أعم وأشمل من الخطابة، حيث " يظهر المعنى اللغوي لـ"الخطاب" اقتصار مفهومه على اللغة المنطوقة في حالة المحاورة، ويضاف إلى ذلك اللغة المكتوبة في حالة المراسلة"¹ فيدخل بالتالي تحته كل أنواع الخطاب (الشفوي، المكتوب)، ويتوجه إلى العام والخاص، فيتوافق مع الأسس الشمولية والعمومية التي بنيت عليها "البلاغة الجديدة".

2- مصطلح "الخطاب" كان متداولاً في النقد العربي القديم ومقترناً بالبلاغة والحكمة، فقد عرّف أعرابي البلاغة بقوله: "البلاغة تقريب ما بعد من الحكمة بأيسر الخطاب"². ومعنى الخطاب هنا الكلام عامة ويقترن بالبلاغة هنا لتحديد معالم الخطاب ومعايير بنائه، ولا ريب أن العرب استقت هذا الاقتران بين الخطاب والبلاغة من قوله تعالى: "وَفَصَّلَ الْخُطَابَ"³ وكان الجاحظ يقتبس هذه الآية ويضمنها كلامه كلما تحدث عن البلاغة فمثلاً قوله: "فجمع له بالحكمة البراعة في العقل، والرجاحة في الحلم، والاتساع في العلم، والصواب في الحكم، وجمع له بفصل الخطاب تفصيل الجمل، وتلخيص المتبس، والبصر بالجزء في موضع الجز، والحسم في موضع الحسم."⁴ قول الجاحظ يدل على أن فصل الخطاب هو التحكم في أساليب الكلام مع موافقة مقتضى الحال، ويمكن أن يكون هذا التفسير، تفسيراً للأسس التي قامت على أساسها البلاغة الجديدة، من هنا ندرك عملية تداول النقاد مصطلح البلاغة أكثر من غيره في بلاغتهم المعاصرة؛ لأنه تقريباً يجمع بين دلالاته الرصيد البلاغي العربي ويحتوي في الوقت نفسه مستجدات بلاغة "بيرلمان".

2- " Rhetorique " = البلاغة:

إنّ مصطلح البلاغة التي كثيراً ما تداوله النقاد المعاصرون كبديل للبلاغة الجديدة الغربية كذلك له بعد تراثي؛ فقد كان لهذا العلم باع طويل عند الأقدمين بل إن هناك من ربط جميع علوم اللغة والأدب وحتى الفقه الإسلامي بهذا العلم الذي لا يمكن تجاهل دوره في بناء تلك العلوم؛ لأن كل الأهداف والأسس التي أسهبت البلاغة العربية القديمة في دراستها والتقنين لها من (الإطلاع على

¹ - جمعان بن عبد الكريم، اشكالات النص، النادي الأدبي بالرياض والمركز الثقافي العربي، ط1، 2009، ص:33.

² - أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص: 47.

³ - القرآن الكريم، سورة "ص"، الآية 20.

⁴ - الجاحظ، البيان والتبيين، ص 175.

أحوال المتكلمين، الإيجاز والإطناب، مراعاة مقتضى الحال، التراكيب، التقديم والتأخير، الصور البلاغية، الفصل والوصل....)، وقد سبق الجاحظ في التفصيل في ذلك في قوله:

" قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: فعرفه الفصل والوصل.

وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام، واختيار الكلام.

وقيل للروماني: ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة.

وقيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة.

وقال بعض أهل الهند: جماع البلاغة البصر بالحجة، ومعرفة بمواضع الفرصة.

ثم قال: ومن البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة، أن تدع الإفصاح بما إلى الكناية عنها، إذا كان الإفصاح أوعر طريقة. وربما كان الإضراب عنها صفحاً أبلغ في الدرك، وأحق بالظفر¹، فكل هذه المفاهيم التي تتوافق إجمالاً مع ما جاء به "بيرلمان"²، يفسر سبب اختيار مصطلح البلاغة وإن كان يبدو من قول الجاحظ أن البلاغة العربية أعم من بلاغة الحجاج لذا هناك من نبذه يقرن مصطلح البلاغة بلفظة الخطاب كما سبق وأن أشرنا لذلك أو بمصطلح الحجاج أو بالإقناع من باب التحديد وتميز البلاغة العربية القديمة من البلاغة الجديدة فهذا الاقتران تحدد وظيفة البلاغة الجديدة من جهة و تحدد الفترة الزمنية لها من جهة أخرى .

2 - البعد التجديدي "الغربي":

"Rhetorique" = البلاغة:

كذلك لهذا المصطلح بعده التجديدي الغربي، وكأنّ عملية الاختيار لهذا المصطلح تمت عكس ما أريد لها من أصحاب البعد التأصيلي، حيث أن هناك من كان يرى أن الهدف من البلاغة العربية هو الجانب الجمالي للكلام لا غير فكان للمجددين رؤية خاصة لتخليص البلاغة من هذه التهمة الجائرة، فاختير مصطلح "البلاغة" حتى يكتسب مفهوم البلاغة "المعنى الذي تبلور للكلمة في العصر الحديث

¹ - الجاحظ، البيان والتبيين، ص: 88.

² - ينظر: مثلاً قدامة بن جعفر، نقد الشعر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ط)، (د.ت)، ص: 93. وابن وهب، البرهان في وجوه البيان، ص: 49، 85، 87. ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ص: 45، ص: 134.

بعد أن استرجعت بعدها الخطابي التداولي، وطورت بعدها التخيلي الشعري، وصادرت ما أخذ منها تحت أسماء اعتبرت نفسها وريثاً شرعياً للبلاغة¹؛ لأن الجمال لا يمثل كل البلاغة إنما يشكل أحد العناصر التي يستعين به المخاطب ليصل إلى مرحلة الإقناع، فلكي "تتوقد الحجة ينبغي إشعال فتيلها بعناصر شعرية أو عاطفية"² التي تشترك في خاصية الجمال الذي لا تصورهما إلا الأساليب البلاغية والمحسنات البيانية، من تشبيه واستعارة وكناية وغريب المعاني، والرمز، وتخيل فالجمال يسحر، فتنجذب إليه النفس، إلى درجة قد يتعطل معه العقل، وإن هذا من أقصى درجات الحمل على الاقتناع.

كما أنّ الكثير من النقاد وقع اختيارهم على مصطلح "البلاغة" دون الخطابة حتى لا يحدث ذلك الالتباس الذي يتضمنه مصطلح "الخطابة" في العرف العربي الذي تدل عليه الخطبة التي تلقى في المحافل الجماهيرية وإن هذا المعنى بالتحديد أُلغته البلاغة الجديدة من محتوى بلاغتها، ودعت في المقابل إلى خطابة جديدة تكون عامة تحتوي كل أنواع الخطاب وموجهة إلى العام والخاص لذا عرفت بـ "إمبراطورية الخطابة" والمصطلح الوحيد في اللغة العربية الذي يتوافق مع هذا المنحى هو "البلاغة" تناولت الشعر والنثر واهتمت بالعام والخاص.

" Rhetorique " = الحجاج:

مصطلح "الحجاج" له بعد غربي محض، حيث استقاه النقاد العرب المعاصرين، من تعريف "بيرلمان وتيتيكا" للبلاغة الجديدة إذ تعتبر "دراسة تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم"³ والتسليم لا يكون إلاّ بعد اقتناع ولا يتم ذلك إلاّ عن طريق حجج وبراهين وهي المقصودة في قوله بتقنيات الخطاب، وفي موضع آخر يصرح بهدفه من دراسته بقوله: "إن دراستنا، تشتغل أساساً على إستراتيجية الحجاج،

¹ - د: محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص: 27.

² - محمد الوالي، مدخل إلى الحجاج أفلاطون وأرسطو وبرلمان، ص: 18.

³ - Chaïm Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca, Traite de L'argumentation La nouvelle Rhetorique, P: 5 « L'étude des techniques de la parole discursives permettent de provoquer ou d'accroître l'adhésion des esprits aux thèses qu'on présente à leur assentiment »

إذ تفرض نوعا خاصا تقوم عليه عملية الاتصال مع المستمع¹، فبلاغة "بيرلمان" تتمحور حول تقنيات الحجاج، من هنا ندرك أن هذا المصطلح "الحجاج" الذي اعتمده النقاد لتعبير عن بلاغة "بيرلمان" هو مأخوذ من المفهوم الذي قدمه "بيرلمان" لبلاغته ويعتبر ذلك نوع من أنواع توليد المصطلح العربي عامة.

الاضطراب الاصطلاحي في البلاغة الجديدة لا يمس مصطلح "Rhetorique" فقط لكن للأسف هذا الاضطراب يعاني منه تقريبا جل مصطلحاتها.

الجدول التالي، حاولنا من خلاله توضيح مدى الاضطراب الاصطلاحي الذي تعاني منه مصطلحات "الحجاج" في البلاغة العربية المعاصرة، فقد أخذنا بعض العينات للمصطلح الحجاجي المتداول بين البلاغيين المعاصرين في المنجز البلاغي العربي المعاصر.

¹-Chaïm Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca, Traite de L'argumentation La nouvelle Rhetorique, p : 8. « Notre étude, se préoccupant surtout de la structure de l'argumentation, n'insistera donc pas sur la manière dont s'effectue la communication avec l'auditoire »

المصطلح	د: محمد العمري	د: حسين بنو هاشم	د: صولة الحاج	د: صلاح فضل	د: طه عبد الرحمن	د: سامية الدريدي
conviction	اقتناع	تبيين	الحمل على الاقتناع	الاقتناع	الاقتناع، الاقتناعية	الاقتناع
Auditeur	المستمع، المتلقي	المستمع الكوني المستمع الخاص	الجمهور العام، الغائب، الجمهور الحاضر	المستمعين المستمع	المتلقي المخاطب	المتلقي
Represen tation	التمثيل	التناسب	التمثيل	التمثيل القياسي الشبيه	القياس التمثيلي الاستدلال التمثيلي	القياس، التمثيل
Les lieux	الايجاد، مصادر الادلة	المواضع، الايجاد	المعاني، المواضع البصر بالحجة	المواضع	الضمائر الموضعيات	المواضع
Implicite Inclusion	المقايسة الكامنة، الاشارة، القياس المضمر	حجة التضمنين	الحذف	الاختزال الحذف الاضمار	الاضمار، الطي	التضمنين، الضمني من الكلام
			الهرميات	التغيير المنطقي	سلم حجائي	السلم الحجائي
Le raisonne ment	الاستدلال	الاستدلال	الاستدلال	القياس	الاستدلال الكلامي	الاستدلال
Dispositi on	ترتيب أجزاء القول	الترتيب	ترتيب الاقسام	اجزاء القول	خاصية الترتيب	أجزاء الكلام
Figure	الصورة البلاغية	وجه بلاغي	المجاز الوجوه البلاغية	الاشكال البلاغية	الاستعارة	الوسائل البلاغية

بعد عرض هذه العينات من مصطلحات البلاغة الجديدة يظهر شدة التباين والتشتت الواضح بين هذه المصطلحات، بحيث أن كل باحث استخدم مصطلحا معينا وفي بعض الأحيان يستخدم مصطلحين لمفهوم واحد رغبة منه في إعطاء القارئ فرصة للفهم والاستيعاب، لكن بقدر ما قد يوضح يترك القارئ في حيرة من الكم الهائل وغير المستقر للمصطلحات، وما يزيد ذلك الاضطراب هو عندما يحتوي منحز واحد على مصطلحات متنوعة لنفس المفهوم في مواضع مختلفة من المنجز، أو أن الناقد لا يجد حرجا في توظيف كل مرة مصطلحا في كل منحز له، دون أن يعطي أي مبرر. وكل هذا سنقف عليه محاولين تحليل هذه الملاحظات شيئا فشيئا. وإن كان البعض يبرر اختياره مصطلح معين دون غيره.

المصطلح (Auditeur):

هذا المصطلح أخذ نصيبا كبيرا من الاضطراب فأصطلح عليه بـ "الجمهور" مثلا قول "د: عبد الله صولة": إن جمهور الحجاج كما يراه المؤلفان يمكن أن يكون عاما حاضرا أو غائبا، كما يمكن أن يكون منشأ الحجاج بين شخصين اثنين متحاورين أو بين المرء ونفسه¹ ولعل هذا الاستعمال يرجع أساساً إلى الترجمة العربية القديمة لكتاب "أرسطو" "فن الخطابة" الذي كان موجه إلى جمع من الناس لدى اليونان عامة، وعلى هذا الأساس ترجمت "الريطوريقا" إلى الخطابة² على اعتبار أن خطابة أرسطو كانت موجهة إلى محفل من الجمهور وهي أصل بلاغة الحجاج.

لكن جوهر اختلاف نظرية الحجاج عن أصلها الأرسطي في أنها لا تقتصر على نوع واحد من الجمهور، وهذا ما أكده "بيرلمان" في قوله: "إنما نحن ليست لنا فكرة من أن نخص دراستنا لتقديم الحجاج عن طريق الكلمة ونجعلها مقتصرة على حشد مجتمع في مكان لنوع من المستمعين الذي يوجه إليهم الكلام"³، نوع المستمعين المختلف الذي تختص به البلاغة الجديدة نتج عنه الاختلاف في

¹ - عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص: 22، 21.

² - ينظر: ترجمة "ابن الرشد" تلخيص الخطابة، ص: 3.

³ - Chaïm Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca, Traite de L'argumentation La nouvelle Rhétorique ,P :7 « Mais nous n'avons pas de raisons limiter notre étude à la présentation d'une argumentation par la parole et de limiter à une foule réunie sur une place le genre d'auditoire auquel on s'adresse. »

الاصطلاح، فحاول كل باحث قدر الإمكان أن يلتبس مصطلحا يتوافق مع مفهوم المستمع لدى "بيرلمان".

إن إشكالية مصطلح " (Auditeur) " لفت انتباه د: الحسين بنو هاشم¹ في مقدمة كتابه "نظرية الحجاج عند شايم بيرلمان وقبل أن يبين اللفظ الذي اختاره لهذا المصطلح وسبب ذلك، وقف مليا عند هذا الاختلاف، فهو يرى أنه لما "استخدم باحثون آخرون لفظة "الجمهور"، وهو اختيار يعاني من نفس إعاقة الاختيار الأول، كما أنه لا يؤدي معناه الأصلي المرتبط بالسمع، مما يجعله غير قابل للاشتقاق،.....إضافة إلى أن فيه نوعا من "التميع"، باعتبار أن هذه اللفظة شائعة في مجالات مختلفة بعيدة عن الخطابة والحجاج، فتحدث مثلاً عن الجمهور في المباريات الرياضية وفي المسرح"¹، من هذا المنطلق إن أنواع المستمعين في البلاغة الجديدة يفرض على الباحث أن يختار مصطلح يدل على كل أنواع المستمعين التي شملته البلاغة الجديدة.

وقد وقع اختيار "د: الحسين بنو هاشم" على المصطلح الذي استعمله أستاذه "د: محمد العمري" قبله "المستمع" ويبرر هذا الاختيار بأن: "هذه اللفظة تؤدي المقصود هذا المصطلح بشكل دقيق. فالمصطلح الفرنسي يعني مجموع السامعين والمكان الذين يجتمعون فيه. ويحيل بذلك على المقام. ونحن نعتقد أن لفظة "مستمع" تؤدي كل تلك المعاني، فهي موجهة للدلالة على السامعين من خلال الجذر الذي اشتقت منه، وعلى المكان من خلال صيغتها الصرفية، وتلتقي مع المصطلح الفرنسي في دلالتها على المستمع، زيادة على أنها تجعل التنقل بين المعاني المجاورة منسجماً"²، كما أنه عاب على الباحثة "د: سامية الدريدي" استخدامها لفظة "متلقي" وقد برر ذلك بأن هذا الاختيار "أوقعها في الحرج حين تحدثت عن تمييز بيرلمان بين... فبدل أن تُثبت المقابل الفرنسي للمصطلح الذي يطرح المشكل أثبتت المقابل الفرنسي للنعت المصاحب له"³، لكن حسب رأينا أن "د: سامية دريدي" كانت ناقلة للتقسيم الذي قام به "بيرلمان" و"تيتكا" لمصطلح (Auditeur).

¹ - د: الحسين بنو هاشم، بلاغة الحجاج الأصول اليونانية، ص: 14.

² - نفس المرجع، ص: 14، ص: 15.

³ - نفس المرجع، ص: 14

فـ"بيرلمان" كان تقسيمه كان مصاحبا لكلامه حول وظيفة الخطاب الحجاجي الذي قسمه بدوره إلى نوعين من الوظائف "الإقناع" و"الاقتناع" وخص كل نوع منها بنوع من المتلقي "إذن طبيعة الخطاب الذي يمكن أن تكون فيه الحجج مستخدمة بنجاعة، هي التي تحدد إلى حد كبير الجانب التي تتخذها الحجج والخاصية، النطاق الذي أتيح لهم، كيف يستعرض المستمعين الذين يكون مشهد الدور المعياري يسمح بتقرير شخصية المقنع بحجة"¹، من هذه الفكرة تحديدا قسم "بيرلمان" المستمع إلى أنواع من المستمعين ويبقى هذا الاختيار قائما على الاجتهاد الفردي. هذا بالإضافة إلى عدة استعمالات أخرى منها: المتكلم، المخاطب.

مصطلح (Figure rhetorique):

تقوم البلاغة الجديدة على منطق اللغة الطبيعية التي تتميز بالمرونة والتلاعب بعبارات والتكوير الكلامي إلى حد بعيد، ولأن"الفكر العربي لا ترقى أدلته إلى مستوى البراهين التي هي وحدها الكفيلة بإفادة اليقين وتحصيل العلم، إذ لا تلتزم إلا أساليب في الاستدلال تشبهيه وقياسية"² وهذه الأساليب أخذت تتجدد من حين إلى آخر بفعل المتغيرات المتسارعة التي يشهدها المنطق الطبيعي اليوم ولكون "ارتباط الحجاج بمستمع معين خاص أو متخصص."³ فكل هذه العوامل تساهم بقدر ما في تشكيل أنواع مختلفة من الخطابات التي تستدعي أساليب بلاغية جديدة، والتي تمنح الخطاب نوعا من التميز و القدرة الكافية على التأثير، لذا "لا ينبغي لدراسة بيانية للتمثيل والاستعارة أن تقتصر على معالجتها في سياق خاص وفي أفق مخصوص؛ لأن ذلك قد يؤدي إلى جعل ما يعود إلى خصوصية الاستعمال أو السياق ذا طبيعة عامة."⁴ بل إن هذا الأمر قد يتعدى كل الحدود في نظر بيرلمان "أنه في الواقع، من

¹ - Chaïm Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca, Traite deL'argumentation La nouvelle Rhetorique ,p :39. « C'est donc la nature de l'auditoire auquel des arguments peuvent être soumis avec succès qui détermine dans une large mesure et l'aspect que prendront les argumentations et le caractère convaincant d'une argumentation? »

² - طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتحديد علم الكلام ، ص:146.

³ - د: محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، إفريقيا الشرق المغرب، ط2، 2012، ص:24.

⁴ - شايم بيرلمان، التمثيل والاستعارة في العلم والشعر والفلسفة، ت: حمو النقاري، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، إشراف د: حافظ اسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث إربد، الأردن، ج1، 2010، ص: 375.

ناحية المبدأ لا توجد بنية غير قابلة لأن تتحول بالاستخدام إلى شكل بلاغي¹، في ظل هذا التحول الذي لا حدود له للبنى الطبيعية جعل اللغة الطبيعية في تجدد دائم واستمرارية في العطاء.

على إثر هذه الخاصية التي تتمتع بها اللغة الطبيعية سواء من حيث التوالد أو من حيث الإجراء، عرف هذا مصطلح (Figure rhetorique) تنوع واضطراب في الاصطلاح قد يتقارب في المعنى أو في الاشتقاق أحياناً، وقد يتباين إلى حد الاغتراب في الكثير من الأحيان مما خلق تداخلاً صارخاً في المفاهيم المختلف للوجوه البلاغية، وإن هذا التداخل يعتبر امتداداً للاضطراب الذي عان منه هذا المصطلح في أصله الغربي قبل انتقاله للساحة البلاغية العربية فنجد مثلاً: Figure rhetorique ، (Image, Figure) ويعلل د: عبد الله صولة سبب اختياره كلمة " صور البلاغية" بدل "مجازات" عند ترجمته مصطلح " Figures " بقوله: " لكون كلمة Figuers تتجاوز مفهوم المجاز في البلاغة العربية لتشمل كل بنية أو شكل تركيبى أو دلالي أو براغماتي يرد في الكلام بطريقة في التعبير غير عادية"² هذا إذا ما قارنا البلاغة العربية المعاصرة مع نظيرتها الغربية.

بما أن هذه المصطلحات تتقارب في المعنى ترجمت إلى العربية في أغلب الأحيان بمصطلح واحد وهناك من حاول أن يوافق كل واحدة منها بما يوجد من مصطلحات بلاغية في التراث البلاغي العربي وهذا حسب المفهوم، من بين هذه مصطلحات البلاغة الغربية نذكر مثلاً: القياس التمثيلي يتناسب مع التمثيل الموجود في التراث البلاغي العربي.

إن من نقاد عرب من اعتبر أن معظم الأشكال البلاغية التي تضمنتها البلاغة الجديدة يمكن أن تكون ضمن "الاستعارة"، هذا ما يفسر الاهتمام الكبير الذي أولاه الباحثون العرب المعاصرون لمصطلح "الاستعارة"، ربما لأنه يغني عن الوجوه البلاغية الأخرى، ويرجع هذا الاهتمام أصلاً إلى العناية الخاصة التي أعطتها البلاغة الجديدة للاستعارة، حيث نجد أن "بيرلمان" أفرد قسماً خاصاً من كتابه "مصنف في الحجاج" لدراسة الاستعارة، في المقابل "علاقة التشابه بدورها قد أخذت تنحصر في نطاق الاستعارة حيث بدأ هذا المصطلح يغطي حقول القياس بأكملها - كما أشرنا إلى ذلك من قبل - وبينما كانت البلاغة القديمة ترى في كل استعارة تشبيهاً ضمناً - فإن البلاغة الجديدة - على

¹ - صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 171.

² - د: عبد الله صولة، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص: 323.

عكس ذلك - تنظر إلى التشبيه باعتباره استعارة مكشوفة مباشرة ومنقوصة. ولعل أبرز مثل للتوسع في استخدام مصطلح الاستعارة ما كان يفعله "بروست proust" من اعتبار أعماله كلها من قبيل "الاستعارة" حيث تصبح معادلة للمتخيل¹ وقد أخذت هذه الأهمية من القوة الإقناعية التي تحققها ضمن سياق معين.

إن هذه المكانة التي يحتلها مصطلح الاستعارة بالمقارنة مع مختلف الأشكال البلاغية الأخرى في البلاغة الغربية وكذا التجاذب الذي يعرفه هذا المصطلح بين المعنى القديم وبين المعاني الجديدة والأدوار المهمة التي اتسمت بها الاستعارة على غرار الأساليب البلاغية الأخرى ساهمت بشكل كبير في تضارب الترجمات.

مصطلح (conviction) :

تعامل الباحثين مع هذا المصطلح انطلاقاً من المفهوم الذي شرحه "بيرلمان" طويلاً لهذا المصطلح ومقارنته بمصطلح " La persuasion " الذي ترجم بلفظة "الإقناع" هذا ما تبناه "د: الحسين بنو هاشم" ، و "د: عبد الله صولة" على سبيل المثال، وإن كان "صولة" أعطى المصطلح لفظاً آخرًا وهو "الحمل على الإذعان"² في نفس الموضوع دون أن يبرر سبب ذلك، لكن رغم الشرح الوافي الذي قدمه "بيرلمان" لمفهوم (conviction) .

أقرّ "د: حسين بنو هاشم" بصعوبة إيجاد مصطلح يتوافق مع دلالة مصطلح (conviction) عند "بيرلمان" في قوله: "إن العثور على ترجمة ملائمة لمصطلح (conviction) تطلب منا جهداً كبيراً. إذ لم نعثر، فيما اطلعنا عليه من دراسات عربية حول الحجاج، على أي ترجمة مقنعة له"³ ليقوده البحث بعد جهد إلى إيجاد لفظة في التراث البلاغي العربي وهي لفظة "التبيين" ويرجع اختيار "د: حسين بنو هاشم"، هذه اللفظة "اعتباراً لهذه العلاقة بين كلمة "بيان" لفظة معجمية ومصطلحاً بلاغياً أصيلاً وبين معاني الحجاج والإقناع ، رأينا أن نترجم مصطلح (conviction) بلفظة "تبيين"،

¹ - صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 193.

1- د: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص: 15.

³ - د: حسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شايم بيرلمان، ص: 15.

لتأخذ بذلك معنى جعل المخاطب على بينة من الدعوى المطروحة عليه، فستعمل حينئذ عبارة مثل "بين فلانا" بمعنى جعله على بينة من الأمر، وهي بهذا المعنى تلتقي مع المصطلح الفرنسي. وهي صالحة للاشتقاق والتنقل بين معانيه المجاورة¹، لكن رغم ما يوفره هذا المصطلح الذي اعتمده "د: حسين بنو هاشم" في ترجمته لمصطلح (conviction) من دلالة متقاربة بين اللفظة غير أنه طرح مشكل جديد في نظر د: حسين بنو هاشم "المشكل هو أن فعل "بين" في اللغة العربية يتعدى إلى شيء وليس إلى شخص"² مما جعله يبحث عن لفظة أخرى قد تؤدي الدلالة المطلوبة.

شد انتباه د: حسين بنو هاشم "لفظة "تصديق" مستدلا بالمفهوم الذي وضعه لها "حازم القرطاجي"³ لما فرق بين لفظي "الظن" و"اليقين" فنسب الأولى إلى "الاقناع" والثانية إلى "التصديق" لكن ظلت عقبة الاشتقاق والاستعمال مع المصطلحات الأخرى تطرح نفسها، مما جعله يبحث عن بديل آخر يفى بالغرض، على حسب رأي د: حسين بنو هاشم "وتبيننا أخيراً لفظة "تيقين" (من يقن يُقِنُّ) التي انتبهنا إليها في سياق تحقّقنا من لفظة "تصديق"، فكثيراً ما يرتبط معناها باليقين"⁴ فقد استقى د: الحسين بنو هاشم هذه اللفظة كذلك من عند حازم فقد وردت عنده بنفس دلالة لفظة "التصديق" غير أنها تتميز عن نظرتها أنها تقبل الاشتقاق، كما أنه لاحظ أن لفظة "اليقين" من دلالاتها المعجمية أنها توظف على الاحتمالية وإن هذا من صلب الخطاب الحجاجي وهذا ما جعله يختار هذا المصطلح دون غيره، لكن هذا المصطلح لم يوظف تقريباً رغم الجهود التي بذلها لأجل توليده، نظراً لانعدام التنسيق والتكاتف بين الباحثين.

مصطلح (L'argument pragmatique):

أن لهذا المصطلح عدة ترجمات أكثرها استخداماً "الحجة النفعية"⁵ كما نجد ترجمات أخرى منها "الحجة الناجعة"⁶، أو "حجة الربط السبي"⁷، والأکید أن هذه الترجمات اعتمدت على مفهوم

¹ - نفس المرجع، ص: 19.

² - نفس المرجع، ص: 19.

³ - ينظر حازم القرطاجي، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص: 65 إلى 71.

⁴ - د: الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، ص: 21.

⁵ - ينظر: د: الحسين بنو هاشم، بلاغة الحجاج الأصل اليونانية، ص: 72.

⁶ - د: علي شعبان، الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، ص: 286.

⁷ - وينظر: د: صولة الحجاج، في نظرية الحجاج، ص: 50.

هذا المصطلح في نصه الأصلي "لبيرلمان" توليده إذ يقصد به " ما يمنح الرضا عن فعل أو حدث أو قاعدة أو أي شيء آخر تبعاً لنتائجه الايجابية أو السلبية"¹، أي أنّ هذه الحجة توحى بأن هناك مصلحة للمخاطب مما يدفعه إلى الاقتناع بكل طمأنينة، كما ورد عند "عبد الهادي الشهري" ترجمة أخرى وهي حرفية "الحجة التداولية"² وإن كان من مفهوم المصطلح ما يتوافق مع مفهوم مصطلح التداولية "pragmatique". الذي يدل "على معنيين: "الاستعمال" و"التفاعل" معاً"³. أي استخدام اللغة بغرض الوصول إلى تحقيق المطلوب، وهنا تتلخص الحجة ويبدو الاستعمال النفعي للغة.

مصطلح (Orateur):

هناك شبه اتفاق بين الباحثين في ترجمة هذا المصطلح "بالخطيب"⁴ هذا اعتماداً على الترجمة العربية القديمة لكتاب الخطابة لأرسطو مثل قوله: "لهذا يجب على الخطيب أن يتجه إلى تعرّف على أحوال السامعين وآرائهم السابقة"⁵، غير أن بعضهم ترجمه "بالمخاطب"⁶، "على اعتبار أن البلاغة الجديدة" غير خاصة بالخطاب الشفوي فحسب، كما كان عليه الأمر في الخطابة القديمة، بل كذلك بالخطاب الكتابي.⁷ ومن ذلك نتبين أن ترجمة مصطلح (Orateur) بالمخاطب على حسب المفهوم الجديد الذي انفتح معناه على جميع أنواع المخاطبين دون النظر إلى نوع المخاطب المهم أنه في مقام الحجاج؛ لأن "الحجاج فعالية تداولية جدلية ديناميكية فعالة، تستلزم وجود أطراف تواصلية بينهما قواسم حجاجية مشتركة"⁸ يحددها نوع الخطاب سواء من ناحية الأساليب أو تغليب استعمال استعمال آليات معينة دون أخرى.

¹ -Chaim Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca, Traite deL'argumentation La nouvelle Rhetorique, P : 358. « Celui qui permet d'apprécier un acte ou un événement en fonction de ses conséquences favorable ou défavorable. Ce »

² - ينظر: آليات الحجاج وأدواته، عبد الهادي بن ظافر الشهري، ص: 83.

³ - د: طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص: 28.

⁴ - ينظر: د: الحسين بنو هاشم، بلاغة الحجاج الأصل اليونانية، ص: 36.

⁵ - أرسطو، الخطابة، الترجمة العربية القديمة، ت: عبد الرحمن بدوي، ص: 148.

⁶ - ينظر: آليات الحجاج وأدواته، عبد الهادي بن ظافر الشهري، ص: 98.

⁷ - د: الحسين بنو هاشم، بلاغة الحجاج الأصل اليونانية، ص: 37.

⁸ - د: د: جميل حمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، ص: 28.

يفسر في الوقت نفسه اعتماد بعض الباحثين مصطلح المحاجج¹ أو المحاج وهو صيغة اسم الفاعل المشتق من الفعل حجّ أو حاجج الذي يدل على فعل المحجاج وعلى من يقوم به. أي أن هذه اللفظة مشتقة من الجذر اللغوي للحجاج، وبهذا تدل على اتساع منتجي الخطاب المحجّاجي.

بينما القلة ترجمه إلى لفظة "الباث" وإن كانت هذه اللفظة لها دلالة أشمل لا تقتصر على المحجاج إنما تعني الإعلان والتوقع ويكون أكثر ذلك في الخبر مع أن الخبر هو المنطلق الأول الذي ينطلق منه المحجاج، وربما يدل هذا المصطلح المستعمل على المسار المحجّاجي الذي ينطلق من الخبر، ثم يطرح للعيان والمساءلة والمحاورة فيصبح عندها ماثوثا وبعدها يترك للسامع فرصة المعاينة فالتفكير ومنها الوصول إلى مرحلة الاقتناع.

من خلال هذه الدراسة المقتضية لمصطلحات البلاغة الجديدة نخلص إلى أن أغلب الباحثين اعتمدوا على اجتهادات فردية في ترجمة هذه المصطلحات أو في اختيار المصطلح الأنسب للاستعمال، هذا الاختيار يفتقر إلى التنسيق وتكثيف الجهود من أجل ضبط مصطلحات البلاغة الجديد، بالتالي هذه الاجتهادات الفردية ساعدت على اتساع الهوة في التباين بين المصطلحات.

مما زاد كذلك من حدة هذا الاضطراب هو عندما "غلب على الباحثين العرب في وضع مصطلحاتهم العلمية وبناء أجهزتهم الوصفية والتفسيرية الاشتغال بقوالب ومعايير اللغة الأجنبية: الفرنسية والانجليزية؛ فلا نكاد نجد عند معظمهم من المعاني العلمية إلا ما كان نقلا حرفيا لمصطلحات أجنبية من غير وعي بأصول بعضها النسبية، وفائدتها المحمودة، وبلغ سلطان هذه المعايير على هؤلاء درجة أصبحت معها ألفاظهم "أشكالا" منقطعة الصلة بدلالاتها اللغوية وفاقدة لأسباب الإنتاج والتغيير في الفكر العلمي"²، من هنا ندرك أن قضية غياب المعيار الذي يتناسب والخصوصية العربية له وقع خاص على مدى استيعاب المضامين واحتواء شروخ فجوة المصطلح البلاغي.

غير أن الرؤية الأفقية تؤكد إمكانية الخروج من هذا الشرخ المنهجي الاصطلاحي الممتد في الاتساع وكذا الفوضى والاضطراب الاصطلاحي الذي ألقى بأعبائه التي تبدو غير متناهية على الدائرة البلاغة العربية المعاصرة، هذا يتم في ظل التقيد بمعايير التوليد الاصطلاحي، وإن البلاغة العربية عامة

¹ - ينظر: علي شعبان، الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، ص: 228.

² - د: طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتحديد علم الكلام، ص: 29.

استطاعت أن تقدم أسسا منهجية يسير وفقها الباحث في عملية الإنتاج الاصطلاحي والنقل الاصطلاحي، بتحديد المعايير وضبطها حتى تكون قاعدة يلتزم بها كل باحث عربي، كأمثال د: يوسف وغليسي" في كتابه "إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد" الذي جمع بين طياته كل المعايير التي تمكن الباحث العربي من حل معضلة المصطلح التي يتخبط فيها، كما قدم مجموعة من التوصيات تيسر عملية الاتفاق الاصطلاحي لتوحيد المنظومة الاصطلاحية، وقد سبقه إلى ذلك المجمع العلمي العراقي إلى وضع مجموعة من المعايير متفق عليها من قبل مجموعة من الباحثين العرب، تضبط توليد المصطلح أو نقله.

إن هذه المعايير وضعت لضبط المصطلح النقدي العربي المعاصر عامة، لكن هذا لا ينفي إمكانية تطبيقها على مصطلح البلاغة الجديدة بكل حذفها؛ لأنه جزء من مصطلح النقد العربي المعاصر والإشكالية الاصطلاحية قائمة في كلا المبحثين وبنفس الحدة.

إنّ هذه المصطلحات المترجمة إلى العربية لا نجد لها في الكتب البلاغية الغربية المترجمة فقط؛ إنما الإشكال مطروح في جميع المدونات و المقالات النقدية المترجمة منها والمنجزة من البلاغيين العرب، كما أنّ هذه الإشكالية لا تنحصر في زمن بداية الالتقاء والتعرف على البلاغة الجديدة في منجزها الغربي؛ إنما لا يزال الإشكال الاصطلاحي قائما، بل يزداد حدة كلما تعددت حقول الممارسة البلاغية المعاصرة.

غير أنّ هذا الإشكالية الاصطلاحية تبدو واضحة في "اتجاه الترجمة والقراءة".

1-2- نماذج من ترجمة المنجز البلاغي الغربي الجديد:

المكتبة النقدية العربية المعاصرة تحتوي على مجموعة لا بأس بها من الكتب التي أفادت الباحث العربي كثيرا وقربت له مفاهيم البلاغة الجديدة وبسطت أمامه الآليات والأدوات وبذلك كانت بمثابة المفاتيح التي بها ولج الباحث البلاغي العربي في البحث الحجاجي بيسر وسلاسة إلى يومنا هذا، وإن كانت هذه الترجمات تعاني من إشكالية الاصطلاح والمنهج في نفس الوقت، إلا أنّ ذلك لا ينقص من وزن مجهودات المترجمين العرب.

1-2-1- نموذج النص المترجم من البلاغة الجديدة الغربية:

من أهم النماذج المترجمة التي لا بد أن نشير إليها في هذا الصدد هو ما قدمته فرقة البحث البلاغي تحت إشراف "د: حافظ إسماعيلي علوي" في جزئه الثاني حيث خصص قسم منه لترجمة مجموعة من النصوص وبعض المقالات الغربية مقتطفة من بعض المدونات البلاغية الغربية.

من بين النصوص المترجمة في هذا القسم من المنجز البلاغي العربي الضخم والتي اهتمت ببلاغة "بيرلمان" مقالة "التمثيل والاستعارة في العلم والشعر والفلسفة"¹ "لشاييم بيرلمان" المترجمة على يد "حمو نقاري" وفي هذه المقالة يستعرض "بيرلمان" الدور الفعال الذي يلعبه كل من التمثيل والاستعارة في العملية الحجاجية كما أنه قسم أنواع الاستعارات وكيفية عمل كل واحدة منها، في المقابل قدم لنا رؤية كل من العلم والشعر والفلسفة للتمثيل والاستعارة بعرض آراء كل من "كوهن" و"كونزيط" وكذا "ديكارت"؛ لأن كل واحد منهم إلا ونظر للاستعارة من زاوية معرفية خاصة به، ورغم أن هذه المقالة تطرح موضوعا فلسفيا إلا أن المترجم "حمو نقاري" نقلها إلى القارئ العربي بأسلوب سلس بعيد عن الأسلوب الفلسفي الجامد، وحتى تتصف ترجمته بنوع من الأمانة العلمية الأكاديمية ختمها بجدول ضمنه أهم المصطلحات الحجاجية المترجمة.

ومن المؤكد أن فائدة هذه المقالة على الباحث العربي لا يمكن تجاهلها؛ لأنها ببساطة تطرقت إلى أهم تقنية من تقنيات الحجاج لدى "بيرلمان" وهي "الاستعارة" وتعتبر هذه المقالة زبدة ما تطرق إليه "بيرلمان" بخصوص موضوع الاستعارة.

نذكر كذلك نص مقال "الحجاج وأشكال التأثير"¹ لـ "باتريك شارود" ترجمة "ربيعة العربي"، في هذا النص المترجم تنقل المترجمة أهم التطورات التي شهدتها الخطاب الحجاجي عند اتصاله بالعلوم الإنسانية الأخرى المجاورة للبلاغة وما طرحه هذا الاتصال من إشكالات "في وسائل التحليل المستعملة في التخصصات الأخرى والتفكير في المفاهيم"² وبتالي أعطت المداخلحة لمحة وجيزة عن الأشكال المتعددة للتأثير وما هي متطلبات ذلك وقد حاولت الباحثة أن ترفق ضمن النص المترجم مصطلحات التي نقلتها إلى اللغة العربية بلغتها الأصلية حتى تمكن القارئ التعرف على المصطلح بلغته

¹ - باتريك شارود، الحجاج وأشكال التأثير، ت: ربيعة العربي، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ج2، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، (د، ط)، 2010م، ص: 463.

² - باتريك شارود، الحجاج وأشكال التأثير، ص: 463.

الأم مثلا مصطلح "التشابكية" "interdisciplinaire" ومصطلح "المحورة" thematisation والحمل predication" ومن خلال هذه العينة التي سعت المترجمة أن تذكر المصطلح بلغته الأم وبلفظه المترجم أنها ركزت في ذلك على المصطلحات التي لم يسبق للباحث العربي التعامل معها أو أنه يندر استعمالها، ولعل الباحثة ارتأت ذلك من باب التقريب أكثر وكذا رفع اللبس عن المصطلح أو لأنها أرادت أن تجعل القارئ بطريقة غير مباشرة طرفا مشاركا في الترجمة وهذا بمقارنة لفظي المصطلح (اللفظ الأصلي، واللفظ المنقول له)، المهم بطريقة أو بأخرى ساهمت ترجمة هذه المداخلات في مواكبة أهم ما طرأ من تطورات على البلاغة الجديدة من إشكالات وأسئلة حاول "باتريك شارود" إيجاد إجابات في ظل المقاربات التي فرضتها بعض العلوم الأخرى كعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم اللسانيات على البلاغة الجديدة.

ما يلفت انتباهنا في هذه المداخلات أنها ذات دور كبير في توضيح المسار البلاغي الغربي وما ترتب عن هذا المسار من إشكالات، وكيفية مواكبة هذه التغيرات، ولو أن هذه المداخلات لم تنقل إلى اللغة العربية حسب رأينا، فأغلب الاحتمال أنه لن يطلع عليها الباحث العربي خاصة في هذا الوقت لما كثرت المؤلفات العربية في البلاغة الجديدة، بحيث أصبح الباحث العربي لا يكلف اهتماما بقراءة البلاغة الجديدة الغربية في لغتها الأم، وإن استدعى الأمر ذلك رجع إلى كتب البلاغة الجديدة، اعتقادا منه بأنها تغنيه عن ما يرد في المقالات أو المداخلات؛ بما أنها هي الأصل، لكن لا يغيب على أي باحث أهمية المقال أو المداخلات لما تطرحه من نقاط مهمة ومتخصصة في كل الميادين وعموما ما يطرح فيها يكون محل نقاش وإشكال يسعى المقال أو المداخلات إلى الإجابة عنه أو إثراء الموضوع المطروح على النقاش.

1-2-2- نموذج الكتاب المترجم من البلاغة الغربية الجديدة:

الملاحظ أن ترجمة كتب البلاغة الغربية إلى اللغة العربية قليل جدا مقارنة بالمنجز البلاغي الحجاجي العربي، خاصة بلاغة "بيرلمان" التي اهتمت بالجانب المنطقي، وربما يعود ذلك في الأساس إلى أن المهتمين بالبلاغة يفتقرون في الغالب إلى آليات الترجمة الصحيحة، فهذا العوز لا يمنحهم الجرأة الكافية لاقتحام ميدان الترجمة وخاصة إذا تعلق الأمر بالترجمة المتخصصة، وما نجده من كتب بلاغية مترجمة يعد بمثابة إنجاز هائل يثري المكتبة العربية ويفتح آفاق جديدة أمام القارئ العربي لما للترجمة من

دور فعال في تحريك عجلة البحث وتطويره، وإن كان يشوبها بعض النقائص تعود إلى الأسباب التي سبق ذكرها.

من بين أهم الكتب المترجمة التي ساهمت بشكل كبير في بلورت مفاهيم البلاغة الجديدة، وأصبحت من بين أهم المراجع المعتمدة لدى الباحث العربي، كتاب "الحجاج" لـ "كريستيان بلاتان" ترجمة "عبد القادر المهيري"¹ من اللغة الفرنسية.

استهل "عبد القادر المهيري" ترجمة الكتاب بمقدمة موجزة تحدث فيها عن مفهوم الحجاج قديماً، وتطوره في القرن العشرين على يد "بيرلمان" و"تيتيكا" وأشار فيها إلى أهمية هذا الكتاب في الدرس البلاغي المعاصر بقوله: "يمكن أن نعتبر هذا الكتاب مدخلاً لدراسة الحجاج، يساعد المرء على تكوين فكرة حول هذا المجال قبل أن يقبل على الاطلاع على المصنفات المتخصصة العميقة"² فمن خلال كلام المترجم نتبين أن هذه الترجمة تعد مدخلاً عاماً لنظرية الحجاج. لخص فيه الكاتب أهم القضايا البلاغية التي درستها البلاغة الغربية الجديدة، وما توصلت إليه من آليات بلاغية مدعماً ذلك بشواهد دقيقة.

أثبت المترجم بعض المصطلحات في لغتها الأم ولم يختلف في هذا المترجم عن ما اعتدناه في معظم الترجمات، مثلاً: "فعلاً (justement)"³، "حجاج السلطة (ad vercundiam)"⁴، لكن لم يكتف المترجم بإثبات المصطلح في لغته الأصلية إنما قام بإثبات عبارات كاملة مثلاً عبارة "التبكيئات السفسطائية" حيث أثبت المترجم العبارة الأصلية لها في الهامش "sophistiques réfutation"⁵، وعبارة "بطريقة عادلة" "d'une manier juste"⁶ فقد وردت مثبته دون أن يبرر المترجم سبب ذلك.

¹ - كريستيان بلاتان: مدير بحوث بالمركز الوطني للبحث العلمي بفرنسا عضو فريق البحث حول التفاعلات التوصيلية بجامعة ليون 2. من مؤلفاته: بحوث في الحجاج.

² - كريستيان بلاتان، الحجاج، ت: عبد القادر المهيري، ص: 8.

³ - كريستيان بلاتان، الحجاج، ت: عبد القادر المهيري، ص: 128.

⁴ - نفس المرجع، ص: 114.

⁵ - نفس المرجع، ص: 56.

⁶ - نفس المرجع، ص: 123.

كما أن المترجم أورد بعض الشواهد المستعملة من قبل الكاتب مثبتة بلغتها الأصلية نذكر منها:

— "Pierre est serviable" (بطرس خدوم).¹

— "Roma locuta est" (قالت روما قولتها) - وانتهى النقاش.²

يبدو من هذا أن المترجم يلجأ إلى ذلك عندما يرى أن عملية الترجمة تذهب عمل الشاهد وتفقد نجاته.

ما يميز هذه الترجمة أن المترجم يلجأ إلى عدم ترجمة بعض الكلمات ويقدمها إلى القارئ كما وردت في الكتاب الأصلي وهذا لأسباب متعددة تختلف باختلاف القصد من وراء ذلك، مثلاً ما جاء في قول الكاتب " وسنواصل استعمال "paralogisme" لترجمة "fallacy" علماً أن الكلمة الإنكليزية أكثر جريانا من مقابلها الفرنسي³ والمترجم في هذه الحالة هو مضطر إلى الاحتفاظ باللفظ الأصلي لأنه لو حاول الترجمة ستذهب فائدة المعنى كله.

كما أنه في بعض الحالات النادرة لا يترجم اللفظ إنما ينقله إلى القارئ بلغته الأصلية، ويكتفي بترجمة مفهوم المصطلح مثلاً في قوله " هما يصفان سلوكين اثنين ويمكن في هذه الحالة أن تصف كلمة "servilité" طريقة في السلوك مختلفة عما تفيد كلمة "serviabilité"⁴ ويسعى المترجم في هذه الحالة إلى الاحتفاظ بالكلمات الأصلية؛ لأن ذلك يوضح المعنى الذي أراده المؤلف ولو أنه ترجم الكلمتين لفسد المعنى وخرج الكلام عن قصده؛ لأن الكاتب كان في صدد شرح مثل ضربه عن "التعارض الخطابي والاستقطابية المعجمية"⁵ وقد أشار المترجم إلى ضرورة ذلك في الهامش "أثبتنا المثالين في لغتهما الأصلية لأنهما يتضمنان كلمتين مشتقتين من أصل واحد وإن كانا يفيدان معنيين متناقضين، ولأن التحليل قائم على هذا الفرق"⁶، على اعتبار أنهما يمثلان الشاهد في المثالين.

¹ - نفس المرجع، ص: 114.

² - نفس المرجع، ص: 160.

³ - كريستيان بلانتان، الحجاج، ت: عبد القادر المهيري، ص: 61.

⁴ - نفس المرجع، ص: 114.

⁵ - ينظر: كريستيان بلانتان، الحجاج، ت: عبد القادر المهيري، ص: 114.

⁶ - نفس المرجع، ص: 114.

يختتم المترجم ترجمة الكتاب بفهرست يحصي فيه مجموعة من المصطلحات البلاغية الوارد ضمن الكتاب المترجمة بثلاثة لغات عربية وفرنسية وأخرى إنجليزية، كما أنه قدم للقارئ العربي قائمة من مجموعة من مراجع البلاغة العربية الجديدة مصنفة حسب مواضيع وتخصصات بلاغية معينة كموضوع "تاريخ البلاغة والخطابة"¹ وتخصص "الحجاج في اللغة"²، أراد المترجم "عبد الله المهيري" بهذه القائمة من المراجع الغربية أن يجيل الباحث العربي إلى الاطلاع على بلاغة الحجاج في مدوناتها الغربية ويسهل عليه عملية البحث في المكتبة الحجاجية بإعطائه لمحة وجيزة عن عناوين أهم المنجزات البلاغية الغربية. قد يستفيد منها الباحث.

على قلة صفحات كتاب "الحجاج" لـ "كريستيان بلانتان" إلا أن ترجمته إلى اللغة العربية وما احتوته من مصطلحات بلاغية حجاجية يعد نقطة انطلاق لكل باحث مبتدئ في الدراسات الحجاجية.

هناك نموذج آخر للترجمة هو كتاب "الحجاج بين النظرية والأسلوب عن كتاب نحو المعنى والمبنى" "لباتريك شارودو" ترجمة د: أحمد الوديني وهو عبارة عن "مقال بعنوان: le mode d'organisation argumentatif" "لباتريك شارودو".

إنّ هذه الترجمة تعد نقلاً هاماً للدرس الحجاجي العربي بحيث هي عبارة عن إعادة بناء للهيكل الحجاجي الغربي ووضع الأصبع على أهم النقاط الحجاجية التي كثر حولها السؤال في المنجز البلاغي الغربي المعاصر وامتد أثر السؤال إلى المنجز البلاغي العربي المعاصر، بداية من مفاهيم مصطلحات الحجاج إلى غاية توضيح وترتيب أساليب الانجاز الحجاجي، فقد توقف الكاتب على أهم المصطلحات مثل: الحجاج، الاستنتاج، الاستدلال...، كما حاول الكاتب أن يقف عند أهم الفروق بين هذه المصطلحات كلما استدعى الأمر إلى ذلك، مثلاً: فرق لنا بين معنى "النتيجة" و"الغاية"³،

¹ - نفس المرجع، ص: 166.

² - نفس المرجع، ص: 167.

³ - باتريك شارودو، الحجاج بين النظرية والأسلوب، ص: 27.

ويين معنى "الدحض"، "النفي"، "الحظر"¹، وقد دعم الكاتب كل هذه التوضيحات والشروح بأمثلة من الكلام حتى يقرب المعنى أكثر.

من هنا تبدو أهمية الكتاب في تلخيص أهم مفاهيم الحجاج وطرحها بأسلوب جد بسيطة وعملي بعيدة عن التعقيد الفلسفي والحشو الغامض الذي يربك المعنى، وترجمة هذا المنجز لا تقل عن هذه الأهمية خاصة في ظل التساؤلات الكثير عن المفاهيم التي بقيت عالقة في ذهن القارئ العربي وفي هذه الترجمة سيجد القارئ العربي إجابات دقيقة ومختصرة لهذه التساؤلات.

وقد نقل المترجم هذه المصطلحات إلى اللغة العربية وقليل ما كان يلجأ إلى إثبات المصطلح في اللغة الأصلية دون أن يعطي سببا لذلك، مثل: "البرهنة" "ratio"². وكذلك لفظة الإطار "rejeter"³، نموذجة "Typologie"⁴... مع أن المترجم وضع فهرست للكثير من المصطلحات الحجاجية الواردة في الكتاب مع ترجمتها في آخر الكتاب لتمكين الباحث العربي من الاطلاع على المصطلح في لغته الأم.

1-3-3- قراءة وتحليل المنجز الغربي في البلاغة الجديدة:

قد تلقى القارئ العربي البلاغة الجديدة عن طريق استقراء وتحليل المنجز الغربي أكثر بكثير مما تلقاه عن طريق الترجمة خاصة فيما يخص بلاغة "بيرلمان" فالمكتبة الحجاجية العربية مليئة بكم هائل من المؤلفات والمقالات الحجاجية التي قدمت البلاغة الجديدة للقارئ العربي وقد اختلفت طريقة التقديم من منجز إلى آخر.

1-3-1- قراءة وصفية:

في هذا النوع من القراءات تم عرض البلاغة الجديدة عرضا عاما، بطريقة مبسطة وملخصة في آن واحد، ويمثل هذا النوع من القراءات كتاب د: "جميل حمداوي" "من الحجاج إلى البلاغة الجديدة"

¹ - باتريك شارودو، الحجاج بين النظرية والاسلوب، ص: 12.

² - باتريك شارودو، الحجاج بين النظرية والاسلوب، ص: 07.

³ - باتريك شارودو، الحجاج بين النظرية والاسلوب، ص: 12.

⁴ - نفس المرجع، ص: 19.

يتناول الكاتب مختلف مراحل البلاغة الغربية الجديدة، بحيث يتضمن "الفصل الأول مجموعة من النظريات الحجاجية القديمة والمعاصرة، من بينها: نظرية الحجاج الجدلي، والنظرية الكلاسيكية في الحجاج البلاغي مع الأرسطيين الجدد كشاييم بيرلمان وأولبريخت تيتيكا، ونظرية الحجاج اللغوي مع أنسكومير وأوزوالد دوكر، ونظرية الحجاج الخطابي مع روث أموسي ومثيل مايير وغيرهما..."¹ وقد توصل في نهاية هذا الفصل بعد عرض مجموعة كبيرة من نظريات الحجاج إلى أن "الحجاج سمة بارزة في المفوضات اللغوية والنصوص والخطابات، سواء أكانت مكتوبة أم شفوية، بطريقة واضحة أو مضمرة. ويكون الحجاج واضحاً في الخطابين: الإشهاري والسياسي، ويختلفي بشكل من الأشكال وراء أقنعة تخيلية ورمزية وجمالية في الأدب والفن"²، وإنّ هذا المفهوم الذي حدد به "د: جميل الحمداوي" الحجاج، هو مفهوم عام استخلصه الكاتب من قراءات متعددة للنظريات الحجاجية يجمع بين أطرافه اختلافاتها وخصائصها.

بينما يتناول في الفصل الثاني من هذا الكتاب "البلاغة بين مرحلتين: مرحلة البلاغة الكلاسيكية ومرحلة البلاغة الجديدة"³ بوصف كل من البلاغتين على حدى، بالتركيز على امتدادات البلاغة الجديدة وانفتاحها على حقول معرفية شتى ليخلص إلى ما أراده "بيرلمان" من أن تكون عليه البلاغة الجديدة "هو أن البلاغة المعاصرة أصبحت اليوم إمبراطورية منفتحة على تخصصات علمية عدة، ولها امتدادات واسعة، عبر فضاءات معرفية شاسعة، بل أضحت مدخلا لا يمكن القفز عليه في المجال العلمي والأدبي والفني والثقافي، ومازالت مجموعة من العلوم والتخصصات تسترشد بآليات البلاغة في خطاباتها المعرفية المختلفة والمتنوعة إن نظرية وإن تطبيقاً"⁴، ويبدو أنه خلص إلى هذه النتيجة العامة بعد إطلاعه على كم هائل من المراجع الغربية والعربية.

يظهر مستوى هذا الاطلاع من خلال مكتبة البحث التي قدمها الكاتب في نهاية الكتاب، وإنّ حجم الكتاب الصغير يوحي على مدى الجهد المبذول لدى الكاتب لتقديم هذه القراءات المختلفة في

¹ - د: جميل حمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، المقدمة، ص: 05.

² - نفس المرجع، ص: 62.

³ - نفس المرجع، ص: 05.

⁴ - نفس المرجع، ص: 103.

كتاب بهذا الحجم والذي اختصر فيه مسيرة البلاغة الجديدة من المرحلة اليونانية إلى يومنا هذا مع الإلمام بجميع مستجدات وامتدادات البلاغة الجديدة.

1-3-2- قراءة تحليلية:

هذا النوع من القراءات شكل أبرز وأعز المنجزات البلاغة العربية المعاصرة لاسيما في البلاغة الحجاجية، بحيث نجد أن كل الباحثين في مجال بلاغة الحجاج إلاّ ولهم منجز أو أكثر يتناولون فيه بلاغة الحجاج تناوياً قرائياً تحليلياً، وتقريباً هذا النوع من القراءات يفرض نفسه على الباحثين، فالباحث القارئ لا بد له من أن يتفاعل مع المقروء بطريقة أو بأخرى، والعملية التحليلية هي انعكاس حتمي لهذا التفاعل، ويكون هذا التفاعل التحليلي حتى مع غيرها من المنجزات البلاغية غير القرائية كالمنجزات النظرية أو التطبيقية، لما لهذه القراءة من خاصية التتبع والإشراف؛ لأنّ كل منجز بلاغي حجاجي إلاّ وله مرجعية غربية يقوم عليها.

يعتبر كتاب "صلاح فضل" "بلاغة الخطاب وعلم النص" من أهم المنجزات البلاغية الحجاجية في البلاغة العربية المعاصرة الذي استعرض الباحث في بعض أجزاء هذا الكتاب عناصر هامة من نظرية الحجاج عند "بيرلمان"، كما أنه خص جزءاً منه لدراسة النظرية الحجاجية عند "بيرلمان" تحت عنوان "بلاغة البرهان" نلاحظ من خلال هذا العنوان اضطراب مصطلح البلاغة الجديدة، حيث أن "صلاح فضل" لا يجد فرقا بين معنى الحجاج ومعنى البرهان، يؤكد ذلك تعريفه لبلاغة "بيرلمان" في قوله: "لذلك فإن هدف نظرية البرهان argumentation لديه هو دراسة تقنيات الخطاب التي تسمح بإثارة تأييد الأشخاص للفروض التي تقدم لهم، أو تعزيز هذا التأييد على تنوع كثافته"¹ ولعل "د: صلاح فضل" اختار عبارة "بلاغة البرهان" للدلالة على بلاغة "بيرلمان"؛ لأنه يرى أن أهم ميزة تتميز بها هذه البلاغة الجديدة هي الميزة المنطقية، وقد حصر تقديم "بلاغة" "بيرلمان" على أساس هذه الميزة المنطقية.

بل إنّ كل الخصائص التي خص بها "بيرلمان" بلاغته الجديدة تعود في نظر "صلاح فضل" أصلاً إلى الخاصية المنطقية فمثلاً من أهداف "بيرلمان" أن يعمم بلاغته أي لا تبقى مقصورة على جمهور

¹ - د: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 97.

المستمعين المحتشدين في الميادين، فلا تبقى مرتبطة بالخطاب الشفوي، مثلما كانت عليه عند الأقدمين؛ لأنّ ذلك "يعود إلى الشواغل التي تحرك المناطق لفهم عمليات الفكر وآلياته، بعيداً عن اهتمامات من يعنون بتكوين النواب والخطباء والممثلين. وإذا كان صحيحاً أن تقنية الخطب الجماهيرية تختلف عن الحاجة المكتوبة، فإنه نظراً لأهمية الدور الحديث للطباعة، فإنّ هذا الاتجاه يُعنى في المقام الأول بالنصوص المكتوبة؛ مما يجعله يغفل دراسة طرق الأداء وتقنيات الحركة والإشارة"¹ يعني هذا أنّ الطباعة الحديثة تفرض على المحاجج الالتزام بالمنطق.

من جهة أخرى يرجع "صلاح فضل" ربط بلاغة "بيرلمان" بالمنطق ربطاً وثيقاً بإبعاد المنهج التجريبي لأنه "لا يصلح لتقديم تحديد دقيق لقيمة الحجج المستخدمة في العلوم الإنسانية، وأنّ طريقته تختلف أيضاً بشكل جذري عن طريقة هؤلاء الفلاسفة الذين يجتهدون في أن تكون أفكارهم وتأملاهم محصورة في المشكلات الاجتماعية أو السياسية أو الفلسفية، مستلهمين النماذج التي تتيحها العلوم التجريبية، مما يدعوهم لرفض كل ما لا يتوافق مع هياكلهم الموضوعية مسبقاً بحجة أنه خالٍ من القيمة"² عن طريق الاستدلالات العقلية التي تقوم قيمة كل خطاب حجاجي حسب بلاغة "بيرلمان" و به تكتسب قوتها الاقناعية على المدى البعيد.

وقد شرح "صلاح فضل" من خلال مبحث "بلاغة البرهان" أهم أفكار بلاغة "بيرلمان" مبيناً المرجعيات المعرفية والثقافية لهذه النظرية، متطرقاً عند ذلك للوظائف البلاغية للنظرية الحجاجية من خلال الآليات الاقناعية، التي تعمل على "تفادي إثارة الانقسام بين الشكل والمضمون، وتضمن عدم إمكانية. على أن الطريق الصائب لذلك هو ملاءمة الأسلوب للموضوع، كما يتصوره المستمع، أو المتلقي، إذ كثيراً ما تؤدي هذه الملاءمة إلى تفادي هذا الانقسام وتقوم العناصر التي يمكن تأويلها بأنها علامات على العفوية بدور فعال في تلاؤم الأسلوب مع الواقع وزيادة درجة الاقتناع به"³ هذه النقطة التي تمثل جوهر العلاقات الحجاجية بين المحاجج والمستمع من جهة وبينها وبين الخطاب وبين شكل الخطاب ومضمونه من جهة أخرى.

¹ - د: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 98.

² - نفس المرجع، ص: 99، 100.

³ - نفس المرجع، ص: 102.

ليصل من خلال هذه القراءة التحليلية لبلاغة "بيرلمان" أن "البلاغة في مفهومها المعاصرة الذي اكتسبته بعد تطور الدارسين اللغوي والنقدي، فقد أصبحت ذات سمة عالمية ومتعددة الاختصاصات والمشاعل، فهي تسعى لإقامة قوانين للدلالة الأدبية بكل ثرائها، وللوقوف على مظاهر القوة في الخطابات وكل من شأنه زيادة الوعي بماهية الإبداع والقراءة والتأويل"¹ مما يفتح آفاقاً واعدة لتحرير الخطاب البلاغي من كل القيود الشكلية (اللغوية، والأسلوبية)، ومن القيود الإيديولوجية.

كما أن مقال "مصنف في الحجاج الخطابة الجديدة" لد: "عبد الله صولة"، بالاعتماد على كتاب "مصنف في الحجاج لبيرلمان" و "تيتيكا"، يمثل قراءة تحليلية لبلاغة "بيرلمان"، وإن كان يبدو هذا المقال كبير الحجم إذا ما قارناه مع الحجم المقال العادي وقد أرجع د: عبد الله صولة ذلك إلى "أنّ الكتاب ضخّم جداً ومادته دسمة جداً وجديدة نسبياً بالنسبة إلى القارئ العربي العادي، كان عرضنا طويلاً جداً"²، ومن خلال تقديم الكاتب لهذا المقال يبدو جلياً المجهود المضني الذي تحمله الكاتب من أجل أن يقدم لنا قراءة موجزة وشاملة مراعيها فيها الأمانة العلمية تسعى إلى تقريب مفاهيم البلاغة الجديدة من القارئ العربي.

يعتبر هذا مقال القراءة التحليلية التي أظرت بشكل دقيق لبلاغة "بيرلمان" داخل المنظومة البلاغية المعاصرة، وإنّ شكلت القراءة الوصفية في هذا المقال جزءاً كبيراً من المقال، لكن رغم ضآلت التحليل القرائي في هذه المقالة إلا أنه قد مسّ النقاط الشائكة التي كانت لا تزال عالقة في ذهن القارئ العربي. أهمها على الإطلاق هو ما وقف عليه الدكتور "عبد الله صولة" في مسألة "الاقتناع" إذ يرى "أنّ تحقيق الاقتناع Conviction الذي هو غاية الحجاج يقع في منطقة وسطى بين الاستدلال La démonstration والإقناع La persuasion"³ فهو بهذا فرق بين الاستدلال وبين الحجاج ويكمن الفرق حسب ما استخلصه من نظرية "بيرلمان" في أن النتائج التي يصل إليها الاستدلال يقينية بينما نتائج الحجاج قابلة للنقض.

¹ - محمد سالم أمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 234، 235.

² - د: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص: 12.

³ - د: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص: 14.

لكن المثير للاهتمام من تحليلات "د: عبد الله صولة" هو إقصاءه للإقناع من دائرة الحجاج حين يقول "إنّ المؤلفين يجعلان الإقناع، وهو عقلي دائماً، أساس الإذعان وأساس الحجاج، وأنّ الإقناع، بما هو ذاتي وخاص وضيق، لا يعتد به في الحجاج"¹ وقد بنى هذه النظرة "على اعتبار أنّ الإقناع يكون بمخاطبة الخيال والعاطفة، مما لا يدع مجالاً لإعمال العقل وحرية الاختيار"² إذ أنّ حرية الاعتقاد التي منبعها العقل المضبوط بالقيم الإنسانية من أهم ركائز بلاغة الحجاج عند "بيرلمان"، فإن خرج الحجاج عن هذا الإطار اتسم بالخداع والتضليل، غير أنّ "بيرلمان" يجعل الإقناع من أهداف الحجاج لكنه خاص بالمستمع الخاص، وهنا لا يضبط المحاجج حرية اعتقاد المستمع إنما هي معروفة لدى المحاجج، فهو في هذه الحالة لا يسعى إلى تغيير المعتقد، بل يقوم بتثبيت هذا الاعتقاد المسبق باستمالة العواطف وإثارة الانفعال.

اختلفت طريقة عرض "د: عبد الله صولة" للبلاغة الجديدة بين العرض المباشر وبين التحليل، حتى أنه يعتمد تمثيلات "بيرلمان" فمثلاً نجد عند حديثه عن مسألة الحضور في الحجاج يتمثل بالمثال الذي شاع استخدامه في مؤلفات الخطابة الغربية في قوله: "إنّ بعض شيوخ الخطابة في الغرب ممن يسلكون أيسر السبل إلى التأثير، يوصون بالالتجاء إلى استخدام أشياء ماديّة من أجل التأثير في جمهور السامعين مثل تلويح أونتوان "Antoine" بثوب القيصصر الملطخ بالدم في وجوه الرومان، وكان يحضر أبناء المتهم أمام القضاة لاستدراار الشفقة"³ وقليلاً ما كان يأتي بمثل من الموروث العربي

مثل قوله: "لايستقيم الظل والعود أعوج ← أعوج الظل لأن العود معوج"⁴ قد استدل د: عبد الله صولة" بهذا المثل عند حديثه عن الشخص وأعماله ضمن وجوه الاتصال التواجدي.

يمثل كتاب "نظرية الحجاج عند شايم بيرلمان" لد: الحسين بنو هاشم، أهم مقاربات القرائية التحليلية لكتاب "إمبراطورية الخطابة" لشايم بيرلمان" ، وقد أشار الكاتب "حسين بنو هاشم" في مقدمة الكتاب أن بحثه هذا "لم يمنع من الرجوع إلى كتبه الأخرى (خاصة كتاب مصنف في الحجاج)

¹ - د: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص: 15.

² - د: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص: 15.

³ - نفس المرجع، ص: 31.

⁴ - نفس المرجع، ص: 52.

كلما دعت إلى ذلك ضرورة الشرح والتوضيح والتوسع"¹ وقد تناول الكاتب في هذا العمل قراءة عامة لبلاغة "بيرلمان" و "تيتيكا"، وفي نفس الوقت دراسة تحليلية معمقة حول أهم الإشكالات التي تصدرت مشاغل البلاغة المعاصرة العربية .

كان أهم هذه المشاغل على الإطلاق "إشكالية المصطلح الحجاجي" بحيث حاول "د: حسين بنو هاشم" أن يضبط بعض المصطلحات مثل: مصطلح الاقتناع، أو مثل: مصطلح المستمعين محاولاً بذلك التوفيق بين مفهوم المصطلح الغربي وبين اختيار لفظ من التراث العربي يحمل نفس الدلالة إلى أقرب حد ممكن، مما جعله يقف أولاً على المفهوم الغربي للمصطلح الذي يبحث له عن لفظ عربي مناسب ليبرر بعدها سبب الاختيار.

فمثلاً نأخذ مصطلح Conviction قبل أن يقع اختياره على أي لفظ عرض مفهومه في البلاغة العربية الجديدة: "أما مصطلح (Conviction) فيعني جعل القناعة بصحة دعوى الخطيب راسخة في ذهن المخاطب باعتماد حجج تخاطب العقل أكثر من مخاطبتها الوجدان"²، بعد هذا العرض للمفهوم عن الألفاظ التي تم اختيارها لهذا المصطلح من قبل الباحث، وجد "أن أغلب الباحثين العرب ترجموا هذا المصطلح (Conviction) بلفظة "اقتناع"³، لكن رأى "د: حسين بنو هاشم" لا تؤدي معنى التعدي لل فعل "Convaincre) الذي لا يستخدم إلا متعدياً، الشيء الذي لا يمكن أن يؤدي معناه فعل "اقتنع" اللازم"⁴، نلاحظ من خلال حديث الباحث أنه ألزم نفسه بإيجاد لفظ يؤدي معنى المصطلح كاملاً مما جعله يبحث طويلاً.

أشار أن رحلة البحث عن لفظ يتناسب مع هذا المصطلح دامت طويلاً، يقول عن ذلك: "الترجمة الأولى، التي اعتمدها في البداية، هي التي ضمناها رسالتنا لنيل دبلوم الدراسات المعمقة، وهي "فَنَعْنَةُ"... بعد مناقشة الرسالة وقعنا على لفظة "تبين" التي استعملها الجاحظ"⁵، ورغم هذا المشوار البحثي الطويل مازال الباحث لم يقتنع باللفظ الذي وقع اختياره عليه؛ لأنه كل مرة إلا

¹ - د: حسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، ص: 05.

² - د: حسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، ص: 15.

³ - نفس المرجع، ص: 15.

⁴ - نفس المرجع، ص: 15.

⁵ - نفس المرجع، ص: 16، 17.

ويجد في اللفظ المختار بعض النقائص قد تخل بالمعنى الحقيقي، يقع اختياره في الأخير على لفظة "التيقن" وقد ارتكز على مسألة الحجج العقلية في عملية الاختيار قبل كل شيء.

من خلال عرض هذا نموذج "Conviction" يتراء لنا مدى حرص "د: حسين بنو هاشم" تقديم بلاغة "بيرلمان" للقارئ العربي بصورة واضحة تتجلى في تقريب مفاهيمها حتى يتمكن الباحث العربي من تلقيها واقتراض آلياتها دون عناء بكسر حاجز اللغة الأجنبية وتخطي عقبة الاصطلاح.

قراءة "د: حسين بنو هاشم" شملت كل أجزاء كتاب "إمبراطورية البلاغة" بداية من مقدمة "بيرلمان" مع إعطاء نبذة وجيزة عن سيرة الكاتبين والظروف المحيطة بإعادة بعث البلاغة من جديدة، وهدف "بيرلمان" من خلال ذلك، محاولاً توضيح ما وقف عنده "بيرلمان" من فروق بين الاستدلالات الجدلية وبين الاستدلالات الخطابية، وبهذا "صحح بيرلمان الأخطاء التاريخية التي ارتكبت في حق الخطابة"¹ من الاتهامات كالمغالطات والتضليلات من جهة ومن الزخرف اللفظي الذي التصق بها من جهة أخرى.

لينتقل بعدها "د: حسين بنو هاشم" إلى عرض مفصل للمنطلقات والمقومات الأساسية لبلاغة "بيرلمان"، ومن خلال هذا العرض يبدو حرصه على مقارنة البلاغة الجديدة بالتراث البلاغي العربي، حيث أنه يحيل كل قضية يلامسها من قضايا البلاغة إلى التراث البلاغي، أو الأدبي، فمثلاً عند استعراضه لمقدمات الحجاج يضرب لها أمثلة من الشعر أو من الأمثال العربية مثلاً يقول عند عرضه "مواضع الجوهر (les lieux de l'essens) : وهي تعطي الأسبقية للأشخاص الأكثر تمثيلاً لجوهر النوع. ويمكن أن نرُد إلى هذا الموضوع قول المتنبي:

فإن تُفَقِّ الأناَمَ وأنت منهم فإنَّ المِسكَ بعضُ دمِ الغزال²

وأحياناً يستدل حتى بمثل الشعبي المغربي، مثلاً عند حديثه عن "مواضع الترتيب (Les lieux de l'ordre) كاعتبار السابق أفضل من اللاحق. ولعل المثل الشعبي المغربي القائل: "اللي فاتك بليلة

¹ - د: حسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شايبم بيرلمان، ص: 34.

² - نفس المرجع، ص: 48.

فاتك بجيلة"، يرجع إلى هذا الموضوع¹ واستعانة "د: حسين بنو هاشم" بالموروث العربي يؤكد ما قلناه سابقا من محاولته جعل البلاغة الحجاجية في يد الباحث العربي، بإضافة إلى أن هذا الاقتراض يبين القدرة الكافية للثقافة العربية على احتضان روافد البلاغة الجديدة على جميع المستويات.

2- اقتراض الآليات والممارسة الإجرائية:

انكب عدد لا بأس به من البلاغيين العرب المعاصرين على اغتراف الآليات الحجاجية، ومحاولة تطبيقها على المنجز العربي سواء القديم أو المعاصر، والمقاصد اختلفت بين هؤلاء الباحثين، فمنها لتفعيل آليات الخطاب الحجاجي، أو قصد تبيين انفتاح الخطاب على البلاغة الغربية وإمكانية احتضان مختلف الآليات الحجاجية.

إن دراسة آليات الإقناع واستراتيجياته أعطت للحجاج منحى آخر للبحث، بحيث لم يعد دراسة الحجاج تقتصر على الجانب النظري إنما تجاوزت ذلك إلى البعد العملي التطبيقي، باعتبار أن الحجاج ممارسة خالصة.

إنّ هذا الاتجاه الاقتراضي يعبر عن مدى وعي الباحث العربي بأهمية البلاغة الجديدة في تنمية الخطاب البليغ ووصوله إلى مصاف الخطاب العالمي هذا ما دعى إليه "حمادي صمود" بقوله: "هذه روح العصر وهذه الثقافة التي يبشر بها انفجار وسائل الاتصال وبهذا المعنى يصبح الرجوع إلى الخطابة في معناها الأصلي بما هي طريق الفكر في إيجاد الحجج والبراهين التي على أساسها يقنع تقدما ومسايرة لروح العصر واحتفاء بمقولاته التي تبني حياة الناس وكرامتهم. وبهذا المعنى يكون الاهتمام بالحجاج في مختلف اتجاهاته ومدارسه انخرطا في هذه النقلة العميقة التي يعيشها عصرنا"²، وبما أنّ البلاغة الحجاجية لها القدرة الكافية على استيعاب جميع أنواع الخطاب نخص بذكر الخطاب المكتوب، مع القدرة على تكيف الوسائل والإجراءات لإنتاج الخطاب ومن ثم تقديمه بأوضح الصور وأدقها وأكثرها انجذابا عن طواعية ورضا ووثوق.

يمكن تقسيم الممارسة الإجرائية لآليات البلاغة الجديدة على المنجز العربي على النحو التالي:

¹ - د: حسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، ص: 48

² - د: حمادي صمود، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية إلى اليوم، ص: 47.

2-1- المراس على الخطاب العربي:

2-1-1- القرآن الكريم:

أهم باحث عربي درس الخطاب القرآني دراسة حجائية هو المرحوم "د: عبد الله صوله" من خلال المنجز الفريد من نوعه "الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم الخصائص الأسلوبية"، ومن محتوى العنوان نفهم أن الحجاج الذي يتناوله "د: عبد الله صولة" في تطبيقه على القرآن الكريم ليست بلاغة الحجاج لـ "بيرلمان"، لكن لا يختلف كثيرا عنها إلا فيما تعلق بالقضايا التداولية الوظيفية والنحوية، لذا ما سنقف عنده في هذه الدراسة الآليات الحجائية البلاغية التي اقترضاها من بلاغة "بيرلمان" حتى نبقى في حدود بحثنا.

هذا الإنجاز يعتبر نقلة نوعية في مسار البلاغة الجديدة، بحيث استطاع الباحث بكفاءته وتمكنه من آليات الخطاب الحجائي بصورة عامة أن يقف على حدود مفاهيم الحجاج في الثقافتين العربية والغربية، وأن يعطي لمح وجيزة عن مختلف نظريات الحجاج على اعتبار أن مفاهيم بلاغة الحجاج في فترة إنجاز البحث كانت لا تزال مجهولة المعالم في الفكر البلاغي العربي آن ذاك.

1- تبيين ملامح بلاغة الحجاج في الخطاب القرآني:

ومن خلال هذه اللمحة استطاع أن يثبت حجائية القرآن الكريم على اعتبار ثلاث مسائل تطرق لها "بيرلمان" في بلاغته:

- المسألة الأولى: توجه الخطاب القرآني إلى نوعين من المخاطبين: "نوع يذكر داخل النص القرآني وهذا بدوره قسمان قسم مذكور معين باسمه أو لقبه أو بضمير الخطاب"¹، هذا النوع من الخطاب سماه "بيرلمان" بالمستمع الخاص، وقسم آخر "مذكور في القرآن لكنه غير معين ولا محدد"²، وهذا القسم أدرجه "د: عبد الله صولة" ضمن نوع المستمع الخاص على اعتبارين، أولهما أن "الصورة النحوية التي جعلت لهم هي ضمير المخاطب المفرد، عادة"³، أما الآخر يكون "على الاعتبار الأول

¹ - د: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم، من أهم خصائصه الأسلوبية ضمن المقدمة، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، سنة 2001م. ص: 41.

² - نفس المرجع، ص: 41.

³ - نفس المرجع، ص: 41.

يكون الخطاب بهذا الضمير شبيهاً بـ"خطاب الناس في صيغة "يا أيها الناس"¹، والنوع الثاني من المخاطبين الذي يتوجه إليهم الخطاب القرآني "فواقع خارج النص القرآني غير مذكور فيه، لكنه مع ذلك معني بخطاب القرآن. وهو جمهور السامعين والمتلقين على اختلاف عصورهم وأمكنتهم. إنه بعبارة "الحجاجيين" "الجمهور الكوني"، الذي رأيناه عند بيرلمان وتيتيكا"²، انطلق إذن د: عبد الله صولة" في تبين حجاجية الخطاب القرآني مستندا على أهم فكرة قامت على أساسها بلاغة الحجاج عند "بيرلمان" وهي تنوع المخاطب، الذي له أثر فعال في بناء الخطاب الحجاجي.

- المسألة الثانية: مقاصد الخطاب القرآني متعددة أهمها تغيير الوضع إلى الأصلح والأحسن "وعلى هذا يكون القرآن كتاب "إصلاح". بمعنى أنه يرمي إلى تغيير وضع ذهني يترتب عليه تغيير وضع مادي"³ وهذا بالتحديد مقصدية الخطاب الحجاجي، "فإن كان ذلك كذلك كان القرآن حجاجيا ولا مرأ"⁴، وقد استنبط "د: عبد الله صولة هذا الحكم من عدة آيات من القرآن الكريم تدعو إلى ضرورة تغيير الوضع القائم إلى وضع أحسن، في المقابل استند على العلاقة المرتبطة بين المقصدية والخطاب الحجاجي.

- المسألة الثالثة: نبذ العنف والدعوة إلى الحوار على اعتبار "أنّ الحجاج هو البديل عن العنف في "نظرية الحجاج" إذ يمكن حسب بيرلمان وتيتيكا أن نسعى إلى تحقيق النتيجة نفسها باعتماد إحدى الوسيلتين: العنف أو الخطاب نقنع بواسطته الناس فيقتنعون"⁵ وفي نظره أن القرآن يمثل الوسيلة الثانية وهي الخطاب؛ "لأنه يدعو أيضا بصريح اللفظ إلى "نبذ العنف" في شأن الإيمان. وهو ما يقتضي حجاجيا _ أنه حوار وحجاج. ويظهر هذا في آيات كثير"⁶، فقضية نبذ العنف وتقديم الخطاب الحوارية الذي هو خطاب حجاجي لا خلاف حوله، الذي يتجلى في أكثر الآيات القرآنية، بهذا يصنف القرآن الكريم ضمن أقوى الخطابات الحجاجية.

¹ - نفس المرجع، ص: 42.

² - نفس المرجع، ص: 42.

³ - د: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم، ص: 43.

⁴ - د: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم، ص: 43.

⁵ - نفس المرجع، ص: 44.

⁶ - نفس المرجع، ص: 44.

2- الوظيفة الاقناعية للاستعارة في القرآن الكريم:

رأى "د: عبد الله صولة" فكرة الحضور التي اعتبرها "بيرلمان" من أقوى الحجج تتجسد بشكل جلي في أكثر المواضع من القرآن الكريم، من خلال الصورة الفنية "الاستعارة"؛ لأن وظيفتها في الأساس لا تتم إلا "بواسطة جعل الشيء مشاهدا محسوسا"¹ فهي إظهار الحقيقة غير المرئية للعيان، ومن هنا يتبلور الحجاج. وإن كانت مسألة وظيفة الاستعارة الحجاجية أمر بديهي متفق عليه منذ القديم في البلاغة العربية، لكن "لم يبلغ تفكيرها في مسألة تأثير الصورة في المتلقي درجة من الدقة ومن التحليل المنهجي"² وإن لم تختلف البلاغة العربية عن العربية في الوظيفة التأثير الاقناعية، لكن طريقة الطرح كان فيها بعض الاختلاف.

هذا ما دعا "د: عبد الله صولة" إلى القول بأن حجاج الصورة في القرآن يتمحور "على مادة هذه الصورة من ناحية وعلى شكل الصور من ناحية أخرى"³ ومن هذين المبدئين انطلق "د: عبد الله صولة" دراسته للصورة الفنية باقتراض آليات البلاغة الجديدة ومحاولة تطبيقها على الصورة الفنية.

فمثلا فيما يخص مادة الصورة الفنية، والتي يقصد بها مضمون الصورة الفنية، لاحظ "د: عبد الله صولة" أنها مستمدة من الواقع الاقتصادي العربي القديم، إذ تكررت صورة التجارة، وصورة البيع والشراء في القرآن الكريم، إذ "باستخدام معنى "التجارة" والألفاظ المشابهة لها مثل الشراء والاشتراء على المجاز قد بات لدينا شكلان تعبيريان اثنان أحدهما وهو إيجائي يتخذ من الآخر وهو التصريحي الإخباري مادة تعبير له بالأحرى مادة تصوير فيكون ذلك أعقد للحجاج وأقطع للحجاج وأقرب مأخذا وأبلغ موقعا إذ ههنا مدلول ديني جديد طارئ يستند إلى مادة قول دنيوية رائجة معروفة متداولة"⁴، إن هذا النوع من الحجج يدخل ضمن الحجج المؤسسة على بنية الواقع، أضف إلى ذلك إن كان هذا الواقع ماثلا للعيان من خلال الصورة الفنية.

أما ما يخص تجلي الحجاج في شكل الصورة الفنية يكون من عدة زوايا في نظر "د: عبد الله صولة" لكن تبقى "النجاعة الحجاجية التي للصورة في القرآن بما في ذلك التشبيه والاستعارة والكناية

¹ - نفس المرجع، ص: 493.

² - نفس المرجع، ص: 495.

³ - د: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم، ص: 42.

⁴ - نفس المرجع، ص: 518.

والتمثيل مستمدة كما هو الشأن في الصورة عامة، من ظاهرة دفعها المتلقي إلى الإسهام في إنتاج قسم من كلام الصورة هو القسم الضمني، وذلك بالانطلاق من القسم المصرح به فيها¹، بمعنى أن الخاصية الحجاجية لشكل الصورة الفنية تكمن في اكتشاف المتلقي ما أضمّر في الصورة، وبتالي الوصول إلى الصورة العامة، واستجلاء الحقيقة الكامنة التي يخفيها المعنى الضمني، وهذه العملية التي يقوم بها المتلقي هي عملية حجاجية، تقوم على البحث في المعنى المصرح به عن دلالات وحجج تقود إلى المعنى الخفي، انطلاقاً من عناصر الصور الفنية مثل المستعار والمستعار له في الاستعارة، وبما أن المتلقي يكون أداة فاعلة في استكشاف الحجج تكون هذه الحجج أبلغ وأقنع للمتلقي.

2-1-2- الحجاج في الخطبة:

كما هو معلوم أن المصادر الأولى لولادة الحجاج هو "فن الخطابة" وفيها ترعرع و بها انتعش ومنها انتقل إلى سائر الأجناس الأدبية الأخرى، لهذا السبب بالتحديد كانت أول الممارسات التطبيقية للبلاغة الحجاج في البلاغة العربية المعاصرة على الخطبة في القرن الأول هجري، وكان كتاب "في بلاغة الخطاب الإقناعي" لـ "د: محمد العمري" من بواكير المنجزات البلاغة العربية المعاصرة، وقد أراد الكاتب أن يكون هذا العمل البلاغي فتحاً جديداً للبحث البلاغي العربي فيما يخص بلاغة الإقناع.

الهدف من هذا العمل هو دراسة إشكاليات الخطابة العربية في فترة تميّزها إذ عرفت نشاطاً وسيادة على جميع الفنون الأدبية، صاحبت النشاط السياسي والفتوحات الإسلامية، وبداية نشوء المذاهب والفرق العقائدية.

رغم أن الهدف من الدراسة كان محددًا إلا أن الباحث لم يتطرق إليه إلا بعد أن تحدث ملياً عن الخطابة الأرسطية وعن عناصر بنائها وهذا بـ "تأطير اجتهادات البلاغيين العرب بالإطار العام للنظرية الأرسطية، واغناء ذلك باجتهادات وإضافات البلاغيين ودارسي الخطاب الإقناعي من غير العرب في القديم والحديث"²، مستهلاً عرضه هذا بنص طويل لأرسطو حاول من خلاله استخراج

¹ - نفس المرجع، ص: 576.

² - د: محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، المقدمة، ص: 09.

أنواع الحجج والبراهين الخطابية، لخصها د: محمد العمري في خطاطة¹، والسبب في ذلك "أنّ الخطابة العربية هي خطابة منافرة ومفاخرة ميالة إلى المدح والهجاء، ولم تعتمد الحوار الهادئ القائم على الحجة إلاّ في المناسبات محدودة، ولذلك ينتظر أن يكون عنصر الحجج والبرهنة أضعف عناصر بنائها، غير أنه ينبغي أن ينظر إلى القضية حسب المقامات والموضوعات المتناولة"² نفهم من نص "العمري" أن الحجج والبراهين في الخطابة العربية مرتبطة بمقام المتكلمين وكذا بمقتضى الحال، وهذا يفسر اهتمام البلاغة العربية القديمة بمذنب العنصرين، ومنهما انطلق الباحث في دراسته.

ركز "د: محمد العمري" في مدخل نظري على صفات الخطيب عند أرسطو ومنها "أن يعرف الأحوال العاطفية لمستمعيه"³؛ لأنها تعتبر من جوهر البلاغة العربية القديمة فهي "مدار الحديث في صحيفة بشر بن المعتز"⁴ والتي تداولتها الكثير من المدونات البلاغية القديمة؛ لأنها تضمنت مجمل معايير إنتاج الخطابة، وأهم هذه المعايير "مراعاة مقتضى الحال"، وعلى ضوء هذا المعيار بالتحديد تتبع "د: العمري" أنواع المخاطبين في البلاغة العربية القديمة.

رأى "د: العمري" أن الخطابة الأرسطية اعتمدت على الأسس المقامية في تصنيف الخطاب "وهذا التصنيف تترتب عنه نتائج أخرى فيما يخص بناء الخطب من حيث البراهين والأسلوب وتنظيم القول"⁵، والتصنيف نفسه أُعتمد كذلك لتصنيف البلاغة العربية، حسب "د: العمري" غير أنّ طبيعة المجتمع العربي والذي انعكست على الخطابة العربية التي تلتقي وتمتجج فيها الموضوعات تركت هذا التصنيف مضطرباً، يصعب التفريق بين ما هو ديني واجتماعي...، وقد وضع العمري هذه الإشكالية بإعطاء نماذج لبعض الرسائل أو الخطب متبعا لتصنيف المقامي للخطابة.

لاحظنا أن المدخل النظري كان فيه المقام محور الدراسة؛ وذلك لأن "د: العمري" يرى أن كل الحجج والبراهين لا تكون لها أي وظيفة لو لم تكن مرتبطة بمقام المخاطبين.

¹ - ينظر: نفس المرجع، ص: 27.

² - نفس المرجع، ص: 24.

³ - نفس المرجع، ص: 31.

⁴ - د: محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص: 32.

⁵ - د: محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص: 38.

من هنا أمكن "د: العمري" أن يبدأ الدراسة التطبيقية التي تعتبر بيت القصيد في هذا البحث، تحت عنوان "صور الحجاج" حدد الصور في "القياس، المثال، الشاهد" وهذه العناصر في رأي "د: العمري" تشترك فيما بينها "في دعوة العقل إلى الإنسجام"¹، وللوقوف على كيفية اشتغال هذه الصور، ذهب عندئذ ليرصد لها النماذج من الخطب العربية "خطب الحجاج، حجج الأحنف بن قيس لمعاوية" كما نوع الأمثلة حتى من الخطاب القرآني، وهو في كل ذلك يرجع كل مرة إلى الخطابة الأرسطية يسترجع بها قواعد الصور الحجاجية كما وضعها أرسطو، ليخلص إلى نتيجة هي "أن الخطابة العربية استعملت أقيسة عقلية متنوعة يدخل أغلبها فيما أحصاه أرسطو"² على اعتبار أن الأقيسة العقلية منحة إلهية تشترك في صناعتها جميع الأمم والشعوب.

تعرض "د: العمري" إلى أسلوب³ الخطابة في كتابه "في بلاغة الخطاب الإقناعي" بحيث أفرد له فصلا كاملا بما أنه يعتبر من بين أحد المكونات الأساسية في بناء الخطابة الأرسطية، لكن عدّه "د: العمري" عنصرا أساسيا في الخطابة العربية القديمة ويعود ذلك في نظر "د: العمري" أن "الخطابة العربية نشأت في محيط شعري، بل ربما جاز القول بأنها أحد الأفلاك المنفصلة عن الشعر المشدودة بجاذبية أسلوبية قوية"⁴ لذا نجد "د: العمري" يركز على جانبين في بناء النص الحجاجي، على جانب "البناء الدلالي" وعلى جانب "البنية الصوتية" ولدراسة الجانبين اتخذ نماذج من الخطب العربية كخطب "علي بن أبي طالب. وبعد أن بحث "د: العمري" عن البنى الدلالية والصوتية في الخطب العربية القديمة شدّه أنها كلها تشتغل في إطار محدد وهو اللجوء" إلى الموازنة بين العناصر الدلالية والصوتية لا يدعون جانبا يلغي الآخر أو يقلل من قيمته، ولذلك رأيناه من حين لآخر، يكبح جماح الموازنات ليفتح الطريق أمام المعاني والصور لتلعب دورها"⁵ وهنا تكمن القدرة والمهارة الخطابية الحجاجية التي تقود حتما للإقناع.

¹ - نفس المرجع ، ص: 71.

² - نفس المرجع ، ص: 79.

³ - ينظر: نفس المرجع ، ص: 97 إلى 123.

⁴ - نفس المرجع، ص: 100.

⁵ - نفس المرجع، ص: 121.

وقد خص الكاتب "د: محمد العمري آخر جزء من الكتاب للكلام عن "ترتيب أجزاء القول" في الخطابة، بدأه من فكرة أن "كوراكس Corax أول من وضع الأجزاء الكبرى للخطاب"¹، وأرسطو بعده حصرها في مرحلتين "عرض القضية والبرهنة عليها"²، بينما "بيرلمان" يرى أن المسألة لا أهمية لها. يعود بعد هذه اللمحة الوجيزة النظرية لترتيب أجزاء القول إلى أرسطو ويشرح رأيه باستفاضة³.

بينما فيما يخص ترتيب أجزاء القول في الخطابة العربية لم يعثر "د: العمري" "تقنيا للنظام الذي ينبغي للخطيب أن يتبعه في ترتيب أجزاء خطبته عدا الإلحاح على الاستهلال الديني"⁴ أو بعض الإشارات الطفيفة، لكن حرص البلاغة العربية القديمة على "عرض القضايا المشفوعة بوسائل الإقناع والتأثير المتوفرة لديهم عرضا مناسبا يسمح بالوصول إلى الغرض"⁵ وهذا ما لمس الباحث عند دراسته دراسته لخطبة "الحجاج" في أهل الكوفة وأهل الشام كنموذج تطبيقي عام.

نموذج تطبيقي عام: "خطبة الحجاج بن يوسف الثقفي"

اختر "د: العمري" خطبة "الحجاج بن يوسف الثقفي" في أهل الكوفة للكشف عن آليات الحجاج؛ لأنه رأى أنها "تحتوي هذه الخطبة بالرغم من قصرها، جميع مقومات الخطاب الإقناعي، كل بمقدار"⁶، فتنوعت الآليات الإقناعية في الخطبة بين الآليات اللغوية، المنطقية وصب الكاتب اهتمامه على الآليات البلاغية الإقناعية مثلا: الكناية، الاستعارة، التشبيه، المثال وألوان البديع التي حفلت بهم الخطبة⁷، كما كان للشاهد بمختلف أشكاله دورا فعالا في توجيه الحجج وتدعيمها، منها الشاهد القرآني، الشعري، المثل.

¹ - نفس المرجع، ص: 137.

² - نفس المرجع، ص: 137.

³ - ينظر: نفس المرجع، ص: 139، 140.

⁴ - نفس المرجع، ص: 140.

⁵ - نفس المرجع، ص: 140.

⁶ - نفس المرجع، ص: 144.

⁷ - ينظر: نفس المرجع، ص: 145.

يمكن القول أن هذا العمل رغم أنه يمثل بدايات الأولى في البحث البلاغي الحجاجي العربي المعاصر، لكنه جاء في صورة مكتملة البناء تدل على التمكن من آليات بلاغة الحجاج ومن أسرار البلاغة العربية القديمة في نفس الوقت.

2-1-3- ملامح الحجاج في الخطاب الشعري العربي:

يعتبر منجز¹ د: سامية الدريدي "المعنون ب" الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه" الدراسة البارزة في حقل الدراسات الحجاجية التي تناولت الشعر بالدراسة، ويمكن القول أن هذا العمل يستحق التقدير "فكتابها المقصود يرتاد مجالاً صعباً ما يزال بكرةً في الدراسات الحجاجية العربية: الحجاج في الشعر. وهذا الاختيار وحده يشهد لها لا عليها"¹، أضيف إلى ذلك حجم المدونة الشعرية التي حددتها الباحثة لتكون موضوع دراستها الكبيرة وفي نفس الوقت مختلفة المشارب، متلونة بمختلف ألوان الفترات الزمنية التي عاصرتها وقد كانت الباحثة واعية بدرجة صعوبة هذه الدراسة² هذا يفسر ضخامة المنجز والاعتماد على عملية انتقاء أشعار معينة.

فالكتاب يتكون من جزأين الجزء الأول يتضمن مفاهيم الحجاج وأهم مجالاته وقضاياها كما يضم باباً ثانياً تبين فيه الباحثة علاقات الحجاج بالجدل والخطابة ومن ثم علاقته بالشعر، أما الجزء الثاني فيمثل المرحلة التطبيقية من البحث، بحيث بدأت الباحثة في دراسة روافد الحجاج التي اعتبرتها من جوهر الشعر، لتنتقل بعدها إلى صلب الموضوع المدروس وهو دراسة البنية الحجاجية للشعر العربي القديم بأخذ عينة لا بأس بها من القصائد وضعتها قيد الدراسة، تمثل كل قصيدة غرضاً أو فترة زمنية معينة، هذا لا يعني أن بقية أجزاء الكتاب لم تتناول الشعر بالدراسة، بل على العكس الباحثة لا تثير أي مسألة حجاجية إلا وربطتها بالشعر العربي واستدللت لها بأبيات من الشعر العربي.

بالمختصر المفيد حاولت الباحثة من خلال هذا الكتاب "النظر في مجموع التقنيات التي يعتمدها الشاعر ليحتج لرأي أو ليدحض فكرة محاولاً إقناع القارئ بما يبسطه أو حمّله على الإذعان لما يعرضه"³، والباحثة لم تكتف برصد الحجج الواردة في الأشعار التي درستها أو بتصنيفها أو الوقوف

¹ - د: حسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، ص: 14.

² - ينظر: د: سامية دريدي، في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، مقدمة الكتاب، ص: 03.

³ - د: سامية دريدي، في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، مقدمة الكتاب، ص: 02.

على آثارها الإقناعية فقط، إنما كانت تقف كلما استدعى الأمر عند قضايا حجاجية متنوعة لطالما شغلت الفكر البلاغي العربي خاصة، فتطرح السؤال حولها، ثم تناقشها محاولة أن تجد لها بعض الإجابات الممكنة.

أهم هذه المسائل التي حاولت الباحثة أن تجد لها ما يفصل القول فيها، هي مسألة شاع تداولها بين القدماء تمحورت حول "إقصاء الشعر من دائرة المنطق وتجريده من مقولات العقل إلى إثارة قضية خطيرة تتعلق بتحديد الأجناس الأدبية إذ اعتبر الكثيرون من القدامى أن الشعر إن دخل باب المنطق لان وضعفت طاقته الشعرية فيتحول إلى خطبة."¹ من هنا كانت الإشكالية المطروحة أمام الباحثة تعيق عملية البحث في حجاجية الشعر، لكن رغم ذلك تعطي الباحثة تصورا آخرًا يفتح الأفق أمام الشعر لأن يأخذ أبعاد عقلية قد تكون مغلفة بلحاء المبالغة والعواطف الفياضة والخيال الجامح.

أخذت الباحثة عندئذ على عاتقها حل هذا الإشكال " بشكل دقيق ومقنع ليستقيم بحثنا ويكسب شرعية تثبته وتؤسس مهادا صلبا عليه نبي ما سننتهي إليه من نتائج وما سنفضي إليه دراستنا من أحكام"² على حد تعبير الباحثة، وإن كان موضوع البحث يمثل الإثبات الشامل والكامل لحجاجية الشعر.

ارتكزت "د: سامية الدريدي" على إثبات حجاجية الشعر على الأسس التي بنى على أساسها الأقدمون عملية إقصاء الشعر من دائرة الحجاج

1- سوء فهم معنى الحجاج:

حيث رأت أن الأقدمين لم يفهموا المعنى الحقيقي للحجاج فقد التبس عندهم مفهومه بالجدل فأصبح يندرج ضمن العلوم في المقابل وضعوا الشعر في الزاوية الموازية مع العلوم؛ لأنه يقوم "أساسا على التخيل الذي لا يستدعي الفكر والروية على حد عبارة ابن سينا بل يعوّل على الإثارة دون تفكير"³ إذن الشعر في نظر الأقدمين عفوي لا تضبطه ضوابط التفكير الصحيح أي المنطق هذا من جهة

¹ - نفس المرجع ، ص: 50.

² - نفس المرجع ، ص: 52.

³ - نفس المرجع ، ص: 54.

2- عدم ضبط حدود الأجناس الأدبية:

من جهة أخرى فسرت "د: سامية دريدي" هذا الإقصاء المححف في حق الشعر بما تميزت به البلاغة العربية آنذاك " فالبلاغيون العرب لم يهتموا إذن في بناء نظريتهم في النص بمسألة الأجناس الأدبية إلا نادرا مؤكدين أن مشغلهم الأساسي هو قوانين الكلام لأنها تحكم كل الأجناس على حد سواء"¹ والمتداول عندهم هو الاعتماد على " التمييز بين الخطابة والشعر على أساس الدرجة لا وفق خصائص التّوع"² ومن هنا تم التغافل عن فنيات الحجاج ووسائله وأساليب الإقناع (اللغوية، البيانية) التي تتسم بها الخطبة والشعر على حد سواء.

3- الغموض والتخييل يؤسسان للإقناع في الشعر:

رأت الباحثة "د: سامية دريدي" من مفارقات البلاغة العربية القديمة أنها ترى الغموض و التخييل من خصائص الشعر اللتين لا يمكن الاستغناء عنهما وهما في الوقت نفسه يقومان بالوظيفة الحجاجية دون منازع، والأول يحيل إلى الآخر "إذ التخييل يعجز منفرداً عن تحقيق ماهية الشعر تلك التي تتشكل حين يعدل عن الكلام العادي وينأى عن اللغو"³ والكلام غير العادي إذا أسهب فيه دخل ضمن دائرة "الغموض" "هنا بالتدقيق يلعب الإقناع دورة كاملا إذ يأتي ليحد من ذلك التزوع الخطير"⁴ الذي أحدثه الغموض المترتب من المبالغة في التخييل.

4- سلطة الشعر على العرب:

أقرت الباحثة على اتفاق البلاغيين العرب بالمقصدية النفعية للخطاب الشعري، و"النفع على هذا النحو وظيفة من وظائف النص لا تتحقق إلا بالإقناع ولا تكون إلا بالحجاج فإذا به وجه من الوجوه التي تؤدي إليها وظيفة الشعر أشمل وأوسع هي الوظيفة الحجاجية الاقناعية"⁵ وهذه الوظيفة

¹ - نفس المرجع ص: 58.

² - نفس المرجع ، ص: 61.

³ - نفس المرجع، ص: 65.

⁴ - نفس المرجع ، ص: 66.

⁵ - نفس المرجع ، ص: 69.

الفاعلة للشعر "حملت المجتمع العربي القديم على الإقرار بسلطة الخطاب والاحتفاء بها وبأصحابها"¹ ، فمن المفروض مهمة الشعر الحجاجية أمر بديهي لا يمكن إنكارها بأي حال من الأحوال.

فهناك الكثير من الشواهد التراثية تدل على سلطة الشعر فقد تجاوزت الباحثة "د: سامية الدريدي" العناصر البلاغية في بناء حججها على حجاجية الشعر العربي لاسيما القديم منه، على بعض الروايات التراثية² التي تثبت القوة الحجاجية للنص والفعل التأثيري في نفس متلقيه.

5- الحجاج يعارض الشعر:

على اعتبار أن "الخطاب الحجاجي مشابه لأي خطاب حجاجي آخر لا ذاتية فيه ولا تميّز باعتباره قائماً في جوهره على الشائع المبتدل"³ على عكس الشعر الذي يقوم على الإبداع، لكن هذه الرؤية تنفيها "د: سامية الدريدي" فهي ترى أن رغم كون "الحجاج من المعارف الشائعة المبتدلة فإن ذلك لا يعني البتة أنه قادر متى وجد في نص محكم التّسج دقيق البناء أن يكتسب طرافة وتألقاً بحيث يسمو عن المتداول المعروف"⁴، منه نتبين أن الطريق المبتكرة في عرض الحجج و التّفنن في استعمال أساليب الحجاج هي الكفيلة من إخراج الحجاج من النمطية ومنحه تلك الخاصية التي يجب أن يتميز بها الشعر وهي إبداع المعاني والصور.

2-1-4- التقنيات الحجاجية في السرديات العربية:

بما أن السرد هو مجموعة من الأخبار المتصلة مع بعضها البعض، و"يتحدد الحجاج في علاقة ثلاثية بين (فاعل محاجج) و(خبر عن العالم) و(فاعل هدف)"⁵ من علاقة الحجاج بالخبر وعلاقة الخبر بالخبر بالسرد تنشأ بالتالي على إثر ذلك علاقة متعددة وهي علاقة الحجاج والسرد، لذا يعتبر السرد من بين أهم الأساليب الحجاجية التي يعتد بها المحاجج لبناء حجاج أقوى وأمتن. هذا يعني أن الحجاج يتجسد بوضوح في النص السردية لذا هناك من البلاغيين العرب المعاصرين من اختار هذا

¹ - نفس المرجع ، ص: 69.

² - ينظر: نفس المرجع، ص: 70، 71،

³ - ينظر: نفس المرجع، ص: 75.

⁴ - نفس المرجع ، ص: 76.

⁵ - باتريك شاوورد، الحجاج بين النظرية والأسلوب، ص: 13.

النوع من النصوص لدراسة الآليات الحجاجية ومحاولة تبين قدرتها الإقناعية الفاعلة في الخطاب السردى.

يعتبر "د: محمد مشبال" الرائد في دراسة النص السردى التراثى وقد تناول هذا النوع من الدراسة فى كتابه " الحجاج والتأويل، فى النص السردى عند الجاحظ" حيث خص الكاتب فى هذه الدراسة أخبار الجاحظ، وأراد من خلال ذلك " المزوجة بين التفكير النظرى فى أحد الأجناس السردية القديمة بوصف مكوناته الثابتة وسماته المتغيرة من جهة، وبين تأويل نصوصه المفردة والكشف عن سماتها المخصوصة ودلالاتها وأبعادها المتميزة من جهة ثانية"¹ ومن هذه المزوجة بين بنائية الفكر السردى القديم وبين التأويل وتداعياته يقتضى الباحث أثر بلاغة الحجاج فى هذا النوع من الجنس الأدبى.

قبل أن يلج "د: محمد مشبال" فى دراسة التقنيات الحجاجية وأساليب الإقناع التى قد تجعل من أخبار الجاحظ تضطلع بالوظيفة الحجاجية، تحدث عن بلاغة النص السردى القديم، بداية، قدم مفهوما عاما للخبر فى التراث البلاغى العربى مركزا على أخبار الجاحظ وقيمتها الأدبية ودورها فى ترسيخ القيم، فـ " النص السردى عند الجاحظ ليس حكاية لذيدة يراد بها إدخال السرور والابتهاج على القارئ فقط، ولكنها أداة لتواصل؛ تضطلع بتلقيه المعلومات وتزويده بالمعرفة، على نحو ما توجه إليه ضمنا بمجموعة من الحقائق الخلقية والإنسانية العامة حتى يعمل بها فى حياته الاجتماعية. إنها لا تكتفى فى تواصلها مع المتلقى بتوصيل المعرفة سواء كانت علمية أو إنسانية خلقية، بل تسعى إلى التأثير فى سلوكه وأفعاله"²، يتم ذلك بيسر وإجراء مباشر؛ لأنّ الخبر يمنح الخطاب الحيوية إلى حد التشخيص بإسقاط الخبر على الواقع، مع إيجاد المتعة فى كل ذلك.

ما يعزز لدى "د: محمد مشبال" فكرة حجاجية النص السردى عند الجاحظ هو أنّه "يلتقى مع النصوص الحجاجية الصريحة مثل الخطبة والموعظة فى توجيهها نحو المتلقى لتعديل فكره أو تحفيزه على الفعل، لكنه يشترك مع النصوص التخيلية فى كونه خطابا سرديا يروي حكاية متخيلة"³، وإنّ هذا الجمع بين الإقناع والتخييل حسب "د: محمد مشبال" يتشابه إلى حد بعيد مع "التمثيل" البلاغى الذى

¹ -د:محمد مشبال، الحجاج والتأويل، فى النص السردى عند الجاحظ، المقدمة، دار محمد الحامى، ط1، س 2015م، ص: 05.

² - نفس المرجع، ص: 14.

³ - نفس المرجع، ص: 17.

تداخل فيه عناصر التخيل من جهة و الاستدلال القياسي من جهة أخرى، إذ "يقوم على تخيل شبيه ممكن واقعا مماثل للحالة المطروحة للنقاش"¹ ومن هنا تتكون "نظرة ترى أن ثمة تناظرا بين بلاغة التمثيل باعتباره عنصرا تعبيريا جزئيا وبين النص باعتباره تمثيلا سرديا ممتدا"²، ولا تتوقف علاقة السرد بالتمثيل على المشابهة في الوظيفة الإقناعية والأداء التخيلي إنما تمتد إلى اعتماد التمثيل في السرد من أجل التوصيف أو التصوير.

إنّ التمثيل والإقناع يلتقيان حسب "د: محمد مشبال" عند "المثال" الذي جعله أرسطو³ من بين أهم التقنيات الحجاجية، ومنه بنى الباحث فكرة أنّ الخبر يعتبر بمثابة المثال أو ما يسمى الشاهد، لـ "أننا في الشاهد ننطلق من فكرة خاصة لتبرير فكرة خاصة أخرى"⁴ على سبيل المماثلة التي قد تكون ضمنا غير مصرح بها أو عن طريق التشبيه أو الاستعارة، هذا يرشح النص السردى أن يكتسب جمالية تجذب المتلقي وتدفعه إلى أن يمعن النظر أكثر في المعاني ودلالاتها، ومنها تصل به إلى قناعة أحلى وأمتع فيكون التأثير بذلك أشد وأمتن.

من خلال هذه المعطيات، (الخبر، السرد، التخيل، التمثيل، الإقناع، المثال) التي حاول "د: محمد مشبال" على أساسها يبني دراسته على حسب قوله: "بناء على هذا تقوم الفرضية النظرية التي تنطلق منها المقاربة المقترحة في هذه الدراسة على النظر إلى النص السردى عند الجاحظ بوصفه "مثالا حكايا" أو "تمثيلا سرديا" يناظر في بنيته ووظائفه بنية التمثيل باعتباره صورة بلاغية جزئية"⁵، يؤسس من خلالها الحجة القائمة على الجمال الفني و الاستدلال المنطقي بإضافة المتعة الحكائية التي ترتاح لها النفوس.

يمكن أن نمثل المسار الحجاجي الذي رسمه "د: محمد مشبال" لسرديات الجاحظ في المخطط

التالي:

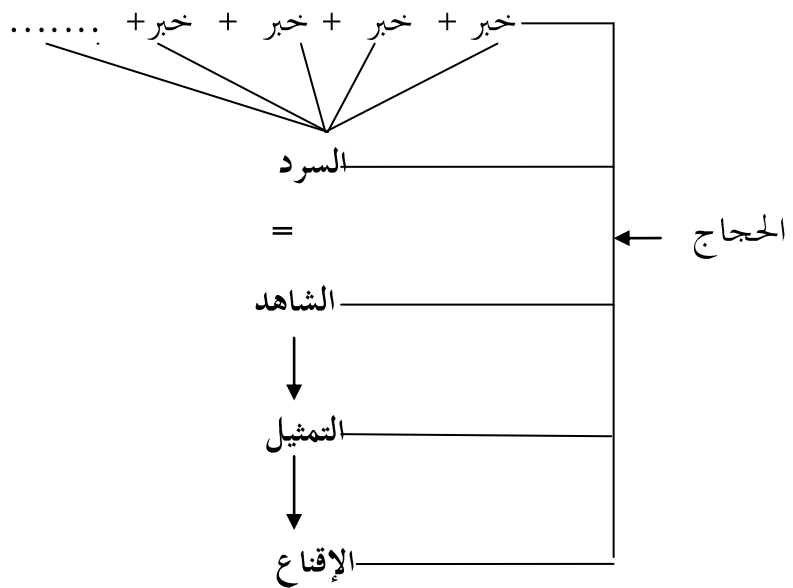
¹ - محمد الوالي، مدخل إلى الحجاج من أفلاطون، مجلة عالم الفكر، 31.

² - د: محمد مشبال، الحجاج والتأويل، في النص السردى عند الجاحظ، ص: 23.

³ - ينظر: أرسطو، فن الخطابة، الترجمة العربية القديمة، ص: 146.

⁴ - محمد الوالي، مدخل إلى الحجاج من أفلاطون، مجلة عالم الفكر، 31.

⁵ - د: محمد مشبال، الحجاج والتأويل، في النص السردى عند الجاحظ، ص: 23.



بعد أن عرض وحلل "د: محمد مشبال" مجموعة من سرديات الجاحظ ووضعها تحت قواعد البناء الحجاجي والآليات المكونة له خلص إلى نتيجة "أن الأخبار أو النوادر التي تنتمي إليها النصوص السردية المذكورة نوع أدبي خطابي شأنه في هذا شأن معظم أجناس الأدب الكلاسي وأنواعه، تبرز فيه الوظيفة الحجاجية دون أن تجور على الوظيفة التخيلية"¹، بل بالعكس إحداهما تخدم الأخرى، ومنهما نستطيع القول أن الجاحظ أعطى للبلاغة العربية نفساً جديداً يؤسس لبلاغة تتعدى الحدود التي رسمت لها من قبل.

هذه الخلاصة التي سلم بها "د: محمد مشبال" لقد كانت نتيجة تراكمات لعدد من الدراسات التي تناولت نثر الجاحظ عامة والخطاب السردى السجالي خاصة عرضها الباحث في آخر جزء من كتابه رابطاً إياها دائماً بالبلاغتين القديمة والجديدة " فإن نثره السردى على نحو تجلى في الأخبار والنوادر لم يعد يقتصر على وظيفة الإبلاغ، بل جعل الوظيفة الفنية غاية يتطلع إليها، تجلى ذلك في ما فسحه الجاحظ للخطاب في هذه النصوص من مساحة للسرد والوصف والتصوير"² كل هذه الفنون الأدبية لها مقاصد حجاجية، إما تثبيت قواعد بلاغية أو تدعيم مواقف إنسانية أو تدحض دعوى وإلى ما ذلك، متخذاً من العقل البياني مطية لذلك ولجمالية المتخيل مظهرها لها، والعجيب أن الاستراتيجيات

¹ - نفس المرجع، ص: 57.

² - د: محمد مشبال، الحجاج والتأويل، في النص السردى عند الجاحظ، ص: 154، 153.

السردية التي احتفت بها الخطابات النثرية للجاحظ كتب لها أن تلقى ما يتوافق معها في البلاغة الحجاجية الجديدة.

2-1-5- الحجاج في المناظرة:

لا يمكن الحديث عن المناظرة دون أن نتحدث عن الخطاب الحجاجي؛ لأن المناظرة ببساطة هي صناعة حجاجية تقوم على المعارضة والإدعاء، مقوماتها حجاجية "اللغة، الحقيقة، المعرفة، المقام"، تهدف إلى الإقناع غير أنها تعتمد على مبدأ الحوار والجدل لها استراتيجيات خاصة، ولما كان هذا الجنس الأدبي حجاجي بالدرجة الأولى استهوت دراسته الباحثين العرب المعاصرين، إضافة إلى تجذر هذا النوع من الجنس في الخطاب النثري العربي القديم، والقيمة التي اكتسبها الحجاج البلاغي قديما تعود إلى فن المناظرة وما حظي به من مكانة بلاغية لا يمكن أن تخفى على أي باحث كان.

دراسة فن المناظرة كان لها صدى واسع الانتشار قديما وحديثا، لكن ما يهمننا في بحثنا هذا هو إلقاء الضوء على الدراسات التي ربطت فن المناظرة ببلاغة الحجاج "بلاغة بيرلمان" و"لما كانت المناظرة خطابا حجاجيا لغويا يقتضي التأثير والإقناع، فإنها خطاب حجاجي يقتضي الكشف عن طاقاته الحجاجية تشغيل كل الإمكانيات الفلسفية واللغوية والمنهجية التي توفرها نظريات البحث في الحجاج"¹ وبما أن فن المناظرة يختزل في طياته كل المضامين الحجاجية يخلق هذا الشراء والتراحم الحجاجي، مما يثير عدة مشاكل سواء على مستوى المنهج أو على مستوى تخصيص مجال الدراسة.

كما يمكننا القول أن دراسة هذا الخطاب الحجاجي يمنح الباحث العربي القدرة الكافية أن يصنع بلاغة عربية جديدة مميزة وليدة التقاء بلاغتين، عربية قديمة وأخرى غربية حجاجية جديدة، بحيث يستطيع أن يجول في البلاغة العربية باستعراض مكوناتها القديمة، وشروط فن المناظر من معايير، واستثمار المعطيات البلاغية الحجاجية المعاصرة.

وهذا ما جعل "د: عبد الله عادل" في كتابه "بلاغة الإقناع في المناظرة" أن يخصص الباب الأول منه في إعطاء لمحة عن التاريخ اليوناني لنظريات الحجاج، ومن ثم استعراض مختلف نظريات

¹ - أحمد أتركي، الحجاج في المناظرة، مقارنة حجاجية لمناظرة أبي سعيد السيرفي لمتي بن يونس، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ط1، 2013م، ص: 1071.

الحجاج الغربية، والباب الثاني تناول فيه نظرة عامة وفي نفس الوقت نظرة فاحصة عن فن المناظرة في التراث الإسلامي¹، فكان عليه بعد هذا المشوار البحثي أن يدخل إلى صلب الموضوع وهو الدراسة التطبيقية التي تأخذ بعض نماذج لمناظرات مختلفة، يحاول الباحث من خلالها أن يستخرج أهم العناصر الحجاجية التي توظفها المناظرة متوسلا في ذلك بالآليات الحجاجية .

اهتم بداية بالكشف عن البناء الحوري للمناظرة وبعدها التركيز على خاصيتين أساسيتين في التشكيل المناظرة وهما (السؤال والنفي) وهما يمثلان (الدعوى، نقض الدعوى أو ما يسمى بالاعتراض) في بلاغة الحجاج، وأخيرا صب اهتمام بحثه على أهمية الشاهد الحجاجي وكيفية اشتغاله في المناظرة.

ما يلفت انتباهنا في هذه الدراسة الأهمية التي أعطاها الكاتب في كل فصول الكتاب لعنصر "الحوار" وفي الحقيقة هذا الاهتمام لا بد منه؛ لأن المناظرة تقوم أصلا على الأسلوب الحواري، "تحدد المناظرة إذن بخواصها التخاطبية الجدلية، ومن ثم فهي ممارسة حوارية حجاجية تهدف إلى تشكيل رأي أو معرفة مشتركين، وبذلك فهي تتطلب طرفين في وضع تفاعل"²، فقد بين الباحث المكانة التي يشغلها الحوار في بلاغة الحجاج منذ نشأتها على يد السفسطائيين وكيف استطاعت أن تفرض نفسها من جديد مع البلاغة الجديدة.

أهم ما خلص إليه الباحث بعد الدراسة إلى أن " المناظرة في التراث الإسلامي لم تكن مبارزة عميقة أو تنازلا لا مشروطا في الحوار كما كان الشأن في بعض أجناس التناظر الأوربية، بل شكلت نوعا من "المفاكرة" القائمة على التعاون واحترام الآخر ورأيه. وقد رعتها العديد من المجالس الرسمية، التي مثلت فضاءات لتنشيط التفاعل والتلاقح المعرفي. ولم تكن المناظرة خلال هذه المجالس، مجرد منادمة أو حلقات سمر، بل اكتسبت صبغة البحث المعرفي المؤطر بقواعد تحدد أوضاع الأطراف المشاركة فيه، وطرقه وغاياته وآدابه"³ من هنا نستطيع أن نقول: أن المناظر تعتبر تقويما حجاجيا فقد

¹ - ينظر: د: عبد الله عادل، "بلاغة الإقناع في المناظرة. من ص: 77 إلى 180

² - د: عبد الله عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: 175

³ - نفس المرجع، ص: 175.

كانت قبل كل شيء تقوم على المحاجة الشريفة يحكمها مبدأ القيم القائم على العقل المنطقي الذي أسس قواعد ومعايير المناظرة التي لا بد أن يلتزمها كل مناظر.

فقد كان الباحث خلال المرحلة التطبيقية يستحضر قواعد التحوار الحجاجي كالتحوار المباشر، التناوب، خرق التناوب انتهاز الفرص التي توقع بالخصم، ويستدل لكل قاعدة يعرضها من نماذج المناظرات التي اختارها للدراسة، منه استنتج الباحث "أن المناظرة مجال مثالي لاشتغال الحوار. وهو حوار يتخذ صبغة مباشرة نظرا لطابع المقابلة الذي يميزها. وتتمظهر هذه المباشرة في اعتماد تقنية السؤال/ الجواب، وفي تقاطب الضمائر التي تنظم فضاء الخطاب وتحجج أطرافه"¹ وفي خضم هذا الاحتدام والتنامي في الحجج تبرز القدرة البلاغية الحجاجية التي تهدف إلى إذعان الخصم ومن ثم تتكشف الحقيقة بين المناورات البلاغية والمعرفية للمتحوارين وتجعل المشاهد طرفا آخرًا مشاركًا في إظهار الحقيقة بالتبع الممعن للحوار ومساءلة ذاته نفس الأسئلة محاولا الإجابة عنها استنادا على الأفكار المطروحة خلال المناظرة، ومن هنا نستنتج أن المناظرة الإسلامية مناظرة حجاجية منطقية تأويلية تؤطر لفكر حضاري يصنع من الاختلاف اقتناعا، ومن الاقتناع ارتقاء واتفاقا.

3- البلاغة العربية المعاصرة بين المزاوجة والتجديد:

نقصد هنا بـ"المزاوجة" هو عملية تلاقح وامتزاج بين بلاغة الحجاج الغربية وبين معطيات البلاغة العربية سواء التراثية أو ما فرضته المستجدات العربية المعاصرة على البحث البلاغي، وإن هذه العملية إن تمت على الوجه السليم سيخرج من حضن هذا الامتزاج والتزاوج بلاغة عربية جديدة تحتفظ بمكوناتها البلاغية الأصيلة برؤية جديدة منفتحة على جميع أنواع الخطاب.

كما أن عنوان هذا المبحث قد يعطينا تصورا بأن عملية المزاوجة والتجديد في البلاغة العربية المعاصرة بدأت حين قطعت شطرا مهما من فترة التلقي الغربي وبعد شوط من قراءتها وممارستها غير أن هذا لم يكن في الواقع، بل إن هذه العملية هي اتجاه اختاره بعض الباحثين والمفكرين المعاصرين منذ أن بدأت بلاغة الحجاج تجدد لها مكانا ضمن البحث البلاغي العربي.

2- نفس المرجع، ص: 243.

3-1- نمو الوعي الحجاجي لدى البلاغيين العرب:

نلاحظ نمو وعي البلاغي الحجاجي يتصاعد في واجهة الدراسات البلاغية العربية من خلال الدراسات التي تنوعت بين مجموعة من المقالات المنشورة في عدد من المجلات العلمية أو في عدد من الكتب مشتركة الإنجاز أو عدد من الأبحاث العلمية المنشورة ضمن عمل واحد مشترك، أو في عدد الملتقيات العلمية الأدبية، والندوات العلمية المنعقدة هنا وهناك في البلاد العربية.

يمثل كتاب "أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم" تحت إشراف "د: حمادي صمود"، مثالا يوضح مقدار هذا النمو والطموح في الارتقاء بالبلاغة العربية المعاصرة حتى تواكب مسار البلاغة العالمية، العامة كما أراد لها "بيرلمان" أن تكون، حيث جمعت فيه مجموعة من الأبحاث البلاغية ترصد تاريخ البلاغة الغربية من العهد اليوناني مرورا بمرحلة التدهور وصولا إلى البلاغة الجديدة. مع التفاتة "حمادي صمود" إلى إشكاليتين هامتين في البحث البلاغي العربي، إشكالية المصطلح وإشكالية قراءتها¹، في بحث معنون بـ "مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح" افتتح به "حمادي صمود" هذا البحث الضخم الذي اشترك في تأليفه نخبة من الباحثين العرب بغية البحث في قضايا بلاغة الحجاج، وكل باحث إلا ونظر إليها من زاوية معينة.

فـ "حمادي صمود" تحدث عن بعض المصطلحات البلاغية محاولا منه ضبطها من خلال تبين آراء أرسطو في الخطابة وأهم مرتكزاتها ليعقد بعد هذا مقارنة بين ظروف نشأة البلاغة الغربية وظروف نشأة البلاغة العربية، وما يتأسف عليه الكاتب من خلال هذه المقارنة هو عدم اهتمام البلاغيين العرب ببلاغة الحجاج رغم ما تتميز به هذه الأخيرة من خاصيتي النفع والدقة التي تمنحها للخطاب عامة؛ لأنها تقوم على العقل الذي يحترم القيم، ويوصل إلى الاقتناع.

السؤال الذي يتبادر لمتصفح هذا العمل هو أين يكمن الوعي العربي ببلاغة الحجاج من مؤلف يضم بين طياته شروح وافية في أكثرها لبلاغة أرسطو وبلاغة "بيرلمان" وبلاغة "ماير"؟ ولا نجد أي

1- ينظر: د: حمادي صمود، أهم نظريات الحجاج من أرسطو إلى اليوم، ص: 07.

شيء له الصلة بالبلاغة العربية: لكن الوعي حسب نظرنا يتمثل هنا في الوقوف على الإشكاليات التي كانت تطرح نفسها بإلحاح على الباحث العربي المعاصر وما زالت لحد الساعة تؤرق الباحث العربي البلاغي المعاصر، فأراد فريق البحث أن يعالج هذه الإشكاليات بطريقة قراءة بلاغة الحجاج وتتبعها من لحظة نشوئها إلى غاية تصدرها المجال البلاغي العربي المعاصر والوقوف على مخرجاتها وروافدها، وبهذا يجد الباحث العربي المادة الكاملة والشاملة لأهم الإجابات في بحث مشترك، منظم، دقيق، ومفصل.

المميز في هذا البحث أنه لامس البلاغة العربية القديمة واستطاع أن يجد الأسباب الخفية وراء عدم تصدر بلاغة الحجاج الدراسات البلاغية العربية القديمة، رغم ما نقل للعربية من كتب مترجمة لفلاسفة اليونان لاسيما كتب "أرسطو"، فمن المفروض أن بلاغة العربية هي التي تكون سباقة إلى احتضان بلاغة الحجاج كما عرفناها اليوم على يد البلاغيين الغربيين الجدد، يرجع هذا لأن "البلاغة ظهرت تباشيرها في أحضان الشعر والشعر وقعه من إيقاعه وفضله من هيئة القول فيه. ولم يكن يفوق شاعر على شاعر إلا بما يقع له من نهج في تصوير المعاني وإخراجها رائقة عذبة تسر الناظر وتخلب لب المستمع. ولم يغير ظهور القرآن من الأمر شيئاً. بل قواه وثبته حتى غدا التفوق وبلوغ النهايات مرتبطاً في ضمائر الناس بالشكل والمظهر."¹ هذا يعني أن الشعر وخصائصه، والقرآن وقداسته هما العاملان الأساسيان في عدم إنشاء بلاغة إنتاج سياسة القول، برغم ما يوجد من إشارات جليلة في كتابي "الجاحظ"، "البيان والتبيين" و"الحيوان"² وقد مثل الدراسات الأولى من نوعها في البلاغة العربية المعاصرة.

كما أن البلاغة العربية لم تحدد فاصل يفصل مفهوم الخطابة عن الحجاج؛ يحيلنا هذا إلى "الكلمات التي استعملها ابن سينا وابن رشد تثبت علاقة الاشتراك عموماً بين الجدل والخطابة لكنها لا تبين المستوى الذي تتزل فيه كل واحدة منهما بالقياس إلى الأخرى وهذه هي المسألة التي نبحث فيها"³ فنفهم من هذا الكلام أن مفهوم الحجاج لم يحدد في البلاغة العربية القديمة بصورة أدق، هذا الذي جعل البلاغيين يترددون في إقران مصطلح الحجاج بالبلاغة خوفاً من الالتباس بمصطلح الجدل

¹ - د: حمادي صمود، أهم نظريات الحجاج من أرسطو إلى اليوم، ص: 19.

² - ينظر: نفس المرجع، ص: 21.

³ - نفس المرجع، ص: 95.

الذي كان في ذلك الوقت يقترن بأهل الكلام وقد يوحى بالتضليل والتشكيك التي تحط من قيمة البلاغة التي وسمت بالقوة والجازبية والرهبنة في الكلام.

كما لا يفوتنا في هذا المبحث أن نبين الأثر الكبير الذي أحدثه المنجز المغربي الضخم المشترك في تنمية الوعي البلاغي العربي لبلاغة الحجاج وهو منجز "الحجاج مفهومه ومجالاته" الذي تم تحت إشراف "د: العلوي إسماعيلي"، حيث شارك في إنجاز هذا البحث المتنوع والذي ألم بجميع مفاهيم النظريات الحجاجية وبحقولها وتقنياتها وممارساتها في مجموعة من المقالات المحكمة من إدارة البحث.

تكوّن هذا البحث من أربع أجزاء مصنفة تصنيفاً دقيقة من حيث موضوعات البحث ومنهجية البحث، نذكرها على التوالي "الحجاج: الحدود والتعريفات"، "الحجاج وحوار التخصصات الحجاج والمراس، ضم النصوص المترجمة"، ومما يلاحظ على هذه النصوص في مجملها أنها اختيرت بعناية حتى يستفيد منها الباحث العربي، سواء من حيث المحتوى مثلاً نذكر نص "التمثيل والاستعارة في العلم والشعر والفلسفة" ل"شايم بيرلمان" أو من حيث صاحب النص الذي له وزن في بلاغة الحجاج الغربية.

لا يمكن لأي باحث عربي معاصر أن ينكر فضل هذا المنجز في إعطاء البحث البلاغي المعاصر دفعا جديدا فريدا من نوعه يمكن للباحث أن يكون له مرجعا يرجع إليه باستمرار خلال أي بحث كان في الحجاج، لأنه ضمّ بين طياته تفاصيل بلاغة الحجاج وطرح كل قضاياها على طاولة البحث والاستقراء، بداية من المفهوم مرورا بالتأسيس على يد مؤسسها "بيرلمان" وصولا لاقتحامها جميع العلوم الإنسانية، والحقول المعرفية (الفلسفة، القضاء، السياسة، الإعلام) وتلونها بكل المقاربات اللسانية والمعرفية (السميائيات، التداولية التأويلية)، وفي الحقيقة أن كل هذه المسائل المتشابكة مع بلاغة الحجاج تطرق لها المصنف وبعمق، من هذا الزخم البحثي المتنوع والمتخصص والممنهج ندرك الوعي العالي للباحث العربي المعاصر في إدراكه قيمة الخطاب الحجاجي وفي ضرورة تثبيت وتقنين بلاغة الحجاج في البحث البلاغي المعاصر.

ما يشد انتباهنا هو الاهتمام ببلاغة "بيرلمان" في هذا المنجز على غرار جميع البلاغات الأخرى؛ حيث أعطيت لها الأولوية، فالمقال الأول "الحجاج مبحث بلاغي، فما البلاغة؟"¹ لد: محمد العمري، تطرق فيه إلى مفهوم الحجاج عند "بيرلمان"، هذا من جهة ومن جهة ثانية من حيث النسبة المهمة للمقالات التي درست بالخصوص بلاغة "بيرلمان"، من جهة أخرى عدد الآليات الحجاجية التي شغلت الباحثين في هذا البحث حسب ما جاء بها "بيرلمان". ولم يكن ذلك من محض الصدفة في رأينا إنما لوعي يدرك قيمة فهم "بلاغة بيرلمان" وأصولها المعرفية وآلياتها الإجرائية في البحث البلاغي الحجاجي عامة، وأنه لا يمكن فهم أي نظرية حجاجية دون الرجوع إلى "بلاغة بيرلمان" باعتبارها الأصل والمرجع لأي نظرية حجاجية.

ما يحسب لهذا البحث الثري إلى جانب اهتمامه ببلاغة الحجاج الغربية، اهتم بالبلاغة العربية وعلاقتها بالحجاج، فقد تطرق لها مباشرة تحت عناوين مختلفة منها مقالة "البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة" لـ "د: عبد الله صولة"²، و"النص الحجاجي العربي دراسة في وسائل الإقناع" لـ "محمد العبد"³، أو بطريقة غير مباشرة مثل مقال: "حجاجية المجاز والاستعارة" لـ "حسن المودن"⁴.

فالببحث يحاول بهذا النوع من المقالات أن يقارن ولو بشكل بسيط بعض القضايا التي أفرزتها مقتضيات تلقي البلاغة الحجاجية الغربية بنظيرتها العربية، وتبسيط الضوء على قضايا البلاغة العربية القديمة التي تتداخل مع مكونات البلاغة الجديدة كمسألة "المقام" الحجاجي أو الاستعارة وأثرها الحجاجي، وهذا بتوجيه الرؤية نحو هذه القضايا، كما أن تخصيص جزء مهم من البحث للدراسات التطبيقية يؤكد على الوعي الكامل للباحث العربي على إمكانية قراءة المنجز الأدبي العربي بمختلف أنواعه بآليات حجاجية بمهارة فائقة.

3-2- نحو بلاغة عربية حجاجية معاصرة:

¹ - ينظر: د: محمد العمري، الحجاج مبحث بلاغي، فما البلاغة، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص: 1 إلى 16.
² - ينظر: د: عبد الله صولة، البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص: 28، 55.
³ - ينظر: محمد العبد، النص الحجاجي العربي دراسة في وسائل الإقناع، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ج2، ص: 3، 60.
⁴ - ينظر: حسن المودن، حجاجية المجاز والاستعارة، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ج3، ص: 339 إلى ص: 362.

قد ساهمت عدة عوامل مجتمعة في تهيئة الفكر البلاغي الحجاجي العربي، وظهرت الحاجة الماسة لإيجاد بلاغة مسايرة للبلاغة المعاصرة تنهض بكفاءة تجعل الخطاب العربي ينافس الخطاب العالمي من حيث معايير الاشتغال والإنتاج، وكان لبلاغة الحجاج ضلع قوية في تشكل هذه الرؤية، فوجدت لذلك مدارس تعني بالخطاب الحجاجي محاولة إيجاد إطار نظري جديد يؤسس لبلاغة الحجاج العربية مستمدة ذلك من التراث البلاغي العربي، يتماشى ومقتضيات الخطابات المعاصرة.

3-2-1- رؤية جديدة في تأريخ البلاغة العربية:

حمل د: "محمد العمري" على عاتقه مشروع تجديد البلاغة العربية قراءة، ونقدا، ذا نظرة مغايرة ممتدة على طول تاريخ البلاغة العربية، ضمنها كتابه "البلاغة العربية أصول وامتدادات"، وقد "كان منطلق الباحث محمد العمري في المشروع البلاغي هو العلوم الأصيلة للبلاغة؛ أي الموروث البلاغي، ثم علومها الدخيلة، والتي نجملها في البنيوية، السيميائيات، وجمالية التلقي"¹، وقد استطاع بجمع هذه المفارقات والتوفيق بينها أن يخرج كتابا بلاغيا عربيا مميزا، صنع منه محطة فارقة في الدرس البلاغي العربي، "سيكتشف المتبع للمسار العلمي لهذا الباحث بوضوح مشروع بلاغيا رصينا خصه صاحبه لخدمة التراث البلاغي العربي؛ إنه مشروع علمي يروم قراءة الخطاب البلاغي العربي القديم قراءة نقدية جديدة تربط بين الأصول وامتداداته، وتفهم سابقه من لاحقه، وتدمج آفاقه وأسئلته المنهجية الجديدة في آفاق الحاضر، وتسعى هذه القراءة إلى عقد حوار مثمر بين القديم والحديث"² من هنا كان هذا المشروع يتسم بالشمول والتجديد والتعقيد معا.

غير أن هذا المشروع يبعث على الشغف البحثي والمعرفي بانفتاحه على ثقافتين ممتدتين على مستوى قطبين بعيدين زمانيا ومكانيا، يراد منهما قراءة "تمزج بين المعطيات البنيوية وعلم الاجتماع الأدبي ومباحث البلاغة المعاصرة المنجزة، وخاصة ضمن حقلي الفلسفة والاجتماع، كما تهتم بآليات التواصل وتقنياته المتغيرة بسرعة كبيرة في عصرنا الراهن، وهي تقنيات عملت فعلا على تغيير موقع الإنسان- (المخاطب، المشاهد، السامع، القارئ...)"³، وإن التقارب بين جميع هذه العناصر كفيل

¹ - د: الحسين بواجلابن : تفاعل العلوم الأصيلة والدخيلة في مشروع البلاغة العامة للدكتور محمد العمري، ضمن البلاغة العامة: حوار المركز والمحيط،

سلسلة الترجمة والمعرفة، العدد 5، عالم الكتب الحديث، ط1، 2017م، ص: 50.

² - مقدمة الكتاب، البلاغة العامة: حوار المركز والمحيط، ص: 05

³ - د: محمد سالم محمد الأمين طلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص: 259.

بأن يشكل مفهوماً جديداً للبلاغة العربية، عبر د: "العمري" عن ذلك في قوله: "لذلك كان من همومي الموجهة حين تصديت لإعادة قراءة تاريخ البلاغة العربية استخراج أنساق المؤلفات في حوار بين المشاريع والمنجزات"¹ مبني على أسس معيارية وظيفية منبثقة من وحي علاقات تلك العناصر.

من هنا نرى بوضوح صارخ أن هذه القراءة تختلف عن القراءات الأخرى التي عرفت بها البلاغة الجديدة التي كانت إحدى الاتجاهات البحثية في البلاغة العربية الحجاجية المعاصرة؛ لأن "العمري لا يقدم قراءة انطباعية للوحدة فنية أو قصيدة سريالية، أو خطبة سياسية مليئة بالادعاءات، أو موعظة دينية مليئة بالأكاذيب والاختلافات. العمري يسعى، إلى جانب باحثين آخرين؛ غربيين وعرب، لتقديم نسق يستوعب كل الأجناس الداخلة في الخطاب الاحتمالي المؤثر مناسبة أو إغراباً"² باختصار إن هذه القراءة حصيلة عدة قراءات تنتهج الطرح المنهجي ثم التحليل المنطقي لتبينة من جديد في ظل رؤية عامة للبلاغة التي تتعدى الحدود والفضاءات.

لكن ما يهمنا من مشروع "د:العمري" من خلال كتابه "البلاغة العربية أصولها وامتداداتها" هو موقع بلاغة الحجاج ل"بيرلمان" من المشروع وكيف وظفت آلياتها في إعادة صياغة صورة جديدة للبلاغة العربية، فمنذ البداية عمل "د:العمري" على تبين القيمة الحجاجية في الخطاب البلاغي العربي، بداية من "أرسطو" لتأصيل بلاغة الحجاج عند العرب، حيث رأى أن الجاحظ استثمر "فكرة المقام ومناسبة الأحوال، وهي مدار الإقناع في كتاب الخطابة لأرسطو"³ وعلى أساسه صنف الخطاب وبناه، وكذلك لمس "د:العمري" هذا التأثير ببلاغة الإقناع المستوحاة من فن الخطابة "لأرسطو"، حينما "أسعف مفهوم الصحة والاعتدال في كتاب فن الخطابة ابن سنان الخفاجي في بناء بلاغة كلاسيكية محافظة. وهي أيضاً التي أسعفت حازماً القرطاجني في مشروعه الضخم لبناء بلاغة معضودة بالحكمة والمنطق"⁴، فيمكن القول أن الكثير من القضايا التي طرحت على الساحة البلاغية العربية كانت مستوحاة من بلاغة أرسطو القائمة على استكشاف آليات الإقناع.

¹ - د: محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 14.

² - د: محمد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، أفريقيا الشرق، (د، ط)، 2017م، ص: 209.

³ - د: محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 24.

⁴ - نفس المرجع، ص: 25.

هذا التأثر بكتاب فن الخطابة "لأرسطو" يفسر سبب تصنيف العمري للبلاغة العربية معتمداً على القضايا التي تبدو أن البلاغة الأرسطية كان لها ضلع في توجيه رؤية الدرس البلاغي العربي القديم لها، فمثلاً خص المبحث الثاني من الكتاب للخطاب الإقناعي تحت عنوان "فن الخطابة، الصحة والاعتدال" درس ضمن هذا المبحث مكونات الخطاب الإقناعي فتطرق إلى ثقافة الخطيب وإلى ترتيب الأجزاء والأسلوب، كما درس مميزات فن الخطابة "الوضوح والاعتدال"، وفي المبحث الثالث من الكتاب خصه ببلاغة الصحة والتناسب وفي هذا المبحث تطرق إلى أهم مكون حجائي وهو "المقام" تحت عنوان "المقام الخطابي والمقام الشعري، محاولة تفسير" إلى جانب مباحث أخرى تدور كلها حول بلاغة الإقناع.

كما خص الفصل الأخير وهو الفصل الرابع بالبلاغة المعسودة (بالنحو والمنطق) وفي هذا الفصل درس أهم بلاغتين شكلتا نقطة فارقة في المسار الكبير للبلاغة العربية أولهما بلاغة "السكاكي" التي تقوم على المنطق والاستدلال الذي بنى "بيرلمان" على أساسه حججه المنطقية والشبه المنطقية، والبلاغة الثانية هي بلاغة "حازم القرطاجني" الذي أراد أن يخرج بلاغة الإقناع من دائرة الشعر إلى دائرة أوسع لتشمل الشعر والنثر معاً مع تحديد الفروق والخصوصيات، ويمكن أن نقول أن "حازم اقترب كثيراً" من بلاغة "بيرلمان" أي فكرة البلاغة العامة أو "إمبراطورية البلاغة" لكن بلاغة حازم فقط اقتصرت على ما كان معروفاً من الجنس الخطابي آن ذاك.

شكلت كل هذه القضايا البلاغية العربية التراثية المستوحات من الفكر "الخطابي الإقناعي" في فكر "د: العمري" مساراً تاريخياً بلاغياً، انطلاقاً من الاهتمامات الكلامية فـ"قد برزت أهمية الحجج خاصة في البرهنة على الفرضيات الكلامية المتعلقة بكلام الله وقضية خلق القرآن والصفات، حيث بدأ مع تناول هذه القضايا الاهتمام الفعلي بتوظيف الآليات اللغوية والبلاغية والسياقية المقامية من أجل ترجيح قضية ما على غيرها"¹، ولا يفوتنا إغفال فكرة المقام عند الجاحظ وكذلك القضايا الأخرى تمثل مراحل انتقال مرت بها البلاغة العربية القديمة سجلت عبر منجزاتها البلاغية.

¹ - د: محمد سالم محمد الأمين طلبة، الحجج في البلاغة المعاصرة، ص: 261.

من هذا المنظور يمكن أن تقترب البلاغة العربية من البلاغة الحجاجية الغربية "بلاغة بيرلمان" في عدة محاور عالجها "د: العمري" وفي رأينا تم ذلك تحت منظار بلاغي يتطلع إلى توسيم البلاغة العربية على الأقل في بعض الجوانب ببلاغة الحجاج. نذكر منها:

1- اشتغال البلاغيين على استكشاف العوامل الأساسية للبلاغة، تعبر عن مقاصد حركة البحث البلاغي وما حققته على مدار تاريخها الطويل وقد لخصها "د: العمري" في عوامل نابعة من الداخل ويقصد به النص الموضوع قيد الدراسة البلاغية والعوامل الخارجية التي حددها في "تقنين اللغة والفكر وتزيه الدين" ومهما كان نوع تلك المقاصد فهي ترمي الوصول إلى تحقيقها ولا يتم ذلك إلا باتباع مسار حجاجي باعتبار أن المقصدية تحدد السؤال ثم يتم عرضه ومن ثم رصد الحجج مرتبة وترك القارئ يستنتج ويحكم بعدها.

2- تصنيف وظائف البلاغة العربية إلى: وظيفة إخبارية، وظيفة تأثيرية، وظيفة حجاجية¹ أقرّ من خلال هذا التقسيم رؤية جديدة للبلاغة على أنها في الحقيقة ذات وظائف تقنية تفيد التغيير، الذي يكون بطرق عدة منها التعرف أي "الانتقال من الجهل إلى المعرفة"² أو عن طريق التخيل أي تصوير الأشياء على غير حقيقتها. أو عن طريق الاستدلال، أي الوصول إلى دلالة عن طريق الدليل... وكل من هذه الطرق إلا وترتبط بمقام معين، فالتغيير هو الذي تعمل على أساسه كل الصور البلاغية من (استعارة، تشبيه، تمثيل، كناية) فهو يوفر مساحة تتحرك فيها الأدوات البلاغية بتغيير الأفكار والتصورات وحتى المشاعر والقناعات، ووظيفة البلاغة إذن بعيدة منذ بدايات الدرس البلاغي العربي عن المتعة والزخرف اللفظي.

3- رأى "د: العمري" أن الفكر الحجاجي والحاجة إليه شغلت المهتمين بالخطابة وشغلت الشعراء على حد السواء غير أنه حدث الفصل بينهما بسبب "افتراق المنشآن، منشأ البيان، ومنشأ البديع"³.

¹ - ينظر: د: محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 212.

² - نفس المرجع، ص: 245.

³ - نفس المرجع، ص: 205.

فاختلاف المقام الحجاجي هو الذي كان مسؤولاً عن هذا الإقصاء، وإن كان "الجاحظ" قد ضمن البلاغة كل خطاب يهدف إلى الوظائف الثلاثة التي قسم إليها البلاغة على حسب تقدير "د: العمري" فهو بهذا التقسيم لم يستثن الحجاج من أي جنس خطابي. ما يعاب على البلاغة العربية هو عدم اهتمامها بالتصنيف الدقيق وإن كان هناك تصنيف لا يلتزم به المؤلف فالاستطرادات الكثيرة تعيق عملية الاستيعاب ومن ثم تصعب مهمة تحديد المفاهيم، من هنا كانت رغبة "السكاكي في" الحاجة إلى كتاب جامع لما يحتاج إليه الناظم والناثر على حد سواء، أي البلاغة العامة¹ فالوعي بهذا التجنيس الذي يقيم حدود فاصلة للبلاغة، تفتنت إليه البلاغة العربية خلال مسارها التاريخي. وهذا ما قامت عليه بلاغة كل من ابن سنان الخفاجي وحازم القرطاجني.

بالرجوع إلى الهدف الأساسي من تأليف الكتاب نستطيع أن نقول أن ما أنجزه يفوق بكثير ما طمح إليه "د: العمري" من خلال الكتاب:

1- محاولة تغطية أهم المحطات البلاغية الكبرى التي دشتها البلاغة العربية.

2- استخلاص النتائج ومحاولة معرفة المقدمات من كل مرحلة بلاغية معينة، فلاحظ أن هذه المقدمات هي نتائج المراحل التي تأتي بعدها. أو تكملة ما نقص منها.

3- ربط اللاحق بالسابق، واعتبار أن البلاغة العربية بناء تراكمي من النتائج. وإن لم يكن في المنجز البلاغي القديم يمكن تشكيله بضم البلاغات العربية لبعضها البعض.

4- البلاغة العربية القديمة بلاغة عامة تجمع بين الخطابية والشعرية لكن خصائص كل من الجنسين هو الذي أخفى علاقة الاجتماع ووترها.

5- "حازم القرطاجني" استطاع بفكرة البلاغة المعضودة أن يظهر صفة البلاغة العامة للبلاغة العربية.

¹ - نفس المرجع، ص: 291.

6- مفهوم البلاغة متغير من مرحلة إلى أخرى بما يطرأ عليه من تحولات وإجراءات هذا يظهر من خلال عناوين المباحث التي تضمنها الكتاب "من المحاكاة إلى التغيير"، "بلاغة الصحة والتناسب"، "بلاغة الانزياح"¹

7- تستوجب كل مرحلة من المراحل المتغيرة التي تطرأ على البلاغة قراءة جديدة تقرأها من الداخل لا من الخارج حتى تضمن حسن استيعاب المفاهيم واستخلاص النتائج.

8- الخطاب الإقناعي التداولي أو التخيلي هو الذي يجعل من البلاغة العربية بلاغة عامة.

إن الشواغل التي كانت تهم "د: العمري" وأراد أن يضعها أمامه ويتبع دراستها عبر تاريخ البلاغة العربية نبعت من فكرة إعادة تفعيل معطيات البلاغة العربية القديمة بدمجها مع بلاغة الحجاج،
بحيث

"حقق مشروع الباحث محمد العمري بشأن البلاغة العامة، بلاغة جديدة أتاحت مراجعة مفهوم البلاغة السائدة بالارتباط بدينامية الأسئلة الإنسانية. إنها بلاغة متميزة تسمح بإعادة الارتباط بين البلاغة وتاريخ الأدب والنقد. لقد اتخذت البلاغة في مشروع الأستاذ محمد العمري منحى نسقيا جعلها علما أعلى يشمل التخييل والحجاج، فصار علما كليا يدرس الخطاب الإنساني عامة. إنها بلاغة الخطة النسقية التي تحاور القارئ، وتؤمنه من الضلال، وتحقق له التلقي النسقي للمعارف البلاغية"²، هذا المنحى فرض عليه قراءة التراث البلاغي قراءة مغايرة تسافر بالنص البلاغي إلى عوالم الحداثة وتلقي عليه رهانات العصر ومتطلباته لعله يخرج منها بشيء يفتح البلاغة العربية على آفاق جديدة.

3-2-2 رؤية جديدة في التنظير البلاغي العربي:

يعتبر كتاب "التفكير البلاغي عند العرب" لد: حمادي صمود، مشروع لقراءة جديدة للموروث البلاغي العربي، بما قدمته علوم النص الحديثة لاسيما البلاغة الجديدة، وقد عبر عن هذا المسعى "د: حمادي صمود" في قوله: "حرصنا في هذه المحاولة، على مباشرة التراث من منطلق التفاعل

¹ - ينظر: د: محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 541، 543.

² - د: الحسن بواجلابن، تفاعل العلوم الأصلية والدخيلة في مشروع البلاغة العامة للدكتور محمد العمري، ضمن البلاغة العامة حوار المركز دراسات في أعمال الدكتور محمد العمري، سلسلة الترجمة والمعرفة العدد 5، عالم الكتاب الحديث، ط1، 2017م، ص: 67.

بينه وبين الحداثة قصد فهمه في ذاته واستجلاء أبعاد النظرية الأدبية التي يتضمنها، ثم محاصرة مظاهر المعاصرة فيه التي يمكن استحضارها اليوم¹ عملية القراءة في هذه الحالة هي قراءة على مستويين قراءة في الخصائص البلاغية لتراث البلاغي بمنظور حديثي، ومنها تتولد قراءة أخرى تربط هذه الخصائص المقروءة بنظيرتها الغربية.

إن هذه القراءة تفرض نفسها على الباحث البلاغي العربي حتى يتطلع "لاستكشاف غوامض التراث"² التي طالما حملت النص البلاغي أفكارا لم تكن ليتحملها لو أن التراث قرئ قراءة منصفة واعية دون أن يؤخذ من باب القداسة، دون انتقادها أو الانتقاص من قيمتها، وهذا بـ "استخدام أجهزتنا المفهومية استخداما يحترم خصائص التراث والسياق التاريخي الذي يتزل فيه والأسس المعرفية "الإبستمولوجية" القائم عليها"³، هذا هو الإطار الذي حدد به "د: حمادي صمود" قراءته حتى يبقى وفيا إلى النص البلاغي التراثي ويوفيه حقه من القراءة الدقيقة التمحصية، التي تسعى إلى إبراز بلاغة عربية حصينة بأفكارها وشروطها في ثوب جديد مسترشدة بمعطيات التراث البلاغي.

أول ما بحث فيه "د: حمادي صمود" في مشروعه هو عوامل نشأة التفكير البلاغي العربي القديم، وفي هذا المبحث وقف مستغربا منكرة المغالاة من أولئك الجازمين بالتأثر الكبير للبلاغة العربية بالبلاغة الأجنبية، وإن كان لا ينفي بعض هذا التأثير؛ لأن "البيئة العربية كانت على صلة بتيارات أجنبية مختلفة استفادت منها البلاغة العربية بوجه من الوجوه."⁴ لكن الذين أثبتوا هذا التأثير لم يستندوا على دليل قاطع، "وإن أثبتوا ذلك لم يكن ذلك وفق منطق سليم مع اللغو في الحكم على نسبة التأثير وكأن الناقد العربي في حاجة إلى قادح أجنبي يفطنه إلى الفرق بين خصائص لغة الاستعمال العادي ولغة الأدب"⁵، وحتى لا يقع "د: حمادي صمود" فيما وقع فيه سابقوه من المزايدة والاجتراء الذي كان سببه الرئيسي هو الاجتراء من التراث دون الرجوع إلى الأصول ولا مراعاة للسياق النصي، ألزم نفسه "البقاء في حدود بعض المظاهر والمسائل منفصلة عن نسيج النظرية الأدبية ذاتها لا

¹ - حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس المقدمة، ص: 11.

² - حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، المقدمة، ص: 12.

³ - نفس المرجع، المقدمة، ص: 11.

⁴ - نفس المرجع، ص: 86.

⁵ - نفس المرجع، ص: 84.

يمكن، تصورنا، من إدراك أهمية الأخذ إن ثبت الأخذ، ولا يتم ذلك إلا بالنقد الداخلي للنصوص والإحاطة بأصول القضايا البلاغية والنقدية جملة¹، فهو بهذا الالتزام لا يستطيع أن يجيب على أي تساؤل إن لم يشهد كل مكونات النص البلاغي العربي ويتتبع مسار حركيته الفكرية بتمعن.

سار "د: حمادي صمود" وفق خطة منهجية تاريخية تتبع المنجزات البلاغية القديمة وترصد أهم الإشكاليات التي كانت تطرح كل مرة على طاولة البحث، والتي ساهمت بدورها في تفعيل البحث البلاغي وتطويره، وفي بعض الأحيان تكون هي السبب المباشر في إعاقه واضطراب البحث وزعزعت المسار التطوري البلاغي، يمكن أن نرصد هذه النقاط بتتبع الأطوار الكبرى للبلاغة العربية حسب الطرح الذي قدمه "د: حمادي صمود" في كتابه "التفكير البلاغي عند العرب":

الطور الأول: محاولة تجميع المواد البلاغية:

- أشار "د: حمادي صمود" على أن بعض المسائل البلاغية التي تجنب البلاغيون العرب الخوض فيها أو الاهتمام بها أكثر، يرجع في الأساس إلى المعتقد الديني، الذي كان يحرك معظم المؤلفات البلاغية العربية في تلك المرحلة الأولى من البحث البلاغي كأمثال "عبيدة الجراح في "بجاء القرآن"، حيث "تركز على مقاصد البلاغة العقائدية ويوظفها لغايات جدلية إقناعية، فتسخر للشيء ونقيضه، تبعاً لحاجات المتكلم من خطابه، وهذا المفهوم يذكرنا بمقاصد الخطابة عند أقوام أخرى خاصة عند اليونان"² فكان لهذه المقاصد حدين، أولهما الاحتراز في معالجة المسائل البلاغية بتحفظ، والثاني أجبر الباحث البلاغي على ضرورة التحكم في قوانين إنتاج الخطاب الحجاجي، لكي يتمكن من تحقيق المقاصد البلاغية دون الإخلال بنظام البحث أو الوقوع في الانزلاقات العقائدية، هذا ما انعكس على مجمل البحث البلاغي في الفترة المتأخرة منه على يد "الجرجاني"، وحازم القرطاجني"،.... وغيرهم.

- رأى "د: حمادي صمود" أن لفظة الجواز التي أستعملها "أبو عبيدة الجراح" كانت في صميم البحث البلاغي الحجاجي "كأن كتاب "بجاء القرآن يتنزل، من هذه الجهة، في نطاق القول لا اللغة، ويدرس جملة من الملابس التي تحف بإنجازه. وهذا مبحث بلاغي آخر يرتبط مفهوم "الجواز فيه

¹ - نفس المرجع، ص: 85.

² - حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، المقدمة، ص: 115.

"بالاحتمال" و"الجواز" فيصطبغ بصيغة أسلوبية عامة أساسها تجاوز المتكلم في خطابه طريقة في القول إلى أخرى لأسباب وملابسات¹ غير أن هذه الصورة البلاغية التي تأسست عليها البلاغة العربية لم تكتمل؛ لأنّ البلاغة حينها كانت في بداية عهدها تفقر للأدوات والنظام المنهجي.

- فقد أكد "د: حمادي صمود" أن الجانب الذي كان يهتم الباحث البلاغي العربي أكثر في ذلك الوقت هو الجانب اللغوي، أما "اهتمامه بالبلاغة هامشي مندرج في نطاق مشاغل اللغويين والنحاة، ويأتي على رأس هذا القسم "الكتاب" لسيبويه و"معاني القرآن" للفراء و"مجاز القرآن" لأبي عبيدة"²، لكن هذا الاهتمام اللغوي عاد على البلاغة بـ "مفهوم نظري غاية في الأهمية والاكنتاز هو في أساس العمل البلاغي وركيزته، هو مفهوم "التوسع" وقد احتل في من المنجزين المركز الذي تدور في فلكه بقية المبادئ الأخرى" البلاغية كالإيجاز والإضمار...

- إنّ مفهوم "التوسع" الذي تمخض عن الدراسات اللغوية وهو "مصطلح متعدد الدلالة، يستقطب جملة من طرق في القول، يوحد بينها خروجها عن الأصول النظرية التي تؤسس عملية تأليف الكلام مطلقاً ويدل به على ممارسات تراعي إرادة المتكلم وقصده"³ وهذه مسائل تدخل في إطار المباحث البلاغية الحجاجية التي تقوم في الأساس على "علم المخاطب، ودلالة السياق، ولغة النص وهياتها"⁴ إنّ هذه المجوزات التي حصرها "د: حمادي صمود" تمنحها خاصية "التوسع" في الكلام، بالإضافة إلى ما ينبني على هذه المجوزات من علاقات تتصل بالمقام والمقاصد ومقتضى الحال.

الطور الثاني: التزعة التنظيرية للبلاغة العربية:

خصص "د: حمادي صمود" هذا القسم "للحافظ" على اعتبار أنه أحدث وثبة نوعية في إرساء القواعد العامة للتنظير البلاغي العربي خاصة الخطابي الإقناعي منه يتمثل أهمها في أنه:

- أعطى للبلاغة الخاصية العامة التي يجب أن تضطلع بها، أي التأثير والتأثر بالعلوم الأخرى، وهذا يظهر جلياً من خلال مؤلفاته خاصة "البيان والتبيين" فتجاوزت مؤلفاته مفهوم الاختصاص

¹ - نفس المرجع، ص: 92.

² - نفس المرجع، المقدمة، ص: 99.

³ - حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، المقدمة، ص: 103.

⁴ - نفس المرجع، ص: 105.

الضيّق، موضوعا وعرقا، واتسمت بترعة شمولية ضربت في كل ميدان بسهم وأخذت من كل شيء بطرف"¹ وإنّ هذه التّرة أصبحت مطلبا لا بد منه في الدراسات البلاغية الجديدة، لكن بسبب هذه الرغبة وأمام غزارة المادة البلاغية التي توفرت لديه لم يكثر كثيرا إلى عملية التنظيم والتبويب.

- تعرض "د: حمادي صمود" للبعد التواصل الاجتماعي للغة، عند "الجاحظ" وتحديد الأطراف العملية التواصلية وتفطنه لأهمية البعد النفسي وعدّه مؤسس لنظرية "في الكلام أو اللغة منجزة"² خاصة عندما جعل "الجاحظ" نظرية المقامات والمواضع حلقة الوصل بين طرفي زوج اللغة والكلام"³ وهو بهذه النظرية كان سباقا في تبين وظائف اللغة وعلاقات هذه الأطراف بخصائص إنتاج الخطاب البلاغي المين.

- إن الأمر الذي استرعى انتباه "د: حمادي صمود" في التراث البلاغي العربي هو إقران البلاغة بالعلوم الموضوعية" ومن ثم اقترن في مصطلحه البيان بالعلم والعي بالجهل"⁴، وإن هذا الأمر قد يبدو في ذلك الوقت بعيد المراد لارتباط البلاغة بالشعر أي بالعواطف والخيال، من هنا نقول أن إدراج البلاغة ضمن العلوم أو على الأقل استنادها على العقل والمنطق فكرة أثبتتها العرب بل جعلوا منها مطلبا أساسيا من مطالب البلاغة.

- إن "الجاحظ" في نظر "د: حمادي صمود" قد تناول كل أبعاد الخطاب على جميع المستويات كما تناولته الدراسات البلاغية الحديثة، فقد "أكد الجاحظ على أهمية البنية في الأدب باعتبارها الخاصة النوعية الأساسية في ممارسة اللغة ممارسة فنية"⁵، أضف إلى هذا كل ما يجعل الخطاب فريدا من نوعه، مثل التوظيف المناسب للوجوه البلاغية واختراق العادة، في ظل احترام القيم الإسلامية، وهكذا تم توجيه المنجز البلاغي التراثي نحو قراءة تحفر في الفكر البلاغي العربي لتستخرج المشاغل والمقاصد والأسباب والكيفية الاستدلالية التي وظفت بها الأدوات، فاستطاع بهذا الإجراء

¹ - نفس المرجع، ص: 143.

² - نفس المرجع، ص: 151.

³ - حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص: 151.

⁴ - نفس المرجع، ص: 227.

⁵ - نفس المرجع، ص: 152.

رسم الخطوط العريضة التي تحدد خصائص الخطاب البلاغي العربي. وقاربت بذلك إلى حد كبير من معطيات البلاغة الجديدة.

الطور الثالث: استقلال واكتمال التنظير البلاغي:

يمثل هذا الطور الفترة التي جاءت بعد الجاحظ إلى نهاية القرن السادس هجري¹ شهدت البلاغة ازدهارا واكتمالا لمباحثها. "وأصبح تحديد القيمة الفنية في النص مشغلا من مشاغل النقاد الكبرى تنظيرا وتطبيقا"² وارتبط هذا المشغل في الكثير من الأحيان بمقاصد بلاغية بحتة لا يوجهها أي منحى خالص فساهم ذلك كثيرا في تشكل مادة بلاغية خالصة الرؤية. يتضح ذلك في ما يلي:

- رغم وفرة المادة البلاغية في هذه الفترة لم يثن الباحث "د: حمادي صمود" من تتبع هذه المادة شبرا شبرا في المنجزات البلاغية المختلفة واستخراج ما أمكنه من عناصر بلاغية ذات قيمة فنية، لإيمانه أن حقيقة التفكير البلاغي لا يمكن فهمها وفك شفراتها إلا في إطار مرجعي متواصل ممنهج بإلحاق اللاحق بالسابق، كما اعتمد على عملية الانتقاء التي تقوم على الأولى وعلى الأهم فاشتغل على ثلاث مسائل وهي: المفهوم والمنهج والإجراء،³ ف"د: صمود" بهذا حدد وقتن استراتيجية البحث إذ أن هذه المسائل تشتغل على أساسها كل النظريات البلاغية الحداثية التي تهتم بعلم النص.

- أهم مفهوم توسع فيه "د: حمادي صمود" هو مفهوم المجاز؛ لأنه أصبح البحث فيه ضرورة بلاغية لا يمكن إغفالها أو التقليل من شأنها، غير أن "ضبط حدوده واستعراض أقسامه أمرا ثانويا لا يهمننا بقدر ما يهمننا كونه مدخلا ضروريا لفهم أكثر الأساليب والصور انتشارا كالتشبيه والاستعارة والتمثيل"⁴، لأن جل الكلام العربي قائم على المجازات.

- عرف مفهوم المجاز تطورات متتالية عبر المسار البلاغي العربي القديم فقد عرف في البدايات الأولى لنشأة الدرس البلاغي ب"التوسع" ثم أخذ لفظة "المجاز" ليدخل ضمنه كل الوجوه البلاغية القابلة لتجاوز الحقيقة بطريقة أو بأخرى ليخرج بعبارة أخرى تؤسس لمفهوم جديد عبارة "معنى المعنى"

¹ - ينظر: نفس المرجع، ص: 595.

³ - نفس المرجع، ص: 595

³ - ينظر: د:حمادي صمود ، التفكير البلاغي عند العرب ، ص: 137 إلى 140

⁴ - نفس المرجع، ص: 395.

التي ذهب إليها "الجرجاني" في مشروعه البلاغي الذي يمثل منعرجا كبيرا في الدراسات البلاغية العربية بما طرحه من إجابات موفقة للكثير من الإشكاليات التي كانت محل نقاش على مدار زمن طويل يمتد من بداية نشأة درس البلاغي إلى غاية ما وصل إليه. فالمفهوم الجديد مبدؤه العقلانية البلاغية، إذ لا يحصل إدراك المعنى الثاني الذي "لا يحصل إلا من طريق العقل والاستدلال لأن العلاقة بين المعنى الأول والمعنى الثاني علاقة لطيفة لا يتوصل إليها إلا بالنظر الدقيق"¹، بهذا المعطى العقلي ظهرت في البلاغة العربية كيفية اشتغال الصورة الفنية، وارتباطها العميق بالسياق الذي تكون فيه² وبهذا تبلور "المجاز" في البلاغة العربية ليأخذ موقعه من الدلالة المترابطة في القول.

- الصورة التي قدم بها "د: حمادي صمود" مفهوم "النظم" تعطي انطبعا عاما على أن البلاغة العربية "دخلت مع الجرجاني، طورا جديدا لم تعد فيه القيمة الأدبية مرتبطة بنجاعة النص وتأثيره المباشر في متقبله لحسن لفظه ووضوح معناه وقربه من الإفهام بل أصبحت خصوصيات في بناء المعاني تدرك بالعقل والتدبر والمثابرة على التأمل لا بوقع الألفاظ في السمع"³ من هذا المنظور أكد "د: حمادي صمود" أن النظم أسس لبلاغة النص والسياق "بتركيزه على أسس نظرية ثابتة وإعطائه مضمونا ملموسا يجعل منه أداة فعالة في الحكم والتقييم، وبإخراجه، ثانيا من حيز الإعجاز إلى مجال أوسع يضم كل أنماط الكلام الفني"⁴ فقيمة النص البلاغي تتحدد في التلاحم والتماسك وإدراك جميع عناصر بناء الخطاب إذ لا تحدد أي قيمة بلاغية لنمط كلامي معين دون نمط آخر فالمزية تكمن في فحوى الكلام ودرجة توافقه وانسجامه لا في العناصر، متفرقة .

4- من آفاق الفكر البلاغي العربي المعاصر:

لا شك في أن النظرية الحجاجية استحوذت في الغالب على الدراسات البلاغية العربية المعاصرة، بجهود نخبة من النقاد والباحثين، الذين أسهموا بطريقة أو بأخرى في إرساء دعامة لبلاغة الخطاب الحجاجي، في الفكر العربي المعاصر، "تروم قراءة التراث البلاغي العربي القديم بشكل حديث يتنغي الإجابة على انشغالات الجديدة للدرس البلاغي العربي اليوم. كما تضع نصب عينها الإسهام

¹- نفس المرجع، ص: 412

²- ينظر: نفس المرجع، المقدمة، ص: 413.

³- د:حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص: 523.

⁴- نفس المرجع، ص: 529.

في تطوير الدرس البلاغي الذي أصبح يتبوأ موقعه الطبيعي بوصفه بحثاً واستكناها لخصوصية التعبير اللغوي سواء على الصعيد الإمتاعي أو الإقناعي، وعملا من أجل أن يكون للقول فعل ناجع في فضاء الحياة العامة¹ وهذا ما تم استكشافه من خلال تتبع مسار حركية البلاغة الحجاجية في البلاغة المعاصرة.

لكن على سعة المنتج البحثي البلاغي لا يزال الكثير من بلاغة "بيرلمان" لم يرفع عنه الغطاء والكثير من المفاهيم لا تزال عالقة في الذهن البلاغي العربي المعاصر، خاصة إذا ما التقت بالثقافة البلاغية العربية التي لا تزال تتخبط إلاّ حد الساعة في فكرة أن البلاغة مجرد أساليب وصور نوظفها توظيفا جماليا، فائدته المتعة والتأمل الجمالي التي تمنحها اللفظة للخطاب. وقد رُسمت لها هذه الفكرة بفعل التعميد الذي مورس على البلاغة بعد "السكاكي"، من هنا كانت الحاجة إلى إعادة الفكر البلاغي العربي إلى مكانته الأصلية التي كان يشغلها بين العلوم في وقت مضى، بمادة بلاغية نفجر بها الطاقات البلاغية التي هي في الأصل محرك الخطاب نحو الفعالية وأداته في اختراق الحدود، ومن ثم وسيلة في التحكم في الآراء وتوجيهها، بمعنى أن هناك الكثير من المطالب التي لا بد للبحث البلاغي أن يجتهد في طلبها، وإن هذا الاجتهاد لا يمكن أن يحقق شيئا إن لم تتكاثف الجهود، كل وحسب تخصصه البلاغي وحسب الجنس الخطابي الذي يشتغل عليه، ومن هذه المطالب نذكر:

- توسيع الدائرة التطبيقية للآليات الحجاجية على الجنس الخطابي، فهناك الكثير من الأجناس الأدبية لا تزال لم يطأها المراس الحجاج، رغم ما تتوفر عليه من تقنيات حجاجية.

- البلاغة الجديدة يمكنها أن تستوعب التطور السريع والهائل الذي يشهده عصرنا في كل المجالات، ولكي يواكب العربي هذا التطور الحاصل، فإنّ البلاغة الجديدة فقط هي وسيلته في ذلك، إذن لا بد أن يتقن تقنيات هذه البلاغة، لأنها تقوم على لغة تواصلية جديدة تقيم الجسور بين الثقافات المتنوعة.

- البلاغة العربية لا يمكن أن تنفصل عن أصولها، لأنه ببساطة يمثل قوتها وعنفوانها، لذا مهما تطورت البلاغة العربية وتأثرت بنظيرتها الغربية تبقى وفيه لهذا التراث فالكثير من المسائل البلاغية

¹ - رشيد بركان، كيف قرأ البلاغيون العرب المعاصرون التراث البلاغي؟ نظرات في تأريخ الدكتور محمد العمري للبلاغة العربية، ضمن سلسلة البلاغة العامة: حوار المركز والمحيط دراسات في أعمال الدكتور محمد العمري، ص: 189.

تطرت لها البلاغة العربية القديمة وأسهب فيها البحث فلا يمكن أن نضربها عرض الحائط، وفي الوقت نفسه لا بد من تجديد آليات البلاغة، وإن هذا لا يتم إلا في ظل قراءة حصينة متمكنة مترينة، لتحسن الاقتراض والإدماج من البلاغتين، دون خرق أو إقصاء.

- لا بد للباحث البلاغي أن يستثمر في بحوثه مجالات الخطاب الحجاجي الذي يهتم الناس أكثر في حياتهم اليومية، أي رغبات وحجج الجمهور، فهم بذلك في حاجة إلى التعرف على آليات الخطاب، وشروط إنتاجه، حتى يمكنهم ذلك من التحكم في إنتاجه أو حتى يمكنهم من معالجته واستقرائه بغية الوصول إلى أهدافه ومكوناته. فلا يبقى بذلك حبيس أدراج المكتبات لا يستفيد منه إلا النخبة من الناس، فلا يتطلع إليه أحد ممارسة أو استيعابا. فيقلل بذلك من أهمية الخطاب الحجاجي ويحد من أهدافه.

- البلاغة روح متجددة في كل عصر، تأخذ منه لتجدد معطياتها وتمنحه القدرات التي بها يحيى ويسير إلى الأمام، لذا لا يمكن أن نحصر البلاغة في مفهوم واحد أو آليات معينة، فعلى البلاغي العربي أن يدرك هذه الخاصية التي تضطلع بها البلاغة الجديدة ويحاول أن يبني من خلالها أبحاثه البلاغية ويتطلع ليقيم من خلال كل بحث بلاغة جديدة تختلف عن البلاغة التي سبقتها، غير أن هذا الجديد لا بد أن يتوافق ومستجدات العصر.

- نعرف أن أهداف بلاغة "بيرلمان" أساسها العموم والشمول، وقد وجدت هذه الرؤية صدى لها في البلاغة العربية المعاصرة، من خلال "المشروعات البلاغية الكلية التركيبية، وهذا بطبيعة الحال ينسجم ويتناغم مع مطلب كبير يلح عليه، ويتعلق بتحقيق بلاغة شمولية"¹ يقصد بالبلاغة التركيبية هي البلاغة التي تعتمد الانتقاء من كل الأطراف البلاغية ومحاولة التركيب بين هذه المنتقيات بشكل دقيق ومدروس والخروج منها ببلاغة جديدة تضم أشكال وأنواع من البلاغات المتلاحمة مع بعضها البعض ومن هنا توصف بالشمولية والعمومية.

¹ - رشيد بركان، كيف قرأ البلاغيون العرب المعاصرون التراث البلاغي؟ نظرات في تأريخ الدكتور محمد العمري للبلاغة العربية، ضمن سلسلة البلاغة العامة: حوار المركز والمحيط دراسات في أعمال الدكتور محمد العمري، ص: 221

خاتمة الفصل الثالث:

بعد استقرار البلاغة العربية الحجاجية المعاصرة بالوقوف على تحدياتها ، وتبين أهم منجزاتها وكذا آفاقها المستقبلية توصلنا في هذا الفصل إلى النتائج التالية:

1- ساهمت الترجمة بشكل لافت للنظر في إطلاع الباحث العربي على البلاغة الجديدة الغربية، غير أن هذه الترجمات طرحت مشكلا كبيرا لا تزال البلاغة العربية المعاصرة تعاني منه وهو مشكل الاضطراب الاصطلاحي.

2- إشكالية الاضطراب الاصطلاحي يمكن أن تحتويها البلاغة العربية المعاصرة إذا ما عملت المؤسسة البلاغية على توحيد الجهود وتنظيم المنظومة الاصطلاحية الحجاجية حتى تحدد من هذه الأزمة ويتمكن الباحث العربي من آليات الخطاب الحجاجي يتمكنه من مفاهيمه.

3- إلى جانب الترجمة كانت المنجزات القرائية للبلاغة العربية ذات أثر فعال في تقنين بلاغة الحجاج على الساحة البلاغية العربية، لاسيما قراءة كتاب "مصنف في الحجاج" لـ"بيرلمان و"تيتيكا"، حيث هذه القراءات بأشكالها المختلفة قربت بلاغة الحجاج إلى الباحث العربي أكثر، خاصة الباحث المبتدئ، الذي وجد في هذا النوع من القراءات فرصة مواتية للتفاعل مع هذه البلاغة، واستقصاء ما تدرج عليه من مكونات ومقومات من خلال القراءة التحليلية التي قدمتها.

4- أثبتت جل المنجزات التطبيقية للبلاغة الحجاجية أن فعلا بلاغة الحجاج بلاغة عامة، يمكن أن تشمل كل الخطابات وآلياتها تكون ذات فاعلية متفاوتة من خطاب إلى آخر، رغم ما نسب إلى بعض الخطابات أنها بعيدة كليا عن الخاصية الحجاجية مثلما نسب إلى الشعر، غير أن دراسته حجاجيا أثبتت أن كل خاصية من خصائصه الشعرية تضطلع بالخاصية الحجاجية.

5- تبين لنا مما تقدم أن البلاغة العربية المعاصرة أفادت من البلاغة الجديدة على مستوى التجديد في المفاهيم والتجديد في المنهج وكذا في الأدوات، واستطاعت بفضلها أن تعيد قراءة التراث قراءة جديدة تلقي الضوء على المناحي الحجاجية في البلاغة التراثية، وهذا ليس من أجل القراءة ومن أجل إثبات حجاجية البلاغة التراثية، ولكن من أجل التعرف على الكيفية التي وظفت بها البلاغة العربية القديمة، الحجاج وكيفية اشتغاله والتعرف على أهم مراحل تطور مفهومه ومقارنته الآليات الحجاجية المستخدمة في تلك الفترة مع الآليات الحجاجية عند الغرب، وكيف وماذا يستطيع البلاغي

العربي أن يستقي من التراث البلاغي ومن بلاغة الغرب، ليصنع بلاغة حجاجية عربية معاصرة تتناسب والتحويلات التي تفرضها مقتضيات العصر على الخطاب البلاغي اليوم.

6- البلاغة العربية المعاصرة قادرة أن تعيد ماضيها التليد إذا ما استمرت في الاجتهاد البحثي تستقصي كل الإجراءات القرائية الانفتاحية المزدوجة، تسير وفق منهج يضمن الإنصاف والدقة العلمية، فهي تسعى لتحدد كل ما كانت الحاجة إلى ذلك، فلا تنحصر في قوالب بلاغية مصمتة تجتر القاعدة والشاهد.

خاتمة:

محاولة منا في استقراء مسار البلاغة العربية بشقيها القديم والمعاصر في إطار مفاهيم البلاغة الغربية الجديدة، استنادا على بلاغة "بيرلمان"، قادنا البحث إلى الوقوف على عدد من النتائج هي كالتالي:

- اتضح لنا أن بلاغة الحجاج لم تنشأ من العدم بل كانت لها قاعدة أرسطية متينة تأسست عليها، نتيجة عدد من التطورات التي عرفتها بلاغة الحجاج اليونانية، لتشهد بعدها مرحلة تقهقر نتيجة تفرغ البلاغة من هدفها النفعي الإقناعي، وتوظيفها توظيفا امتاعيا، جماليا.

- إن الحجاج عند أرسطو ينشأ أين حل الاختلاف، والفكرة نفسها تبناها "بيرلمان" وعلى أساسها بنى بلاغته الجديدة، إذ أقرّ أنه لا حجاج في المسائل اليقينية، إنما يكون في المسائل التي تكون موضع طعن أو شك أو اعتراض، وعليه يتكفل الحجاج بإيجاد الحجج التي تضع سياق الاستقبال ضمن الدائرة التي يرسمها لها المحاجج وهذا بإقصاء وجهات النظر المغايرة أو المنافسة، لكن هذا الأمر يبقى في حدود الاختيار المرهون بالقدرات الحجاجية للمخاطب.

- إحياء الريطوريقا " على يد "بيرلمان" و"تيتكا" يعود إلى عدة أسباب أهمها تدهور استعمال الخطابة حتى أضحت مهجورة، بالإضافة إلى انتشار التزعة العلمية الصارمة التي ظهرت مع عصر النهضة والتي جردت الخطاب من كل أشكال التعدد والحرية، فكانت عندئذ بلاغة جديدة تؤلف بين المختلفات دون صراع أو عنف تختصر مسافات الأفكار وتضبط الخطابات على أساس القيم والمنطق في الوقت نفسه، فهي بلاغة مستوحاة من تناقضات العالم المعاصر تحاول أن تخلق تعايشا فكريا وثقافيا، وكشف اللثام عن الخطابات الزائفة، التضليلية على اعتبار أنها خطابات لا تتوافق وأهداف الحجاج، إنما هي من روافد الحجاج.

- سعى "بيرلمان" إلى تجسيده مشروع البلاغة الجديدة "إمبراطورية البلاغة" من خلال جعلها بلاغة تحتوي جميع أنواع الخطاب وبما أن كل المواضيع ذات البعد الإنساني تقوم على الاحتمال التي تعد موضوعات الحجاج، كان للبلاغة الجديدة دور في تنمية الفكر الإنساني بكل اختلافاته وتناقضاته.

- آليات الحجاج وأدواته تحرك كل نوع خطابي يستهدف المخاطب وتجعله ذا فعالية أقوى وأمتن، باستعمال الإجراءات المنطقية والمقصدية بأسلوب سهل بسيط بعيد عن التكلف والزخرف اللفظي الذي يثقل كاهل النص ويذهب أهدافه الأساسية، مراعيًا في ذلك مقتضيات السياق والمقام والحالة النفسية والاجتماعية وحتى الفكرية للمخاطب.

- أدى الاهتمام بالبلاغة الكلاسيكية إلى إظهار حقيقة لا بد منها، وهي أن العملية الحجاجية تتعلق أساسًا بالمستمعين، لأن ذلك يساهم بشكل كبير في بناء وإنتاج وتوجيه المسار الحجاجي، لذا غدا المستمع محورًا أساسيًا في نظرية "بيرلمان" وأحد أهم مقوماتها البنائية، إذ عدته البلاغة الجديدة عنصرًا من العناصر المقامية وإليه تتجه مقصدية الخطاب. وبناء على نوعية المستمع تتحدد العناصر الحجاجية التي تشكل الخطاب وتوضع وفقه الاستراتيجية الحجاجية للخطاب، ومنه تنشأ خطابات مختلفة تتميز عن بعضها البعض، وفيه تبرز قوة المحاجج وفتياته الحجاجية.

- الحجاج من أبرز وأوسع أشكال التواصل التي تتفاعل فيه القدرات وتباين فيه الآراء وتستقيم فيه الرؤى، باستغلال كل المعطيات والآليات وسيلته اللغة الطبيعية التي توفر له الطواعية والاتفاق والانسحاق عن رغبة وعن تقبل موضوعي واع، ولا يكون هذا التواصل فعالًا، ناجحًا إلا إذا حقق الغاية القصوى وهي الإقناع أو الاقتناع.

- من الخصائص التي يقدمها الحجاج للبلاغة في يومنا هذا تقنيات تعلم الباحث فهم النصوص بالوصول إلى مقاصدها الرئيسية وتفكيك شفراتها الغامضة وتحليل العلاقات، والربط بين المكونات الداخلية كاللغة والأسلوب وترتيب أجزاء النص، وكذا الخارجية كالمقام والخلفيات الثقافية والفكرية ودوافع وأحوال المستمعين، من خلال محاورة القارئ للنص ومسائلته مساءلة حجاجية.

- إن الرؤية الحجاجية عامة كان لها حضور قوي في البلاغة العربية القديمة، وبالخصوص الرؤية البلاغية لـ "بيرلمان" غير أن هذه الرؤية لم تجد لها طريقًا إلى الاكتمال والتقنين النظري لأسباب عديدة، كانت سببًا وراء عرقلة مسارها التأسيسي، نخص بالذكر الاضطراب المنهجي والتصنيفي الذي كانت تعاني منه البلاغة العربية القديمة طيلة الفترة الممتدة من نشأتها إلى غاية تراجعها واختزالها في القوالب المعيارية، والأساليب الجمالية.

- ظروف الانفتاح ومختلف التغيرات التي عاشتها البلاغة العربية القديمة بعد ظهور الإسلام كان لها دور فعال في بروز حركة فكرية حجاجية مهمة، وجهت الدرس البلاغي وجهة مغايرة تبحث في شروط إنتاج الخطاب المبين الذي يقوم على العقلانية أكثر من الاهتمام بالجانب الجمالي للخطاب.

- يوجد اختلاف في كيفية توظيف بعض الآليات الحجاجية في البلاغة العربية القديمة وبين كيفية توظيفها واشتغالها في البلاغة الجديدة من حيث الترتيب والأهمية في التأثير، غير أن هناك بعض الآليات تتخذ نفس الإجراء في البلاغتين (العربية القديمة، البلاغة الجديدة العربية) ومنها على سبيل المثال حجج: التضمن والاقتضاء والطبي والاستشهاد.

- إذا كانت بلاغة أرسطو نظرت إلى الخطابة على أنها هي البلاغة عامة، فإن هذه النظرة تختلف في الثقافة البلاغية العربية القديمة، حيث أن الخطابة جنس أدبي له خصائص بنائية محددة بينما البلاغة في الفكر البلاغي العربي القديم أعم وأشمل من ذلك، وقد ارتبطت أكثر بالشعر عند العرب، ولهذا السبب بالتحديد ظلت بلاغة الحجاج تشتغل في الظل، ولم ترق إلى درجة التحلي في نظرية ترسم الحدود وتحدد المعايير على اعتبار أن الحجاج بعيد عن فضاء الشعرية. لكن هناك محاولات أرادت أن تذيب الجدار الجليدي الذي وضع بين الشعر والحجاج نذكر من أهمها محاولة "حازم القرطاجني". غير أنها لم يكتب لها أن ترتقي بسبب ما أصاب البلاغة العربية من ركود عام بعد هذه المحاولة وغيرها من المحاولات.

- إن توظيف الحجاج في الدائرة الثقافية العربية القديمة، شمل جميع أنواع الخطابات "الخطابة، المناظرة، الشعر، الترسل، المواعظ...". وتم إقحامه في جميع الحقول المعرفية "السياسية، الفقه، النقد، الإعجاز، الجدل الكلامي،..." يدل على أسبقية البلاغة العربية القديمة في الرؤية العامة للبلاغة من خلال الخطاب الحجاجي.

- حاولت البلاغة العربية المعاصرة تجديد وسائلها وتحديث تقنياتها فوجدت ضالتها في بلاغة "بيرلمان" التي تمنحها القدرة غير المتناهية في التجدد ومواكبة تطورات الخطابية التي فرضتها مستجدات العصر خاصة الخطاب المكتوب الذي أضحي أمرا لا بد منه، كما أن بلاغة الحجاج بلاغة

تفي بتطلعات الإنسان المعاصر عامة، لا تعترف بالحدود مهما كانت ثقافية أو عقائدية أو عرقية، المهم هو اكتساب الآليات الحجاجية الإجرائية ومعرفة كيفية وشروط توظيفها.

- البلاغة العربية المعاصرة أعطت أولوية بالغة لبلاغة "بيرلمان" سواء من حيث القراءة أو من حيث الدراسة والتحليل أو من حيث تطبيق آلياتها، على اعتبار أنها أصل كل تفرعات البلاغة الجديدة، ولا يمكن فهم أي بلاغة جديدة إلاّ تحت إطار مفاهيم بلاغة "بيرلمان"، وهذا المنطلق شكل مبدأ أساسياً تحتذيهِ البلاغة العربية المعاصرة، يتمظهر هذا المبدأ في جميع المنجزات البلاغية المعاصرة تقريباً.

- تصدت البلاغة العربية المعاصرة لعدة تحديات حين التقت ومارست واقتضت من البلاغة الحجاجية الغربية أولهما إشكالية اضطراب المصطلح الحجاجي البلاغي حيث تعسر على الباحثين عملية الضبط والتوطين، أما الآخر مسألة التراث البلاغي وكيفية التعامل مع الخصوصية العربية التي تميزه، كما لا يمكن التنصل منه لأنه يشكل زخم بلاغي معرفي هائل ممتد الأطراف متباين الرؤى يعد بمثابة دعامة قوية للبلاغة المعاصرة.

حاولنا إلى هنا أن نسلط الضوء قدر الإمكان على البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة، وهذا بتتبع الأصول المعرفية لنظرية الحجاج والوقوف على جهود "بيرلمان" في إحياء البلاغة وبعثها في صورة جديدة تتناسب ومعطيات عصر النهضة، وانطلاقاً من بلاغة "بيرلمان" ذهبنا إلى البحث عن الآليات الحجاجية ضمن البلاغة العربية القديمة، منقبين على المقاصد الحجاجية ودرجة الاعتناء بها، وكذا طريقة توظيف الآليات الحجاجية وكيفية اشتغالها، لتبين بعد استقراء المنجز البلاغي العربي المعاصر أنها لا تزال في إطار التكوين تتجاوزها من جهة معطيات تراثية ومن جهة أخرى عناصر البلاغة الغربية الجديدة، وإن كان ذلك يعسر عملية البحث إلاّ أنه يعطي للبلاغة العربية المعاصرة ميزة خاصة، تفتح أمامها آفاقاً رائدة وطموحة في البحث، قد تسفر على نتائج باهرة تنهض بالبلاغة العربية وتعيد لها دورها الحضاري الذي طالما شغلته خلال ماضيها العريق. إذا ما توفرت محاولات بحثية جادة تكمل مسيرة جهود مجموعة من الباحثين العرب الذين استطاعوا أن يرسموا معالم عامة للبلاغة العربية المعاصرة.

قائمة المصادر والمراجع

فهرس المصادر والمراجع

- 1- القرآن الكريم.
- 2- أحمد حسن الزيات، دفاع عن البلاغة، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 1967م.
- 3- د: أحمد مطلوب، معجم النقد العربي، دارا لشؤون الثقافية العامة، بغداد، ج1، (د،ط)، سنة 1989م.
- 4- الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تح: هولوت رويتر، دار النشر فراز شتايز بغيسبادن،، ط03، 1980م.
- 5- ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ت: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة — القاهرة، (د، ط، تا).
- 6- الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر يحيى، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحري، تح: أحمد صقر، دار المعارف، ط 04، سنة 2009م.
- 7- الآمدي، أبو علي بن محمد، الإحكام في أصول الأحكام، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، مجلد 3، 4، (د.ط) و(د.تا).
- 8- أحمد علي الدهان، الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني، "منهجا وتطبيقا" وزارة الثقافة، دمشق، ط2، سنة 2000م.
- 9- إدريس بن خويا "البحث الدلالي عند الأصوليين قراءة في مقصديه الخطاب الشرعي عند الشوكاني، مطبعة بن سالم، الأغواط، ط1، (د.تا).
- 10- إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحدنين، تونس، (د،ط)، (د،س)،
- 11- أرسطو، الخطابة، الترجمة العربية القديمة، وكالة المطبوعات، دار القلم الكويت، بيروت، لبنان، سنة 1979م.
- 12- أرسطو، الخطابة، ت: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، المغرب، (د:ط، ت).

قائمة المصادر والمراجع

- 13- أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، المدارس شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، سنة 2011م.
- 14- أفلاطون، محاورات ثياتيتوس وفاسدروس أو عن العلم و الجمال، ت: أميرة حلمي، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة مصر، ط1، سنة 2014م.
- 15- أنتوني جوليت، تاريخ الفلسفة من العصر اليوناني إلى عصر النهضة، ت: محمد طلبة نصار، هنداوي، مصر، ط1، سنة 2015 م.
- 16- أبو إسحاق إبراهيم الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، المكتبة العصرية صيدا بيروت، ج1، ط1، سنة 2001 م.
- 17- إميل بديع يعقوب، مشيل عاصي، المعجم المفصل في اللغة والأدب، دار الملايين، بيروت، ط01، سنة 1987م.
- 18- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ت: خليل أحمد خليل، ج1، منشورات عويدات، لبنان، باريس، ط2، سنة 2001 م.
- 19- الأزهري أبي منصور محمد بن أحمد تهذيب اللغة، تح: عبد الحلیم النجار، دار للتأليف والترجمة، ج3، (د، ط، تا) ..
- 20- ابن أبي الإصبع العدواني، عبد العظيم بن الواحد بن ظافر البغدادي، تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر، تح: الدكتور حفي محمد شرف لجنة إحياء التراث الإسلامي، الجمهورية العربية المتحدة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، (د، ط، تا).
- 21- ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة — القاهرة، (د، ط، تا).
- 22- بول ريكور، الاستعارة الحية، ت: د: محمد الوالي، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1، سنة 2016م.

- 23- باتريك شارودو، ت: أحمد الوردني الحجاج بين النظرية والأسلوب الكتاب الجديد، ط1، سنة 2009م.
- 24- د: بدوي طبانة، "البيان العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط3، سنة 1962م.
- 25- بروتون جيل جوتييه، تاريخ نظريات الحجاج، ت: محمد ناجي صالح الغامدي، مركز النشر العلمي، جدة، السعودية، ط1، سنة 2011م.
- 26- أبو البقاء الحسيني الكفوي، الكليات، طبعة خاصة، دار عالم الكتب، الرياض، سنة 2003م.
- 27- أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، ط1، سنة 2006م.
- 28- د: البشير العيسوي، الترجمة إلى العربية قضايا وآراء، دار الفكر العربي، مدينة نصر، مصر، ط1، سنة 1997م.
- 29- برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية الفلسفة القديمة، ت: زكي محمود نجيب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (د، ط)، 2010م.
- 30- التهانوي، كشاف إصلاح الفنون والعلوم، مكتبة لبنان الناشر ج1، ط1، سنة 1999م.
- 31- الجاحظ، عمرو بن بحر أبو عثمان، البيان والتبيين، تح عبد السلام محمد هارون، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ج3، (د، ط)، سنة 1423هـ.
- 32- الجاحظ، أبو عثمان بن بحر، الحيوان، تح عبد السلام محمد هارون، ج1، ط2، سنة 1965م.
- 33- جورج طرايشي، نظرية العقل نقد العقل العربي، دار الساقى، ط3، سنة 2008م.
- 34- د: جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، دار غريب، القاهرة، (د، ط)، سنة 2000م.
- 35- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ج1، (د، ط)، سنة 1982م.
- 36- جمعان بن عبد الكريم، إشكالات النص دراسة لسانية نصية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، سنة 2009م.

- 37- جميل حمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، إفريقيا الشرق، (د،ط)، سنة 2014م
- 38- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ت: محمد الحبيب ابن خوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3، (د، تا).
- 39- حسان الباهي، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، إفريقيا الشرق، المغرب، ط2، سنة 2013م.
- 40- حسان الباهي، اللغة والمنطق، بحث في المفارقات، المركز الثقافي العربي، دار الأمان للنشر، ط01، 2000م.
- 41- حسان تمام، الأصول الإستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، عالم الكتب، القاهرة، (د.ط)، 2009م.
- 42- حسن الصديق، المناظرة في الأدب العربي الإسلامي، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر لتجمان، القاهرة، (د.ط)، سنة 2000م.
- 43- حسن مخافي، المفهوم والمنهج، في القراءات العربية المعاصرة للتراث النقدي، إفريقيا الشرق، المغرب، (د، ط)، سنة 2016م .
- 44- حسن محمود الشافعي المدخل إلى دراسة علم الكلام، إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، كراتشي بكستان، ط2، سنة 2001م.
- 45- د: الحسين بنو هاشم، نظريات الحجاج عند شاييم بيرلمان، ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت، لبنان، ط1، 2014م.
- 46- د: الحسين بنو هاشم، بلاغة الحجاج الأصول اليونانية، الكتاب الجديد، ط1، مارس 2014م.
- 47- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية، (د.ط)، سنة 1981م.
- 48- حمادي صمود، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس، كلية الآداب، منوبة، (د.ط.تا).

- 49- حنبكة الميداني، ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، دار القلم، دمشق، ط4، سنة1993م.
- 50- أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، ج1، ط1، سنة2003م.
- 51- د: حافظ إسماعيلي علوي، الحجاج مفهومه، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ج1، ج2، ج3، ج4، (د،ط)، سنة 2010م.
- 52- د: الحسين بواجلابن : تفاعل العلوم الأصيلة والدخيلة في مشروع البلاغة العامة للدكتور محمد العمري، ضمن البلاغة العامة: حوار المركز والمحيط، سلسلة الترجمة والمعرفة، العدد 5، عالم الكتب الحديث، ط1، سنة 2017م.
- 53- ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، سنة2002م.
- 54- الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين تح: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي دار ومكتبة الهلال، ج1، (د، ط،تا).
- 55- د: خالد حربي، الفكر الفلسفي اليوناني وأثره في الفكر الإسلامي، المكتب الجامعي الحديث الإسكندرية، (د،ط)، س 2010م.
- 56- ابن رشد، تلخيص الخطابة، تح: عبد الرحمن بدوي، دار العلم، بيروت، (د،ط،تا)،
- 57- رشيد سوسان، آليات وضع المصطلحات وتوليدها لدى الدكتور محمد مفتاح، مكتبة الطالب، وجدة، ط1، سنة 2015م.
- 58- روبير بلانشي، الاستقراء العلمي والقواعد الطبيعية، ت: محمود اليعقوبي، دار الكتاب الحديث، (د.ط)، 2003م.
- 59- روبير بلانشي، المنطق وتاريخية من أرسطو حتى راسل، تح: خليل أحمد خليل، مطبوعات الجامعة، الجزائر، المؤسسة الجامعية للدراسات والتوزيع، لبنان، (د.ط)و(د.تا).

قائمة المصادر والمراجع

- 60- روبر بلانشي، العقل والخطاب دفاع عن المنطق الفكري، ت: أ،د: محمود يعقوبي، دار الكتاب الحديث، القاهرة، (د،ط)، سنة 2009م.
- 61- رولان بارث، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ت: عمر أركون، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة ط1، سنة 2011م.
- 62- رشيد الراضي، المظاهر اللغوية للحجاج، مدخل إلى الحجاجية اللسانية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، سنة 2014م.
- 63- رشيد برقان، كيف قرأ البلاغيون العرب المعاصرون التراث البلاغي؟ نظرات في تأريخ الدكتور محمد العمري للبلاغة العربية، ضمن سلسلة البلاغة العامة: حوار المركز والمحيط دراسات في أعمال الدكتور محمد العمري.
- 64- ابن رشيق، أبو علي الحسن القيرواني الأزدي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ج1، ط5، سنة 1981 م.
- 65- زينب عفيفي، فلسفة اللغة عند الفارابي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة،(د.ط)، سنة 1997م.
- 66- الزركشي أبو عبد الله بدر الدين، البرهان في علوم القرآن ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ج2، ط1، سنة 1957م .
- 67- محمد بازي، نظرية التأويل التقابلي، دار الأمان، الرباط، ط1، سنة 2013م.
- 68- محمد أبو زهرة، الخطابة أصولها وتاريخها في أزهر عصورها عند العرب، مطبعة العلوم بشارع الخليج، ط1، سنة 1934م.
- 69- سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني بنيتة وأساليبه عالم الكتب الحديث، جدارا للكتاب العالمي، ج1، ط1، سنة 2002م.
- 70- السكاكي، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي ، مفتاح العلوم، ت: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، سنة 1987م.

- 71- د : عليوي أباسيدي، الحجاج والتفكير النقدي، دار النشر المعرفة، الرباط المغرب، (د،ط)، سنة 2014م.
- 72- سمير أبو حمدان، الإبلاغية في البلاغة العربية، منشورات عويدات الدولية، بيروت، باريس، ط1، سنة 1991م.
- 73- د: سمير سعيد الحجازي، النظرية الأدبية ومصطلحاتها الحديثة، دار طيبة للنشر والتوزيع والتجهيزات العلمية، القاهرة، (د،ط)، سنة 2004م.
- 74- ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، بمطبعة بريل، لندن، (د.ط)، سنة 1913، ضمن طبقات الشعراء إعداد لجنة علمية، دار البهجة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، (د،ط،تا).
- 75- شكري المبخوت، الاستدلال البلاغي، دار المعرفة للنشر، كلية الآداب والفنون الإنسانية بجامعة منوبة، تونس، ط1، سنة 2006م.
- 76- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، ط9، (د.تا).
- 77- الشهيد مرتضى المطهري، المنطق، دار الولاية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، تح: الشيخ حسين، ط02، سنة 1432هـ.
- 78- د: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، دار الكتاب المصري القاهرة، دار الكتاب اللبناني بيروت، ط1، سنة 2004م.
- 79- د: صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط2، سنة 2013م.
- 80- صاحب اسماعيل بن عباد، المحيط في اللغة، تح: الشيخ محمد الحسن آل ياسين، مطبعة المعارف، بغداد، ج3، ط1، 1981م.
- 81- طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، ط2، (د،تا).
- 82- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الرباط، المغرب، ط2، سنة 2002م.

قائمة المصادر والمراجع

- 83- طه عبد الرحمن، التكوثر العقلي، اللسان والميزان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، سنة 1998م.
- 84- القزويني جلال الدين ، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، الايضاح في علوم البلاغة، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ج3، ط3، (د،تا).
- 85- فان دايك، علم النص، ت: د: سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، ط1، سنة 2001م .
- 86- فرانز فان إيمرن، روب غروتندورست، نظرية نسقية في الحجاج، المقاربة الذريعية- الجدلية، ت: عبد المجيد جحفة، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، سنة 2016م.
- 87- ابن فارس أحمد بن زكرياء القزويني، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ج2، (د،ط)، سنة 1979م.
- 88- الفيروز الأبادي، القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج1، ط3، 1301هـ.
- 89- فرنير روير، الأدب اليوناني، ت: هنري زغيب، منشورات العويدات، بيروت باريس، ط:1، سنة 1983م.
- 90- فيليب بروتون، جيل جوتيه، تاريخ نظريات الحجاج، ت: محمد ناجي صالح الغامدي، مركز النشر العلمي، جدة، السعودية، ط1، 2011م.
- 91- عباس أرحيلة، الأثر الأرسطي في البلاغة والنقد العربيين، المملكة المغربية، جامعة محمد الخامس منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، (د.ط) سنة 1999م.
- 92- أبو عبيدة التميمي، مجاز القرآن، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ج1، (د.ط.تا).
- 93- د: عادل مصطفى، المغالطات المنطقية، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، سنة 2013م.
- 94- علي حرب، نقد النص (النص والحقيقة)، المركز الثقافي العربي، ط2، سنة 1995م.
- 95- علي سلوم، بلاغة العرب، نشأتها تطورها، علومها دار المواسم للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، سنة 2004م.

قائمة المصادر والمراجع

- 96- علي مهدي زيتون، "إعجاز القرآن وأثرها في تطوير النقد الأدبي"، دار المشرق، ط1، سنة 1992م.
- 97- د: علي شعبان، الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، بحث في الأشكال والاستراتيجيات، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، سنة 2010م .
- 98- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح: أبو الفهر محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، ط01، سنة 1991م.
- 99- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، مطبعة المدني المؤسسة السعودية، تح: أبو فهر محمود محمد، شاكر، مصر، ط3، سنة 1992م.
- 100- د: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، منشورات ضفاف ، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، سنة 2013م.
- 101- د: عقيل حسين عقيل ، منطق الحوار بين الأنا والآخر، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت لبنان، ط1، سنة 2003م،
- 102- د: عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، أفريقيا الشرق، المغرب، ط2، سنة 2012م.
- 103- العسكري، أبو هلال حسن بن عبد الله، الصناعتين، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية، بيروت، (د، ط)، سنة 1419م .
- 104- عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم من أهم خصائص:ه الأسلوبية ضمن المقدمة، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، سنة 2001م.
- 105- عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر والتوزيع، ط1، سنة 2011م.
- 106- عبد الرحمن بدوي، ربيع الفكر اليوناني، مكتبة النهضة المصرية، ط1، (د، تا).

قائمة المصادر والمراجع

- 107- عبد الفتاح محمد العيساوي، عبد الرحمن محمد العيساوي، مناهج البحث العلمي في الفكر الإسلامي والفكر الحديث، دار الراتب الجامعية، (د.ط)، سنة 1996م .
- 108- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، الكتاب الجديد، ط01، سنة 2004م.
- 109- د: عبد الحكيم راضي، من آفاق الفكر البلاغي عند العرب، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، سنة 2006م.
- 110- العروي عبد الله، مفهوم العقل، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، ط3، سنة 2001 م.
- 111- د: عمارة ناصر، الهرمينوطيقا والحجاج، مقارنة لتأويلية بول ريكو، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، سنة 2014م.
- 112- د: عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة" مقارنة حجاجية للخطاب الفلسفي"،الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت لبنان منشورات الاختلاف الجزائر، ط1، سنة 2009م.
- 113- د: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، منشورات ضفاف، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، سنة 2013م.
- 114- د: عادل مصطفى، المغالطات المنطقية، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، سنة 2013م.
- 115- قصي الحسن، النقد الأدبي ومدارسه عند العرب، دار ومكتبة الهلال، بيروت، (د.ط)، 2008م.
- 116- القاضي الجرجاني، الوساطة بين المتبني وخصومه، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1، سنة 2006م.
- 117- ابن المعتز عبد الله، البديع، دار المسيرة، بيروت، ط03، (د.تا).
- 81- محمد صايل حمدان عبد المعطي نمر موسى، معاذ السرطاوي، قضايا النقد القديم، دار الأمل للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، سنة 1990م.

- 82- محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب، القاهرة، ط1، سنة 2005م.
- 83- محمد زغلول سلام، تاريخ النقد الأدبي والبلاغي حتى القرن الرابع، منشأة المعارف الإسكندرية(د.ط،تا).
- 84- محمد النويري، علم الكلام والنظرية البلاغية، دار محمد علي الحامي للنشر والتوزيع، سفاقس تونس، ط1، سنة 2001م.
- 85- محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، إفريقيا الشرق، ط2، (د.تا).
- 86- محمد العمري، البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق المغرب، (د.ط)، سنة 1992م.
- 87- د: محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، إفريقيا الشرق، المغرب، ط2، سنة 2012م.
- 88- د: محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة ، إفريقيا الشرق، المغرب، (د،ط)، 2013م
- 89- د: محمد العمري، دائرة الحوار ومزالق العنف، إفريقيا الشرق، (د،ط)، 2002م.
- 90- محمد أركون، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، مركز الإنماء القومي لرمز الثقافي العربي، ت: هائم صالح، ط2، سنة 1996م.
- 91- محمد أركون، الفكر العربي، ت: عادل العوّ، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط3، سنة 1985م.
- 92- محمد أركون، اللغة والخطاب، إفريقيا الشرق، المغرب، (د،ط)، سنة 2001م.
- 93- أ، د: محمد بن علي الصامل، قضايا المصطلح البلاغي، كثرته تعدده اشتراكه صياغته، كنوز اشبيليا، رياض، ط1، سنة 2007م.

قائمة المصادر والمراجع

- 94- محمود جديدي ، الفلسفة الإغريقية، منشورات الاختلاف ، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر العاصمة الجزائر، بيروت لبنان، ط1، سنة 2009م.
- 95- محمد طروس، النظرية الحجاجية من خلال الدراسة البلاغية المنطقية واللسانية، دار الثقافة، دار البيضاء، ط1، سنة 2005م.
- 96- محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط6، سنة 2000م.
- 97- محمد يوسف موسى، الرسالة للإمام الشافعي الهيئة المصرية العامة للكتاب مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، سنة 1995م.
- 98- محمد الشطوطي، النظرية المنطقية عند الشيخ الرئيس، ابن سينا، دار صقيلية، دار قرطبة، ط1، سنة 2007م.
- 99- محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، سنة 2008م.
- 100- د: محمد صقر خفاجة، الأدب اليوناني، مكتبة النهضة، المصرية، (د،ط)، سنة 1956م.
- 101- محمد سبيلا، وعبد السلام بن عبد العالي، الحقيقة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط2، سنة 2005م.
- 102- المبرد أبو العباس، الكامل في اللغة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ج3، ط3، سنة 1997م.
- 103- د: محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، نحو مقارنة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، كنوز المعرفة، ط1، سنة 2017م.
- 104- محمد مشبال، البلاغة والخطاب، منشورات الاختلاف، منشورات الضفاف، دار الأمان الرباط، ط1، سنة 2014م.
- 105- د: محمد مشبال، الحجاج والتأويل، في النص السردي عند الجاحظ، المقدمة، دار محمد الحامي، ط1، سنة 2015م

قائمة المصادر والمراجع

- 106- محمود سعد مباحث البيان عند الأصوليين والبلاغيين، منشأة المعارف بالإسكندرية، (د،ط،تا).
- 107- محمد شوقي الزين، تأويلات وتفكيكات فصول في الفكر العربي المعاصر، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء المغرب، ط: 1، سنة 2002م.
- 108- د: محمد عبد منعم خفاجي، د:عبد العزيز شرف، البلاغة العربية بين التقليد والتجديد، دار الجليل بيروت، ط1، سنة 1992م.
- 109- مصطفى ناصف، نظرية المعنى في النقد العربي، دار الأندلس، بيروت، لبنان، (د.ط)و(د.تا).
- 110- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة ، ط جديدة، (د.تا).
- 111- نصر حامد أبو زيد إشكاليات القراءة وآليات التأويل المركز الثقافي العربي، دار البيضاء المغرب، ط5، سنة 2005م.
- 112- نصر حامد أبو زيد،الاتجاه العقلي في التفسير، دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة،المركز الثقافي العربي ،الدار البيضاء،المغرب ،ط6،سنة2007م.
- 113- أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل، كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، مطبعة محمود بك، ط1، سنة 1320هـ.
- 114- الكسندرا غيتاتوفا، علم المنطق، تح: التعديلات، دار التقدم الاتحاد السوفياتي، (د.ط)، سنة 1999م.
- 115- كريستيان بلانتان، الحجاج، ت:عبد القادر المهري، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس،(د،ط)، سنة 2008م.
- 116- د: كلود يونان، التضليل الكلامي وآليات السيطرة على الرأي، دار النهضة العربية، ط1، سنة 2011م.
- 117- الكاتب البلخي الخوارزمي، مفاتيح العلوم، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، (د،ط،تا).

قائمة المصادر والمراجع

- 118- وولتر ستيسن، تاريخ الفلسفة اليونانية، ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، (د،ط)، سنة 1984م،
- 119- ابن وهب، أبو حسن إسحاق بن إبراهيم، البرهان في وجوه البيان، تح: د حنفي محمد شرف، مطبعة الرسالة، القاهرة، (د.ط)، سنة 1969م.
- 120- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة مصر، (د،ط)، سنة 2012م.
- 121- د: يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، سنة 2008م.
- د: حافظ إسماعيلي علوي، الحجاج مفهومه ومجالاته، ابن نديم للنشر والتوزيع، الجزائر، دار الروافد الثقافية ناشرون، لبنان، ط1، س 2013م، ج1، ج3، ج4
- د: حافظ إسماعيلي علوي، الحجاج مفهومه ومجالاته، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، سنة 2010م، ج2.
- المجلات:**
- 1- أحبيب أعراب: الحجاج والاستدلال الحجاجي "ضمن مجلة عالم الفكر، العدد 1، المجلد 3، يونيو، سبتمبر 2001م.
- 2- مجلة الشبكة التربوية الشاملة، "دروس الحجاج وما يعاضدها هذا النص: الفلسفي بعلم أبو الزهراء، سنة 2008م.
- 3- د: الحسن بواجلابن، تفاعل العلوم الأصيلة والدخيلة في مشروع البلاغة العامة للدكتور محمد العمري، ضمن البلاغة العامة حوار المركز دراسات في أعمال الدكتور محمد العمري، سلسلة الترجمة والمعرفة العدد 5، عالم الكتاب الحديث، ط1، 2017م.
- 4- محمد الوالي، مدخل إلى الحجاج أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان، عالم الفكر، المجلد 40، الكويت، سنة 2011م.

قائمة المصادر والمراجع

المراجع الأجنبية:

- 1-Chaïm Perelman et Lucie Olberechts-Tyteca , Traite deL'argumentation La nouvelle Rhetorique , edition de l'université de Bruxélls,Beljique, 5em edition,2000 .
- 2-Olivier Reboul, Introduction à la rhétorique, théorie et pratique, édition Quadrige, France, 1re édition,1991.
- 3-Jean-Jacques robirieux, Rhétoriques et argumentation, Armand colin 3édition, -L'arousse 2016,France.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

أ مقدمة

المدخل: الجذور اليونانية للبلاغة الجديدة

02 1-البلاغة في الفكر اليوناني القديم

02 1-1-ظروف النشأة والمبررات

03 1-2-نشأة الخطابة في أحضان القضاء

06 1-3-بلاغة الخطاب عند السوفطائيين

13 2-تطور الفكر البلاغي عند اليونان

13 1-2-التصور الأخلاقي لبلاغة الخطاب الحجاجي

18 2-2-مرحلة تأسيس بلاغة الخطاب عند اليونان

19 1-2-2-مفهوم الخطابة عند أرسطو

23 2-2-2-عناصر بناء الخطابة الأرسطية:

30 2-2-3-الحجاج الخطابي والحجاج الجدلي

31 3-مرحلة تدهور وانحطاط البلاغة

الفصل الأول: البلاغة الجديدة عند "بيرلمان" المفهوم، والبناء"

35 البلاغة الجديدة:

35 1-ظروف انبعاث البلاغة من جديد:

42 2-مفهوم البلاغة الجديدة

43 1-2-علاقة الحجاج بالبلاغة الجديدة:

46 3-بلاغة "شايم برلمان":(chaime Perlman):

48 1-3-مفهوم الحجاج عند "بيرلمان":

- 3-2- منطلقات البلاغة الجديدة عند "بيرلمان": 50
- 3-3- التصورات الجديدة لبلاغة "بيرلمان": 52
- 3-4- مقاصد البلاغة الجديدة: 56
- 4-4- مقومات الحجاج: 63
- 4-4-1_ بنية ومكونات الحجاج عند بيرلمان: 72
- 4-2- تقنيات الحجاج
4-3- طرائق تقنيات الحجاج
4-3-1- الحجج القائمة على الوصل أو الاتصالية
4-3-2- الحجج القائمة على العدل والتبادل
4-3-3- حجج مؤسسة على بنية الواقع

4-3-4- حجج مؤسسة لبنية الواقع

4-3-5- حجج الفصل والوصل

104 خاتمة الفصل الأول:

الفصل الثاني: حضور آليات الحجاج في التراث البلاغي العربي

1-1- قراءة عامة للبلاغة العربية القديمة: 106

1-1-1- الخلفية الحجاجية لتأسيس علوم البلاغة العربية القديمة: 106

1-2-1- علماء الأصول والتأصيل للفكر الحجاجي

1-3-1- أثر الفكر الفلسفي في انتشار الخطاب الحجاجي

2-2- المصطلح الحجاجي في التراث البلاغي العربي بين الضبط والاضطراب: 117

2-1-1- عوامل اضطراب المصطلح الحجاجي: 117

- 2-2- مفهوم المصطلح الحجاجي في الفكر العربي القديم: 119
- 2-3- المفهوم الاصطلاحي للحجاج في الموروث البلاغي العربي:
2-3-1 مفهوم الخطاب في البلاغة العربية القديمة:
- 2-3-2- تقارب مفهوم فن الخطابة العربية من مفهوم الخطابة اليونانية "الريطوريقى": 126
- 2-3-3- تشابه أطر اشتغال البلاغة العربية مع البلاغة الجديدة: 127
- 3- الإقناع من أساسيات البناء الفكري للبلاغة العربية: 129
- 3-1- مفهوم الإقناع في الخطاب البلاغي العربي: 129
- 3-2- الدور الإقناعي للبيان: 130
- 4- أطراف العملية الحجاجية في التفكير البلاغي العربي: 136
- 4-1- المخاطب، المتكلم "المحاجج"
- 4-2- المخاطب، المتلقي "المستمع"
- 4-3- الخطاب الحجاجي
- 5- آلية الاستدلال في الخطاب البلاغي العربي: 142
- 5-1- المفهوم الإجرائي لآلية الاستدلال عند الجاحظ: 144
- 5-2- فاعلية آلية الاستدلال في مشروع ابن وهب البياني: 146
- 6- عناصر تشكيل الخطاب البلاغي وأثرها في تحقيق الإقناع 149
- 6-1 ثنائية اللفظ والمعنى
.....
- 6-2- التأويل والحجاج
.....
- 6-3- الحجاج بين الحقيقة والمجاز
.....
- 6-4- أنواع الدلالة وأثرها الحجاجي : 167
- 6-5- الإقناع والتخييل بين "الصدق والكذب"
.....
- 6-6- الفصل والوصل الحجاجي
.....

خاتمة الفصل الثاني: 178

الفصل الثالث: موقع البلاغة العربية المعاصرة من البلاغة الجديدة

واقع المشهد البلاغي العربي المعاصر: 180

تيارات البلاغة العربية المعاصرة: 182

1- تلقي البلاغة العربية المعاصرة للبلاغة الجديدة

1-1- ترجمة منجز البلاغة الجديدة:

1-1-1- المصطلح الحجاجي بين الضبط والاضطراب

1-1-2- أسباب الاضطراب الاصطلاحي الحجاجي

1-1-3- تحديات صناعة المصطلح البلاغي الجديد

1-1-4- نماذج من المصطلحات الحجاجية التي تعاني الاضطراب

1-2- نماذج من ترجمة المنجز البلاغي الغربي الجديد

1-3- قراءة وتحليل المنجز الغربي في البلاغة الجديدة

2- اقتراض الآليات والممارسة الإجرائية: 219

2-1- المراس على الخطاب العربي: 220

3- البلاغة العربية المعاصرة بين المزاوجة والتجديد

3-1- نمو الوعي الحجاجي لدى البلاغيين العرب

3-2- نحو بلاغة عربية حجاجية معاصرة

3-2-1- رؤية جديدة في تأريخ البلاغة العربية

3-2-2- رؤية جديدة في التنظير البلاغي العربي

4- من آفاق الفكر البلاغي العربي المعاصر

خاتمة الفصل الثالث

خاتمة

262المصادر والمراجع

فهرس الموضوعات

ملخص:

تتناول هذه الرسالة الموسومة بـ "حضور البلاغة الجديدة في البلاغة العربية قراءة مقارنة بين الآليات والإجراء" دراسة حضور الآليات الحجاجية في البلاغة العربية على ضوء البلاغة الجديدة، وهذا يتبع الأصول المعرفية لنظرية الحجاج والوقوف على جهود "بيرلمان" في إحياء البلاغة وبعثها في صورة جديدة تتناسب ومعطيات عصر النهضة، وانطلاقاً من بلاغة "بيرلمان" تم البحث عن الآليات الحجاجية ضمن البلاغة العربية القديمة، بالتنقيب على المقاصد الحجاجية ودرجة الاعتناء بها، وكذا طريقة توظيف الآليات الحجاجية وكيفية اشتغالها، ليتبين بعد استقراء المنجز البلاغي العربي المعاصر أنها لا تزال في إطار التكوين تتجاوزها من جهة معطيات تراثية ومن جهة أخرى عناصر البلاغة الغربية الجديدة، وإن كان ذلك يعسر عملية البحث إلا أنه يعطي للبلاغة العربية المعاصرة ميزة خاصة، تفتح أمامها آفاقاً رائدة وطموحة في البحث، قد تسفر على نتائج باهرة تنهض بالبلاغة العربية وتعيد لها دورها الحضاري الذي طالما شغلته خلال ماضيها العريق.

Résumé:

Cette thèse, intitulée "La présence de nouvelles rhétoriques dans la rhétorique arabe, une lecture comparée des mécanismes et de la procédure", examine la présence des mécanismes argumentative dans la rhétorique arabe à la lumière de la nouvelle rhétorique . Elle reprend les atouts de la théorie des arguments sur la théorie et reposerons sur les efforts de Perleman pour faire revivre la théorie. Et les données de la Renaissance, et basées sur la rhétorique de "Perleman", ont recherché les mécanismes de l'argumentation dans la rhétorique arabe ancienne, en recherchant les buts de l' argumentation et poursuivre son parcours, ainsi que la méthode d'utilisation des mécanismes de l'argumentation et leur fonctionnement, La rhétorique arabe contemporaine présente un avantage particulier, qui ouvre des horizons de recherche ambitieux, qui peuvent produire des résultats remarquables qui renforcent le ton de la rhétorique arabe et de restaurer le rôle de la civilisation, qui a longtemps occupé pendant son passé antique .